

# البؤساء

رَبَّيْ

الرَّوَايَةُ كَامِلَةٌ  
فِي خَمْسَةِ مَجَلَّدَاتٍ



# البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم  
فيكتور هيغو

١

نقله إلى العربية  
مُنِير العَبَّاسِي

دار العلم للملايين

بيروت

البُؤْسَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩



## مَقْدِمَةٌ

إذا كانت «البؤساء» قد حظيت حين نشرها ، ولا تزال تحظى الى اليوم ، في فرنسة والديار الأوروبية والأميركية ، بمكانة أدبية تكاد لا تدانيها عند جمهور القراء أيما مكانة لأيما رائعة من الروائع الانسانية الخالدة ، فليس من شك في انها 'تعتبر أعظم الحوادث الكلاسيكية الغربية شهرة' في العالم العربي ايضاً ، لا استثنى من ذلك حتى مسرحيات شكسبير نفسها . وآية هذا ان من النادر ان تجد انساناً في العرب اليوم لم يسمع باسم «البؤساء» لفكتور هيجو أو لم يقرأ عنها ، أو يطالع مختصراً من مختصراتها الكثيرة التي صدرت بالعربية في عشرات الطبعات ، أو لم يشاهدها على الشاشة البيضاء . فمنذ ان اصدر شاعر مصر البائس ، حافظ ابراهيم ، بضعة فصول من الرواية في جزئين صغيرين لا يبلغان عشر الاصل ، أو اقل من ذلك قليلاً ، وشخصية «جان فالجان» الخالدة حية في مخيلة الناشئة العربية جيلاً بعد جيل ، فهي تحبها وتأسى لها وتكبر فيها خيرية الانسان القاهرة شرور المجتمع كلها ، الخارجة من اتون تلك الشرور وهي اصفى جوهرأ ، وخير صقلاً . ومن هنا كان في ميسورتنا ان نقول ان «البؤساء» خالطت الوجدان العربي ، وعملت على إبقاؤه 'مسهبة' في خلق الوعي الاجتماعي

الجديد الذي ننعم به اليوم في ارض العرب من اقصاها الى اقصاها .  
ومن أسفٍ ان يكون اطلاع الاجيال العربية على « البؤساء » منذ  
عهد حافظ ابراهيم حتى هذه الساعة ، اطلاعاً منقوصاً مشوهاً لم يَسْلَمْ  
معه من تلك اللعنة الانسانية الراسخة رسوخ الاطواد غير هيكلها  
المجرّد ، واحداثها العاطفية المثيرة . اما التحليل النفسي ، واما التعبير  
الشعري الذي يغلف كل صفحة من صفحات الكتاب ، واما التصوير  
الفني البارِع الذي اشتهر به هيجو ، واما اللوحات التاريخية التي انتشرت  
في حنايا الاثر ، فقد ' كَتَبَ ' على ذلك كله أن يَسْحَقَ وَيُزَاحَ من  
الطريق لكي يكون في الامكان صَفْطُ ألفين وخمسة صفحة من القطع  
الكبير في ثلاثئة او اربعئة صفحة صغيرة ليس غير ! ذلك لأن اياً من  
الاقلام العربية لم يجرؤ - برغم نشاط حركة الترجمة نشاطاً متعاضماً -  
على ان ينقل الى العربية هذا الاثر الادبي الخالد نقلاً كاملاً لا حذف فيه  
ولا تشويه ، وذلك لأن اياً من النashرين العرب لم يجرؤ - برغم نشاط  
حركة النشر نشاطاً متعاضماً ايضاً - على التفكير في عمل كهذا وإخراجه  
للناس . لكَأَنَّهُ قدَر على القاريء العربي ان ينتظر الذكرى السبعينية \*  
لوفاء شاعر فرنسة العظيم حتى يَنْعَمَ لأول مرة بقراءة « البؤساء » كاملة  
غير منقوصة .

وأياً ما كان فقد تطورت منذ عهد هيجو مقاييس الفن الروائي  
واختلفت مفاهيمه ومذاهبه ، ولكن تطوّر المقاييس واختلاف المفاهيم  
وحدهما لا يَصْلُحَان ذريعةً لأغفال الحوالم الادبية وتجاوزها الى النماذج  
الحديثة دون غيرها ، لأن الاثر الادبي الممتاز يَسْرُد على هذه القواعد  
ويزري بها لما يَضِجُ به من حياة باقية على الدهر ، ومن قيمة ذاتية هي  
فوق القوالب والاساليب . وهل غَضَّ تطوّر المفاهيم الفنية والمقاييس

\* تصادف هذا العام ذكرى اعضاء سبعين سنة على وفاة هيجو ( ٢٢ نوار ١٨٨٥ ) .  
ومن محاسن المصادفات ان يصدر الجزء الاول من هذه الترجمة في يوم الذكرى بالذات ايضاً .

النقدية من ادب المعري ، وديكنز ، وبلزاك ، وتولستوي ، ومكسيم غوركي ، وذهبَ بجدته ؟ إن الآثار الادبية الانسانية كالأثار المعمارية والفنية لا تزاد مع الايام الا 'حرمة' ونفاة" بل واشراقاً في بعض الاحيان . وانما يتأكد هذا المعنى اكثر حين تكون القضايا التي يعالجها الاثر الخالد مطروحة" ، ما يزال ، في بلادنا ، سواء على الصعيد النظري او على الصعيد العملي ، او على الصعيدين النظري والعملي جميعاً . ومن هنا ندرك حاجتنا الماسة الى ترجمة صحيحة للبؤساء -- ولو بعد قرابة مئة سنة من نشرها -- بالاضافة الى انه لا يجوز ان نخلو المكتبة العربية وحدها بين مكتبات الامم الحية كلها من ترجمة كاملة للبؤساء ، بل لا يجوز ان نخلو من ايما اثر ادبي خالد من آثار الفكر الانساني لمجرد انه عتيق . وعلى أية حال فالبؤساء ابعد ما تكون عن العتق او الشيخوخة . ألم يقل هيجو في الاسطر القليلة التي قدم لها بها :

« ... ما دامت مشكلات الممر الثلاث - الخط - من قدر الرجل بالفر ، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتفريم الطفولة بالجل - « لما نخل" بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في « بعض البقاع ... ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ، « فان كتباً مثل هذا الكتاب لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .»

وبعد ، فمن الخير ان نقدم الى القراء الآن كلمة موجزة في حياة المؤلف وآثاره .



## حياته

ولد فيكتور هيجو في بيزانسون ، عاصمة الـ « فرانش كونتية » ، شرقي فرنسا ، في ٢٧ شباط سنة ١٨٠٢ من أب كان ضابطاً في جيش الامبراطورية ثم غدا جنرالاً . وانتقل هيجو الفتى مع أبيه الى ايطالية ،

وكورسيكا ، وجزيرة ألبا ، ثم الى اسبانية ( سنة ١٨١١ ) حيث قضى عاماً واحداً مع أخيه اوجين في كلية النبلاء بمدرسد . وفي عام ١٨١٢ رجع الى باريس حيث تلقى العلم على « أميه وعلى كاهن عجوز وحديقة » ، ثم التحق بمدرسة البوليتكنيك *Polytechnique* ، ولكن المهوم الأدبية شغلته في سن مبكرة ، فاشتترك في مسابقة نظمها الاكاديمية الفرنسية ، وهو بعد في الخامسة عشرة من العمر ، ففاز بجائزة شعرية لقصيدته « حسانات الدراسة » . وفي اواخر سنة ١٨١٩ أسس مع اخويه ، وبماعدة « سويه » و « فيني » صحيفه « المحافظ الادبي » *Conservateur littéraire* ، فلم تمش غير سنة ، وقد كتب هو فيها ٢٧٢ مقالة . وفي سنة ١٨٢٢ أجرى عليه لويس الثامن عشر راتباً بعد نشر ديوانه الاول الموسوم بـ « نشائد *Odes* » وفي هذه الفترة تزوج من آديل فوشيه فأنجبت له اربعة اولاد ، ثم توفيت سنة ١٨٦٨ .

وابتداء من عام ١٨٢٧ الذي صدرت فيه مسرحيته التاريخية « كرومويل *Cromwell* » بمقدمتها الشهيرة التي شئت فيها حرباً لا هودة فيها على المفاهيم المسرحية الكلاسيكية اعتير هيجو زعيم الحركة الرومانتيكية . وتعد هذه الفترة التي امتدت حتى عام ١٨٤٣ اخصب عهده بالانتاج الأدبي اذ وضع فيها مقطوعاته « الشرقيات *Les Orientales* » ومسرحية « هيرفاني *Hernani* » وقصة « نوتر دام دو باروي *Notre . Dame de Paris* » حتى اذا كان عام ١٨٤١ انتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية بعد أن أخفق في ذلك أربع مرات متعاقبات . وطوال العشر السنوات التي تلت انصرف هيجو الى النضال السياسي ، مجتهداً نفسه في خدمة الافكار الديمقراطية والجمهورية . وبعد ثورة ١٨٤٨ انتخب عضواً في الجمعية التأسيسية ، ثم في الجمعية التشريعية . وفي تلك الفترة شرع في كتابة روايته الكبرى « البؤساء » . حتى اذا تم انقلاب كانون الاول سنة ١٨٥١ ، وأطاح نابوليون الثالث بالجمهورية ليعلم في العام التالي

Qui lui est impossible, en toi, c'est la bonté !  
Tu n'en es pas capable moi ! cherche en toi-même !  
~~J'aimais la bonté et je n'ai jamais~~  
~~aimé, j'aimais pour ! et j'en ai aimé !~~  
Qu'en dis-tu ?

S. Sol.

Donc tu n'irais pas assez !  
~~Je t'ai dit de ne pas te laisser~~  
~~aller dans ce monde de souffrance, de douleur~~  
~~et de tristesse !~~  
Alors tu n'as rien plus ?

Hermann

Et ! me en es-tu ami,  
c'est moi ! l'aspect  
c'est toi ? à moi sans que je sois, et adieu !

S. Sol.

J. à Hermann. Une peur. Soudainement, j'en meurs !

Hermann.

H. ! pour qui ? pour moi ? S. pour toi qui te meurs  
sans le savoir ?

S. Sol. <sup>l'absence</sup>  
l'absence de la mort.

صفحة من مسرحية « هيرمان » لفيلكس هيجو بخط يده .



قيام الامبراطورية الثانية ، وقف فيكتور هيجو في صفوف المعارضة ، فنُفي الى بروكسل ، ومنها انتقل الى جيزري واخيراً الى غورنيبي وهما جزيرتان من الجزائر الانكليزية النورماندية \* وأكسب النفي عبقريته الشعرية روحاً وقوة جديدتين فمهر الادب في هذه الفترة باروع آثاره : « التأملات » ( ١٨٥٦ ) *Les Contemplations* ، والقسم الاول من « خوافة العصور » ( ١٨٥٩ ) *La Légende des Siècles* « والبؤساء » ( ١٨٦٢ ) *Les Misérables* وفي ٥ ايلول سنة ١٨٧٠ رجع الى باريس فشهد احوال الحرب وذل الهزيمة ، ثم انتخب عضواً في الجمعية الوطنية ، عام ١٨٧١ ، فعضواً في مجلس الشيوخ ، عام ١٨٧٦ . ذلك كان عهد الشيخوخة ، ولقد ظلّ خصباً حافلاً . وفي سنة ١٨٨٢ احتفلت الامة الفرنسية احتفالاً مهيباً ببلوغه الثمانين من العمر . وما هي الا سنوات معدودات حتى قضى نحبه ( ٢٢ نوار سنة ١٨٨٥ ) فأقامت له باريس مأتماً عظيماً . وفي نوار - حزيران من عام ١٩٣٥ احتفلت فرنسة بالذكرى الخمسين لوفاته احتفالاً يمزّ نظيره .

### عبقريته

يجمع النقاد ، او يكادون ، على ان فيكتور هيجو أعظم شاعر غنائي فرنسي ، وواحد من اعظم شعراء العالم في مختلف العصور . ورأس مواهب هيجو قوة "خارقة" على الخيال الموضوعي ، وبراعة عجيبة في التصوير تردفها قدرة فريدة على السمو بالكلمة حتى لتصبح نغماً . وقد لا تكون حساسيته الشعرية على مثل العمق الذي يميز الحساسية الشعرية عند لامرتين ، او على مثل الجيـشـان الذي يطبع الحساسية الشعرية عند ألفرد دو موسيه ، ولكنها تتمتع بروحانية او بسعة اعظم بكثير . إنما تبدى نابضة بالحياة ، مشوبة بمخاضة حين توجه نحو الاطفال

\* هي مجموعة من الجزر الانكليزية القائمة على الشاطئ النورمندي .

والمستضعفين من الناس . \*

ولئن لم يتشم تفكير هيجو بأصالة الخلق وعمق الابتداع فليس من ريب في أنه أمدّ انتاجه الشعري بغذاء من الافكار غني . انه لم 'يجر' القلم قطّ على قرطاس إلا ليمجد افكاراً عظيمة ، أو ليدافع عن افكار عظيمة . وما الشاعر ، عنده ، إلا المنارة التي بتعين عليها ان ترشد الجماهير وتهدّهم سواء السبيل ، والصوت المقدّس الذي يحمل اليهم انجيلهم . \*\* ومن هنا أثار عدداً كبيراً من المشكلات الاخلاقية والاجتماعية التي يتناظر فيها الفلاسفة : الخير والشر ، والانسان والله ، والله والخلق ، والحكمة والعلم ، والجهل والشر ، والرذيلة والبؤس ، والسعادة والتقدم ، معبراً عن ذلك كله في صور قوية ساطعة .

### شعره

كان هيجو شاعراً غنائياً في المحل الاول . ولكن غنائيه كانت دون غنائية لامرتين عفوية وصحيبة ، وان تكن اكثر منها تنوعاً . والحق ان هيجو وصف نفسه فقال إنه « نفّس من البلور » و « صدى » مرثان ، ، يعني أنه قد عكس ، ورجّع ، وكسّر ، وافرغ في نظام أوركستريّ جميع الاغراض الغنائية . لقد غنى ، قبل كل شيء ، جميع انطباعات عصره فكان روح القرن التاسع عشر الشعرية نحيباً في قصائده من جديد . وغنّى جميع العواطف الانسانية ، من مثل الحب النبوي ، والحب الأبوي ، والآمال ، والاحزان ، والامرة ، والوطن . ثم اضاف الى هذا كله الألم الفلسفي ، والتطوّر الديني ، ولغز الموت والمجهول ، وتوق الانسان الى الجمال والخير ، والتأسّس للعدالة ، وإيمانه بمستقبلٍ قوامه الحرية والتقدم . وعلى الجملة ، فقد كانت أشبه بموسوعة

\* راجع . Quillet ; Dictionnaire Encyclopédique p. 2282.

\*\* المصدر السابق نفسه .



غنائية للعصر الذي عاش فيه . \*  
 واشهر آثاره الغنائية « نشائد » ( ١٨٢٢ ) Odes ، و « نشائد  
 جديدة » ( ١٨٢٤ ) Odes Nouvelles ، و « الشرقيات » ( ١٨٢٩ )  
 Les Orientales ، و « أوراق الخريف » ( ١٨٣١ ) Les Feuilles d'automne ،  
 و « الاصوات الداخلية » ( ١٨٣٧ ) Les Voix Intérieures ، و « الاشعة  
 والظلال » ( ١٨٤٠ ) Les Rayons et les Ombres ، و « التأملات »  
 ( ١٨٥٦ ) Les Contemplations .

وكان كذلك شاعراً ملحمياً أعطى الادب العالمي لوحات تاريخية  
 خالدة هي أشبه ما تكون بملحة في الانسانية تمثل لنا العصور الغابرة ،  
 والحقة المعاصرة ، وحروب القرن التاسع عشر الكبرى . وهذا التراث  
 الضخم تنتظمه كله فكرة التقدم ، وتصعيد البشرية البطيء نحو النور  
 عبر الصراع المخوف بين الخير والشر . وما هذه الملحة غير « اسطورة  
 العصور » La Légende des Siècles ، وقد نشرت في ثلاثة اجزاء متعاقبة  
 ( سنة ١٨٥٩ ، و ١٨٧٧ ، و ١٨٨٣ ) .

## مسرحياته

واقترح هيجو ميدان التأليف المسرحي بدرامه « كرومويل »  
 التي عُدَّت مقدمتها الشهيرة بمثابة « البيان » أو « المانيفيستو » للدرسة  
 المسرحية الناشئة التي نادى بضرورة الأخذ بشكل مسرحي اكثر حرية .  
 ولكن هيجو لم يوفق على العموم في هذا الميدان ، فشخصه « غنائيون »  
 اكثر مما ينبغي . وبسبب من أنهم غنائيون لم يكن في ميسورهم ان  
 يكونوا « مسرحيين » . انهم ليسوا ارادات تعمل ، ولكن احساس  
 تتلاعب بها الظروف الخارجية وكأنها دمية من الدمى .

وأيًا ما كان فأشهر مسرحيات هيجو « كرومويل » ، وهي شعرية ( ١٨٢٧ ) ، و « هيرفاني » وهي شعرية ( ١٨٣٠ ) ، و « الملك يلهو » وهي شعرية أيضاً ( ١٨٣٢ ) *Le Roi s'amuse* ، و « ولوكوبس بورجيا » وهي نثرية ( ١٨٣٣ ) *Lucrèce Borgia* ، و « ماري تودور » وهي نثرية ( ١٨٣٣ ) *Marie Tudor* .

## رواياته : « البؤساء »

و أعطى هيجو روايات عديدة منها « نوتر دام دو باوي » ( ١٨٣١ ) و « الرجل الذي بضحك » ( ١٨٦٩ ) *L'Homme qui rit* ، و « ثلاثة وتسعون » ( ١٨٧٢ ) *Quatre - vingt - treize* . اما اعظم رواياته جميعاً وأبقاها على الدهر فهي « البؤساء » ، وقد شرع في كتابتها ، كما رأينا ، قبل عام ١٨٥٠ ولم ينجزها الا عام ١٨٦٢ . وإذا وضع هيجو روايته هذه تحت تأثير التعاليم الانسانية والاشتراكية التي نادى بها « كايه » \* و « برودون » \*\* فدافع فيها عن قضية جميع اولئك الذين يحترقون المجتمع ، والذين ينبغي ان تعزى جرائمهم الى فساد ذلك المجتمع نفسه .

والواقع ان « البؤساء » هي في الحل الاول رواية اجتماعية قصد بها هيجو الى التنبيه على المظالم التي يزرع تحت عبثها المذبذب في الارض باسم النظام حيناً ، وباسم العدالة حيناً ، وباسم الاخلاق حيناً ، وباسم

---

\* Cabet مفكر فرنسي ( ١٧٨٨ - ١٨٥٦ ) تخيل مدينة فاضلة اشتراكية في كتابه « رحلة في إيكارب » *Voyage en Icarie* . ولقد حاول ان يحقق نظرياته من طريق انشاء مدينة نموذجية في تكساس ، ثم في ايلينوي ، ولكنه اخفق .

\*\* Proudhon اشتراكي فرنسي ( ١٨٠٩ - ١٨٦٥ ) وضع نظريات مشهورة في الملكية الشخصية ، وحاول ان يوفق ما بين البورجوازية والبروليتاريا لكي ينشي منها طبقة وسطى . ومن مؤلفاته : « ما الملكية الشخصية ؟ » و « تناقضات اقتصادية » .

الشعب دائماً . ورواية تاريخية ارادها صاحبها معرضاً لافكاره الديمقراطية ونزعاته التحررية ، فزّينها - على حاسب الفن القصصي احياناً - بلوحات فنية جسد فيها تاريخ فرنسا في حقبة من اخطر الحقب لا في حياة ذلك البلد فعسب ، بل في حياة اوروبة كلها ، اعني تلك الحقبة المنسحبة على عهدي نابوليون بونابرت ولويس فيليب بما حفا به من انتفاضات ثورية وانتكاسات رجعية ... وهي الى هذا وذاك قارورة طيب ، ووعاء فلسفة ، وملحة نضال . انها بكلمة ، نشيد الحرية ، وانجيل العدالة الاجتماعية ، وسيفونية التقدم البشري - عبر العرق والدمع والدم - نحو الغاية التي عمل من اجلها المصلحون في جميع العصور : تحقيق انسانية الانسان وإقامة المجتمع الامثل . ولعل اروع صفحاتها تلك التي صور فيها شخصية الاسقف ميريل ، وآلام فانتين ، وفرار جان فالجان ، ومعركة واترلر ، وثورة عام ١٨٣٢ . بل لعل اروع ما فيها قلب هيجو الكبير النابض من وراء كل كلمة من كلماتها ، وكل فكرة من فكراتها ، وشاعريته العارمة الحيرة التي تتخطى الحدود والسدود ، ولا تعرف هدفاً غير المحبة ، والعدل ، والخير العام .



وبعد ، فبسعدا ان نرف الى القراء الكرام في سلسلة « خوالد التراث الكلاسيكي » هذه اول ترجمة صحيحة كاملة للبؤساء ، راجين ان يكون في صنيعنا هذا \* مد لبعض النقص الذي ما تزال مكتبتنا الحديثة تعانيه من دون سائر مكنتات الشعوب الحية ، أعني حاجتها الى نسخة عربية كاملة عن كل اثر من الآثار الانسانية الشائعة التي ابدعها الفكر البشري في قديم الايام وحديثها .

بيروت ، ١٩٥٥ نوار

**منير البعلبكي**

« وفي ترجمتنا للنس الكامل لرائمة تشاوتز ديكنز « قصة مدينتين » التي تؤلف الحلقة الاولى من هذه السلسلة .



## كلمة اولى

ما دام ثمة ، بسبب من القانون والعرف ، هلاك اجتماعي  
يخلقُ صناعياً ، وعلى مرأى من الحضارة ومسمع ، ضروباً من  
الجهيم على الأرض ، ويعتد في قضاء بشري محتوم مصيراً هو الهمي ؛  
ما دامت مشكلات العصر الثلاث - الخط من قدر الرجل بالنفور ،  
وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل - لما تحلّ  
بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في بعض البقاع ؛  
وبكلمة اخوى ، ومن وجهة نظر ارحب واعم ايضاً ، ما دام على  
ظهر هذه الارض جهل وبؤس ، فان كتباً مثل هذا الكتاب  
لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .

هوفيل هاوس ، ١٨٦٢

فيكتور هيجو



القِسْمُ الأوَّل

فانتين





## الكتاب الأول

# رَجُلٌ مُسْتَقِيمٌ

### ١

#### مسيو ميريل

في عام ١٨١٥ كان صاحب السيادة شارل فرانسوا بينفينو ميريل هو  
أسقف د... \* كان رجلاً في الحامة والسبعين ، وكان قد شغل اسقفية د...  
منذ عام ١٨٠٦ .

وبرغم أن بعض التفاصيل لا تمس بطريقة ما اساس القصة التي منوها ، فليس  
من غير المفيد - ولو من اجل الدقة في الاشياء جميعاً على الاقل - ان نشير هنا  
الى الاقاويل والاشاعات التي نشأت على حسابه منذ ان وفده الى الابريشية .

---

\* يقصد مدينة ديني Digne حاضرة احدى المقاطعات الفرنسية الواقعة في اقصى الجنوب الشرقى  
على بعد ٧٦٤ كيلومتراً جنوب شرقى باريس .

وسواء أكان ما يُقال عن الرجال صدقاً أم كذباً فإنه كثيراً ما يترك في حيواتهم ، وفي مصائرهم بحاجة ، أثراً اعظم من ذلك الذي تركه افعالهم . كان مسيو ميريل ابن مستشار لبرلمان إيكس \* فهو يتمتع بشرف النبالة الذي كان يُخلع على رجال القانون . وإذا أحب الاب ان يخلفه ابنه في منصبه ذلك ، فقد عمد الى تزويجه في سن مبكرة جداً - في الثامنة عشرة ، او العشرين - وفقاً لعرف سائد عند الأسر البرلمانية . ولقد قيل ان شارل ميريل كان ، برغم زواجه ، موضوع اهتمام القوم واحاديثهم . كان شخصه مُفرغاً في قالب رائع . وكان على الرغم من قصر قامته أنيقاً ، كيتساً ، ظريفاً . لقد وقف الشطر الاول من حياته ، كله ، على الحياة الاجتماعية وملاذاتها . ثم جاءت الثورة ، وتعاقبت الاحداث سراعاً ؛ وتشتت الأسر البرلمانية ، بعد ان قُتل منها خلقٌ كثير ، وبعد ان طوردت ولوحت . وعند اندلاع الثورة ، هاجر مسيو شارل ميريل الى ايطالية . وهناك ، توفيت زوجته من علة في الرتين طالما تهددت حياتها بالخطر . ولم تخلف ايما ولد . ولكن ايّ جديد طرأ على مصائر مسيو ميريل بعد ذلك ؟ هل اثار تفنُّع المجتمع الفرنسي القديم ، وسقوط أسرته نفسها ، ومشاهد عام ١٧٩٣ الفاجعة ، التي كانت أشد فظاعة في اعين المهاجرين الذين رأوها من بعيد وقد ضُخَّسها الذعر - هل اثار ذلك كله افكاراً تدعو الى الاعتزال وقهر الذات ؟ هل اصاب فجأة ، وسط موجة من موجات الانفعال وشروذ الذهن التي استغرقت حياته آنذاك ، بوحدة من تلك الضربات الرهبة الغامضة التي تصرع احياناً - بطعنة في القلب - الرجل الذي عجزت الكوارث العمومية عن زعزعة ، بأن تسدّد بُعج كفها الى حياته او قدَرِه ؟ تلك مالم يكن احد بقادر على الاجابة عنه . كل ما عرفه الناس انه حين رجع من ايطالية كان يرتدي ثوب الكهنوت .

وفي سنة ١٨٠٤ كان مسيو ميريل كاهن ب ... ( برينثول ) \*\* . كان

\* Aix عاصمة « البروفانس » القديمة ، وتقع على بعد ٢٨ كيلومتراً عن مرسيليا .

\*\* Brignolles بلدة صغيرة من اعمال مقاطعة فار ( وعاصمتها تولون ) على الساحل الجنوبي الشرقي من فرنسا .

آنذاك رجلاً عجوزاً ، وكان يجيا في عزلة مطلقة .

وحوالى عهد التتويج \* دعتة مسألة صغيرة متصلة بوظيفته الدينية - ولم يبقَ في الامكان معرفة تلك المسألة الآن - الى ان يقصد الى باريس .  
وهناك زار الكاردينال فيش فيسن زارهم من رجال السلطان خدمة لبعض مصالح رعيته .

وذاث يوم ، حين وفدَ الامبراطور لزيارة عمه ، التقى في طريقه بالكاهن الجليل ، الذي كان في غرفة الانتظار . وإذ لاحظ نابوليون ان الرجل العجوز نظر اليه في شيء من الفضول ، استدار وتساءل في خشونة : « من هذا الرجل الساذج الذي ينظر اليّ ؟ »

فقال مسيو ميريل : « مولاي ، إنك لترى الى رجل ساذج ، وإني لأرى الى رجل عظيم . وفي ميور كل منا ان يفيد من ذلك . »  
وتلك الليلة سأل الامبراطورُ عمه الكاردينال ما اسم الكاهن . وبعد فترة وجيزة غمر الدهش مسيو ميريل إذ عرف أنه 'تَعَيَّنَ' أسقفًا لمدينة ه ...

وفجأ عدا ذلك ، لم يعلم أحدٌ أيّ قَدْر من الصحة كانت تنطوي عليه تلك الحكايات التي سارت بين الناس ، والتي تنصل بالشرط الاول من حياة مسيو ميريل . ولكن أُسرّاً قليلة كانت تعرف أسرة ميريل قبل الثورة .

وتعيّن على مسيو ميريل ان يذعن للقَدْر الذي يُلمّ بكلّ وافد جديد الى مدينة صغيرة ، حيث توجد ألسنٌ كثيرة تتكلم ، ورؤوس قليلة تفكر .  
لقد تعيّن عليه أن يذعن برغم انه كان أسقفاً ، ولأنه كان أسقفاً . وعلى اية حال ، فقد كانت الافاويل المتصلة باسمه مجرد أفاويل ليس غير : لغطٍ ، وحديث ، وكلمات ، بل اقلّ من كلمات : *palabres* كما يعتبر اهل الجنوب في لغتهم العنيفة .

وسها يكن من أمر ، فبعد تسع سنوات من نهوضه بأعباء الاسقفية وإقامته في ه ... تضاءلت جميع تلك الحكايات وموضوعات اللغو ، التي 'تشغل' ،

\* اي تتويج نابوليون بوناپرت امبراطوراً ، في ١٨ نوار سنة ١٨٠٤ .

باديء الأمر ، المدن الصغيرة والناس الصغار ، وغرقت في نسيان عميق . إن  
أحداً ما عاد يجرؤ على ان يتحدث عنها ، بل إن أحداً ما عاد يجرؤ على ان  
يتذكرها .

وحين وفد مسيو ميريل على مدينة ه ... كانت تصعبه عانس تدعى الآنة  
بابيتسين . وكانت هذه العانس هي أخته ، وكانت اصغر منه بعشر سنوات .  
وكانت خادمتها الوحيدة امرأة في مثل سن الآنة بابيتسين تدعى السيدة  
ماغلوار . وبعد ان كانت هذه السيدة تعرف من قبل بـ « خادم السيد الكاهن »  
غدت الآن تحمل هذا اللقب المزدوج : وصيفة الآنة ، ومدبرة منزل صاحب  
السيادة .

وكانت الآنة بابيتسين مخلوقة طويلة القامة ، شاحبة الوجه ، مهزولة  
الجسم ، رقيقة الحاشية . كانت تحقيقاً للصورة المثالية التي تعبّر عنها لفظة  
« محترمة » ؛ إذ يبدو وكأن من الضروري ان تكون المرأة أمّاً لكي تكون  
جليلة . إنها لم تكن جميلة في يوم من الايام . وكانت حياتها كلها ، التي لم تكن  
غير سلسلة موصولة من أعمال التقى ، قد خلعت عليها ضرباً من البياض الشفاف ،  
حتى اذا شاخت اكتسبت ما يمكن ان ندعوه جمال الصلاح . إن ما كان في صباها  
هزلاً انتهى الى ان يصبح في كهولتها شفافية ؛ وهذه الاثيرة كانت تمكن  
الناظر اليها من أن يرى الملاك الذي في ذات نفسها . كانت روحاً اكثر منها  
عذراء فانية . كان شخصها أشبه بالطيف ، فليس فيها من الجسد ما يكفي لأن  
يوقع في نفس المرء فكرة الجنس — قليل من المادة بنطوي على شزاره — عيان  
واسعتان مطرقتان الى الارض ابدأ ؛ ذريعة تتخذها الروح للبقاء على هذه  
الارض .

أما السيدة ماغلوار فكانت امرأة عجوزاً ضيئلة الجسم ، بياض البشرة ،  
بدنية ، نشيطة ، مشغولة على نحو مطّرد . كانت دائماً مبهورة منقطعة  
التفّس ، بسبب من نشاطها الموصول ، أولاً ، وبسبب من داء الربو الذي  
تشكو منه ثانياً .

وكان مسيو ميريل ، لدن وصوله الى المدينة ، قد أنزل في قصره الاسقيّ ، كحوطاً بآيات الأجلال المنصوص عليها في المراسيم الامبراطورية التي تجعل الاسقف في رتبة نلي رتبة قائد الجيش مباشرة\* . كان العمدة والرئيس يقومات بزيارته قبل زيارتهما أيما شخصية اخرى في المدينة ، وكان هو بدوره يخضع الشرف نفسه على الجنرال والمحافظ .

حتى اذا استقر في قصره ، غدت المدينة مشوقة الى ان ترى اسقفها ينصرف الى العمل .

## ٢

### مسيو ميريل يصبح مونسينيور\* بينفينو

كان قصر الاسقف في مدينة د ... محاذياً للمستشفى : كان صرحاً رجباً جميلاً ، شيد من الحجارة ، في اوائل القرن الماضي صاحب السيادة هنري بوجيه - وكان دكتوراً في اللاهوت من جامعة باريس ، ورئيس دير سيمور - الذي غدا اسقف د ... في عام ١٧١٢ . كان ذلك القصر ، في الحق ، "زُلاً" أميرباً فخماً ، وكانت سماء الأبهة تغلب على كل شيء فيه : حُجرات الاسقف ، والاهاء ، والغرف ، وقاعة الشرف - التي كانت رجة جداً تحيط بها ردهات ذات اقواس رفعت على الطراز البندقي\*\* العتيق - والحديقة الزاهية بضروب الاشجار الرائعة . وفي قاعة الطعام كان رواق طويل فخم مستور مع سطح الارض ، منفتح على الحديقة . وكان صاحب السيادة هنري بوجيه قد اقام مأدبة كبرى ، في ٢٩ تموز سنة ١٧١٤ ، لصاحب السيادة شارل بولارد وجينليز ، كبير اساقفة اميرون ، وأنطوان دو ميسغرينسي الكبوشي ، أسقف غراس ، وفيليب دو

\* او صاحب السيادة ، وهو اللقب الخاص بالاساقفة .

\*\* أو : الفلورنسي .

فاندوم ، كبير رؤساء الاديار في فرنسا ، ورئيس دير سان اونورية دو ليرن ، وفرانسوا دو برتون دو غريون ، رئيس اساقفة قنس ، وسيزار دو سابرات دو فوركالكييه ، رئيس اساقفة غلانديف ، وجان سوانسين ، كاهن كنيسة الأوراتوار ، وواعظ الملك ، ورئيس اساقفة سينيز . وكانت صور هؤلاء الرجال السبعة الموقرين ترين القاعة ، وكان هذا اليوم التاريخي ، يوم ٢٩ تموز سنة ١٧١٤ ، منقوشاً بأحرف من ذهب على لوحة رخامية بيضاء .

أما المستشفى فكان بناء منخفضاً ضيقاً ، ذا دور واحد ، وحديقة صغيرة . وبعد ثلاثة ايام من وصول الاسقف الى المدينة ، زار المستشفى . حتى اذا تمت الزيارة دعا المدير الى ان يقد عليه في قصره .

وقال المدير المستشفى : « كم مريضاً عندك ، يا سيدي ؟ »

« ستة وعشرون ، يا صاحب السيادة . »

فقال الاسقف : « أي كما عدّتهم أنا . »

فتابع المدير : « ان اجنحة المستشفى تغصّ بالسرور التي حشرت فيها حشراً . »

« ولقد لاحظت ذلك . »

« وليست الاجنحة غير غرف صغيرة ، غرف ليس في الامكان تهويتها بسهولة . »

« وهذا ما يبدو لي . »

« وفوق ذلك ، فعين ترسل الشمس اشعتها الدافئة تضيق الجنبنة الصغيرة بالناقيين . »

« وذلك ما كنت افكر فيه . »

« ومن الاوبئة عرفنا التيفوس هذا العام . ومنذ سنتين كان عندنا الحمى

المسكية ، وبلغ عدد مرضانا المئة . اننا لا ندري ما الذي ينبغي ان نصنعه . »

« ذلك ما خطر لي تماماً . »

فقال مدير المستشفى : « اي شيء نستطيع أن نصنعه ، يا صاحب السيادة ؟ »

يجب ان نفوض أمرنا الى الله .  
وانما دارت هذه الحادثة في قاعة الطعام من الدور الارضي .  
وصمت الاسقف بضعة لحظات . ثم التفت فجأة الى مدير المستشفى .  
وقال : « كم سريراً تستطيع هذه القاعة وحدها ان تضم ياسيدي ؟ »  
فصاح المدير مندوهاً : « قاعة طعام صاحب السيادة ! »  
وأجال الاسقف عينيه في القاعة ، وبدأ وكأنه يقيس طولها وعرضها  
ويحسب .

وقال مخاطباً نفسه : « انها تسع لعشرين سريراً . » ثم رفع صوته وقال :  
« إسمع ، ياسيدي المدير ، الى ما سأقوله . إن هنا خطأ من غير شك . انتم ستة  
وعشرون شخصاً تشغلون خمس غرف او ست غرف صغيرة . ونحن ثلاثة فقط ،  
ومع ذلك فنحن نحتل مكاناً يتسع لستين . اقول لك ان هناك خطأ . انتم  
تحتلون بيتي وانا احتل بيتكم . أعيدوا بيتي اليّ . وانزلوا هنا في هذا المكان ،  
فهو لكم . »

وفي اليوم التالي 'نقل المرضى البائدون الستة والعشرون الى قصر الاسقف  
وانتقل الاسقف الى المستشفى .

ولم يكن صاحب السيادة ميريبيل يملك ثروة " ما ، بعد أن دمرت الثروة أسرته .  
كان لاخته ملك " تتصرف به طوال حياتها ولا يحق لها ان تنزل عنه لاحد ، ولكن  
هذا الملك ما كان يعود عليها بأكثر من خمسة فرنك ، كانت - قبل ان يغدو  
أخوها اسقفاً - تسد نفقاتها الشخصية . حتى اذا 'رفع مسيو ميريبيل الى مقام  
الاسقفية تقاضى من الحكومة راتباً مقداره خمسة عشر ألف فرنك . ويوم انتقل  
الى بيته الجديد في بنابة المستشفى اعتزم ان يقف هذا المبلغ ، مرةً الى الابد ،  
على الاغراض التالية . وما نحن اولاء ننقل هنا هذا الثبت الذي كتبه هو  
بخط يده .

## ثبت بتنظيم نفقاتي المنزلية

- للمعهد الاكاديمي الصنوبر . . . . . الف وخمسة ليرة .
- رهبانية الارشالية . . . . . مئة ليرة .
- لمارزي مونديديه . . . . . مئة ليرة .
- معهد الارشاليات الاجنية في باريس . . . . . مئتا ليرة .
- رهبانية الروح القدس . . . . . مئة وخمسون ليرة .
- المؤسسات الدينية في الارض المقدسة . . . . . مئة ليرة .
- الجمعيات الخيرية التي ترعى الأمومة . . . . . ثلاثمائة ليرة .
- علاوة جمعية آزل المهتمة بالأمومة . . . . . خمسون ليرة .
- لتحسين الاوضاع في السجون . . . . . اربعمئة ليرة .
- لاصناف السجناء واعطاق سراحهم . . . . . خمسة ليرة .
- لتحرير ارباب الأسر المسجونين بسبب الديون . . . . . الف ليرة .
- علاوات على رواتب مدرسي الابرشية الفقراء . . . . . ألفا ليرة .
- غزن الجيوب الشمي في مقاطعة الألب العليا . . . . . مئة ليرة .
- جمعية سيدات د . . . ومانوسك وسيستيريون لتعليم الفتيات المدمعات بالمجان، الف وخمسة ليرة .
- للفقراء . . . . . ستة آلاف ليرة .
- نفقاتي الشخصية . . . . . الف ليرة .
- المجموع . . . . . خمسة عشر الف ليرة .

ولم يحدث مسيو ميريل ابدا تغيير في هذه الحطة طوال المدة التي تولى خلالها أسقفية د . . . كان يدعوها ، كما نرى ، « تنظيم نفقاته المنزلية » .



وتقبلت الآنسة بابتيستين هذا التدبير في إذعان مطلق . فقد كان مسيو ميريل هو أباها واسقفها في آن معاً ؛ كان صديقها برابطة الدم ، ورئيسها بحكم السلطة الاكبركية . كانت تحبه وتحترمه في غير تكلف . فاذا ما تكلم ، أنصت ، واذا ما عمل منحه تعاونها . اما السيدة ماغلوار ، خادمتها ، فكانت تنذر بعض الشيء . وكان الأسقف ، كما رأينا ، قد احتفظ لنفسه بألف فرنك ليس غير ، فاذا أضيف هذا المبلغ الى دخل الآنسة بابتيستين أمسى ألفاً وخمسة فرنك سنوياً . وهذه الالف والخمسة فرنك تعين على هؤلاء العجائز الثلاثة ان يعيشوا .

ومع ذلك فقد كان في ميسور الاسقف ان يحسن وفادة اياما كاهن من كهان القرى يفد على د ... وإنا يرجع الفضل في هذا الى اقتصاد السيدة ماغلوار الصارم ، وحسن تدبير الآنسة بابتيستين .

وذاث يوم - وكان قد انقضى نحو من ثلاثة اشهر على مقامه في د ... - قال الاسقف : « ومع هذا كاهن أجدني في ضائقة مالية شديدة . »

فصاحت السيدة ماغلوار : « أنا اظن ذلك ايضاً . ان صاحب السعادة لم يطالب حكومة المقاطعة حتى بنفقات مركبته في البلدة ، ونفقاتها اثناء جولاته في الابرشية . لقد كان جميع الاساقفة السابقين يفيدون من هذه التخصصات . »

فقال الاسقف : « أجل ! أنت على صواب ، اينها السيدة ماغلوار . »  
وطالب بحقه ذلك .

وبعد برهة أقرّ مجلس المقاطعة العام مطلب الاسقف ، وصوت على قرار بمنحه تعويضاً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف فرنك تحت هذا العنوان : « تعويض للاسقف يسدّ به نفقات عربته ، ونفقات جولاته الرعائية في ارجاء الابرشية . » واثار ذلك بورجوازي البلدة اثاره بالغة . ولهذا المناسبة كتب احد شيوخ الامبراطورية - وكان من قبل عضواً في مجلس الخمسة \* ، ومناصراً لحركة

\* Conseil des Cinq - Cents . وكان يتألف من خمسة عضو ويشكل ، هو « ومجلس القديما » السلطة التشريعية وفقاً لدمتور السنة الثالثة من الجمهورية . وقد حلها نابوليون في ١٨ برومير .

١٨ برومير \* ، وكان يُقيم الآن في مقرّ له فخم قرب د ... - كتب الى السيد  
بيغو بريامينو ، وزير العقائد ، رسالةً مهتاجة وسريّة نقطف منها الفقرة  
التالية :

« نفقات عربية ! وما حاجته اليها في بلدة يقلّ عدد سكانها عن اربعة آلاف ؟  
نفقات زيارات وعائية ! وائيّ فائدة لهذه الزيارات ، في المحل الاول ؟ وفوق  
ذلك ، كيف السبيل الى التجوّل بمركبة البريد في هذه المنطقة الجبلية ؟ ليس ثمة  
طرق . وليس في ميسور المرء أن يقصد الى هناك إلا على صهوة الجواد . وحتى  
الجسر القائم فوق الـ « دورانس » عند شاتو آرنولا يكاد يحمل عربات الثيران إلا  
بشق النفس . ان هؤلاء الكهان هم هكذا دائماً : طمّاعون أشعاء . ولقد قام هذا  
الكاهن بدور الرسول الصالح بُعيد وصوله ؛ وها هو ذا الآن يسلك مسلك  
الآخرين . إنه يريد عربيةً ومركبةً أجرة . إنه ينتهي الترف مثل الاساقفة  
السابقين . اوه ! تباً لهذا الكهنوت كله ! سيدي الكونت ، إن الاحوال لن  
تغدو خيراً مما هي إلا اذا أنقذتنا الامبراطور من كهّسان المعكرونة هؤلاء ،  
فليسقط البابا ! ( كانت العلاقات قد ساءت مع رومة ) أما من ناحيتي ، فأنا  
لقيصر وحده الخ . الخ . »

وسرّ الطلب الذي تقدّم به الاسقف الى مجلس المقاطعة العام السيدة ماغلوار ،  
من ناحية ثانية ، سروراً عظيماً فقالت للآنسة بايتيسين : « لقد استهلّ صاحب  
السيادة أعماله بالتفكير في الآخرين ؛ ولكنه وجد آخر الامر ان عليه ان ينتهي  
بالاهتمام بنفسه . لقد سوتى مهامه الحيرة كلها ، وها قد حصلنا على ثلاثة آلاف  
فرنك خالصة لنا ، في النهاية . »

---

\* برومير Brumaire هو الشهر الثاني من التقويم الذي اصطنعه الجمهوريون ببعد الثورة  
الفرنسية ، وهو يقع ما بين ٢٣ تشرين الاول و ٢١ تشرين الثاني . اما يوم ١٨ برومير فهو  
اليوم الذي اُطاح فيه نابوليون بوناپرت - اثر هودته من مصر - بحكومة الادارة بمانوسه  
« غوشيه » و « سيس » واخوه لوسيان بوناپرت ( ٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، في السنة الثامنة من  
الجمهورية . )

وفي اللية نفسها كتب الاسقف مذكرة ضمنها الكلمات التالية وقدمها الى شقيقته :

### نفقات العربة والتجول

- لتقديم مرق اللحم الى مرضى المستشفى . . . . . الف وخمسة ليرة
- لجمية « ايكس » الخيرية المتهمة بالامومة . . . . . مئتان وخمسون ليرة
- لجمية « دراغونيان » الخيرية المهتمة بالامومة . . . . . مئتان وخمسون ليرة
- للاطباء . . . . . خمسة ليرة
- للتلاميذ . . . . . خمسة ليرة
- الجسوع . . . . . ثلاثة آلاف فرنك

نلك كانت ميزانية الاسقف ميريل .

اما تدخل الاسقفية من إجازات الزواج ، والاعفاء من بعض أحكام الدين ، والتعميد الخصوصي ، والاعظات ، ومنع البركة للكنائس والمعابد ، وإجراء مراسم الزواج الخ . فكان الاسقف يجمعه من الاغنياء بمثل الضبط والدقة اللذين كانت يوزعه بها على الفقراء .

وما هي الابرة حتى تدفقت التقدّمات والهبات . وشرع الاغنياء والفقراء يقرعون باب الاسقف ؛ كان بعضهم يُقبل ليقدم الصدقات ، وكان بعضهم الآخر يُقبل ليفوز بها . وفي اقل من سنة غدا الاسقف خازناً لفاعلي الخير جميعاً ، ومائحاً للمحتاجين جميعاً . لقد مرت بين يديه مبالغ من المال ضخمة . ومع ذلك ، فلم يغير قط طريقته في الحياة ، ولم يُضِف اقل الترف الى الكفاف الذي يحيا عليه .

على العكس . فما دام في الطبقات الدنيا دائماً فقراً يزيد على ما عند الطبقات العليا من إنسانية ، فقد كان كل ما يُقدم يوزع ، اذا جاز التعبير ، قبل ان

'بِسْتَلَمْ ، لكأنه الماء فوق ارض عطشى . وكان من الخير ان يتدفق المال عليه ،  
لانه ما كان يحتفظ بشيء منه . والى هذا ، فقد كان يحرم نفسه وبسلبها .  
واذ كان العرف يقضي بأن يتوج جميع الاساقفة او ائمه ورسائلكم الرعائية  
باسماء معموديتهم فقد اختار اهل المنطقة الفقراء من بين اسماء الاسقف - بدافع  
من ضرب من الغريزة الودود - ذلك الاسم الذي كان اقوى عندهم دلالة ، فهم  
ينادونه دائماً ، مونسينيور بينفينو . \* ولسوف نقف في اثرهم ونسبهم هكذا  
منذ اليوم . والى هذا ، فقد كان ذلك الصنيع يوقع الجور في قلبه ، فهو يقول :  
« لاني احب هذا الاسم . إن « بينفينو » تصحح « مونسينيور » وتوازنها . »  
ونحن لا نزع ان الصورة التي نرسمها هنا صورة حقيقية . إن في ميسورنا ان  
نقول إنها تشبهه ، ليس غير .

## ٣

### اسقف صالح - اسقفية جافية

ولم ينقطع الاسقف ، بعد ان حوّل عربته الى صدقات ، عن القيام بجولاته  
الرعائية النظامية ولم يطفئها ؛ ولقد كان ذلك الصنيع ، في ابرشية ... ، عملاً  
مرهقاً . كانت الاراضي السهلية قليلة جداً ، وكانت المرتفعات الجبلية كثيرة  
جداً ، ولم يكن ثمة طرق ، تقريباً ، من غير مك . كان في الابشية اثنان  
وثلاثون مركزاً كهنوتياً ، واحد واربعون نيابة اسقفية ، ومثتان وخمسة  
وثمانون مركزاً كهنوتياً فرعياً . وكان في زيارة هذه المواطن كلها نصيب بالغ ،  
ولكن الاسقف نهض بهذا العبء الثقيل . كان يمشي على قدميه حين يكون  
المكان الذي يقصد اليه مجاوراً ، وبصطنع عربية صغيرة حقيرة ذات عجلتين  
ومظلة ، في السهل ، على حين بصطنع في الجبال سلة مزدوجة ملقاة على متن احد

\* Bienvenu وتفيد معنى « الفاتر بحسن القول . »

البغال . وكانت المراتان المعجوزان ترافقانه عادة . فإذا اتفق ان كانت الرحلة شاقة أكثر مما ينبغي فعندئذ كان يمضي منفرداً .

و ذات يوم بلغ سينيز ، وكانت من قبل مركز اسقفية ، منطياً حماراً . كان كيس دراهمه فارغاً جداً في ذلك الحين ، فهو لا يكتنه من اصطناع وسيلة افضل ، من وسائل النقل . وخرج عمدة المدينة لاستقباله عند باب المقر الاسقفي ، فلم يكذب الى يترجل عن حماره حتى اخذه الدهش المنطوي على الحية . وضحك بعض البورجوازيين من حوله . فقال الاسقف : « سيدي العمدة ، سادتي البورجوازيين . انا ادري ما الذي يحملكم على الدهش . انكم تعتقدون ان من الغرور البالغ ان يركب كاهن مسكين المطية عنها التي ركبها يسوع المسيح . فانا اؤكد لكم اني اتخذتها بحكم الضرورة ، لا زهواً وعجباً . »

وكان في جولاته تلك سمحاً سهل الخليفة ، وكان يعظ أقل مما يتحدث . ولم يكن يضع أبداً فضيلة في طبق لا سبيل الى بلوغه ؛ أو يورد أسباباً وأمثلة متكلفة غير مألوفة . كان يجعل من منطقة ما مثلاً يضربه لأبناء منطقة أخرى مجاورة . ففي الاقضية التي يُعامل فيها المعوزون بقسوة كان يقول : « انظروا الى أبناء بريانسون . لقد منحوا الفقراء والارامل واليتامى الحق في ان يحصلوا مروجهم قبل ثلاثة ايام من سائر القوم . واذا ما خربت بيوت اولئك البائسين جدّدوا بناءها لهم من غير ان يتقاضوا منهم فلساً . وهكذا فهي ارض باركها الرب . » وطوال قرن كامل من الزمان لم تعرف تلك الديار قاتلاً واحداً .

وفي القرى التي تصف شهوة الربح بسكانها في ايام الحصاد ، كان يقول : « انظروا الى إيمبرون . اذا ادرك موسم الحصاد رب أسرة فيها بعد ان التحق اولاده بالجلش واستغلت بناته في المدينة ، وكان هو مريضاً ، اوصى به الكاهن في مواعظه ، فما إن تطلع شمس الاحد ، وينتهي القداس ، حتى يتدفع سكان القرية كلهم ، رجالاً ونساء واطفالاً ، نحو حقل الرجل البائس ، ويحصلوا له محصوله ، ويحملوا التبن والحنطة الى مخزن حبوبه . » وللأسر المتنازعة على مسائل الملك والأرث كان يقول : « انظروا الى جبلي ديفولني ، وهو اقليم موحد

الى درجة تجعل العندليب لا يُسمع في ارجائه مرة كل خمسين عاماً . حين يموت ربّ الاسرة في تلك الديار ينطلق اولاده الذكور ساعين في طلب الرزق ، ويتوكون ممتلكاته للبنات لكي يكون في ميسورهن أن يَفْزْنَ بأزواج . وفي تلك الاقضية المولع اهله بالدعاوى القضائية ، حيث يشتري المزارعون الحراب والافلاس بالاوراق المثقلة بالطوابيع كان يقول : « انظروا الى فلاحي وادي كيراس . إن عددهم لا يتجاوز الثلاثة الآلاف . يا لهي ، لكنهم يعيشون في جمهورية صغيرة ! إنهم لا يعرفون لا القاضي ولا حاجب المحكمة . والعمدة هناك ينهض بجميع الأعباء . إنه يقسّط الحراج ، ويفرض الضريبة على كلِّ وفقاً لما يحكم به الضمير ، ويقضي في المنازعات بالجمان ، ويقسم التركات بينهم من غير أجر ، ويصدر الاحكام من غير ان يتقاضى رسوماً ، وهم يطيعونه لانه رجل عادل بين رجال بـطاء . » وفي القرى التي يعوزها المدرّسون كانت يضرب مَثَل وادي كيراس ايضاً ، فيقول : « اتدرون ماذا يفعلون ؟ لما كانت المنطقة الصغيرة المؤلفة من اثني عشر بيتاً أو خمسة عشر بيتاً لا تقوى دائماً على النهوض بنفقة مدرّس فان اهل الوادي جميعاً يتعاونون على دفع رواتب المعلمين ، فيتنقّل هؤلاء من قرية الى قرية ، مُنْقِقِينَ اسبوعاً هنا ، وعشرة ايام هناك ، حيث يدّرّسون الناشئة . وكان هؤلاء المعلمون يشهدون الاسراق العامة ، حيث رأيتهم بعيني . وهم يُعرفون بريش الكتابة الذي يعلّقونه بمصائب قبعاتهم . فأما الذين يعلمون القراءة وحسب فيعملون ريشة واحدة ، وأما الذين يعلمون القراءة والحساب فيعملون ريشتين اثنتين . وأما الذين يعلمون القراءة والحساب واللاتينية فيعملون ثلاث أرياش . وكان ذو الارياش الثلاث هؤلاء علماء كباراً . ولكن ما أشنع العار الذي يلحقه الجبل بالمرء ! اعملوا مثل ابناء كيراس ! »

هكذا كان يتكلم ، في وقار وجرس أبوي . واذا ما عدم الامثلة اخترع القصص الرمزية ، مقتحماً موضوعه اقتحاماً مباشراً ، في عبارات قليلة ، وصور كثيرة . وهل كانت بلاغة يسوع المسيح المقتنعة المفعمّة شيئاً غير ذلك ؟

## الاعمال تتكافأ مع الاقوال

كان حديثه أنيساً عذباً . لقد كَيْفَ نفسه وفقاً لمدارك العجوزين اللتين تعيشان معه . واذا ما ضحك كان ضحكه اشبه بضحك تلميذ من التلاميذ .

وكانت السيدة ماغلوار تخاطبه ، عادة ، بقولها « يا صاحب العظيمة ! » وذات يوم نهض عن كرسيه ذي الذراعين ومضى الى مكتبته التماساً لكتاب ما . وكان ذلك الكتاب على احد الرفوف العالية . واذا كان الاسقف أميل الى القِصَر فقد عجز عن ان يبلغه . فقال : « أيتها السيدة ماغلوار . ايتيني بكرسي . ان عظمتي لا تُنتدَى الى هذا الرف » !

وكانت الكونتس دولو ، وهي سيدة يرتبطها به نسب غير قريب ، نادراً ما تدع الفرصة تمرّ من غير ان تعدّد في حضرته ما دعت « آمال » ابناتها الثلاثة . ذلك بأنه كان لها عدة أنساب بلغوا من السنّ مبلغاً عالياً وغدوا على شفا الموت : انساب كان اولادها هم وارثهم الشرعيين . فاما اصغر الثلاثة فكان مقدراً له ان يفوز من عمه ابيه بدخل سنري مقداره مئة الف ليرة . واما ثانيهم فكان مقدراً له ان يرث لقب « دوق » من عمه . واما اكبرهم سنأ فسوف يرث رتبة الامارة الاقطاعية من جده . وكان من ذأب الاسقف ان يسمع في صمت لهذا التباهي الأمومي البريء الجدير به ان يُغتفر . بيد انه بدا ، ذات يوم ، اشدّ استرسالاً في التفكير الحالم منه في اياما وقت سلف ، وكانت السيدة دولو تعيد تفصيل هذه المواريث جميعاً ، وهذه « الآمال » جميعاً . فما كان منها الا ان كفت عن الكلام ، فجأة ، وصاحت في شيء من البرم ونفاد الصبر : « يا الهي ! ولكن ما الذي تفكر فيه ، يا ابن العم ؟ » فأجابها الاسقف : « اني افكر في شيء غريب وردّ في ما اعتقد عند القديس اوغسطين : « ضعوا آمالكم في ذلك الذي لن يُورث ابداً ! »

وفي مناسبة اخرى تلقى نعي شريف من اشراف البلاد أدرجت فيه لائحة

طوبلة لم تنتظم رتب الفقيد فحسب بل ألقاب أنسابه، جميع أنسابه، الاقطاعية .  
فصاح : « ما اقوى ظهر الموت ! اي حِل رافع من الالقاب سوف يحمله في  
ابتنهاج ! وما اعظم الظرف الذي ينبغي ان يتحلى به الانسان حتى يتخذ من  
شاهد القبر وسيلة لاشباع غروره ! »

وكان يرسل بين الفينة والفينة بعض السخربات العذبة المنظوية دائماً ، تقريباً ،  
على فكرة جدية . وذات يوم ، في اثناء الصوم الكبير ، وفد نائب اسقفى شاب  
على د... وألقى عظة في الكاتدرائية . كان على جانب من الفصاحة غير يسير .  
وكان موضوع عظته الاحسان . لقد دعا الاغنياء الى ان يجودوا بالصدقات على  
الفقراء اذا ما رغبوا في اجتناب عذاب السعير ، الذي صورته تصويراً مروّعاً الى  
ابعد الحدود ، وبالفوز بالجنة التي صورها بهيجة فائقة . وكان بين المصلين تاجر  
غني متقاعد ، انصرف الى الاستغفال بالربا بعض الشيء ، يدعى السيد جيبوران ،  
وكان قد جمع نصف مليون ليرة من صنع الجوخ ، والنسيج الصوفي الغليظ ،  
والاقمشة الصوفية الضيقة الخفيفة ، والطرايش الفرنسية . ولم يصدق السيد  
جيبوران ، طوال حياته ، بشيء ما ، على فقير بئس . ولكن الناس لاحظوا ،  
بعد هذه العظة ، انه شرع يعطي كل يوم احد ، على نحو مطّرد ، جزءاً من  
عشرين من الفرنك للشحاذات العجائز القائمات عند باب الكاتدرائية . وكانت  
عددهن سنّاً يُفترض فيهن ان يتوزعن هذه الفلوس القليلة في ما بينهن .  
واتفق ان رآه الاسقف ، ذات يوم ، يجود بصدقته هذه ، فابتسم وقال لاخته :  
« ها هو السيد جيبوران يشتري من الجنة ما قيمته جزء من عشرين من  
الفرنك ! »

وكان اذا التمس العون لعمل خيري ما لا يثنيه الرضى ولا يشبط همته . وما  
كانت الكلمات التي تحمل السامعين على التفكير لتعوزه بحال . كان يجمع  
الصدقات للفقراء ، ذات يوم ، في أحد أحياء المدينة . وكان في ذلك البهو المركزي  
دو شانيرسميه ، وهو تزيّ عجوز شديد الشح ، اكتشف السبيل الى ان يكون  
ملكياً متطرفاً وفولتيرياً متطرفاً في آن معاً . ولم يكن هو الممثل الاوحد لهذه



الفئة من الرجال ، في ذلك العهد . فما ان انتهى الاسقف اليه ، حتى مسّ ذراعه وقال : « باحضرة المركيز ، ينبغي ان تعطيني شيئاً . » فالتفت اليه المركيز وقال في جفاف : « مونسينيور ، إن عندي فقرائي . » فقال الاسقف : « أعطني إياهم . »

وذاث يوم ألقى هذه العظة في الكاتدرائية :

« اخوتي الاثريين عليّ ، واصدقائي الطيبين ! إن في فرنسا مليوناً وثلاثمائة وعشرين ألفاً من أكواخ الفلاحين ليس لها غير ثلاث فُتحات ، ومليوناً وثمانيه وسبعة عشر ألف كوخ لها فُتحتان : الباب ونافذة واحدة ، واخذيراً ثلاثمائة وستة واربعين ألف كوخ ليس لها غير فتحة واحدة : الباب . وما ذاك إلا نتيجة لما يدعونه الضريبة على الابواب والنوافذ . وفي هذه الاسر الفقيرة ، بين النسوة العجائز والاطفال الصغار الساكنين في هذه الأكواخ ، ليس أكثر من الحمايات والامراض ! وأسفاه ! إن الله يعطي النور للناس ثم يأتي القانون فيبيعه . أنا لا ألوم القانون ، ولكني أبارك الله . ففي إيزير ، وفي قار ، وفي اقليم الألب الاعلى والادنى ليس عند الفلاحين حتى العجلات الصغيرة ذات الدولاب الواحد فهم ينقلون الزبل على ظهورهم ، وليس عندهم شموع فهم يشعلون اكواز الصنوبر وقطعاً من الجبال مغموسة بصمغ البطم . والشيء نفسه يصحّ في الجزء الاعلى من دوفينه برمته . إنهم يعجنون الدقيق مرة كل سنة اشهر ، ويخبزونه على زبل البقر الجاف . وفي الشتاء يتصلب هذا الخبز الى درجة نحملمهم على ان يكسروه بالفأس ، وينقعوه بالماء ، اربعاً وعشرين ساعة لكي يصبح في ميسورهم ان يأكلوه . ايها الاخوة ، كونوا رحماء ! انظروا كم يقامي الناس من حولكم ! »

واذ كان من مواليد بروفانس فقد ألفَ في يُسر جميع لهجات الجنوب ، من مثل لهجة لانغدوك السفلى ، ولهجة منطقة الالب الدنيا ، ودوفينه العليا . وكان هذا يُبهج الناس كثيراً ، ويمهد له السبيل الى اقتدثهم . كان يشعر في الكوخ والجبل وكأنه في بيته . وكان يعرف كيف يقول أرفع الاشياء في تعابير عامية

الى ابعد الحدود . واذ كان يتكلم اللهجات كلها ، فقد نفذ الى النفوس كلها .  
والى هذا فقد كان مسلكه مع الاغنياء هو عين مسلكه مع الفقراء .  
لانه لم يشجب شيئاً من غير روية ، ومن غير ان يأخذ بعين الاعتبار مختلف  
الظروف والملابسات . وكان من دأبه ان يقول : « لننظر اى طريق سلكه »  
الذنب او الخطأ .

واذ كان - كما وصف نفسه وهو يتسم - آثماً سابقاً فلم يكن على شيء من  
وعورة المترمّنين . وكان يعلن في كثير من الجراة - حتى تحت ابصار المتعصين  
الشرسين المفضّة - مذهباً يمكن ان يصاغ في الكلمات التالية تقريباً : -  
« ان للانسان جسداً هو عبء عليه وأداة إغواء له في آتٍ معاً . إنه يجرّ  
حيثما ذهب ، ويدعن له .

« يجب على الانسان ان يراقب ذلك الجسد ، ويكبح جماحه ، ويكبته ،  
ولا يطيعه إلا في اقصى حالات الضك والشدة . وقد يكون من الآثم ان يطيع  
المراء جسده حتى في تلك الحال ، ولكنه يكون عندئذ ثماً عريضاً وخطيئة غير  
مبينة . إنه سقوط ، ولكنه سقوط على الركبتين قد ينتهي بصاحبه الى الصلاة .  
« ان كون المراء قديساً هو الشذوذ . وإن كونه مستقيماً هو القاعدة . هم  
على وجهك ، وتردّد ، وآثم ، ولكن كن مستقيماً .

« إن اقتراف اقل قدر ممكن من الآثام هو القانون البشري . اما الحياة  
من غير آثم فحلم ملاك من الملائكة . وكل ما هو أرضي عرضة للآثم . ان الآثم  
ضرب من الجاذبية . »

وكان اذا ما سمع الناس جميعاً يصيحون ويعبثون عن اعظم الخط يتسم  
قائلاً : « اوه ! اوه ! يبدو ان هذه جريمة ضخمة اقترفها الناس جميعاً . عجباً للرياء  
المروّع كيف يسارع الى الدفاع عن نفسه ، والاختفاء تحت أيما حجاب ! »  
كان سمحاً مع النساء ، ومع الفقراء الذين تقع على عاتقهم اكثر من غيرهم ،  
أنفال المجتمع البشري . وكان يقول : « إن خطيئات النساء ، والاطفال ،  
والخدم ، والضعفاء ، والفقراء ، والجهلة هي خطيئات ازواجهن ، وآبائهم ،

وأسيادهم ، وخطيئات الآقوباء ، والافغباء ، والعلماء . »

ويقول : « علمر الجاهل ما وسعك التعلم . إن المجتسع ليُجرمُ حين لا يزود كل امرئ بالعلم المجاني . انه لمسؤول عن الظلام الذي يحدته . وحين تترك النفس في الظلام ، فمئذئذ تُفتَرَفُ الآثام . والمجرم ليس ذلك الذي يقتوف الآثم ، ولكنه ذلك الذي يُحدث الظلام . »

وهكذا نرى أنه كانت له طريقة غريبة وخصوصية في النظر الى الاشياء . وأحسب انه اكتسب طريقته تلك من الانجيل .

سمع ذات مرة ، في احد الصالونات ، حديثاً عن قضية جنائية كانت المحكمة على وشك النظر فيها . وتتخلص هذه القضية في ان رجلاً بائساً اغراه حبه لاحدى النساء وللولد الذي انجبته له ، بأن يعيد الى تزييف النقد بعد ان نصبت موارده وسدت في وجهه اسباب العيش . وكان الموت لا يزال هو عقاب المزيّف في ذلك العهد . والقي القبض على المرأة وهي تروج اول قطعة نقدية زيتها الرجل . وزُجّ بها في غياهب السجن ، ولكن لم يكن ثمة أيما دليل ضد عشيها . كانت هي وحدها القادرة على ان تشهد عليه ، وان تدينه باعترافها . وأنكرت ان يكون هو المجرم . وأصرّوا . ولكنها كانت عنيدة في إنكارها . وعندئذ خطرت للنائب العام الملكي فكرة . لقد صور لها ان صاحبها غير مخلص لها ؛ ومن طريق بضعة اجزاء من رسائل ضمّ بعضها الى بعض في براعة وفق الى ان يُقنع المرأة المسكينة بأن لها منافسة ، وأن هذا الرجل قد خدعها . حتى اذا عصفت بها الغيرة ، وشت بعشيقها ، واعترفت بكل شيء ، مقبلةً الدليل على إجرامه . وكان متوقعاً ان يحاكم في إنكس ، بعد بضعة أيام ، مع شريكته في الجريمة ، وكانت إدانته مؤكدة . ولم يكدر القوم يستمعون الى القصة حتى أخذهم الذهول لبراعة النائب العام . إن إعماله للغيرة مكّنه من ان يكشف عن الحقيقة من طريق الغضب ، وبذلك انبجست العدالة من الانتقام . وأصاخ الاسقف الى ذلك كله في صمت حتى إذا سكت القوم تساهل :

— « ابن سيخاكم هذا الرجل وهذه المرأة ؟ »

- « في محكمة الجنابات . »

- « والنائب العام الملكي ، اين سيعاكم ؟ »

ووقعت في د . . . . حادثة فاجعة . لقد صدر الحكم على رجلٍ بالموت لاقتراه جريمة القتل . وكان ذلك المسكين على ثقافة هزيلة ، ولكنه لم يكن جاهلاً بالكلية . كان يسلي الناس ببعض ألعاب القوة والرشاقة في الاسواق الموسمية ، ويعمل كاتباً عمومياً . واستأثرت المحاكمة باهتمام اهل المدينة . وقبل اربع وعشرين ساعة من الموعد المفروب لأنفاذ حكم الموت في الرجل مريض واعظ السجن . فنشأت الحاجة الى رجل دين يرافق السجين في لحظاته الاخيرة . واستدعي الكاهن ، ولكنه رفض ان يذهب قائلاً : « هذا أمر لا علاقة لي به . وما صلتني بهذه السخرة ، أو بذاك المشعوذ ؟ والى هذا ، فانا مريض ايضاً . وفوق ذلك كله ، فليس ذاك المكان مكاني . » وحين نُقِلَ هذا الجواب الى الاسقف قال : « إن الكاهن على صواب . ذلك المكان ليس مكانه . إنه مكاني ! »

ومضى ، لتوّه ، الى السجن ، وهبط الى محبس « المشعوذ » المظلم وناداه باسمه ، وأمسك بيده ، وانشأ يتحدث . لقد قضى الى جانبه النهار كله ، والليل كله ، نائماً الطعام والرقاد ، مصلياً الى الله من اجل روح الرجل المحكوم عليه بالموت ، حاضاً هذا الرجل على ان يشاركه في الصلاة . لقد حدثه حديث الحقائق الفضلى ، التي هي اكثر الحقائق بساطة . كان أباً ، وائخاً ، وصديقاً ؛ ولم يكن أسقفاً إلا لكي يباركه وحسب . لقد علمه كل شيء ، بأن شجعه وأوقع الغزاء في قلبه . ذلك بأن هذا الرجل كان على وشك ان يموت يائساً . فقد كان الموت ، في نظره ، أشبه بهاوية . واذا وقف مرتعد الاوصال أمام هذه العتبة المروعة ، ارتدّ الى الوراء وقد عصف به عاصف من الذعر . انه لم يكن جاهلاً الى درجة تسلمه بلامبالاة مطلقة . وكانت الصدمة الفظيعة التي اصيب بها إثر صدور الحكم عليه بالموت قد مزقت بمعنى من المعاني ، ههنا وههناك ، ذلك الحاجز الذي يفصلنا عن مر الاشياء ، والذي ندعوه الحياة . ومن خلال تلك الثغرات المشؤومة

راح ينظر الى ما وراء هذا العالم نظراً موصولاً فلم يوفق الى رؤية شيء غير الظلام . لقد أراه الاسقف النور .

وفي اليوم التالي ، حين وفدوا ليستاقوا الرجل البائس الى الموت ، كانت الاسقف هناك . ومضى في اثره . وبرز امام أعين الحشد بردائه البنفسجي القصير الذي يغطي الصدر ، والصليب الاسقفي بطوق جيده ، ووقف جنباً الى جنب مع ذلك المخلوق البائس الموثق بالحبال .

وامتطى العربية معه ، وصعد الى المشقة معه . فاذا بوجه الرجل الذي كان مكفهرأ مذعوراً في الماء يغدو الآن مشرقاً بالامل . لقد أحسن بأن نفسه قد أُرْضيت ، وهو عظيم الرجاء بالله . وعانقه الاسقف ؛ وفي اللحظة التي أوشكت فيها السكين ان تحتزّ عنقه قال له : « ان النفس التي يزهقها الانسان يعيدها الله الى الحياة . ومن يطرده إخوته يجد الله أمامه . حلّ ، آمن ، أدخل الى الحياة ! ان الرب هناك ! » وحين غادر المشقة كان في سبيل وجهه ما جعل الناس يرتدون الى الوراء . ومن المسير ان نقول أيهما كان ارواح : شحوبه ام طمأنينته . حتى اذا دخل المنزل المتواضع الذي كان بسميه ، وهو يبتسم ، قصره قال لأخته : « كنت احتفل بقداس جبري ! »

واذ كانت الاشياء الاكثر سمواً هي في الوقت نفسه الاشياء التي تمحطى من الناس بأقل الفهم ، فقد وُجد في المدينة من يقول تعليقاً على مملك الاسقف هذا : « ذلك تصنع . » ولكن مثل هذه الافكار كانت مقصورة على الطبقات العليا . اما أبناء الشعب الذين لا يبحثون عن الدوافع الخبيثة في الاعمال الدينية فقد قابلوا ذلك باعجاب وإشفاق .

وأما الاسقف فقد أوقع مشهد المقصلة صدمة في نفسه لم ينجُ من آثارها إلا بعد فترة طويلة .

والحق ان للمشقة حين تُعدّ وتُنصب أثرأ في النفس كأثر الهلوسة أو الوم . فقد لا نبالي بعقوبة الموت كثيراً أو قليلاً ، وقد لا نعلن عن رأينا قائلين نعم أو لا ، مادامنا لا نشهد مقصلة ما بأعيننا . ولكن ما إن نرى الى واحدة حتى

نعصف بنا صدمة هي من العنف بحيث نحملنا على ان نقرّر ونتخذ موقفاً إما مع تلك العقوبة وإما ضدّها . ان بعض الناس ، مثل دو ميتز\* ، ليستدحونها ، وان بعضهم ، مثل بيكاريا\*\* ، ليشجبونها . إن المقصّة هي تختلّ القانون ، وهي تدعى المنتقمة . انها غير حيادية ، ولا تسمح لك بأن تظل حيادياً . وكل اريء ، يراها يزلزل بارئجات ليس اعجب منها ولا اشد غموضاً . ان جميع القضايا الاجتماعية لتطرح علامات استفهامها حول هذه الفأس . المنتقمة خيال . المنتقمة ليست مجرد هيكل منجور ؛ المنتقمة ليست ما كينة ؛ المنتقمة ليست آلة ميكانيكية جامدة لا حياة فيها ، مصنوعة من خشب ، ومن حديد ، ومن حبال . انها تبدو كأنها من نوع ما ، ذا اصل مظلم لا نعرف عنه شيئاً ؛ وفي مبدور المرء ان يقول ان هذا الهيكل المنجور يرى ، ان هذه الماكينة تسمع ، ان هذه الآلة الميكانيكية تفهم ، ان لهذا الخشب ، ولهذا الحديد ، ولهذا الحبال ، ارادة . وفي الهواجس المروعة التي يقذف مشهدها بالنفس الانسانية الى خضمّها ، تبدو المنتقمة فظيعة ، ومرتجة بصنيعها الرهيب . المنتقمة شريكة الجلاد في الاثم . انها تقترب ؛ إنها تأكل اللحم ؛ انها تشرب الدم . المنتقمة غول من ضرب ما ، يصنعه القاضي والنجار . انها شبح يبدو وكأنه يحيا بضرب من الحياة راعب ، مستعد من كل الموت الذي سيبته .

وكانت الانطباعة خيفة وعميقة ايضاً . ففي صبيحة الاعدام ، وطوال عدة ايام بعدها ، بدا الاسقف مفتحاً واهناً . كانت الطمأنينة الموشكة ان تكون عنيفة ، والتي كُفّت على عياد في اللحظة المشؤومة ، قد زابلت ، ليستبدّ به منذ ذلك الحين طيف العدالة الاجتماعية . لقد أمسى - وهو الذي كان يلتفت في العادة الى جميع أعماله في رضا بالغ الاشراق - امسى الآن موضوع توبيخ ذاتي .

\* de Maistre مفكر فرنسي ( ١٧٥٣ - ١٨٢١ ) وضع عدة مؤلفات في القضايا الدينية والسياسية ، مدافعاً عن مبادئ الحكم المطلق ، مناهضاً الثورة الفرنسية .

\*\* César de Beccaria فيلسوف ايطالي ( ١٧٣٨ - ١٧٩٤ ) ، وضع مؤلفاً شهيراً في الجرائم والعقوبات شجّب فيه الحاشمة السرية ، وتمذيب المتهمين ، وعدم تساوي العقوبات بين شخص وشخص ، ووحشية العقوبات .

وانشأ بمخاطب نفسه بين الفينة والفينة ، ويستمر في هس بمناجاة ذاتية فاجعة .  
وذات مساء سمعته اخته ، اتفاقاً ، وهو يخاطب نفسه فالتقطت قوله : « انا لم  
أعتقد انما ستكون فظيعة الى هذا الحد . من الخطئ ان يستغرق المرء في القانون  
الديني الى درجة تجعله يعنى عن القانون الانساني . إن الموت ملك الله وحده .  
فبأي حق يمس الناس هذا الشيء المجهول ؟ »

ومع الايام ، تحبَّت هذه الانطباعات ، ولعلها ان تكون انفتحت . ومع  
ذلك ، فقد لوحظ ان الاسقف اجتنب ، منذ ذلك الحين ، المرور بساحة  
الاعدام .

كان في ميسور القوم ان يدعوا مونسنيور ميربيل ، في اياما ساعة من  
الساعات ، الى سرور المرضى والمخضرين . كان يعرف جيداً ان واجبه الاسمي  
وعمله الاعظم هما ، في الحق ، هناك . ولم تكن الأسر المرملة او الميئسة في  
حاجة الى أن تدعوه لزيارتها . كان هو يمضي اليها بنفسه . كان يعرف كيف يجلس  
صامتاً ، طوال ساعات وساعات ، الى جانب الرجل الذي فقد الزوجة التي  
يحُبُّ ، او الى جانب الأم التي احتسبت ولدها . وكما عرف متى ينبغي له ان  
يصمت ، كذلك عرف متى ينبغي له ان يشكلم . ليه ، ايها المعزّي الرائع ! إنه ما  
كان يسعى الى محو الالم بالنسيان ، بل الى تعظيمه وتشريفه بالأمل . فهو  
يقول : « إحترس من الطريقة التي تفكر فيها بالأموال . لا تفكر بالذي بيلي  
وفسد . أنظر ملياً ، تجد الاشراق الحي الذي كان لفقيدك الاثير على قلبك في  
اعماق السماء . » كان يعرف ان الأيمان صحي . وكان يسعى الى ان ينصح الرجل  
القائظ ويوقع المدوء في نفسه بان يورثه الرجل الراضي بمشيئة الله ، ويعمل على  
ان ينجي المساكين من الالم الذي يحدّق الى القبر ، بان يرحم الالم الذي يحدّق  
الى النجم .

## كيف جعل مونسنيور بينفينو ثوبه الكهنوتي يعمر طويلاً

كانت حياة مسيو ميريل الخاصة حافلةً بمثل الافكار المألوفة حياته العامة . والواقع ان الفقر الاختياري الذي عاش في غمرته اسقف د . . خلق به ان يكون مشهداً خطيراً بقدر ما هو فاتن ، في نظر من استطاع ان يرى اليه عن كثب .

ومثل جميع الشيوخ ، ومثل معظم المفكرين ، لم يكن ينام الا عراداً . ولكن نومه القصير ذاك كان عميقاً . كان يقضي ساعة من ساعات الصباح في التأمل ، ليتلو بعد ذلك قداسه ، سواء في الكاتدرائية او في منزله هو . حتى اذا تم له ذلك افطر على خبز الجاودار مغموساً في حليب بقراته ؛ وانصرف الى العمل .

والاساقفة رجال مشغولون جداً . إن على الواحد منهم ان يستقبل كل يوم أمين الابرشية ، وهو عادة كاهن قانوني ، وان يستقبل وكلاء الكبار كل يوم تقريباً . ان ثمة أخويات يتعين عليه ان يديرها ، وإجازات يجب ان يمنحها ، وكتباً اكليركية كثيرة ينبغي له ان ينظر فيها قبل ان تباع - بعضها كتب صلوات ، وبعضها كتب في التعليم المسيحي لآباء الابرشية ، وبعضها كتب في أقسام الفرض الكنائسي - ورسائل رعائية يجب ان يكتبها ، وعظات ينبغي ان تمجاز ، وكهاناً ومُهدّأ يتعين عليه أن يصلح ما بينهم ، ومراسلات اكليركية ، ومراسلات ادارية - مع الحكومة من ناحية ، ومع السلطة الرسولية من ناحية اخرى - وآلافاً من المسائل .

فاذا ما تركت له هذه المسائل كلها وقداسته الاحتفالية وكتاب فرض الكهنة فراغاً ما ، قدّمه قبل كل شيء الى المعوزين ، والمرضى ، والمكروبين .



فاذا ترك له المكروبون والمرضى والمعوزون بقية من ذلك الفراغ أنفقها في العمل . كان يعزق الارض في حديقته احياناً ، وكان يقرأ ويكتب احياناً . ولم تكن عنده غير كلمة واحدة لهذين الضريبن من العمل . كان يدعوهما « بستنة » . وكان يقول : « الروح بستان » .

وبعيد الظهيرة ، من ايام الصحو ، كان ينطلق من منزله فيمشى في الحقول ، او في المدينة ، طارفاً في كثير من الاحيان ابواب الاكواخ والمساكن الحفيرة . كان الناس كثيراً ما يرونه يمشي وحده متناقلاً ، مستغرقاً في افكاره ، مطرق الرأس ، متوكئاً على عصاه الطويلة ، مرتدياً برّده الشتوي البنفسجي ، المبطن الكثير الدفء ، وجوربه البنفسجي ، وحذاءه الثقيل ، وقبعته المسطحة التي تدلت من زواياها الثلاث ثلاثة ازرار ذهبية على شكل يزور نبات الاسباناخ .

كانت الفرحة تحمل حيناً برز . وفي ميسور المرء ان يقول انه كان يوزع الدفء والضياء في طريقه . فقد كان الشيوخ والاطفال يخرجون الى عتبات بيوتهم التماساً للاسقف كما يخرجون اليها التماساً للشمس . كانت يبارك الناس ، فيباركه الناس بدورهم . وكان اصحاب الحاجات كلهم يُرشدون الى بيته .

وبين الفينة والفينة ، كان يقف ويتحدث الى الصبية والصبايا ، ويتنسم لاهتمامهم . كان يزور الفقراء حين تكون جيوبه مملوءة بالمال . اما حين تفرغ فكان يزور الاغنياء .

واذ قد اُطال في عمر ثوبه الكهنوتي دهرأ لبس بالقصير ، وما كان ليروغب في ان يراه الناس على جسده ، فانه لم يقصد الى المدينة قط الا ببردته البنفسجي المبطن . وكان ذلك يضايقه بعض الشيء ، في الصيف .

حتى اذا عاد ، تناول طعام الغداء . وكان غداؤه مثل فطوره ، سواء بسواء . وفي الساعة الثامنة والنصف مساء كان يتعشى مع اخيه ، وقد وقفت السيدة ماغلوار خلفها ، في انتظار القيام بأيما خدمة يسألانها ايهاا . وليس في ميسور شيء ان يكون اكثر نقشاً من هذا العشاء وأمعن في الزهد . اما حين يكون احد كهنته مدعواً الى تناول العشاء على مائدة فعندئذ كان من دأب السيدة ماغلوار

ان تغتنم هذه الفرصة لكي تعدّ للمونسينيور بعض سمكات البجيرة الممتازة ، او بعض طرائد الجبل اللطاف . كان كل كاهن ذريعة تتخذ لاعداد مائدة جيدة ، وما كان الاسقف ليعترض على هذا . وفي ما عدا ذلك ، لم تكن مائدته العادية لتتألف من غير الحضر المسلوقة ، او الحساء المَعْدَة بالزيت . وهكذا سار بين ابناه المدينة هذا القول : « حين لا يكرم الاسقف وفادة كاهن ، يكرم وفادة راهب من الرهبان الترابيستيين . » \*

وبعد العشاء ، كان من دأبه ان يتحدث نصف ساعة مع الآنسة بابتيستين والسيدة ماغلوار ، ليمضي إثر ذلك الى غرفته ويكتب ، على قصاصات من الورق مستقلة أحياناً ، وعلى هوامش بعض كتبه الكبيرة أحياناً . كان حسن الثقافة ، بل كان عالماً الى حدٍّ ما . لقد خلف خمس مخطوطات او ست مخطوطات غربية . وكان بينها بحث حول هذه الآية من سفر التكوين : « في البدء كانت روح الله يرفّ على وجه المياه . » وهو يقابلها بنصوص ثلاثة : النص العربي الذي يقول : « كانت رياح الله تهبّ » ، ونصّ فلافيوس جوزيف \* الذي يقول : « إن ريحاً من الاعالي هبطت على الارض » ، وترجمة اونكيلوس الكلدانية التي تقول : « ان ريحاً من لدن الله هبت على وجه المياه . » وفي بحث آخر يدرس آثار هوغو ، اسقف بتولياميس ، اللاهوتية - وهو احد انساب مؤلف هذا الكتاب الابعدين - ويثبت ان مختلف المصنفات الموجزة التي نشرت في القرن الماضي تحت اسم « بارليكور » المتعار ينبغي ان تعزى الى هذا الاسقف .

وفي بعض الاحيان كان يستغرق فُجأة - وهو في غمرة من مطالعته ، أباً ما كان الكتاب الذي بين يديه - في تأمل عميق لا يكاد يخرج منه حتى يدوّن بضعة اسطر على صفحات الكتاب نفسها . وكثيراً ما لا تكون لهذه الاسطر

---

\* Trappist وهي رهبنة أسسها في القرن السابع عشر الراهب دو رانسيه في سوليسي لا تراب Soligny - La - Trappe في فرنسا . واشتهر رجالها بالصمت والتمتص .  
\*\* مؤرخ يهودي ، ولد في القدس نحو سنة ٣٧ وتوفي نحو سنة ١٠٠ وعمل في خدمة الرومان .

علاقة ما بالكتاب الذي دوتت على حواشيه . ونحت عينينا الآن ملاحظة كتبها على احد هوامش كتاب من قطع الربع عنوانه «مراسلات اللورد جيرمين مع الجنرالين كليفتون وكورنواليس واميرالات المستعمرة الاميركية . يباع في فوساي بمكتبة بوانسو، وفي باريس بمكتبة بيتو، وصيف الاوغوسطينيين .»

وهذه هي الملاحظة :

«إيه ، أهذا الذي في السموات !

« إن سفر الجامعة يدعوك الكلي القدرة ؛ واسفار المكابيين تدعوك الخالق ؛ ورسالة بولس الرسول الى اهل افسس تدعوك الحرية ؛ وباروخ \* يدعوك السعة التي لا حد لها ؛ والمزامير تدعوك الحكمة والحق ؛ وسفر يوحنا يدعوك النور ؛ وسفر الملوك يدعوك السيد ؛ وسفر الخروج يدعوك العناية ؛ وسفر اللاويين يدعوك القداسة ؛ وسفر عزرا يدعوك العدالة ؛ وسفر التكوين يدعوك الرب الاله ؛ وابن البشر \*\* يدعوك الاب ؛ ولكن سليمان يسميك المرحمة ؛ وهذا هو اجمل اسمائك جميعاً .»

وكان من عادة الامرائين ان تأووا، حوالى الساعة التاسعة مساءً، الى غرفتيها في الدور الثاني ، تاركين اباه وحده ، حتى الصباح ، في الدور الاول . وهنا من الضروري ان نعطي فكرة دقيقة عن منزل اسقف د ...

## ٦

### كيف كان يحمي بيته

كان المنزل الذي احتله يتألف ، كما سلف منا القول ، من طابق ارضي ودور ثانٍ : ثلاث غرف في الطابق الارضي ، وثلاث في الدور الثاني ، وعلبة فوقها .

\* هو باروخ بن نيريا الذي دون نبوءات ارميا ( سنة ٦٠٠ ق . م . )

\*\* اي السيد المسيح .

وراء المنزل انبسط حديقة مساحتها نحو من ربع أكثر . وكانت الامراتان تحتلان الدور الاعلى ، على حين كان الاسقف يجلس في الطابق الارضي . وكانت الغرفة الاولى ، المنفتحة على الشارع ، هي غرفة طعامه ، والثانية هي مهبجه ، والثالثة هي مصلاة . ولم يكن في ميسورك ان تغادر هذا المصلى من غير ان تجتاز بالمهجع ، وان تغادر المهجع من غير ان تجتاز بغرفة الطعام . وكان في اقصى المصلى 'مخدع' \* موصد ينطوي على سرير للضيف ، فبرقد فيه الكهان الريفيون كلما دعتهم شؤون ابرشنتهم وحاجاتها الى ان يقدوا على د ... .

وكانت صيدلية المستشفى ، وهي بناء صغير بجاذي المنزل ويمتد الى الحديقة ، قد تحولت الى مطبخ وبيت للمؤونة .

وكان في الحديقة ايضاً اصطبل ، كان في ما سلف مطبخ المستشفى ، أنزل فيه الاسقف بقرتين . وكان من عادة الاسقف ان يرسل ، كل صباح ، نصف ما تجودان به من لبن ، بالغاً ما بلغ ، الى مرضى المستشفى . وكان يقول : «اني ادفع عشوري ..»

كانت غرفته رحبة جداً ، وكانت تدفئتها عسيرة جداً في ايام الشتاء . واذ كان الحطب غالياً جداً في د ... فقد خطر له ان يقطع من مأوى البقرتين غرفة موصدة ذات حاجز خشبي ، فهو يمضي فيها ليلاليه حين يكون الجو قارساً جداً . وكان يدعو تلك الغرفة «صالونه الشتوي» .

ولم يكن في الصالون الشتوي هذا ، شأن غرفة الطعام ، غير طاولة خشبية بيضاء مربعة ، واربعة كراسي من القش . بيد ان غرفة الطعام كانت تحتوي ، فوق ذلك ، على خزانة قديمة للآنية وادوات الطعام مصبوغة باللون الازهر . ومن خزانة مماثلة مجللة على نحو ملائم بغطاء كتاني ابيض ووشى زائف ، اتخذ الاسقف المذبح الذي زان مصلاه .

وكان نائبوه الاغنياء ونسوة د ... الورعات كثيراً ما يتبرعون بالمال لاقامة

---

\* المخدع ، في المعاجم ، بيت داخل البيت الكبير . وقد اسطغناها هنا لتؤدي من التبرؤف الذي يجلس في جدار الغرفة ويوضع فيه سرير ، او ما يقابل كلمة alcove الفرنجية .

مذبح جديد جميل لمصلى صاحب السيادة . ولكنه كان يأخذ المال ، كل مرة ،  
ويوزعه على الفقراء . وكان يقول : « خير مذبح على وجه الارض روح رجل  
بأنس نعمت » بالغذاء وتوجهت الى الله بالشكر .

وفي مصلاه كان كرسيان فثيان من كراسي التعبّد ، على حين كانت في  
مهبّحه كرسي ذو ذراعين مصنوع من القش ايضاً . فاذا اتفق ان ضمّ منزله  
سبعة زوّار او ثمانية زوّار في آنٍ معاً : المحافظ ، او الجنرال ، او قائد الحامية ،  
او بعض التلاميذ من المعهد الاكبري الصغير ، اضطرّ الاسقف الى ان يمضي الى  
الاصطبل التماساً للكرسي الصالون الشتوي ، والى المصلى التماساً للكرسي  
التعبّد ، والى المهبّح التماساً للكرسي ذي الذراعين . وهكذا كان في ميسوره ان  
يجمع احد عشر مقعداً لزيارته . وعند كل زيارة جديدة ، كانت احدى الغرف  
'تجرد' من أثاثها .

وقد يتفق في بعض الاحيان ان يبلغ عدد الزائرين اثني عشر شخصاً .  
وعندئذ كان الاسقف يخفي 'تحرّج' الموقف بان يلتزم الوقوف امام نار الموقد  
اذا كان الفصل شتاء ، وبان يقترح القيام بجولة في الحديقة اذا كانت  
الفصل صيفاً .

وكان في 'مخدع' الضيوف الموصد كرسيّ اضافي ، ولكنه فاقد نصف قشّه .  
ليس هذا فحسب ، بل لم تكن لهذا الكرسي غير قوائم ثلاث ، فليس في  
المنطّاع استعماله الا 'مسنداً الى الجدار' . وكان في غرفة الآنسة بابتيسين ايضاً  
كرسيّ موثّد ضخم جداً ، مصنوع من الخشب ، كان من قبل 'مذهّباً ومغطى'  
بجرير مزدان برسوم الزهور . ولكن لما كانوا قد اضطروا الى ان يدخلوا هذا  
الكرسي ، اول مرة ، من خلال النافذة ، بسبب ضيق السلم اكثر مما ينبغي ، فلم  
يكن في وسعهم ان يعدّوه في جملة الأثاث المنقول .

وكانت الآنسة بابتيسين ترجو دائماً ان تسكن ذات يوم من شراء  
اثاث صالون موثّد بمخمل او ترخت الاصفر المزدان بالزهور ، على ان يكون  
خشب الماهوغاني على شكل أعناق البجع ، مع أريكة . ولكن ذلك كان

خليقاً به ان يكلفها خمسة فرنك على الاقل . حتى اذا وجدت انها لم توفى الى ان تقتصد لهذا الغرض غير اثنين واربعين فرنكاً ونصف فرنك طوال خمس سنوات ، اضطرت الى ان تتخلى عن مطبخها ذاك . ولكن من ذا الذي يوفى دائماً الى تحقيق مثله الأعلى ؟

وليس في إمكان شيء ان يكون أيسر على التصوّر من مهجع الاسقف : نافذة ، هي في الوقت نفسه بابٌ ، تطلّ على الحديقة . ونجاء هذه النافذة كان السرير ، وهو حديدي من سرر المستشفيات تحيط به سُجفٌ خضر من نسيج صوفي غليظ . وفي ظل السرير ، خلف إحدى السائر ، كانت ادوات الزينة لا تزال تتمّ عن العادات الانيقة التي ألغها الرجل المتوفى . وكان للغرفة بابان أحدهما قرب المستوفد ، ويؤدي الى المصلّى ، والآخر قرب المكتبة ، ويفتح على غرفة الطعام . وكانت المكتبة ، وهي خزانة ضخمة مزججة ، مملّأ بالكتب . اما المستوفد المغطى بخشب دهن بلون الرخام فكان خلواً من النار ، في العادة . وفي المستوفد كان منصبان حديديان مزدانان بزهرتين نقش عليها اكاليل وخطوط طليت ذات يوم بالفضة على نحو كان في ذلك العهد ضرباً من الترف الاسقي . وفوق المستوفد في الناحية التي توضع فيها المرأة عادة نهض تمثال المصلوب نحاسي زايله الطلاء الفضي ، مركزٌ على قطعة من الحمل الاسود البالي يحيط بها إطار من خشب نصل طلاؤه الذهبي . وقرب النافذة كانت طاولة عريضة عليها دواة ، وقد أثقلت بالاوراق المبعثرة والمجلدات الضخام . ونجاء للطاولة كان الكرسي القشبي ذو الذراعين . ونجاء السرير كان كرسيٌ تعبدي مستعارٌ من المصلّى .

وكانت لوحتان في اطارين بيضي الشكل تتدليان على الجدار عند جانبي السرير . وكانت بعض الخطوط الصغيرة المذهبة المرقومة على خلفية القماش الحرة الى جانب الصورتين تشير الى ان إحدى اللوحتين تمثل الراهب دو ساليو ، اسقف سان كلود ، على حين تمثل الاخرى الراهب تورتو ، نائب « آجد » الاسقي العام ، ورئيس دير « غران شان » ، للرهبانية البينوية ، في ابرشية

شارتر . وإنما وجد الاسقف هاتين الصورتين حين خَلَفَ مرضى المستشفى في هذه الغرفة ، فتركهما حيث هما . كانا كاهنين ، ولعلهما ان يكونا بمن جادوا على المستشفى بالهبات - وهما سببان يحملانه على احترامهما . وكل ما عرفه عن هاتين الشخصيتين ان الملك عيّنهما - الاول في اسقفية ، والثاني في منصبه الديني ذي العائدات - في يوم واحد ، هو اليوم السابع والعشرون من نيسان سنة ١٧٨٥ . ذلك ان السيدة ماغلوار نزلت الصورتين ، ذات يوم ، لكي تنفض الغبار ، فاذا بالاسقف يجد هذه الواقعة مدونة بحبر ناصب اللون على قصاصة من الورق صغيرة مربعة أحالت الايام لونها الى الصفرة ، وقد ألصقت بأربع برشامات خلف الصورة التي تمثل رئيس دير « غران شان » .

وكانت على نافذته ستارة عتيقة من قماش صوفي غليظ انتهت الى ان تصبغ بالية الى درجة اضطرت السيدة ماغلوار ، لكي تجتنب شراء ستارة جديدة ، الى ان ترفعها رقعة ضخمة في وسطها تماماً . وكانت هذه الرقعة على شكل صليب ، وكان الاسقف كثيراً ما يلتفت النظر اليها ويقول : « ما احسن الاتر الذي يتركه هذا في النفس ! »

وكانت جميع غرف المنزل ، في الطابق الارضي والدور الثاني ، من غير ما استثناء ، مبيّحة بماء الكلس ، وفقاً للعرف الشائع في الكنائس والمستشفيات . بيد ان السيدة ماغلوار وجدت في السنوات الاخيرة ، تحت ورق الجدار ، كما سنرى بعد ، رسوماً زينت غرفة الآنسة بابتيستين . ذلك بان هذا المنزل كان قبل ان يتخذ مستشفى ، ديواناً يجتمع فيه المواطنون البورجوازيون ، ومن هنا هذه الرسوم . وكانت ارض الغرف مرصوفة بأجر أحمر يُنظف كل اسبوع ، وقد نُشرت جدائل القش امام القُرُش . والحق ان هذا المنزل ، وقد تولت امره سيدتان ، كان ينعم بنظافة بمنازة من اعلاه الى اسفله . وكان ذلك هو الترف الوحيد الذي سمح به الاسقف ، قائلاً : « ان هذا لا يسلب الفقراء شيئاً . »

ومع ذلك فينبغي ان نعتوف بأنه ظل يحتفظ بما كان يملكه من قبل بستة

اطباق فضية وملعقة حساء فضية ضخمة كانت السيدة ماغلوار تتأملها كل يوم في ابتهاج جديد ، وقد تألفت فوق غطاء المائدة الكثافي الابيض الحشن . واذ كنا نصورُ هنا اسقف ... كما كان ، فيتعين علينا ان نضيف انه قال غير مرة : « من العير عليّ ان أفلح عن تناول الطعام بآنية الفضة . »

وينبغي أن يُضاف الى هذه الآنية الفضية شمعدانان فضيان ضخمان ورثهما من اخت الجد . وكان هذان الشمعدانان يحملان شمعتين ، وكانا ينهضان عادة فوق مستوقد الاسقف . فاذا اتفق أن تناول طعام الغداء مع الاسقف ضيفُ ما فعندئذ كانت السيدة ماغلوار تشعل الشمعتين ، وتضع الشمعدانين على المائدة . وكانت في غرفة الاسقف ، عند رأس مريره ، خزانة جدارية صغيرة تعودت السيدة ماغلوار ان تضع فيها كل مساء الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة . ولكن يتعين علينا ان نقول ان المفتاح لم يُنزع من تلك الخزانة قط .

أما الحديقة التي أفسدها بعض الشيء تلك المنشآت القبيحة التي تحدثنا عنها من قبل ، فكانت تتألف من اربعة مباشر متصالبة عند بالوعة تتوسط الحديقة . وكان ثمة شمسى آخر يمتدّ حول الحديقة في محاذاة الجدار الابيض الذي يطوقها . وكانت هذه الماشي تترك في ما بينها اربعة مربعات يهدبها شجر البقس . \* وفي ثلاثة من هذه المربعات زرعت السيدة ماغلوار شيئاً من الحضر . وفي رابعها زرع الاسقف بعض الازهار . وكانت تقوم ههنا وهناك بضع أشجار مشرة .

وذات يوم قالت له السيدة ماغلوار في ضرب من اللوم الرفيق : « موانسينيور ، أنت تحرص دائماً على ان تقيد من كل شيء ، ومع ذلك فههنا رقعة من الارض قد أهملت فليس فيها غناء . ولقد كان من الخير لنا لو جعلنا فيها سَلْطَةً بدل باقات الزهور . » فأجابها الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار : انت مخطئة . ليس الجبل اقلّ غناءً من المفيد . » وسكت لحظة ثم أضاف : « بل لعله اكثر منه غناءً . »

وكان هذا المربع ، المؤلف من ثلاث مساكب او أربع ، يشغّل الاسقف

---

« البقس : شجر كالأس ورداً وجباً .



بقدر ما تشغله كتبه تقريباً . كان من دأبه ان يقضي ثمة ساعة او ساعتين ، مقلداً الاغصان ، متأصلاً الاعشاب ، حافراً هنا وهناك ثقباً يغرس فيها البذور . إنه لم يكن معادياً للحشرات عداء البستاني لها . وما كان ليدعي شيئاً من المعرفة في علم النبات ، جاهلاً الفصائل واسباب الامراض . كان لا يبالي اقل ما تكون المبالاة بأن يفاضل بين نورفور \* والطريقة الطبيعية . ولم يكن يتعصب للحويصلات على الفلقات ، ولا لـ « جوسيو » \*\* على « ليشي » \*\*\* . إنه لم يدرس النباتات ؛ ولكنه احب الازهار . كان عظيم الاحترام للعلماء ، ولكن احترامه للجهلة كان اعظم . ومن غير ان يعوزه هذان الاحترامان كان يسقي مساكبه كل ليلة من ليالي الصيف بمرشحة صفيحة دهن بلون أخضر .

ولم يكن لا يما باب من ابواب المنزل قفل . والواقع ان باب غرفة الطعام المفتوح ، كما أسلفنا ، على اراضي الكاندرائية كان من قبل 'مقلداً بالمقاتل والمزالج مثل ابواب السجون . فأصدروا الاسقف أمره بنزع هذا الحديد كله ، فاذا بالباب لا يُقفل ، في الليل وفي النهار سواء بسواء ، الا ببقاظة . وكان في ميسور عابر السيل ، في اياما ساعة من ساعات اليوم ، ان يفتحه بمجرد دفعه دفعا رقيقا . وفي بادىء الامر عصف الفلق بالامرأتين بسبب من هذا الباب الذي لا يُقفل ابداً . ولكن اسقف د... قال لهما : « ضعا القضبان الحديدية على ابواب غرفكما ، اذا راق لكما ذلك » . ولكنهما انتهتا الى ان تشاركاه ثقته ، آخر الامر ، او الى ان تسلكا وكأنهما تشاركاه هذه الثقة ، على الاقل . بيد ان السيدة ماغلوار وحدها كانت تصاب بنوبات دعر طارئة . اما فيما يتصل بالاسقف ، ففي ميسورنا

---

\* Tournefort نباتي ورحالة فرنسي ( ١٦٥٦ - ١٧٠٨ ) كان له فضل كبير في تصنيف المملكة النباتية .

\*\* انطوان لوران جوسيو Jussieu نباتي فرنسي شهير ولد في ليون ومات في باريس ( ١٧٤٨ - ١٨٣٦ ) وكان صاحب نظام طبيعي في تصنيف النباتات ادى الى إلغاء طريقة العالم ليني .

\*\*\* شارل دو لين Linné نباتي سويدي شهير ( ١٧٠٧ - ١٧٧٨ ) صنف النباتات اربعة وعشرين صنفاً على اساس الصفات المنتزعة من عدد الانسجة وانتظامها .

ان نجد فكرته مشروحة ، او مشاراً اليها على الاقل ، في هذه الاسطر الثلاثة التي خطها بقلمه على هامش نسخة من الكتاب المقدس : « هذا هو ظل المعنى : إن باب الطبيب يجب ان لا يُغلق ابداً . وإن باب الاسقف يجب ان يظل مفتوحاً ابداً . »

وفي كتاب آخر موسوم بـ « فلسفة العلم الطبي » دون هذه الملاحظة أيضاً : « ألتُ طبيباً مثلهم ؟ إن عندي ، انا ابضاً ، مرضاي . عندي أولاً رضام الذين يدعونهم معتلي الاجسام ، وعندي بعد ذلك مرضاي الذين أدعوم المساكين . »

وكتب أيضاً في موضع آخر : « لا تَسَلْ ذلك الذي يلتبس منك فراشاً يأوي اليه عن اسمه ما هو . لان الرجل الذي يُثقله اسمه وبضايقه هو أشد الناس حاجة الى المأوى . »

ولقد خطر لكاهن جليل لست أدري بعد أكان كاهن كولورو أم كاهن بومبييري ان يسأله ذات يوم ، ولعله فعل هذا بتعريض من السيدة ماغلوار ، ألا يظن سيادته ان تم شيئاً من الحط في ترك بابيه ، ليلاً ونهاراً ، تحت رحمة ايما راغب في الدخول ؟ ألا يخاف آخر الامر ان تحل مصيبة ما بمثل هذا البيت الذي لا يتمتع بأقل الحراسة ؟ فوضع الاسقف يده على كتفه ، في رفق وقال :

« Nisi Dominus custodierit domum . in vanum vigilat qui custodiunt eam . » \*

ثم انتقل الى الكلام في موضوع آخر .

وكثيراً ما كان يقول : « للكاهن شجاعته ، كما أن لقائد سلاح الفرسان شجاعته . » ثم يضيف : « ولكن شجاعتنا ينبغي أن تكون هادئة . »

## ٧

### كرافات

هذا هو المكان الملائم لذكر حادثة ينبغي ان لا 'نغفلها ، لأنها احدى تلك

« قول لاثيني مناه : « اذا لم يصنر الآلهة بيتاً من البيوت صناً بحرسه حرّاسه » . »

الحوادث التي تربنا باكثر ما يكون من الوضوح أي رجل كان اسقف د ...  
بعد ان قضي على عصابة غاسبار ييس التي عاثت فساداً في غارم اوليفول ، فرع  
احد قادتها ، واسمه كراقات ، الى الجبال . لقد توارى عن العيان فترة من  
الزمن ، مع قطاع طرقه وهم فلول قوات غاسبار ييس ، في ولاية نيس ، ثم  
اتخذ سبيله الى ببيدمونت ليعاود الظهور في فرنسة ، قرب اقليم بارسلونيت .  
لقد رُئي اول الامر في جوزيه ، ثم في توريل . لقد اختبأ في كهوف جونغ  
دوليل ، ومن هناك كان يهبط الى الدساكر والقرى عبر وادي « اوباي »  
و « اوباييت » . بل لقد تجرأ على ان يندفع حتى امبيرون ، واقتحم ذات ليلة  
الكاتدرائية وسلب مخزن الامتعة المقدسة . وخربت غاراته تلك الديار ودعت  
سكانها الى هجرها . وُجرت عليه سرايا الدرك ، ولكن عبثاً . كان يفر دائماً ،  
وفي بعض الاحيان إثر مقاومة عنيفة . كان بائساً جريء الفؤاد . وفي غمرة من  
هذا العزل كله وصل الاسقف . كان يقوم بجوالة الرعائية . وفي شاستيلار أقبل  
العمدة للقاءه وحضه على العودة . فقد كان كراقات يسيطر سلطانه على الجبال  
حتى آرش وما وراها . وثمة خطر على الاسقف حتى ولو كان يحوطاً بحرس .  
وقد يعرض ذلك حياة ثلاثة او اربعة من رجال الدرك الساكنين للهلاك ، على  
غير طائل .

قال الاسقف : « وهكذا فانا اعتمد ان امضي من غير حرس . »

فصاح العمدة : « اتفكر بشيء مثل هذا ، يا صاحب اليادة ؟ »

« اني افكر في ذلك الى حد يحلني على ان ارفض حراسة الدرك رفضاً

باتاً ، وعلى ان انطلق بعد ساعة . »

« تنطلق ؟ »

« اجل ، انطلق . »

« وحده ؟ »

« وحدي . »

« مونسيور ، انك لن تقدم على ذلك . »

فأجاب الاسقف : « إن هناك في الجبل جماعة صغيرة حقيرة لم أرها منذ ثلاث سنوات . إن أفرادها من اصدقائي الخُلص ، وهم فلاحتون أمماء ذوو وداعة . إنهم يملكون شاة واحدة من ثلاثين يرعونها . وهم يصنعون خيوطاً صوفية جميلة ذات ألوان متعددة ، ويعزفون ألحانهم الجبلية على مزامير صغيرة في كل زمار منها ستة ثقوب . وهم في حاجة الى من يمدّتهم ، بين الفينة والفينة ، عن رحمة الله . وما الذي سوف يقولونه في اسقف يُسلم به الخوف ؟ ما الذي سوف يقولونه اذا لم أفدّ عليهم ؟ »

« وقطاع الطرق ، يا صاحب السيادة ؟ واذا التقيتَ بقطاع الطرق ؟ »  
فقال الاسقف : « صحيح . أنا لم أفكر في هذا . انت على صواب . قد ألتقي بهم . لا ريب أنهم هم ايضاً في حاجة الى من يمدّتهم عن رحمة الله . »  
« مونسنيور ، ولكنها عصابة ! إنها قطيع من الذئاب ! »  
« لعل يسوع قد جعلني راعي ذلك القطيع بالذات ، يا سيدي العمدة . من ذا الذي يعرف اساليب العناية الالهية ؟ »

« ولكنهم سوف يسرقونك ، يا صاحب السيادة . »  
« ليس معي شيء . »  
« واذن ، فسوف يقتلونك . »  
« يقتلون كاهناً عجوزاً بسيطاً يمضي لسبيله متمتماً بصلواته ؟ لا ، لا ، اي نفع يكسبونه من ذلك ؟ »

« آه ، يا الهي ! إفرض انك التقيت بهم ! »  
« عندئذ أسألمهم صدقة لفقرائي . »  
« مونسنيور ، لا تذهب ، بحق السماء ! إنك تعرّض حياتك للخطر . »  
فقال الاسقف : « وهو كذلك ، يا سيدي العمدة . أنا لم أوجد في هذا العالم لكي اصون حياتي ، ولكن لكي أصون نفوس الناس . »

ولم يكن في ميسور العمدة ان يثنيه عما اعتزم . فانطلق وليس يصحبه غير غلام تطوّع ان يكون له دليلاً . كان عناده حديث المقاطعة ، ولقد خشي القوم

كلهم عواقبه .

ولم يشأ أن يصطحب لا اخته ولا السيدة ماعلوار . واجتاز الجبل على متن بغل ، ولم يلتق انساناً ما ، وانتهى آمناً سالماً الى « اصدقائه الخلقص » الرعاة . واقام هناك خمسة عشر يوماً ، واعظاً ، مانحاً الاسرار الدينية ، معلماً ، منذراً . حتى اذا أوشك على مفارقتهم اعتزم ان ينشد « تسبحة الشكر » على نحو احتفالي . وتحدث الى الكاهن في ذلك . ولكن كيف السبيل الى إنفاذه ؟ لم يكن ثمة « حلل » أسقفية . ولم يكن في مستطاعهم ان يقدموا اليه غير مخزن حقير من مخازن الامتعة المقدسة القروية ، وبضع حلل كهنوتية عتيقة من دمقس مهتري . مزدانة بأشرطة حريرية زائفة .

وقال الاسقف : « لا بأس . ايها الكاهن المحترم ، اعلن في الموعظة اننا سوف نؤدي تسبحة الشكر . ولا بد ان يسوي الامر نفسه بنفسه . » وبحسوا في الكنائس المجاورة ، ولكن كل الامتعة المترفة التي جمعت من هذه الابريشيات المتواضعة على اختلافها لم تكن كافية لالباس منشد كاندرائي واحد على نحو ملائم .

وفيما هم في غمرة من هذا الحراج حل فارسان مجهولان صندوقاً ضخماً الى دار الكاهن وتركاه هناك من اجل الاسقف ، ثم غادرا الدار في الحال . وفتح الصندوق ؛ فاذا فيه غفارة \* من جورخ مذهب ، وتاج اسقفي مزدان بالماس ، وصليب من الصلبان التي يحملها رؤساء الاساقفة ، وعصا اسقفية فخمة ، وجميع الملابس الاحتفالية التي « سرقت منذ شهر من كاندراية ايمبرون . وكانت في الصندوق ورقة كتبت عليها هذه الكلمات : « من مكروافات الى مونسينيور بيغنيشو » .

وقال الاسقف : « لقد قلت ان الامر سوف يسوي نفسه بنفسه . » ثم اضاف في ابتسامة : « ان من يقنع بقميص الكاهن الخارجي يرسل الله اليه غفارة رئيس اساقفة . »

\* الغفارة رداء يليه اجار الكنية في الكنية .

ونغم الكاهن وهو يز رأسه ويبتسم : « مونسينيور ، الله .... أو الشيطان . »

ونظر الاسقف الى الكاهن نظراً موصولاً ، وقال في قوة : « الله ! ، حتى اذا انقلب الى شاستيلر احتشد الناس على طول الطريق بمجدوم الفضول الى رؤيته . وفي دار الكاهن هناك ، وجد الآتنة بابتيسين والسيدة ماغلوار ننظرانه ، فقال لأخته :

« واخيراً ، ألم اكن على صواب ؟ لقد قصد الكاهن الفقير صفرَ اليدين الى هؤلاء الجلبلين الفقراء ، ثم رجع مليء اليدين . لقد مضت متكللاً على الله وحده ، وها قد عدت حاملاً كنوز كاندراثة بكاملها . »

وفي المساء اضاف ، قبل ان يزوي الى فراشه : « لا يأخذكم الخوف من اللصوص والفتاك ابدأ . مثل هذه المخاطر خارجية ، وهي اصغر المخاطر واسألاً شأناً . يجب ان نخشى انفسنا . إن الضمائر هي اللصوص ، وإن الرذائل هي الفتاك . ان الاخطار العظمى كامنة في داخلنا . واي بأس في ان تعرض رؤوسنا او اكياس نقودنا للخطر ؟ ينبغي ان لا نفكر الا بما يتهدد نفوسنا . »

ثم التفت الى اخيه وقال : « ابنتها الاخت ، يعمين على الكاهن أن لا يتخذ أبياً وقاية ضد جاره . إن ما يفعله جاره بسمع به الله . فلنقتصر على الصلاة لله حين نرى الى الخطر يتهددنا . فلنضرع اليه ، لا من اجل ذواتنا ، بل لكي لا يتورط أخ لنا في الاثم ، بسبب منا . »

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الاحداث نادرة في حياته ، وانما نقص هنا ما نعرفه منها . ولكنه كان ينفق حياته ، عادة ، بأن يفعل الاشياء في اللحظات نفسها . كان الشهر من سنته يشبه الساعة من يومه .

أما ما حل به و كنوز كاندراثة ايمرون فذلك ما يربكنا أن نسأل عنه الآن . كانت بينها اشياء كثيرة فاتتة جداً ، مغربة جداً ، صالحة جداً لان تسرق لمصلحة الساكنين . لقد سبق لآخرين ان سرقوها من قبل . ولقد تم

نصف المغامرة ؛ فلم يبقَ إلا أن تُغيّر وجهة السركة ، وأن نحول الى ناحية الفقراء . ولبس في ميسورنا ان نقول شيئاً أكثر في هذا الموضوع . كل ما نستطيع ان ننصّ عليه أنه وجدت بين اوراق الاسقف مذكرة شديدة الغموض لعلها تتصل بهذه المسألة ، وهي تقول : « إن السؤال هو هذا : أبنغي ان نعاد هذه الى الكاتدرائية أم الى المستشفى ؟ »

## ٨

### فلسفة ما بعد الغداء

كان عضو مجلس الشيوخ الذي اشرنا اليه من قبل رجلاً ذكياً شقّ طريقه في الحياة في استواء هدف لم يبالِ البتة بجميع تلك العقبات التي تعترض سبيل الناس ، والتي ندعوها الضمير ، والوفاء المعزّز بقسم ، والعدل ، والواجب . لقد اندفع نحو هدفه اندفاعاً مستقيماً من غير ان يجيد ذات مرة عن جادة تقدّمه ومصالحه . كان في ما مضى وكيلاً قضائياً ، لأنه النجاح ، ولم يكن رجلاً رديئاً مجال . وكان يقدم جميع الخدمات الصغيرة التي قدّر عليها الى ابنائه ، وأصهاره ، وانبيائه على وجه العموم ، وحتى الى اصدقائه ، متعتّياً في حكمة بجانب الحياة البهيج ، مفيداً من جميع فرصها المتاحة الطيبة . أما ما عدا ذلك فكان يبدو في عينه عملاً معنّياً في الحق . كان مرحاً طروباً ، وكان على قدر من العلم كافٍ لان يجعله يحسب نفسه تلميذاً من تلاميذ أبيقور ، في حين أنه لم يكن - في ما يبدو - اكثر من ثمرة من ثمرات بينغو لوبران \* . كان يضحك في غفوة واستمتاع من أشياء خطيرة وأزلية ، ومنه الكلام الباطل الذي ينطق به الاسقف الطيّب . « وكان يضحك منها أحياناً ، وعلى وجهه سيم الرجل

\* Lebrun - Pigault كاتب فرنسي ( ١٧٥٣ - ١٨٣٥ ) وضع عدّة روايات داعرة خلية

المتنازل ، في حضرة الاسقف نفسه الذي كان يُصغي .  
ولست أدري في ايّ من الحفلات نصف الرسمية تناول الكونت ... ( وهو  
عضو مجلس الشيوخ هذا ) وصاحب السيادة ميربيل طعام الغداء في منزل المحافظ .  
وحين 'قدّمت الفاكهة صاح الشيخ وقد استخفه التمل بعض الشيء ، وإنّ لم  
تفارقة سبيل الوقار :

« بربّك يا سيدي الاسقف ، دعنا نتحدث . إنّ من العسير أن يلتقي  
اسقف وعضو في مجلس الشيوخ من غير أن يتغامزا . نحن عرّافان . وإنّ عندي  
اعتراضاً أريد أن أدلي به اليك ؛ إنّ لي فلسفتي الخاصة . »

فأجابه الاسقف : « أنت على صواب . كما يضع المرء فلسفته ، كذلك  
يرقد . أنت ترقد على فراش ارجواني ، يا سيدي الشيخ .  
ووجد الشيخ في ذلك ما شجعه ، فأضاف :  
« لنكن ولدَيْن صالحين . »

فقال الاسقف : « بل غفريتين صالحين ايضاً . »  
فتابع عضو مجلس الشيوخ : « أوكد لك ان المركيز دارجيان \* ،  
ويرون \*\* ، وهوبس \*\*\* والسيد نيجون \*\*\*\* لبسوا اوغاداً . إنّ  
جميع فلاسفتي مذهبوا الحوافي في خزانة كتيبي . »  
فقاطعه الاسقف : « مثلك أنت ، يا سيدي الكونت . »  
وتابع عضو مجلس الشيوخ قائلاً :

« أنا اكره ديدرو . إنه ايدبولوجي ، غوغائي ، ثوري ، مؤمن في قرارة

---

\* Marquis d'Argens اديب فرنسي ( ١٧٠٤ - ١٧٧١ ) وضع آثاراً عديدة يرشح بعضها  
بالتك في الله .

\*\* Pyrrhon اول الشكوكيين الاغريق الكبار في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان ينصّر  
ان يكون بلوغ الحقيقة في ميور الانسان .

\*\*\* Hobbes فيلسوف انكليزي ( ١٥٨٨ - ١٦٧٩ ) ، وكان ينادي - في حقل الفلسفة -  
بالمادية ، وفي حقل الاخلاق بنبذة المصلحة الانانية ، وفي حقل السياسة بالطغيان .

\*\*\*\* Naigeon اديب فرنسي ( ١٧٣٨ - ١٨١٠ ) 'عرف بتفكيره المادي' الالحادي .



نفسه باقه ، وأشدّ تعصباً من فولتير . لقد سخر فولتير من نيدهام \* ولم يكن في هذا مصيباً . ذلك بأن أنقليسات \*\*\* نيدهام ثبتت ان الله غير ذي غناه . إن نقطة من الخل في ملعقة من العجين قد سدّت مسدّاً *fias lux* \*\*\* . ولنفرض ان النقطة كانت اكبر وان الملعقة كانت أضخم ، وعدنذيتم لنا هذا الكون . إن الانسان هو الانقليس . واذن فأَيّ فائدة للأب الازليّ ، بعد ذلك ؟ ان فرضية *يوهه* \*\*\*\* تعبني ، يا سيدي الاسقف . انها لا تصلح لشيء غير انتاج اناس مهزولي الاجسام فارغي الرؤوس . فليحفظ هذا « الكلي » الكبير الذي يرعجن ويقتصر مضجعي ! وليحي « الصفر » الذي يورثني الراحة والطمانينة ! ويبي وبينك ، ولكي أفضي بسريرة نفسي ، وأعترف لكاهني ، كما ينبغي لي ، فسوف أقرّ بأن عندي حصافة . انا لست مجنوناً يسوعك الذي يبشّر عند كل حقل بالنسك والتضحية . تلك نصيحة البخيل للشحاذين . التنسك ! لماذا ؟ التضحية ! من اجل ماذا ؟ انا لا ارى غير ذنب يضحي بنفسه من اجل سعادة ذنب آخر . فلنلزم الطبيعة اذن . نحن في القمة ، ولتكن لنا فلسفة اسمي . وماذا يفيدنا تربّ معنا في القمة اذا لم نستطع ان نرى الى ابعد من أنوف الآخرين ؟ لنعش في مرح وابتهاج ؛ فالحياة هي كل ما نملك . أما القول بأن للانسان حياة ثانية ، في مكان آخر ، فوق ، تحت ، في أيما مكان - فزعم لا اصدق كلمة واحدة منه . آه ، انهم يوصونني بالتضحية ، والتنسك ، وبأن الزم الحذر في كل ما اعمله ، وبأن احطّم رأسي في التفكير بالخير والشر ، والعدل والظلم ، وبالخلال والحرام . لماذا ؟ لأن عليّ ان اقدم حساباً عن أعمالي . متى ؟ بعد الموت . أيّ حلم جميل ! انسي

\* Needham طبيب انكليزي ولد في لندن وتوفي في بروكل ( ١٧١٣ - ١٧٨١ )  
وقد دارت بينه وبين فولتير مساجلات عنيفة .

\*\* الانقليس او الخنكليس : ضرب من السمك معروف .

\*\*\* في اللاتينية ، ومعناها « ليكن نور ! » . وفي ذلك اشارة الى ما جاء في سفر التكوين :  
« وقال الله ليكن نور فكان نور . » وقد انتهى هذا الاصطلاح الى ان يفيد معنى الخلق او الابداع من عدم .

\*\*\*\* اسم الله في العهد القديم ( التوراة ) .

بعد ان اموت لفي حاجة الى اصابع ناعمة لكي تلتقطني . وكمنى لو ارى يداً من الظل تلتقط حفنة من الرماد . لنقل الحقيقة ، نحن الذين اطلعنا على الامرار ورفضنا تنورة ايزيس : ليس ثمة خير ولا شر . ليس ثمة غير وجود جسدي فحسب ، فلنلتصم الحقيقة . فلننبش كل شيء . فلنذهب الى الاعماق . ينبغي ان نستروح الحقيقة ، ان نحفر الارض التماساً لها ، ونضع يدنا عليها . وعندئذ تمنحنا الحقيقة مباحج عذاباً ، وعندئذ نغدو اقوياء . انا مقتنع ، أوطد الاقتناع ، ياسيدي الاسقف ، بأن خلود الانسان مراب . أوه ، يا للوعد الفاتن ! توكل عليه اذا شئت ! تلك رسالة التوصية التي كانت لأدم ! إن لنا ارواحاً ، وانما سوف نصبح ملائكة ، وان اجنحة زرقاء سوف تنمو عند اكتفائنا . قل لي ، الآن ، أليس توتوليان \* هو الذي يقول ان السعداء الطوباويين سوف يذهبون من كوكب الى آخر ؟ حسناً ، واذن فسوف نصبح جراد السهوات . وعندئذ سنرى الله . هي ، هي ، هي ، هي ! سخيفة هذه الجنات كلها . وليس الله غير اسطورة هائلة . انا لن اقول ذلك في صحيفة « مونيتور » طبعاً ، ولكني احرص به بين اصدقائي . *Inter pocula* \*\* ولأن بضحي المرء بالارض من اجل الجنة اشبه شيء بالتخلي عن الفريضة للتعليق بالظل . انا لست مفقلاً بحيث نخدعني للانهابة . انا لا شيء . انا ادعو نفسي الكونت لا شيء ، عضو مجلس الشيوخ هل وجدت قبل ولادتي ؟ لا . هل سأوجد بعد موتي ؟ لا . اي شيء انا ؟ قليل من الغبار ركة جسم عصري . ما الذي ينبغي لي ان افعله على سطح هذه الارض ؟ انا مختير بين واحد من اثنين : ان أكابد أو ان استمتع . الى ابن تقودني المكابدة ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد كابدت . الى ابن يقودني الاستمتاع ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد استمتعت . لقد اخترت سبيلي . يجب ان آكل أو أن أؤكل . وأنا اختار ان آكل . انا أوثر ان اكون السن لا العشب . تلك هي فلسفتي . وبعدها ، كما اقول لك ، يجيء حفار القبور . البانتيون \*\*\*

\* Tertullien لاهوتي نصراني من ابناء شمال افريقية . ( ١٥٠ ؟ - ٢٤٠ م )

\*\* اصطلاح لاطيني معناه : بين الاختداح أو في مجلس المحر .

\*\*\* Pantheon الاثر الباريسي الشهير حيث يرقد نفر من هؤلاء الرجال الفرنسيين .

بالنسبة اليانا نحن . ولكننا كلنا نقط في الهوة العظيمة النهائية ، النصفية الكاملة . هذه هي نقطة الثلاثي . إن الموت مثبت . صدقني . انا اسخر من الفكرة القائلة بأن ثمة كائناً ما عنده شيء بقوله لي . ذلك من اختراع المرضعات : الفزاعة \* للاطفال ، ويهوه الرجال . لا ؛ إن غداً ظلام . وليس وراء القبر غير أعدام \*\* متساوية . لقد كنت ساردانا بال \*\*\* او كنتَ فلان دو بول \*\*\*\* - لا فرق . تلك هي الحقيقة . فلنعش ، إذن ، فوق كل شيء . إستعمل شخصيتك ما دمت مالكاً لها . في الحس ، اقول لك ياسيدي الاسقف ، إن لي فلسفتي وإن لي فلاسفتي . انا لا اسمع لنفسي بأن اقع في شرك الهذر والمراء . ولكن من الضروري ان يكون ثمة شيء لمن هم دوننا من الناس ، للحفاة ، لشاحذي السكاكين ، للبؤساء . نحن نقدم اليهم الحرافات ، والالوهام ، والروح ، والحلود ، والجنة ، والنجوم لكي يتلعوها . انهم يخضفون ذلك . انهم ينشرونه على خبزهم الجاف . فمن عديم كل شيء ، لم يدمر الله الخير ذلك اقل ما يستطيع ان يفوز به من خير . انا لا اعترض على ذلك ، ولكنني احتفظ بالسيد نيجون لنفسي . إن الله الخير لا يصلح إلا للشعب .

وحقق الاسقف ، وصاح : ذلك هو الرأي . هذه المادية شيء ممتاز ، شيء رائع حقاً ، فليرفضها من اراد . آه ! حين تم هذه المادية لامري ، فعندئذ لا

---

« ما يخوف به ، وما ينصب في المزرعة تخويفاً للوحش .

» جمع عديم .

\*\*\* ساردانا بال : شخصية خرافية تزعم الاساطير القديمة انها ملك اشوري حكم من سنة ٨٣٦ الى سنة ٨١٧ ق . م . وكان آخر من تحدر من الملكة الاسطورية ميراميس . ولا يزال ساردانا بال الى اليوم رمزاً للامبر الفاجر المخذل .

\*\*\*\* St. Vincent de Paul مصلح فرنسي كاثوليكي ( ١٥٧٦ - ١٦٦٠ ) رفع الى مقام القديسين .

يبقى غرّاً مخدوعاً ، ولا يسمح لنفسه ، في بلاهة بأن يُنفى مثل كاتو \* او يُرجم بالحجارة مثل اسطفان \*\* ، او يُحرق حياً مثل جان دارك . إن اولئك الذين فازوا بهذه المادية الرائعة يسعدون بالشعور بأنهم غير مسؤولين ، وبالتفكير في ان باستطاعتهم ان يلتهبوا كل شيء في طائفة : - الاماكن ، والمناصب التي تجري على اصحابها الرواتب من غير ان تقتضيهم عملاً ما ، والرتب ، والسلطان سواء اكتسب بالاساليب الحثيرة او الاساليب الشريرة ، وضروب الانكار المُرعبة ، والحيات المفيدة ، وتخدير الضير على نحو تعذب لذيد ، وانهم سوف يدخلون قبورهم وقد اتموا واجبهم الهضمي . ما اجل هذا وما احبه الى النفس ! انا لا اقول ذلك من اجلك ، يا سيدي الشيخ . ومع هذا ، فليس في ميسوري الا ان اهنتك . إن لكم ايها السادة الكبار ، كما تقول ، فلسفة خاصة بكم ، جعلت لمنفعتكم الذاتية - فلسفة ممتازة ، رفيعة ، ليست في متناول احد غير الاغنياء ؛ فلسفة تصلح في جميع الاحوال ، وتضيف التوابل إضافة رائعة ، الى ملذات الحياة . هذه فلسفة يُغاص عليها في الاعماق البعيدة ، ولا يفوز بها إلا باحثون مخصوصون . ولكنكم امرء طيبون ، ولستم تجدون ضرراً ما في ان يكون الايمان بالله الحثير هو فلسفة الشعب ، كما ان الاوز بالكتناء هو ديك الفقراء الرومي المطبوخ مع الكمأة ، على وجه التقريب . ،

## ٩

### الاخ كما تصوره الاخت

ولو اردنا ان نقدم صورة عن حياة اسقف ... المنزلية ، وكيف أخضعت

---

\* Cato زعيم وخطيب روماني ( ٢٣٢ - ١٤٧ ق.م ) اشتهر بزمته وببداياته الشديدة لفرط طاعة ، وهو صاحب الكلمة المشهورة « يجب ان نذهب فرط طاعة » .  
 \*\* القديس اسطفان : اول شهداء النصرانية ، وقد رجم بالحجارة في بيت القدس .

هاتان المرأتان الطيبتان اعمالهما ، وافكارهما ، بل وغرائزهما الذنوية التي يسهل تزويجها ، لعادات الاسقف ومقاصده من غير ان يحشم نفسه مجرد الكلام للتمبير عنها ، فلن نجد خيراً من ان ننسخ رسالة كتبتهما الآنسة باتيستين الى رفيقة صباحا السيدة الفيكونتيس دو بواشيفرون . ان هذه الرسالة بين ايدينا .

د . . . . . ١٦ كانون الاول سنة - ١٨

« سيدتي الطيبة . لا ينقضي يوم إلا وتحدث عنك . لقد غدا ذلك عادة من عاداتنا ، ولكن لدينا الآن سبباً اضافياً . هل تصدقين ان السيدة ماغلوار اكتشفت بعض الاكتشافات وهي تغسل القوف والجدران وتغض عنها الغبار ؟ ان غرفتنا المغطاة جدرانها بالورق العتيق المبيض بماء الكلس ما عادت تشوّهان قصراً مشيداً على طراز قصر ك . لقد نزعَت السيدة ماغلوار ذلك الورق كله ، فاذا بها تجد أشياء خلفه . ان صالوني العاطل عن الاثاث والذي نطعمه لنشر الملابس المفسولة حتى تجف ، يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً ، ويبلغ كل من طوله وعرضه ثمانية عشر قدماً ، وله سقف ازدان في ما مضى بالتصاوير المذهبة ، سقف ذو عوارض خشبية كالتي في منزل ك . وكان ذلك مغطى بنسيج القنب منذ ان كان منزلنا مستشفى . واخيراً ، هناك البطانة الخشبية التي ترفى الى عهد جداتنا . ولكن غرفتي الخاصة هي التي ينبغي لك ان تزيها . لقد اكتشفت السيدة ماغلوار ، تحت عشر طبقات من الورق على الاقل ، بعض الصور التي قد لا تكون جيدة ، ولكنها مقبولة . فصورة تمثل تيلباك\* على صورة جواده ، ومينيرفا تقبله . واخرى تمثل في الحدائق - لقد نسبت اسمها . وثالثة تصور المكان الذي آوت اليه السيدات الرومانيات ليلة ليس غير . اي شيء اقول لك بعد ؟ ان عندي رومانيات ورومانين ( هنا كلمة غير مقروءة ) وحاشيتهم كلها . لقد نظفت السيدة ماغلوار ذلك كله ، واسوف تصلح خلال

\* Télémaque ابن اوليس وبينلوب . كان طفلاً حين قصد ابوه الى طروادة ، ولقد انطلق هو في ما بعد لبحث عنه تتوده مينيرفا ، الآهة الحكمة والفنون .

هذا الصيف بعض العيوب الصغيرة ، وتعيد صقل الرسوم كلها ، وعندئذ تصح  
عرفتي متحفاً حقيقياً . كذلك وجدت في إحدى زوايا العلبة منضدتي بهو  
منحني القوائم من الضرب الذي يُسند الى الحائط . ولقد اقتضانا أهل الصناعة  
دينارين فضين من ذوات الست ليرات لاعادة تذهيبها ، ولكن من الخير ان  
نقدم ذلك الى الفقراء . والى هذا ، فهما قبيحتان جداً ، وانا أوتر عليها منضدة  
مستديرة من خشب الماهوغاني .

« انا سعيدة دائماً . إن اخي طيب جداً . إنه يقدم كل ما يملك الى الفقراء  
والمرضى . نحن جد متضايقين . فالجوت فارس جداً في الشتاء ، ويتعين على المرء  
أن يُسدي خدمة ما الى المعوزين . نحن على الأقل نتمتع بالدفء والنور ،  
وانت تعرفين أن الدفء والنور مُتعتان كبيرتان .

« إن لأخي عاداته الغريبة . وهو حين يتحدث يقول ان الاسقف ينبغي ان  
يكون هكذا . تصوري أن باب المنزل ليس يُغلق أبداً . ان اينا اُمرى  
يستطيع ان يدخله ، فاذا هو في الحال ضيف اخي . إنه لا يخشى شيئاً ، حتى في  
الليل . وهو يقول ان هذه هي شجاعته الخاصة .

« إنه يود أن لا يأخذني الحرف عليه ، وأن لا يستبد الجزع بالسيدة ماغلوار  
ابيضاً . وهو يعرض نفسه لضروب المخاطر جميعاً ، ويؤثر ان لا نبدو وكأننا  
نعي ذلك مجرد وعي . ان على المرء ان يعرف كيف يفهمه .  
« إنه ينطلق تحت المطر ، ويحوض في الماء ، ويطوف في البلاد إبان الشتاء .  
إنه لا يخشى الليل ، او الطرق الخطرة ، او أولئك الذين قد يلتقيهم .

« في العام الماضي قصد وحده الى منطقة يبعث فيها اللصوص فساداً . انه لم يشأن  
يصطحبنا . لقد ظل خمسة عشر يوماً غائباً عن البيت . حتى اذا آب من رحلته ، وكنا  
نظنه قد مات ، كان في حال جيدة لم يُصبه شيء ما . وقال : « أنظرا ، كيف  
سرقوني ! » وفتح صندوقاً مليئاً بجواهر كاندراية ايبرون التي قدّمها اللصوص اليه .  
« وفي تلك المناسبة ، لدن عودته ، وكنت قد ذهبت لاستقباله على مبعدة فرسخين  
اثنين مع طائفة من اصدقائه ، لم اناالك عن ان ألومه بعض الشيء ، محاذرة ان أتكلم إلا

حين كانت العربية 'تحدث ضجة'، لكي لا يكون في ميسور أياً شخص آخر ان يسمع .  
 « في البدء كنت اقول لنفسي : انه لا يبالي بآيا خطر . ذلك شيء فطيع .  
 أما الآن فقد ألفت ذلك . إني اوميء الى السيدة ماغلوار لكي لا تعارضه ،  
 فهو يركب متن المغامرة كما يحلو له . وعندئذ أستدعي السيدة ماغلوار ، وآوي  
 الى غرفتي ، فأصلي من أجله ، وأنا أنام مطمئنة ، لأنني اعلم جيداً انه اذا ما ألم  
 به اذى فعندئذ نجح مني شيء . عندئذ يتعين علي ان أمضي الى الرب الرحيم مع  
 اخي واسقني . ولقد وجدت السيدة ماغلوار عسراً اكثر في ان تروض نفسها على  
 ان تألف هذا الذي تدعوه 'نهر' وعدم تبصره . اما الان فقد تعودنا ذلك .  
 نحن نصلي معاً ، ونحن 'نروّع' معاً . ثم ناوي الى الرقاد . ولو قد أراد الشيطان  
 نفسه ان يقد على المنزل ، اذن لما اعترض احد سبيله . وائياً ما كان ، فأي شيء  
 يدعوا الى الخوف في ذلك المنزل ؟ ان معنا دائماً من هو أشد بأساً من كل أحد .  
 ان الشيطان قد 'يُلم' بدارنا ، ولكن الرب يسكنها .

« حسبي هذا المقدار . لم يعد اخي في حاجة الى ان ينطق بكلمة واحدة .  
 أنا أفهمه من غير ان يتكلم ، ونحن نسلم نفسي الى العناية الالهية .

« وكذلك ينبغي ان يكون الامر مع رجل نبيل الروح الى هذا الحد .  
 « لقد سألت اخي ان 'يُدلي اليّ' بالمعلومات التي طلبتها عن اسرة دو فو .  
 انت تعرفين مدى اطلاعه البعيد في هذا الميدان وغزارة ذكرياته ، اذ كان  
 دائماً ملكياً صميماً ، وهذه امرة نورماندية عريقة من مقاطعة «كان» . إن ثمة  
 خمسة عام من سلالة راوول دو فو ، وجان دو فو ، وتوماس دو فو ، الذين  
 كانوا من الاشراف ، وكان احدهم سيد روشفور . اما آخروهم فكان غي ايتيين  
 ألكسندر الذي كان قائداً عسكرياً ، وكان يحتل رتبة ما في سلاح الفرسان في  
 بروناتشي . ولقد تزوجت ابنته ماري لويز من آندريان شارل دو غرامون نجل  
 الدوق لويس دو غرامون ، احد نبلاء فرنسة الكبار ، وقائد الحرس الفرنسي ،  
 وأحد ضباط الجيش المقدّمين . واسم هذه الاسرة يرسم على وجوه مختلفات :

• Fauq و Fauc و Fauc

« عسى ان تسألني نسيبك القدسي ، السيد الكاردينال ، أن يصلي من أجلنا  
باسيدي العزيزة . اما غاليتك سيدفاني فقد احسنت صنعاً إذ لم تضيع اللحظات  
القصار التي تقضيها الى جانبك في الكتابة اليّ . انها في خير ، كما تقولين ، وهي  
تعمل وفقاً لمشيتك ، وما تزال تحبني . ذلك كل ما أطمع فيه . لقد تلقيت  
التذكار الذي بعثت به اليّ ، من طريقك ، واني لسعيدة بذلك . انت صحي  
ليست سبّة جداً ، ومع ذلك فانا ازداد هزالاً يوماً بعد يوم .  
« وداعاً . لقد طفعت ورقتي ، فيتعين عليّ ان اكفّ عن الكتابة . وتقبلي  
الفأ من التمنيات الطيبة .

« باتيستين

« حاشية - ان السيدة زوجة أخيك هي هنا دائماً مع أسرتها الفتية . وان  
حفيد أخيك لفاتن حقاً . هل تعرفين انه سوف يبلغ الخامسة من عمره وشيكاً؟  
لقد مر به ، امس ، جواد ووضعت له رُكبيّات \* فصح : « ما هذا الذي علي  
رُكبه ؟ انه غلام لطيف جداً ، وان اخاه الصغير ليهب مكنسة عتيقة في  
الفرقة وكأنها عربية ، ويقول : هي ! »

وهكذا نرى ، من هذه الرسالة ، ان هاتين المرأتين عرفتا كيف تتكيفان  
وفق اسلوب الاسقف في الحياة ، بتلك العبقريّة النسوبة التي تفهم الرجل خيراً بما  
يستطيع الرجل ان يفهم نفسه . والواقع ان اسقف د... كاث يقوم في بعض  
الاحيان ، تحت هذه الانطباع العذبة البيضاء القلب التي لم تتغير قط ، بأعمال  
عظيمة ، جريئة ، رائعة ، من غير ان يبدو وكأنه يعي ما يفعل . كانتا ترتعدان  
ولكنهما لم تتدخلا . وكانت السيدة ماغلوار تحاول في بعض الاحيان ان  
تحذره قبل ان يقدم على عمل ما ، ولكنها ما كانت لتفعل ذلك وهو يقوم به ،  
او بعد ان يقوم به على الاطلاق . ان احداً لم يحاول ، في يوم ، ان يزججه بكلمة  
او بإشارة حول عمل استهله . وفي بعض الاحوال ، حين لا يكون في حاجة الى

\* الرُكبيّة كلمة وضعتها لتقابل كلمة genouillère الفرنسية وكلمة knee-cap الانكليزية  
وتعني غطاء الركبة .



ان يقول ذلك ، او لعله حين يكون على غير وعي له ، كانت بساطته كاملة الى درجة تجعلها تحسب احساساً غامضاً انه يعمل كاسقف ؛ وعندئذ ما كانتا لتزيدا على كونها مجرد ظلين في البيت . كانتا تخدمانه من غير اعتراض ، حتى اذا قضت الطاعة بالاختفاء ، اختفتا . لقد ادركتا ، برقة غريزية رائعة ، أن بعض ضروب العناية المحبة المشفقة خليقة بان ترعبه . فهما - حتى حين يبدو لهما انه في خطر - تفهمان طبيعته ، ولا أقول فكرته ، الى درجة تحملهما على الكف عن رعايته والسهو عليه . كانتا تسلمان أمره الى الله .  
والى هذا ، فقد قالت بانيسيتين ، كما رأينا ، أنت موت أخيها يعني موتها .  
اما السيدة ماغوار فلم تقل ذلك ، ولكنها عرفت .

## ١٠

### الاسقف في حضرة ضياء مجهول

وقيل تاريخ الرسالة التي أنبتناها في الصفحات السابقة قام الاسقف بعمل اعتقدت البلدة كلها انه اشد تهوراً وأخف بالخطر من رحلته عبر الجبال التي يمين عليها قطاع الطرق .

ففي الريف المجاور لبلدة د ... كان رجل "يحيا في عزلة . وكان هذا الرجل - وانتقل الكلمة الضخمة المذهلة من غير ما مقدمة - عضواً في «المؤتمر الوطني» . \*  
كان بدعى ج ...

وفي عالم د ... الصغير كان الناس يتحدثون عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا في ضرب من الرعب . عضو في « المؤتمر الوطني » ، هل تتصور ذلك ؟ إن هذا

---

• Convention Nationale البرلمان الثوري الذي خلف « الجمعية التشريعية » في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ وحكم فترة حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . ومن أعماله أنه أعلن الجمهورية ، وأدان لويس السادس عشر . وكان يتألف باديء الامر من أحزاب ثلاثة : الجيرونديين ، وحزب الجبل Montagnards وحزب السهل In Plaine .

يرقى الى ذلك العهد الذي كان الناس يتخاطبون فيه بضمير المفرد (tu) ويقولون : « أيها المواطن ! » لقد كاد ذلك الرجل ، أن يندو هولة \* أو غولاً . إنه لم يصوت مع إعدام الملك ، ولكنه اوسك ان يفعل . كان نصف قاتل من قسلة الملوك ؛ وكان فظيماً . وإلا فكيف جاز ان لا يدعى هذا الرجل ، لدن عودة الامراء الشرعيين ، الى المشول أمام محكمة عسكرية ؟ ومن يدري ، فلعل تلك المحكمة ما كانت خليفةً بأن تصدر حكمها بقطع رأسه ، ولكن حتى لو أخذت القضاة بسباب الشفقة إذن لكانوا خليقين بأن يحكموا عليه بالنفي مدى الحياة . والواقع انها كانت جديرةً بأن تجعل منه آخر الامر امثلة لغيره ، الخ . الخ . والى هذا فقد كان زنديقاً ، شأن أولئك القوم جميعاً - ثرثرة إوز ضد السر . ولكن هل كان ج ... هذا سرّاً ؟ نعم ، اذا كان للمرء ان يجيب على اساس من وحشية عزله . ذلك بأنه وقد أحجم عن التصويت لقتل الملك لم تشمله أحكام النفي ، فهو قادر على البقاء في فرنسا .

كان يجبا على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من البلدة ، بعيداً عن اية دسكرة أو طريق ، في أخذود منزل من أخايد وادي موحش جداً . لقد قيل إنه كان له هناك ضرب من القبر ، أو قل كان له هناك جحر أو كهف . فلا جيران ، بل لا عابري سبيل . فمنذ ان اقام في هذا الوادي الضيق غمر العشب الطريق المؤدية الى مأواه ذاك ، وطفق الناس يتحدثون عن ذلك الموضع وكأنه بيت جلال . ومع ذلك ، وبين الفينة والفينة ، كان الاسقف يلتفت مفكراً نحو الافق حيث كانت احدى الغياض تنتصب شاهداً على وادي البرلاني العجوز ، ويقول : « هناك تعيش نفس متوحدة . »

وفي اعماق تفكيره كان يضيف : « انا مدين له بزيارة . » بيد انه يتعين علينا ان نعرف بان تلك الفكرة ، يرغم انها بدت طبيعية أول الأمر ، ما لبثت ان تراءت له بعد لحظة من التأمل غريبة ، متعذرة ، بل وكريهة تنقرز منها النفس أو نكاد . ذلك بأنه كان في أعماق ذاته يشارك القوم

---

\* الهولة : العجب . يقال : وجهه هولة من الهول .

انطباعهم عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا ، وكان الرجل المعجوز يوقع في نفسه ، من غير ان يدري كيف ، تلك العاطفة التي هي تخم الكراهية ، والتي تعتبر عنها لفظة الاشتىزاز احسن تعبير .

ولكن الراعي ينبغي أن لا يحفّو الحروف المريض . آه ، ولكن ايّ خروف !

واستبدّ الارتباك بالاسقف الصالح : لقد مشى أحياناً في ذلك الاتجاه ؛ ثم انقلب على عقبه .

وأخيراً سرى ذات يوم ، في البلدة ، نبأ يقول بأن فتيّ من الرعاة كان يجدم عضو « المؤتمر الوطني » ج... في مأواه البريّ قد وفد على المدينة التماساً لطبيب . وان الأثيم المعجوز 'محتضر' ، وان الشلل قد ألمّ به ، فليس في استطاعته ان يعيش حتى مطلع الفجر . واذاف بعض القوم : « شكر الله ! »

واخذ الأسقف صرلجانه ، وارتدى معطفه ، لان ثوبه الكهنوتي كان بالياً جداً ، كما سبق منا القول ، ولأن ربح المساء كانت على وشك ان تهب ، وانطلق .

كانت الشمس تنجح للغيب ، وكانت قد مسّت الافق أو كادت عندما انتهى الاسقف الى البقعة اللعينة المحرّمة . واستشعر بعض السرعة في النبض فيما هو يقترب من الجحضر . ووثب فوق حفرة ، وازال بعض الأشواك المعترضة . وشق طريقه عبر سياج من الاغصان الملتفة ، فاذا به يجد نفسه في وسط 'جنيّة خربة' . ثم انه تقدّم في جرامة خلال الارض الموات فاكتشف فجأة ، خلف دغل عال ، مغارة الرجل المعجوز .

كانت كوخاً خفيفاً حقيراً ، كوخاً صغيراً نظيفاً قام عند واجهته عريش 'مسّحر' .

وامام الباب ، وفي كرسي عتيق ذي دواليب ، جلس رجل أشيب ، وأنشأ يجدّق الى الشمس المحتضرة في نظرة باسمة .

والى جانب المعجوز الجالس في كرسيه وقف غلام غضّ العود ، هو الراعي

الصغير . لقد قدّم الى العجوز وعاء من اللبن .

وفيا الاسقف ينظر ، رفع العجوز صوته :

— « شكرآ . انا لن احتاج بعد' الى شيء . »

وفارقت ابتسامته' الشمس لكبي تستقر' على الغلام .

وتقدّم الاسقف الى امام . واحداثت خطواته بعض الضجة ، فقتل الرجل العجوز رأسه ، وعبر بحياه عن اعظم مقدار من الدهش يمكن لامريء ان يعرف بعد حياة طويلة .

وقال : « هذه اول مرة يزورني فيها زائر منذ أن أقمت هنا . من انت ، يا سيدي ؟ »

فأجاب الاسقف : « انا أدعى بينفينو ميريل . »

— « بينفينو ميريل ؟ لقد سمعت' هذا الاسم من قبل . أأنت ذلك الذي يدعوه الناس مونسينيور بينفينو ؟ »

— « انا هو . »

واضاف الرجل العجوز بنصف ابتسامة : « إذن ، فانت أسقي ؟ »

— « جاثر . »

— « أدخل ، يا سيدي . »

وبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده الى الاسقف ، ولكنه لم يمستها . لقد اكتفى بالقول :

— « انا سعيد بأن أجد أنهم قد خدعوني . إنك لا تبدو في عييتي مريضاً حقاً . »

فأجاب الرجل العجوز : « سوف أشفي عما قريب . »

وتنهّل لحظة ثم قال : « سوف أموت في مدة لا تتجاوز ثلاث ساعات . » وبعد ذلك اضاف :

— « انا طيب الى حد ما . انا اعرف الخطوات التي يقترب الموت بها . أمس كانت رجلاي وحدهما باردتين . أما اليوم فقد زحف البرد الى رُكبتَيّ . وها انا

أحسنّ به الآن يتقدّم حتى الحصر . وحين يمسّ القلب ، فعندئذ أنتهي . إن  
الشمس جميلة ، أليس كذلك ؟ لقد كرّرتُ كرسّي هذا بنفسني لكي ألقى  
نظرةً أخيرة على الطبيعة . في استطاعتك ان تتحدث اليّ . إن ذلك لن يُتعبني .  
لقد احسنتُ صنعاً بمعيّتك لتري رجلاً في النزح الاخير . فمن الجليل ان يشهد  
هذه اللحظات بعضُ الشهود . ان لكل منا اطواره الغريبة ؛ فأنا أودّ لو اعيش  
حتى يوقع الضحى ، ولكنني أعلم أن الاجل لن يمتدّ بي اكثر من ثلاث ساعات  
على وجه التكثير . وعندئذ سوف يهبط الظلام . ولكن ابيّ بأس في ذلك ! إن  
الانتهاء مسألة هيّنة . والمرء لا يحتاج في هذا الى صباح . ليكن الامر كذلك .  
سوف أموت في ضوء النجوم .

والتفت الرجل المعجوز الى الراعي الحدث :

« اذهب الى الفرائش ايا الغلام الصغير . لقد سهرت الليلة البارحة . انت  
متعب . »

ودخل الغلام الكوخ .

وأنتبه الرجل المعجوز نظره واضاف وكأنه يخاطب نفسه : « فيها هو فأنم ،  
سوف أسلم الروح . وهكذا يكون في ميسور الرقادين ان يتجاوزا بحيرة  
حسنة . »

ولم يغلب التأثر على الاسقف بقدر ما كان مُنتظراً . فهو ما كان يعتدّ بأن  
في ميسور المرء ان يستروح عبق الله بالموت على هذه الشاكلة . والحق ان علينا  
ان نقول كل شيء ، فالتناقضات الصغيرة التي تتردى فيها القلوب الكبيرة يجب  
ان يُنصّ عليها . ومن هنا يتعيّن علينا ان نذكر انه هو الذي طالما ضحكك  
ضحكاً قلبياً من لقب « صاحب العظمة » أصيب بعض الشيء بصدمة حين لم  
يُدعَ مونسينيور او صاحب السيادة ، وكان على وشك ان يُغري بالردّ فيخاطب  
ذلك الرجل المعجوز بقوله : « ايا المواطن ! » لقد استشعر رغبة في اصطناع تلك  
الدالة الفظة الشكّة المألوفة عند الاطباء والكهنة ، والتي لم يتعوّدها هو . فقد  
سبق لهذا الرجل ، على اية حال - هذا العضو القديم في المؤتمر الوطني ، هذا

النائب عن الشعب - أن كان قوة على هذه الأرض . ولعلها اول مرة استشعر الاسقف فيها نزعة الى ان يكون قاسياً .

ومع ذلك فقد عامله عضو « المؤتمر الوطني » في احترام ومودة بحشمة ربه . كان في ميسور المرء ان يلجح فيها تلك الوداعة التي تليق بمن كان على مثل هذا القرب من توسد التراب .

اما الأسقف فلم يستطع - برغم احترامه على العموم من سلطات الفضول الذي كان في اعتقاده محاذياً للعدوان - ان يجتنب مراقبة عضو « المؤتمر الوطني » في انتباه كان ضميمه خليقاً بأن يؤنبه عليه - بوصفه غير منبثق عن العطف والمشاركة الوجدانية - لو تكشفت عن مثله نحو ايما رجل آخر . بيد انه كانت ينظر الى عضو في « المؤتمر الوطني » نظراته الى خارج على القانون ، حتى على قانون المحبة .

كان ج ... برباطة جأشه ، وجلسته التي توشك ان تكون منتصبه ، وصوته المتهدج ، واحداً من اوائك المعمرين ذوي الوجوه النسيطة ، البالغين سن الثمانين ، والمثيرين دهش علماء الفيزيولوجيا . والواقع ان الثورة قد أنجبت كثيراً من هؤلاء الرجال المتكافئين وتلك الحقبة . إن المرء ليحسّ مهناً انه امام رجل تموس بالتجاوب . لقد احتفظ بمظاهر الصعّة كلها ، رغم انه أمسى من الموت قاب قوسين أو ادنى . ولقد بدت نظراته المشرقة ، ولهجته الحازمة ، وحركات كتفيه القوية وكأنها تكاد تبلبل الموت وتحيره . والحق ان عزرائيل ، ملاك الموت عند المسلمين ، كان خليقاً بأن ينكص على عقبيه ظاناً أنه قد أخطأ الباب . لقد بدا ج ... وكأننا يموت لانه اراد ان يموت . كان ثمة حربة في نزعته الاخير . كانت ساقاه وحدهما مشلولتين . لقد تشبّث به الظلمات من هناك . كانت قدماه ميتين باردتين ، ولكن رأسه عاش بقوة الحياة بكاملها ، وبدا مشرقاً يحف به النور . لقد بدا ج ... في تلك اللحظة المهيبه أشبه شيء بذلك الملك الذي زعمت الحكاية الشرقية ان نصفه الاعلى كان من لحم ، ونصفه الادنى كان من رخام . وكان ثمة حجر ، فجلس عليه الاسقف . وكان استهلال الخطاب فجائياً ومن

غير ما مقدمة .

قال الاسقف في جرس مؤنب : « إني اهنتك . انت على الاقل لم توافق على إعدام الملك . »

ولم يبدُ أن عضو « المؤتمر الوطني » قد لاحظ التوكيد المرير للكامن في كلمتي « على الاقل » . فأجاب ، وقد فارق الابتسام كله وجهه :  
- « لا تهشني أكثر مما ينبغي ، يا سيدي . لقد أعطيت صوتي لتحطيم الطاغية . »

كانت هي لهجة الصرامة تواجه لهجة القسوة .  
وسأله الاسقف : « ماذا تعني ؟ »

- « أريد أن أقول أن للانسان طاغية ، هو الجهل . لقد اعطيت صوتي لاقضاء على هذا الطاغية . لقد ولد هذا الطاغية الملكية ، وهي السلطة المنبثقة من الزيف في حين أن العلم هو السلطة المنبثقة من الحقيقة . ينبغي أن لا يُحكم إلا بسلطان العلم . »

- « والضمير . » كذلك اضاف الاسقف .

- « لا فرق . إن الضمير هو العلم الفطري الذي في ذات نفوسنا . »  
وأخفى مونسيور بينفينو ، دهشاً بعض الشيء ، لهذه اللغة التي لم يسمع مثلها من قبل .

وتابع عضو « المؤتمر الوطني » كلامه :

- « في ما يتعلق بلويس السادس عشر : لقد قلت ' لا ' . أنا لا اعتقد أن لي الحق في أن أقتل إنساناً ؛ ولكنني اشعر أن من الواجب عليّ أن استأصل الشر .  
لقد أعطيت صوتي لإسقاط الطاغية . يعني لانتفاذ المرأة من البغاء ، والرجل من العبودية ، والطفل من الجهل . لقد أعطيت صوتي لهذا ، حين اعطينه للجمهورية .  
لقد صوتتُ للمساواة ، للوفاق ، للنور . لقد ساعدت على إسقاط الاحقاد والاختفاء . إن انهيار الاختفاء والاحقاد يبعث النور . لقد قرّضنا دعائم العالم القديم ؛ حتى إذا انقلب ذلك العالم ، وهو إناء من الشقاء ، على الجنس البشري ،

غدا قارورة من الابتهاج . »

فقال الاسقف : « إنه ابتهاج مشوب ، غير صاف . »

- « في استطاعتك ان تقول : ابتهاج كدر . والان ، بعد عودة الماضي المشؤومة التي ندعوها ١٨١٤ \* ولى الابتهاج . وأسفاه ! انا اقر بان العمل كان منقوصاً . لقد هدمنا النظام القديم في الاعمال ، ولكننا لم نستطع ان نقضي عليه قضاء كاملاً في الافكار . إن نحطيم الفساد وحده لا يكفي ؛ يتعين علينا ان نغير العادات . لقد ذهب الطاحونة الهوائية ، ولكن الريح ما تزال هناك . »

- « لقد هدمتم . إن الهدم قد يكون مفيداً ، ولكني لا أثق بهدم بمازجه الغضب . »

- « إن للعدالة غضبها ، ياسيدي الاسقف . وغضب العدالة عامل من عوامل التقدم . وعلى الرغم من جميع المزاغ فان الثورة الفرنسية هي اعظم خطوة خطاها الجنس البشري ، في ميدان التقدم ، منذ مجيء المسيح . قد تكون غير كاملة ، ولكنها سامية رفيعة الذرى . لقد حلت جميع روابط المجتمع السرية . لقد رقت جميع القلوب . لقد سكنت ، وهدأت ، وأناوت . لقد جعلت امواج المدينة تجري على وجه الارض . لقد كانت طيبة . الثورة الفرنسية ... إنها تكريس الانسانية . »

ولم يستطع الاسقف إلا ان يتمن : « أجل ، ٩٣ ! » \*\*

فرفع عضو المؤتمر الوطني نفسه ، في كرسيه ، بجلال يكاد يكون فاجعاً ، وصاح على قدر ما يستطيع محتضراً ان يصيح :

- « آه ، لقد وصلت ! عام ٩٣ ! لقد كنت اتوقع ذلك . سحابة تشكلت طوال الف وخمسة سنة ، وعند نهاية تلك القرون الخمسة عشر انفجرت . إنك

---

\* هو العام الذي شهد سقوط نابوليون ونفيه الى جزيرة ألبا ( ٢٠ نيسان ١٨١٤ )

\*\* يقصد عام ١٧٩٣ الذي زحمت فيه فرنسا الجمهورية تحت وطأة « الهول » Terreur ابتداء من سقوط الجيرونديين ( ٣١ نوار ١٧٩٣ ) الى سقوط روبسبير ( ٢٧ تموز ١٧٩٤ ) وقد تميز بالنفوذ المطلق الذي تمّ لـ «لجنة السلامة العمومية في باريس» ، ونشر « قانون المشوهين » ، وإعدام المواطنين بأعداد كبيرة .



تدنين الصاعقة . »

واستشعر الأسقف ، وربما من غير ان يعترف بذلك ، أن شيئاً في ذات نفسه قد أودى . ولكنه تقبل الامر في صبر وأجاب :

« ان القاضي يتكلم بلسان العدالة ؛ أما الكاهن فيتكلم بلسان الرحمة ، التي لا تعدو ان تكون عدالة أسمى وأرفع . إن الصاعقة ينبغي أن لا تخطي » .  
قال هذا ثم اضاف محققاً الى عضو « المؤتمر الوطني » :

« ولويس السابع عشر ؟ »

فبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده وأمسك بذراع الاسقف .

« ولويس السابع عشر . دعنا نرى ! على من تبكي ؟ على الطفل البريء ؟  
ليكن ذلك اذن . انا ابيك معك . على الطفل الملكي ؟ انا اطلب مهلة للتفكير .  
ذلك بأنني اعتقد ان اخا كارنوش \* ، وهو طفل بريء علق بمجمل وضع تحت ذراعيه في ساحة « غريف » حتى مات ، وكل جريمته انه اخو كارنوش ، ليس اقل اثارة للشجن من حفيد لويس الخامس عشر ، وهو طفل بريء قُتل في برج  
« تامل » وكل جريمته انه حفيد لويس الخامس عشر . »

فقال الاسقف : « انا اكره هذا الربط بين الاسماء ، يا سيدي . »

« كارنوش أم لويس الخامس عشر ؟ على ايها تعترض ؟ »

وران الصمت لحظة . وكاد الاسقف أن يندم على مجيئه . ومع ذلك ، فقد  
استشعر ان عاطفة الشفقة قد اثرت فيه على نحو غامض لا سبيل الى تفسيره .  
واردف عضو « المؤتمر الوطني » :

« اوه ، يا سيدي الكاهن ! أنت لانتخب قسوة الحق ، ولكن المسيح أمجها .  
لقد تناول سوطاً وطهر الهيكل . ولقد كان سوطه البارق ناطقاً خشناً  
بالحقائق ؛ وهو حين قال « دعوا الاولاد يأتون الي » لم يميز بين الاطفال . انه لم

---

\* Cartouche زعيم عصاة من القوس ، ولد في باريس ، وأميت على دولاب التذويب في  
ساحة غريف . ( ١٦٩٣ - ١٧٢١ )

يتألم للجمع ما بين ابن باراباس \* البكر وبين ابن هيرودس \* \* البكر . ان  
البراءة هي تأجيلها عنه ، ياسيدي ، وليس للبراءة الا ان تعمل حتى تغدو نبيلة !  
انها فضيحة في الاسمال البالية بقدر ما هي فضيحة في الغلائل الموساة بازهار  
الوسن ! »

فقال الاسقف في جرس خفيض : « هذا صحيح . »

فتابع الرجل العجوز : « اكرر . لقد ذكرت لويس السابع عشر . دعنا  
نبكي معاً جميع الابرياء ، جميع الشهداء ، جميع الاطفال ، سواء منهم من كان  
وضيعاً أو من كان ربيعاً . أنا واحد منهم . ولكن عندئذ ، كما سبق ان قلت  
لك ، يتعين علينا ان نرجع الى ما قبل عام ٩٣ ، ويتعين على دموعنا ان تبدأ قبل  
لويس السابع عشر . أنا مستعد لأن أبكي أولاد الملوك معك ، اذا بكيت معي  
أبناء الشعب الصغار ! »

فقال الاسقف : « انا أبكيهم جميعاً . »

فصاح ج ... : « على قدم المساواة ! واذا رجعت كفة الميزان فليكن  
بكاؤك في جانب الشعب . لأن أبناء الشعب قاسوا الآلام . منذ عهد أبعد  
بكثير . »

وران الصمت ، كرة اخرى ، ليقطعه آخر الامر عضو المؤتمر الوطني . لقد  
رفع نفسه على احد مرفقيه ، وحصر جزءاً من خده بين اجهامه وسبابته المثنية كما  
يفعل المرء على نحو ميكانيكي حين يستجوب أو يحاكم ، ووجهه الحطاب الى الاسقف  
في نظرة حافلة بطافات الغزع الاخير كلها . وكاد كلامه ذاك ان يكون انفجاراً .  
- « اجل ياسيدي ، لقد قاسى الشعب الآلام منذ عهد أبعد بكثير .  
وليس هذا ، بعد ، هو كل شيء . لماذا جئت نستطقي ونحشدني عن لويس

---

\* باراباس يهودي كان قد اتى به في السجن ، حين سبق يسوع الى والي « اليهودية »  
يلاطس البنطي ، بتهمة القتل . حتى اذا خير يلاطس اليهود ، لمناسبة النصح ، بين اطلاق سراح  
باراباس واطلاق سراح المسيح آثروا المجرم ، على البريء . ولا يزال الأوروبيون يقولون في  
امثالهم الى اليوم : « فلان يفضل باراباس على يسوع . »  
\*\* ملك « اليهودية » من عام ٣٩ الى عام ٤ ق . م .

السابع عشر ؟ انا لا أعرفك . منذ ان وفدتُ على هذا الاقليم وأنا أعيش وحيداً ضمن هذه الجدران ، غير منطلق الى ما وراءها البتة ، غير مشاهدٍ احداً غير هذا الطفل الذي يساعدني . صحيح أن اسمك قد انتهى اليّ على نحوٍ مختلطٍ غامض ، وان يكن ، كما ينبغي ان أقول ، عموداً بعض الشيء ، ولكن هذا لا يغير من الامر شيئاً . ان للمهرة من الناس اساليب كثيرة لمخادعة هذا الشعب البسيط الطيب . فانا ، مثلاً ، لم أسمع كلمة مر كبتك . ولا ريب في انك قد غادرتها خلف الغابة ، هناك عند مفترق الطريق . لقد قلتَ لي انك كنتَ اسقي ، ولكن هذا لا يعطيني ايما فكرة عن شخصيتك الحقيقية . وعلى اية حال ، فانا اكرر سؤالي : من أنت ؟ أنتَ اسقف ، أمير من امراء الكنيسة ، واحد من اولئك الرجال المثقلين بالذهب ، وأشعة الشرف ، \* والثروة ، الفاترين بدخول ضخم — دار أسقفية د . . . . ، خمسة عشر الف فرنك ثابتة ، وعشرة آلاف فرنك عارضة ، تبلغ في مجموعها خمسة وعشرين الف فرنك — واحد من اولئك الرجال الذين ينعمون بمطابخ ، وبخدم وأتباع ، والذين يراون الولايم الجيدة ، ويأكلون دجاج الماء يوم الجمعة ، والذين يتبخثرون في مركباتهم المزخرفة ، كالطواويس ، يتقدمهم الخدم من أمام ، ويتبعهم الخدم من وراء ، والذين يسكنون القصور ، وينطلقون في العربات بأسم يسوع المسيح الذي كان يمشي حافياً ! أنتَ جبر من الاحبار . عائدات سنوية ، وقصور ، وجياد ، وخدم ، وموائد شهية ، وجميع ملذات الحياة الحسية — كل ذلك غلكه كما يملكه غيورك من الناس ، وكل ذلك تستمتع به كما يستمتع به غيورك من الناس . حسن جداً ، ولكن هذا ينطق باكثر مما ينبغي ، أو بما هو دون الكفاية . انه لا يلقي ضوءاً على قيمتك الذاتية والجوهرية ، انت الذي لا يُستبعد ان تكون قد جئتَ الى هنا بدعوى تزويدي بالحكمة . مع من أتحدث ؟ من انت ؟

• جمع شمار .

وحنى الاسقف رأسه وأجاب : *Vermis sum* .

فغمغم عضو المؤتمر الوطني : « دودة ارض في عربة ! »

لقد جاء دور الرجل العجوز في الصلِّف ، ودور الاسقف في التواضع .  
واجاب الاسقف في دمائه :

« .. ليكن ذلك ياسيدي . ولكن اشرح لي كيف نستطيع عربي الواقعة  
على بضع خطوات وراء الاشجار ، ومائدتني الحافلة ، ودجاج الماء الذي  
أطعمه يوم الجمعة ، ودخلي البالغ خمسة وعشرين الف ليرة ، وقصري ،  
وخدي - كيف يستطيع هذا كله أن يقيم الدليل على أن الشفقة ليست فضيلة ،  
وأن الحلم ليس واجباً ، وإن عام ٩٣ لم يكن خلواً من الرحمة ؟ »  
وأمر عضو المؤتمر الوطني يده عبر جيئه ، وكأنه يطرد سحابة .

وقال : « قبل ان اجيبك ، ألتمس منك العفو . لقد ارتكبت خطأ ، يا  
سيدي . أنت في منزلي ، انت ضيفي . ان لك علي حق اللطف والبشاشة . إنك  
تناقش آرائي ، فمن الخير ان اقرر نفسي على دحض حججك . إن ثروتك  
ومتارفك هي أشياء تقوّي مركزي في مناظرتك ، ولكن حسن الذوق يقضي  
بأن لا أفيد منها . انا اعدك بأن لا اصطنعها كرة اخرى . »  
فقال الاسقف : « أشكرك . »

وتابع ج .... : « لنعد الى الشرح الذي سألتني إياه . اين كنا ؟ ما الذي  
كنت تقوله لي ؟ ان عام ٩٣ كان خلواً من الرحمة ؟ »  
فقال الاسقف : « اجل ، خلواً من الرحمة . ما قولك في مارا \* بصفتي لدى  
المقصلة ؟ »

« وما قولك في بروسويه \* \* \* ينشد تسبحة الشكر فوق مجازر

---

\* تعبير لاتيني معناه : أنا دودة .

\* \* Marat احد زعماء الثورة الفرنسية . كان عضواً في « المؤتمر الوطني » شديد الوطأة على  
الجيوروندين ، وعلى الملك لويس السادس عشر يوم محاكمته . مات قتلاً بطلنة سدنتها اليه شارلوت  
كورداي . ( ١٧٤٣ - ١٧٩٣ )

\* \* \* Bossuet اسقف فرنسي اشتهر بمواعظه التي تعتبر آية في البلاغة . ( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ )

كان الجواب قاسياً ولكنه اصاب هدفه بمثل مضاء الخنجر . وارتعد الاسقف ، ولم يجر جواباً . ولكن صدّته الحديث عن بوسويه على هذه الشاكلة . والواقع ان لأكرم الناس او ثامنهم التي يعبدونها ، وانهم ليشعرون في بعض الاحيان ان قلة الاحترام التي يبديها المنطق نحو تلك الاصنام تكاد تسحقهم حقاً .

وشرع عضو المؤتمر الوطني ، يلهث . كان 'بهر' النزاع الذي يمتزج بالنفس الاخير قد جعل صوته منقطعاً خافتاً . ومع ذلك فقد كانت عيناه ما تزالان تؤذنان بصحو كامل . وتابع :

— ولنقل بضع كلمات اخرى في هذا الموضوع او ذاك . انا ارغب في ذلك . ففي خارج الثورة التي كانت ، اذا 'نظر اليها ككل' ، توكيدياً انسانياً ضخماً ، 'يعتبر عام ٩٣ ، والاسفاه ، هو الجواب الاخير . انت تعتبره خلواً من الرحمة ، ولكن ما قولك في الملكية كلها ، يا سيدي ؟ لقد كان كارييه \* قاطع طريق ، ولكن اي اسم تطلقه على موتروفييل ؟ وكان فوكييه تينفيل \*\*\* صعلوكاً ، ولكن ما رأيك في لاموانيون بافيل ؟ \*\*\*\* وكانت ماتيلا \*\*\*\*\* مروعة ،

\* لفظ يطلق على حركة الاضطهاد التي آزت ببرونتان فرنسة الجنوبية قبل براءة « نانت » وبعدها ، والتي نظمها فرسان الملك المعروفون بالـ « دراغون » dragons ، ومعناها في الاصل التنين . ( ١٦٨١ - ١٦٨٥ )

\*\* Carrier احد اعضاء « المؤتمر الوطني » . ارتكب فظائع مروعة في نانت . وقد اعدم عام ١٧٩٤ .

\*\*\* Fouquier - Tinville هو النائب العام في انكلمة الثورة . وكان يزود القسلة ، في عهد الارهاب ، بيل من الضحايا لا ينضب . اعدم سنة ١٧٩٥ .

\*\*\*\* Lamoignon Beville محافظ مونييليه ، اشتهر بقسوته في اضطهاد البروتستانت ( ١٦٤٨ - ١٧٢٤ )

\*\*\*\*\* Stanislas - Marie Maillard ثثرة فرنسية شهيرة شاركت في الاستيلاء على الباستيل وفي مجازر ايلول . ( ١٧٦٣ - ١٧٩٤ )

ولكن اي شيء تقوله في سولكس نافع \* من فضلك ؟ وكان الاب  
دوشين \*\*\* ضارباً ، ولكن اي صفة يمكن ان نخلعها على الاب لوتيليه ؟ \*\*\*  
وكان جوردان قاطع الرؤوس \*\*\* غولاً ، ولكنه كان دون المريكز  
دو لوقرا \*\*\*\*\* وحشية . باسدي ، باسدي ، أنا أرتي لما ري أنطوانيت ،  
يوصفها كبيرة الدوقات وملكة ، ولكني أرتي أيضاً لتلك المرأة  
الموغونوتية \*\*\*\*\* البائسة التي 'جرتت من ثيابها حتى الحصر ، باسدي ، سنة  
١٦٨٥ ، وفي عهد لويس الكبير \*\*\*\*\* ، وشدت الى وند وقد حمل  
رضيعها على مسافة منها ، وتفجر ثديها لبناً ، وتقطر قلبها أمي . حتى اذا  
وقعت عينا الرضيع ، الجائع الشاحب ، على الثدي ، بكى بكاء مريراً . فقال  
الجلاد للمرأة ، للأم المرضعة : « ارتدي عن دينك ! » مخيراً اباهما بين موت طفلها  
وموت ضميرها . ما قولك في هذا التعذيب الثانتالي \*\*\*\*\* يُنزل بأم ؟  
باسدي ، لا تنسَ هذا : إن للثورة الفرنسية اسبابها . إن المستقبل سوف يغفر لها  
غضبها . أما نتيجتها ، فهي العالم الافضل . ومن ضرباتها الأشد فظاعة تنبثق

\* Saulx Taverannes مارشال فرنسة ( ١٥٠٩ - ١٥٧٣ ) وكان من منظمي  
مذبحة القديس برثيلاوس الشهيرة والوحين بها .

\*\* Le Père Duchêne هو الاسم المستعار لـ « هير » احد زعماء الثورة الفرنسية  
وكان يصدر بهذا الاسم صحيفة امتازت بصفها القاتل فيه . ( ١٧٥٧ - ١٧٩٤ )  
\*\*\* Le Tellier كاهن يسوعي كان آخر مرشد للويس الرابع عشر ( ١٦٤٨ -  
١٧١٩ ) .

\*\*\*\* Jourdan Coupe - Tête احد اربابي « البروفانس » البارزين . وقد أعدم  
سنة ١٧٩٤ .

\*\*\*\*\* de Louvois سياسي فرنسي نظم جيش لويس الرابع عشر وانزل بالبروتستانت  
القطع الاضطهاد . ( ١٦٤١ - ١٦٩١ )

\*\*\*\*\* يقصد بالموغونوت Huguenote بروتستانت فرنسة .  
\*\*\*\*\* لويس الرابع عشر ، وقد حكم فرنسة من سنة ١٦٤٣ الى سنة ١٧١٥  
\*\*\*\*\* نبة الى « تانتال » أو تانتالوس Tantalus ، وهو في الميثولوجيا الاغريقية  
ملك غني ، ابن زيوس وابو « بيلوبس » و « نيوب » . وعقاباً له على اقشائه اسرار زيوس  
'نطحس حتى ذقته في الماء وقد لدت فوق رأسه الثمار البائنة ولكن كلاً من الماء والفاكهة كان يفر  
منه كلما حاول ان يشوقه .

ملاطفة للجنس البشري . يجب ان اوجز . يجب ان اصمت . لقد صنعت لي فرصة ملائمة لذلك . إني اموت . »

واذ كف الرجل العجوز عن النظر الى الاسقف ، أتم فكرته بهذه الكلمات القليلة المأدبة :

« - أجل ، إن فظائع التقدم تدعى ثورات . حتى اذا انتهت ادركنا هذا : أنت الجنس البشري قد عومل في قوة ، ولكنه تقدم شرطاً الى أمام . »

ولم يشك عضو « المؤتمر الوطني » في أنه ذلك حصون الاسقف الداخلية كلها ، واحداً اثر واحد . بيد انه بقي ثمة حصن مفرد ؛ ومن هذا الحصن الذي كان مصدر المقاومة الرئيسي عند مونسينيور بينفينو ، انطلقت هذه الكلمات التي برزت فيها من جديد قوة الاستهلال كلها تقريباً :

« - ويتعين على التقدم ان يؤمن بالله . والخير لا يمكن ان ينهض به رجل ملحد . إن الكافر قائد ردي للجنس البشري . »

ولم يجب يمثل الشعب العجوز . كان يرنعد . كان يرنو الى السماء . وشيئاً بعد شيء تجمعت في عينه دمعة . حتى اذا امتلأ الجفن تدرجت الدمعة على خده الازرق الضارب الى السواد ، وقال في ما بينه وبين نفسه بصوت خفيض يكاد يكون متلجلجاً ، وقد تاهت عينه في الأعماق :

« - إيه أنت ! أيها المثل الأعلى ! أنت وحدك الموجود ! »

وامتشر الاسقف ضرباً من الانفعال الذي لا يُعبر عنه .

وبعد صمت قصير رفع الرجل العجوز احدى اصابعه الى السماء وقال :

« - « اللانهاية موجودة . إنها هناك . واذا لم يكن للانهاية « انا » ، فعندئذ تكون الـ « انا » تخفها ؛ وعندئذ لا تكون لانهاية . وبكلمة اخرى ، إنها لا تكون موجودة . ولكنها موجودة . وإذن فأن لها « انا » . و « انا » اللانهاية هذه هي الله . »

لقد نطق الرجل المحتضر بهذه الكلمات الاخيرة في صوت عالٍ ، وفي رعدة

الغيبوبة وكأنها كان يرى أحداً . حتى إذا فرغ من قولها اغتمضت عيناه . كانت الجهد قد أنهكه . وكان واضحاً أنه عاش في دقيقة واحدة تلك الساعات القليلة التي بقيت له . كان الكلام الذي نطق به قد قرّبه الى عالم الموت . لقد حانت اللحظة الأخيرة .

وادرّك الاسقف ذلك ؛ وزحمتُ اللحظة . لقد أقبل الى هنا بوصفه كاهناً . وكان قد انتقل شيئاً بعد شيء من أقصى البرود الى أقصى الانفعال . ورنّا الى تلك العينين المغمضتين ، وأمسك بتلك اليد المتعصّنة الثلجية وانحنى نحو الرجل المحتضر .

-- « هذه الساعة هي ساعة الله . ألا تظن أن من دواعي الاسف أن يُقدّر للقائنا ان يكون عبثاً لا طائل تحته ؟ »

وفتح عضو « المؤتمر الوطني » عينيه كرةً أخرى . كانت الرصانة قد انطبعت على بحياه حيث خيمت سحابة من قبل .

وقال في تمهل لعله نشأ عن كبرياه نفسه أكثر مما نشأ عن خوارٍ في القوى :  
-- « يا سيدي الاسقف ، لقد قضيت حياتي في التفكير ، والدرس ، والتأمل .

ولقد كنت في السنين من عمري حين دعيتي بلادي وأمرتني بأن اشارك في شؤونها . ولقد امتثلت الأمر . كان ثمة مساوىء ، فحاربته . وكان ثمة ضروب من الطغيان ، فحطمتها . وكان ثمة حقوق ومبادئ ، فأعلنتها وصرتُ باعترادي بها . لقد غزيت الارض الفرنسية ، فدافعت عنها . لقد هددت فرنسا بالخطر ، فقدّمت لها صدري . أنا لم اكن غنياً ؛ أنا فقير . لقد كنت واحداً من المهيمنين على مقاليد الدولة ، وكانت أقيّة المصرف مثقلة بالاموال بحيث تعين علينا ان ندعم الجدران وإلا سقطت تحت وطأة الذهب والفضة . كنت اتناول طعام الغداء في شارع دو لاربر سيك باثنين وعشرين « سو » \* للوجبة الواحدة . لقد أغتت المظلومين ، وواسيت المعذّبين . لقد مزقت غطاء المذبح ، هذا صحيح ، ولكنني فعلت ذلك لكي أضمد جراحات الوطن . لقد آيدت ابداً

\* « سو » sou جزء من عشرين من الفرنك .



سير الجنس البشري نحو النور، وقاومت، في بعض الاحيان، تقدماً لا ينطوي على رحمة. لقد أسبغت حمايتي، في بعض المناسبات، على اعدائي انفسهم، يعني على اصدقائك. وفي بينهم من اعمال الفلاندر، في ذلك المكان عنده الذي نهض فيه قصر الملوك الميروفنجيين \* الصيفي، يقوم دير الاوربانيين - دير القديس كلير في بوليو - الذي أنقذته عام ١٧٩٣. لقد قت 'براجي' على قدر طاقتي وقدر الخير الذي وفقت اليه. وبعد ذلك طوردت، ولوحفت، واضطهدت، وطعن علي، وهزري بي، وأهنت علي نحو علني، وألعت، ونبتت. ومنذ سنوات عديدة، وبعد ان استعل رأسي شيباً، وانا احس بأن كثيراً من الناس يؤمنون بأن لهم الحق في احتقاري، وان الجماهير الفقيرة الجاهلة ترى في وجهي وجهاً لئيماً، ومع ذلك فقد ارتضيت - غير مبغض انساناً ما - عزلة البغض. وها انا ذا الآن في السادسة والثمانين. اني على وشك ان أموت. فما الذي جئت تسألني اياه؟

فقال الاسقف: «جئت اسألك بركتك!»

وركع على ركبتيه.

وحين رفع الاسقف رأسه، كان وجه الرجل العجوز قد غدا جليلاً. لقد قضى نحبه.

وانقلب الاسقف الى داره مستغرقاً في التفكير، ففضى الليل كله وهو يصلي. وفي اليوم التالي حاول بعض الفضوليين الجسورين ان يجدثوه حديث عضو «المؤتمر الوطني» ج... فاكتفى بأن أشار الى السماء.

ومنذ تلك اللحظة ضاعف حنانه وجهه الاخوي للمستضعفين والمعذبين.

كانت كل اشارة الى «ج... ذلك الوغد العجوز» تاتي في خضم من القلق العجيب. وما كان في ميسور احد ان يقول ان صعود تلك الروح الى بارئها قبل روحه هو، وانعكاس ذلك الضمير العظيم على ضميره هو، لم يكن لهما اثر في

\* السلالة الميروفنجية Mérovingien هي اول سلالة مالكة حكمت في فرنسا، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى ملك الفرنجة ميروفيه Mérovée (وقد حكم من عام ٤٤٨ الى عام ٤٥٨) وكان آخر ملوكها تشيلديريك الثالث الذي خلع عن الدرر سنة ٧٥٢ للميلاد.

اقترابه من الكمال .

وكانت « الزيارة الرعائية » ، طبعاً ، مناسبة مثلاًفة مكنت الدسائس  
الصغار من النقد والتعريض .

« وأبلى بأسقف ان يجلس الى جانب فراش رجلٍ مثل هذا ؟ انه ما كان  
ليتوقع أن يرد ذلك الرجل الى الايمان ، طبعاً . ان جميع هؤلاء الثوريين  
ساقطون وقعوا في المرطقة مرة ثانية . واذن ، فأى فائدة في الذهاب الى هناك ؟  
اي شيء كان ينبغي ان يراه هناك ؟ لا شك في انه كان شديد الفضول الى ان  
يرى كيف يتخطف الشيطان روحاً من الارواح ! »

وذات يوم وجهت اليه ارملة « موسرة من ذلك النوع الذي يظن في نفسه  
الظرف وخفة الروح » ، هذه الدعابة : « إن الناس ليتساءلون ، متى ستعتمر  
سيادتكم قلنسوة حمراء ؟ » \* فأجاب الاسقف : « أوه ! أوه ! هذا لون رفيع .  
ومن حسن الطالع ان اولئك الذين يزدرونه في قلنسوة ، يجلبونه في قبعة ! »

## ١١

### تحفظ

نُخدع كثيراً اذا استأنجنا من هذا ان مونسينيور بينفينو كان « فيلسوفاً  
أسقفاً » أو « وطنياً كاهناً » . إن اجتماعه بعضو « المؤتمر الوطني » - الذي كان  
ضرباً من الشركة الروحية تقريباً - تركه في حال من الذهول زادته رقة وحباً  
للخير . هذا كل ما هنالك .

وعلى الرغم من ان مونسينيور بينفينو كان أيما شيء إلا رجلاً من رجال  
السياسة ، فلعل من الخير هنا ان نحدد ، في ايجاز كثير ، موقفه من احداث

---

\* كانت القلنسوة الحمراء هي غطاء الرأس الذي اعتمر به أنصار الثورة الفرنسية  
المقدّمون ، وكانت تعتبر رمز الحرية .

العصر ، اذا كان لنا ان نفترض ان مونسينيور بينفينو فكر في ايام يوم من الايام بأن يكون له موقف من تلك الاحداث .

من اجل ذلك يتعين علينا ان نرجع بضع سنوات الى الوراء .

لم تنقض فترة قصيرة على رفع مسيو ميريل الى مقام الاسقفية حتى جعله الامبراطور باروناً من بارونات الامبراطورية ، كما جعل عدداً آخر من الاساقفة في الوقت نفسه . وتم اللقاء القيص على البابا ، كما هو معروف ، ليلة السادس من غوز سنة ١٨٠٩ . ولهذه المناسبة دعا نابليون مسيو ميريل الى مجمع اساقفة فرنسة وايطالية في باريس ، وعقد المجمع في كاتدرائية نوتردام ، وافتتحت اعماله في الخامس عشر من حزيران سنة ١٨١١ برئاسة الكاردينال فيش . كان مسيو ميريل واحداً من الاساقفة الحجة والتسعين الذين شهدوا المجمع . ولكنه لم يشارك إلا في جلسة واحدة ، وفي ثلاثة او اربعة من الاجتماعات الخاصة . كان اسقف ابرشية جبلية ، وكان يجيأ على مقربة من الطبيعة في غمرة الحشوة والأملق . من اجل ذلك بدا وكأنه يحمل بين هاته الشخصيات الساطعة افكاراً غيرت حرارة المجمع . فما كان منه الا ان انقلب وشكاً الى د ... وحين مثل عن هذه العودة المفاجئة أجاب :

« لقد ازعجنهم . ان الهواء الطلق دخل الى مجعهم حين دخلت . لقد تركت فيهم الاثر نفسه الذي يتركه الباب المفتوح . »  
وفي مرة اخرى قال :

« ماذا تريدون ؟ هؤلاء الاساقفة امراء . أما انا فلست غير اسقف وبني

فقير . »

والحق انهم كانوا يبغضونه . وكان من بين الاسباب القريبة التي حملتهم على ذلك أنه لم يتألك عن ان يقول ذات ليلة دُعي فيها الى منزل احد زملائه من أولي المكانة العليا :

« يا لها من ساعات جدارية رائعة ! يا له من سجاد رائع ! يا لها من ثياب تخدم رائعة ! ينبغي ان يكون هذا كله أنفى للرفق والسعادة ! اوه ! ما أشد نفوري

من ان املك هذه الكهاليات كلها ، التي تصرخ ابدآ في اذني : إن هناك انساناً  
يجوعون ! إن هناك انساناً يرتجفون من البرد ! إن هناك فقراء ! إن هناك  
فقراء ! ،

وينبغي ان نقول ، بالمناسبة ، ان 'بعض الترف ليس بغضاً حقيقياً . إنه ينطوي  
على كراهية للفنون . ومع ذلك فالترف جريمة عند رجال الدين ، خارج طقوسهم  
واحترافاتهم . إنه يبدو وكأننا يكشف عن عادات ليست خيرية حقاً . إن  
الكاهن الموسر هو في ذاته تناقض . ان عليه ان يظل قريباً من الفقير ؛ ومن ذا  
الذي يستطيع ان يحبك آتاء الليل واطراف النهار بضروب الشقاء كلها ، وضروب  
البؤس كلها ، وضروب الحرمان كلها من غير ان يعلق به قليل من ذلك الفقر  
القدس ، وكأنه غبار العسل ؟ هل تستطيع ان تتخيل رجلاً يجلس الى النار ثم لا  
يبحث بالدفع ؟ هل نستطيع ان تتخيل عاملاً يشتغل على نحو موصول امام فرن  
من الافران ولم تحترق شعرة من شعره ، او بسود ظفر من اظفاره ، او تندرج  
على خده قطرة من عرق ، أو تعمل وجهه ذرة من رماد ؟ ان اول البراهين على  
تمتع كاهن ما ، او اسقف ما على وجه الخصوص ، بالحب ، هو الفقر .  
وليس من شك في ان اسقف د . . . . . كان ينظر الى الاشياء على  
هذا الضوء .

بيد أنه يتعين علينا ان لا نحسب ان الاسقف شارك في المسائل الدقيقة التي  
يمكن ان تدعى «فكرات العصر» . إنه ما كان ليتدخل الا قليلاً بمنازعات  
الساعة اللاهوتية ؛ وكان يلتزم الصمت في كل مسألة تنتهي فيها الدولة والكنيسة  
الى تسوية . أما اذا ألححت عليه الحاحاً شديداً فعندئذ كنت تجد ايطاليا \*  
اكثر منه غليكانياً \*\*

وإذ كنا نوسم ههنا صورة فنية لشخص ، وليس في نيتنا أن نخفي شيئاً ما ،  
فنحن مضطرون الى ان نضيف أنه كان بارداً نحو نابوليون يوم جنح نجه الى

---

\* المراد بالايطالي هنا الذي يدين بالولاء للبابوية .

\*\* Gallican وهو من ينادي بالولاء لكنيسة فرنة .

الافول . وابتداء من عام ١٨١٣ أخذ يشايع جميع المظاهرات العدائية او يصفق لها . لقد رفض ان يراه في طريق عودته من جزيرة ألبا \* ، واحجم عن أن يصدر الأمر في ابرشيته بأقامة الصلوات العامة من اجل الامبراطور خلال «الايام المته» \*\*

وكان له الى جانب أخته الآنسة باتيستين أخوان اثنان ، أحدهما جنرال ، والاخر محافظ . وكان يكتب الى كل منهما بين الفينة والفينة . لقد استشر شياً من الفتور نحو الاول ، لأنه كان يتولى قيادة قوة من الجيش في بروفانس ، يوم اقتحم نابوليون البر الفرنسي عند «كان» ، فما كان من الجنرال إلا ان وضع نفسه على رأس الف ومئتي مقاتل وتعبق الامبراطور وكأنه راغب في ان يفسح له في مجال الحرب . أما رسائله الى اخيه الآخر ، المحافظ السابق ، وكان رجلاً شجاعاً فاضلاً مجاً بمزل عن الناس في شارع كاسيت بباريس ، فكانت أحفل بالمودّة والعاطفة .

وحتى مونسينيور بينفينو غلبت عليه آنذاك النزعة الحزبية ، وكانت له أحزانه وغيمومه . لقد طاف ظلُّ أهواء الساعة وشهواتها بهذا القلب الكبير الرقيق المنصرف الى الاشياء الازلية . وليس من ريب في ان رجلاً مثل هذا خلق به ان يتجرّد عن الآراء السياسية . ولا يُسيئ أحدٌ فكرتنا . فنحن لا نخلط ما بين هذا الذي يدعى «آراء سياسية» وبين الطموح العارم الى التقدم ، والامان الوطني الديوقراطي الانساني الرفيع الذي ينبغي ان يكون في ايامنا هذه أس كل ذكاء سخي . ومن غير ان نتعمق مسائل لا تنس موضوع هذا الكتاب إلا مسأ مداوراً نقول بكل بساطة : كان خيراً لمونسينيور بينفينو لو

---

\* هي جزيرة ايطالية صغيرة في البحر الابيض المتوسط ، وتقع شرقي كورسيكا . وكان نابوليون قد نفى اليها عام ١٨١٤

\*\* Les Cent - jours هي الفترة الممتدة ما بين ٢٠ آذار سنة ١٨١٥ ، يوم رجع نابوليون الى باريس ، و ٢٢ حزيران من العام نفسه يوم تنازل عن العرش للمرة الثانية . وقد تميزت هذه الفترة بالدسور الجديدي الذي التزمات المتحررة الذي اعلنه نابوليون في مستهلها ، وبجملة بلجيكا ، وهزيمة واترلو .

انه لم يكن ملكي الهوى ، ولو ان عينيه لم تنصرفا قط لحظة واحدة عن ذلك التأمل الساجي حيث نرى في وضوح ، فوق اوهام هذا العالم واحقاده ، فوق مد الثؤن البشرية وجزرها ، هذه الكواكب الثلاثة الصافية ، المرسلة إشعاعاتها على نحو موصول : الحق ، والعدل ، والمحبة .

ومع أننا نفكر بأن الله لم يخلق مونسنيور بينفينو لمهمة سياسية فقد كانت خليقاً بنا ان نفهم ونكبر احتجاجاً يُطلقه باسم الحق والحرية ، ومعارضة ضاربة ومقاومة عادلة وخطرة بوجهها الى نابوليون يوم كان كلي القدرة . ولكن ما يرضينا إزاء اولئك الرافين سلمهم المجد يكون أقل إرضاء لنا إزاء اولئك الساقطين عن تلك السلم . إننا لا نعجب بالقتال حين لا يكون ثمة خطر ، وفي مختلف الاحوال فإن مقاتلي الساعة الاولى لهم وحدهم الحق في ان يكونوا هم المهلكين في الساعة الاخيرة . ومن لم يكن متعباً ضارباً أثناء الرضاء يجب ان يصمت عند الانذار . إن ذلك الذي يشجب النصر في إبانة له وحده الحق في ان يعلن عدالة السقوط . أما نحن فحين تدخلت العناية الالهية وضربت ضربتها فقد احببنا عن القيام بأي عمل . إن سنة ١٨١٢ بدأت في تجريدنا من السلاح . وفي سنة ١٨١٣ لم يكن قطع جبل السكوت الجبان من قبل تلك الهيئة التشريعية الصوت التي شددت الكوارث من عزائها - لم يكن ذلك الصنيع جديراً بشيء غير السخط ، وكان من الائم التصفيق له . وفي سنة ١٨١٤ ، أمام هؤلاء المارشات الحونة ، وامام مجلس الشيوخ ذاك المتنقل من خسارة الى خسارة ، لاحقاً بعد أن قدس وأته ، وأمام عابدي الاصنام هؤلاء ، المرتدين على اعقابهم ، الباصقين على آلهتهم ، كان واجباً على المرء أن يشيح بوجهه في استنزاز . وفي سنة ١٨١٥ حين كان الجو عابقاً بالكسبات النهائية ، وحين كانت فرنسا تستشعر فشيرة اقترابها المشؤوم ، وحين كان في امكان المرء ان يرى على نحو ضبابي ساحة واترلو تبسط امام نابوليون ، فإن ما وجهه الجيش والشعب من دماء مودع الى من اصدر القدر حكمه عليه لم يكن ينطوي على شيء مضحك . ومع إبداء مختلف ضروب التحفظات في ما يتصل بالطاغية ، فلعل قلباً مثل قلب احترف د...

ما كان ينبغي له أن يُنكر كل ما هو جليل ومؤثر - عند شفير الهاوية - في  
العناق الأخير بين أمة عظيمة ورجل عظيم .

وعلى الجملة ، فقد كان ابدأ وفي كل شيء ، منصفاً ، صادقاً ، عادلاً ، ذكياً ،  
متواضعاً ، فاضلاً ، جواداً ، عطوفاً ، وما العطف غير ضرب من الجود . كان  
كاهناً ، وحكياً ، ورجلاً . وهنا يتمين علينا ان نقول إنه حتى في تلك الآراء  
السياسية ، التي انتقدناها آنفاً والتي نجد أنفسنا عرضةً لأن ندينها في غف  
تقريباً ، كان متسامحاً سهل الخليفة ، ولعل حظه من هاتين الحصلتين ان يكون  
اوفر من حظنا نحن ، الذين نتحدث الآن . كان بواب « القاعة البلدية » قد أقيم  
هناك بأمر من الامبراطور . كان ملازماً قديماً في « الحرس القديم » ، وحاملاً  
وسام جوقة الشرف لابلاته في موقعة اوسترليتز \* بلاءً حسناً ، وبونابرتياً صيباً  
كالنسر . وكانت تند من هذا الرجل المسكين في بعض الاحيان ، من غير ما  
تفكير ، أقوال كان القانون يعتبرها في ذلك الحين تحريضاً على الفتنة والعصيان .  
ومنذ ان غاب وجه الامبراطور الجائبي عن وسام جوقة الشرف كفّ عن ترين  
صدوره بذلك الوسام لكي لا يُضطر ، كما قال ، ان يحمل صليبه . وبدافع من  
ولائه ازال هو نفسه الرسم الامبراطوري عن الصليب الذي منحه نابليون إليه .  
ولقد احدث ذلك فجوةً في الوسام ، ولكنه أبى ان يضع شيئاً مكانه . كان  
يقول : « انا أوثر ان أموت على ان أحمل الضفادع الثلاث فوق قلبي » . وكان  
يسخر دائماً ، وعلى نحو علني ، من لويس الثامن عشر . فهو يقول : « ذلك  
العجوز المبتلئ بداء المفاصل وساقيتيه الانكليزيتين ! دعه يذهب الى بروسيه  
بلحيته المشبهة نبات لحية التيس ! » - بعيداً بأن يجمع في السخرية الواحدة بين  
الشيئين الذين كانا أبغض الأشياء إلى نفسه : بروسيه وانكلترة . ولقد أكثر من  
مثل هذا الكلام حتى خسر وظيفته . فاذا هو جائع الى الجبز ، طريق الشارع

---

\* Austerlitz الموقعة الشهيرة التي دارت رحاها في هذه المدينة من مدن مورافيا ( ٢ كانون  
الاول سنة ١٨٠٥ ) والتي هزم فيها نابليون جيوش النمويين والروس . وقد دعت معركة  
اوسترليتز « معركة الاباطرة الثلاثة » لان اباطرة فرنسا ، والنمسا ، والرومبا اشتركوا فيها  
جميعاً .

مع زوجته وأولاده . فما كان من الاسقف إلا ان دعاه ، فوجّه بعض الشيء ، وجعله بواباً للكاتدرائية .

لقد كان مسيو ميريل في الابرشية هو الراعي الحق . كان صديقاً للجميع . وفي مدى تسع سنوات ، وبفضل سلسلة موصولة من العمل الصالح والخلق الرفيع ، وفق مونسينيور بينفينو الى ان يملأ مدينة د . . . بضرب من التوفير النبوي الرفيق . حتى موقفه من نابوليون لقي قبولاً وممذرة لدى الناس ، وهم قطع طيب مستضعف يعبد امبراطوره ، ولكنه يحب اسقفه .

## ١٢

### عزلة مونسينيور بينفينو

يكاد يجتمع حول أيما اسقف جمهرة من الرهبان الشباب كما تجتمع حول أيما جنرال كوكبة من الضباط الشباب . إنهم أولئك الذين دعاهم القديس فرانسوا دو سال \* الفاتح ، في مكان ما ، والكمان الأغرار . ذلك بأن ثمة في كل مهنة أو سلك فئة من الطامحين تحوم حول أولئك الذين انتهوا الى القمة . فليس من سلطة إلا ولها بطانتها ، وليس من ثروة إلا ولها بلاطها . والباحثون عن المستقبل يسبحون في فلك الحاضر الزاهي . ولكل عاصمة ، شأن كل قائد عسكري كبير ، أركان حرمها . كذلك لكل اسقف ذي سلطان عظمه من طلاب المعاهد الكهنوتية : كروبيون \*\* يطوفون هنا وهناك وبقراوت النظام في القصر الاسقفي ، ويجرسون ابتسامة صاحب السيادة . إن الفوز برضا الاسقف قدّم في الركاب الموصل الى مرتبة نائب شماس . وان على

\* de Sales اسقف جنيف ( ١٥٦٧ - ١٦٢٢ ) ومؤلف « مقدمة الى حياة التقوى » و « رسالة في الحب الالهي » . وقد اسس مع القديس جان دو شانتال « رهبانية زيارة العذراء » .

\*\* الكروبيون سادة الملائكة او انقربون منهم . واحدم كروب .



المراء أن يشقّ طريقه بنفسه . إن الدعوة الرسولية لا تستخف أبداً بمنصب الكاهن القانوني .

وكما أن في بعض المواطن الاخرى أعياناً أولي سلطان ، كذلك نجد في الكنيسة مطارين ذوي تيجان . إنهم الاساقفة المتأنقون المقبلون على الدنيا ، الاغنياء ذوو الموارد ، اللقبون ، الفاثون برضا المجتبع الراقي ، الذين يعرفون كيف يصلون - من غير شك - ولكنهم يعرفون أيضاً كيف يسألون الناس أن يُسدوا اليهم يداً ؛ الجاعلون من أنفسهم بلاتردد قنطرةً التقدم في أبرشية بكاملها ، وصلة الوصل بين الموهف \* والديبلوماسية . إنهم رؤساء أديار أكثر منهم كهناً ، وأجباراً أكثر منهم اساقفة . وسعيه هو الشخص الذي يوفق الى الاقتراب نحوهم . وبوصفهم رجالاً ذوي سلطان ، فأنهم يمتطرون أهلهم وذوي الخطوة عندهم وجميع أولئك الشبان الذين يوقعون الرضا في نفوسهم أبرشيات بدنية ، ورواتب ، ورثاسات شمامسة ، ومهام كاتدرائية ، وكلها خطوات نحو المراتب الاسقفية . وهم اذ يتقدمون في معارج الرقي بقدموت الكواكب الدائرة في فلکهم ؛ ذلك نظام شمسيّ كامل بمعن في الدوران . إن اشعة مجدهم تصبغ حاشيتهم بلون الارجوان . وإن رخاءهم يوزع فئاته على القائمين خلف الكواليس ، على شكل ترقيات صغيرة مستلحمة . وكلما كانت أبرشية الولي اعظم كانت وظيفة النفس المسندة الى واحد من المقرئين اعظم وأخطر . واخيراً فهناك رومة . ذلك بأن الاسقف الذي يعرف كيف يصبح رئيس اساقفة ، ورئيس الاساقفة الذي يعرف كيف يصبح كاردينالاً يستطيعان ان يقوداك الى جمع الكرادلة . \*\* إنك تدخل الى الرونة ، \*\*\* وترتدي الباليوم ، \*\*\*\* وإذا بك في عداد النظارة ، وإذا بك حاجباً من حجاب البابا ،

\* الموهف ( السكرستيا ) الفرقة الخاصة بالاولاد والانتواب الكنسية .

\*\* الذي يتعهد لانتخاب البابا .

\*\*\* Rota او الـ Sacra Romana Rota ( الرونة الرومانية المقدسة ) وهي محكمة

الكبرى في رومة .

\*\*\*\* الباليوم طيلدان الاساقفة .

واذا بك مونسينيور ؛ وليس بين « الياذة » و « النياقة » \* غير خطوة واحدة ،  
وليس بين « النياقة » و « القداسة » \*\* غير دخان افتراع . إن كل قلنسوة  
تستطيع ان تحلم بتاج البابوية . والكاهن هو الرجل الوحيد ، في ايامنا هذه ،  
القادر على ان يصبح بصورة نظامية ملكاً . واي ملك ! الملك الاعظم ! وإذن  
فأعظم بالمعاهد الاكبر كية مغارس للطعام . فما اكثر غلمان الكورس الحجلين ،  
وما اكثر الكهان الشباب الحاملين على رؤوسهم اناه بيوريت \*\*\* الحافل بالبن !  
ومن يدري ؟ فما أبسر ما يجتبي الطموح خلف الحياة الرهبانية ، وقد يكون  
ذلك عن 'حسن نية' ، ويجدع نفسه مها تظاهر بالتقى والورع !

والحق ان مونسينيور بينفينو ، المتواضع ، الفقير ، ذا المسالك الغريبة ، ما  
كان ليُعدّ من المطاربن المتوجين . وإنما كان ذلك واضحاً من عدم تخلّق الكهان  
الشباب حوله . ولقد رأينا من قبل ان بضاعته لم ترج في باريس . ان ايامنا  
مستقبل زاهر لم يفكر ذات يوم في ان يلقي نفسه بالاتصال بهذا للعجوز المتروحد .  
ولم يكن ثمة طموح غض العود هو من الحماقة بحيث يلتبس التضج في ظله . كان

---

\* « صاحب النياقة » هو لقب الكاردينال . والمراد انه ليس بين الاسقف  
والكاردينال غير خطوة واحدة .

\*\* « صاحب القداسة » هو لقب البابا .

\*\*\* Perrette هو الاسم الذي اطلقه لافوتين على بطة تملكه fable : « الحلافة  
واناه الابن . » التي قصدت الى المدينة ، حاملة اناها على رأسها وأنشأت تفكر  
بشمن الابن ، ولحلم بالثروة . وبأنها سوف تشتري مئة بيضة ، وخنزيراً تربيته ،  
ثم يبيعه من جديد ، وتشتري بقرة ... وبقرة زك بها القدم ، وسفع الابن على  
الارض ، وتبددت الاحلام . ولا يزال اسم « بيريت » الى اليوم علماً على الحالين  
و « بناء القصور في اسبانية » الذين يرون الى مشاريعهم تنهار لائق حادث . وهي  
تذكر في ادبنا المرنى بكافية الناسك الذي كان يجرى عليه من رجل تاجر ، في كل يوم ،  
رزق من السمن والصل ، فكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويحمله في جرة ،  
فيملأها في ولد ، في ناحية البيت ، حتى امتلأت ... الخ الخ ... وقد رواها ابن  
المنعم في « كلية ودمنة » وقد تكون هي الاصل لثل لافوتين هذا .

كهانه القانونيون ونوابه الاسقفون كلهم رجالاً صالحين عالي السن ، أجبلاً بعض الشيء مثله ، مطوقين مثله بجدران تلك الابرشية التي كانت خلواً من طريق تؤدي الى مقام الكاردينالية . وكانوا يشبهون اسقفهم ، مع هذا الفارق ، وهو انهم انتهوا ، على حين انه اكتمل . وكانت استحالة الترقى في ظل مونسينيور بينفينيو واضحة الى حد جعل الشبان الذين رسمهم هولا يكادون يغادرون المعهد الاكبر كي حتى يلتصقوا توصية الى رئيس اساقفة ايكس ، او رئيس اساقفة اوشر ، وينطلقوا على جناح السرعة ليقدموها إليهما . ذلك بأن الرجال - ونكرر ذلك - مجبون الارتقاء في سلم الوظيفة . والقديس المعن في انكار الذات لا يبدو ان يكون جاراً خطراً . انه قد ينقل اليك من طريق العدوى ، فقراً لا يبرء منه ، وتخشباً في المفاصل الضرورية للتقدم . وعلى الجملة فقد ينقل اليك مقداراً من الزهد اكثر مما ترغب فيه . فغير عجيب ان يفر الرجال بأنفسهم من هذه الفضيلة المعدية . ومن هنا هذه العزلة التي سميت حياة مونسينيور بينفينيو . اننا نعيش في مجتمع كثيب . و « إنجح » ، تلك هي النصيحة التي تسقط قطرة إثر قطرة من الفساد التحيم علينا .

وفي ميسورنا ان نقول ، بالمناسبة ، ان النجاح شيء بشع مخوف . ان ما بينه وبين الكفاءة من شبه زائف خليق به ان يخدع الناس عن أنفسهم . وعند الجمهور يتخذ النجاح صورة التفوق نفسها تقريباً . وللنجاح - ذلك التوأم الشديد الشبه بالموهبة - احققه المتدوع : التاريخ . ان جوفينال \* وناسيت \* وهدهما يرفضانه ويتذمران منه . وفي ايامنا انصوت تحت لوانه فلسفة تكاد تكون رسمية ، فهي ترندي ثوب الحادام الملحق به ، وهي تنتظر اوامره في الغرفة الملاصقة لديوانه . النجاح ، تلك هي النظرية . ان الازدهار يفترض القدرة . اربع ورقة

\* Juvénal شاعر لاتيني جاء ( ٤٢ - ١٢٥ ؟ ) تتجلى لنا في اهاجيه الاربع عشرة نغمة على الحياة في رومة وضعه بماوشا .

\*\* Tacite مؤرخ لاتيني شهيد ( ٥٥ ؟ - ١٢٠ ؟ ) امتازت مؤلفاته بالامانة والقوة والايجاز ، كما امتاز هو بالخيال وبالقدرة على تجريد شخصياته من اوديتها الخارجية . وكان يغالي في التشاؤم اجبناً ، وينزع الى ان يلتمس للاحداث اسباباً عميقة .

في اليانصيب تصيح رجلاً حاذقاً . ومن ينتصر فذلك هو الذي يحظى بالاجلال والتعظيم . ليكن نجمك ، يوم الولادة ، ذا يمن وسعد تجدر الدنيا كلها بين يديك . كن حسن الطالع ليس غير تفز بسائر الاشياء . كن سعيداً بحبك الناس عظيمياً . ففما عدا المستثنيات العظيمة التي لا يزيد عددها على الخمسة او الستة ، والتي هي اعجوبة عصرها ، لا يعدو الاعجاب المعاصر ان يكون ضرباً من قصر البصر . ان الطلاء الذهبي هو في نظر الناس ذهب خالص . وليس يفيد المرء عندهم ان يكون ابن الحظ شريطة ان يوفق الى تخمين حظوظه . ان العامة نرسيس عجز \* يعبد نفسه ، ويصدق لكل ما هو شعبي . والواقع ان العبقرية الجبارة التي تجعل من المرء موسى ، او اسيل \*\* او دانتي او ميكال آنجلو ، او نابوليون انما تخلعها الجمهور ، في الحال وفي تحليل ، على كل من يوفق الى بلوغ غايته ، مهما تكن تلك الغاية . دع كاتباً عدلاً يلمع حتى يصبح نائباً في البرلمان ؛ دع كورني \*\*\* زائناً يضع مسرحية « تيريدات » \*\*\*\* ؛ دع خصياً ملك « حريماً » ؛ دع « بروودوم » \*\*\*\*\* عسكرياً يكسب بالمصادفة

\* في الميثولوجيا اليونانية ان نرسيس كان على جال باهر أسر به القلوب جميعاً ولكنه ازدري حب الحسان له . كان يمشي نفسه ، وبينما هو يديم النظر الى وجهه الجميل في مرآة ينوع صاف زلت به القدم ، فاستحال الى الزهرة التي تحمل اسمه « نرسيس » أو النرجس . وتطلق لفظة « النرجسية » اليوم على الظاهرة البيكولوجية التي تحمل من المرء عاشق ذاته .

\*\* ابو التراجيديا اليونانية ( ٥٢٥ - ٤٨٦ ق . م ) ويعتبر من أعظم شعراء العالم في مختلف العصور .

\*\*\* Gorneille ايسو التراجيديا الفرنسية . واشهر مسرحياته « هوراس » ، « الببد » ، « سينا » و « بولركت » . وهو يعتبر عند الفرنسيين خالق الفن التمثيلي القائم على اساس التحليل البيكولوجي . ( ١٦٠٦ - ١٦٨٤ ) .

\*\*\*\* Tiridate تيريدات الاول ، ملك ارمينية وأخو فسولوجيس الاول ملك البارثيين وقد قهره القائد الروماني كوريليون . وتوفي تيريدات عام ٧٣ للميلاد .

\*\*\*\*\* Prudhomme نموذج عصري للجزع وعدم الكفاية وللابتذال الكامل التي ابرزها هنري مونيه في كتابه « مشاهد شعبية » ( ١٨٣٠ ) و « مذكرات جوزيف بروودوم » ( ١٨٥٧ ) .

المعركة الحاسمة في حقبة برمتها ؛ دع صيدلياً مخترع نعالاً من الورق المقوى  
 لاحذية الجيش ، ويجني من وراء ذلك الكروتون المبيع بدلاً من الجلد لقوات  
 « السامبر والميز » \* دخلاً مقداره اربعمئة الف ليرة ؛ دع بائعاً متجولاً يتزوج  
 الربا ويقود عروسه الى فراش من سبعة ملايين او ثمانية ملايين ، فراش هو أبوه  
 وهي أمه ؛ دع واعظاً يصبح اسقفاً بالتكلم من أنفه ، دع مدبراً احسد المنازل  
 الطبية يسمي لدى تر كيه الخدمة غنياً الى درجة تجعل منه بعد ذلك وزيراً للمالية  
 فرنسة - تجرد الناس يدعون ذلك عبقرية ، تماماً كما يدعون وجهه موسكوتوت  
 جمالاً ، وتغطرس كلود عظيمة وجلالاً . إنهم لا يميزون كواكب السماء من  
 النجوم التي تحدثها اقدام البط في الوحل !

## ١٣ معتقداته

لسنا في حاجة الى ان نبر أسقف د ... من وجهة النظر الارثوذكسية \*  
 ففي حضرة نفس كهذه لا نستشعر شيئاً غير الاحترام . إن ضمير الرجل المستقيم  
 ينبغي ان يُعتبر شيئاً مفروغاً منه . والى هذا ففي استطاعتنا ، وقد مُنحنا طابع  
 معينة أن نلسم بإمكانية نشوء جمالات الفضائل الانسانية كلها في معتقدٍ مختلف  
 عن معتقدنا .

أي شيء كان رأيه في هذه العقيدة الاساسية ، او تلك الغامضة من غوامض  
 الدين ؟ هذا سر من اسرار الايمان الباطني التي لا تُعرَفُ إلا في القبر حيث  
 تدخل الأرواح عارية . ولكننا واثقون من ان مصاعب الايمان لم تنتهِ به قط  
 الى الزندقة . إن فساداً ما لا يمكن ان يتطرق الى الماس . لقد آمنَ ما وسعهُ

\* Sambre . et . Meuse مديرية فرنسية من مديريات الامبراطورية الاولى .  
 \*\* المصود بالارثوذكسية هنا صفة المتكند والمواقفة للدين الحقيقي ، او المستقيم ، كما نفهمه  
 النصوص ، او كما نفهمه اصحابه الاولون .

الايان . كان حثف دائماً *Credo in Patrem* \* والى هذا فقد كان يستمد من اعماله الصالحة ذلك المقدار من الارتياح الذي يرضي الضمير ، والذي يمس في أذن المرء : « انت مع الله » .

ونعتقد ان من واجبنا ان ننص هنا على ان فؤاد الاسقف كان عامراً خارج نطاق ايمانه ، اذا جاز التعبير ، ووراء ذلك الايمان - بفرطٍ من الحب . وبسبب من هذا ، *quia multum amavit* \*\* ، اعتبر قابلاً للنقد والتجريح عند « الرجال الجديين » ، و « الاشخاص الوفورين » ، واصحاب العقول الرشيدة » ، وهي تعابير أثيرة في عالمنا الحزين حيث تنلقى الانانية كلمة السرّ من التظاهر بالعلم والمعرفة . ولكن اي شيء كان فرطُ الحب هذا ؟ كان لطفاً راقياً يغمّر الرجال كما سبق منا القول ، ويمتدّ في بعض الاحيان الى الاشياء . لقد عاش من غير ازدراء واستخفاف ، كان شقيقاً على خلق الله . والحق ان لدى كل امريء ، مهما يكن فاضلاً ، خشونة طائشة يحتفظ بها ، من باب الاحتياط ، للحيوانات . ولكن اسقف د ... كان خلواً من هذه الخشونة التي تميّز معظم الكهّان . انه لم يذهب الى حد البراهمة \*\*\* ولكن يبدو انه تفكّر كثيراً في هذه الكلمات من « سفر الجامعة » : « من ذا الذي يعرف الى اين تمضي روح البهيمة ؟ » إن بشاعة المظهر ، وقباحة الغريزة لم تقلقاه ولم تسخطاه قط . كانتا تحركان فيه عاطفة الشفقة وتوقعان في ذات نفسه مزيداً من اللين والرفقة . لقد بدا وكأنه يبحث ، وراء الحياة الظاهرية ، في روية وتفكير ، عن السبب ، والتفسير ، أو العذر . بل لقد بدا وكأنه يلتمس من الله ، في بعض الاحيان ، نلطيفاً لعقاب الآثمين . كانت يدرس من غير انفعال ، وبعين اللاعوي الذي يفك رموز رقّ قديم أزيلت الكتابة الأصلية عنه ليُكتب عليه من جديد ، مقدار الاختلاط والتشوش اللذين لا يزالان في الطبيعة . وكان هذا الاستغراق في التفكير ينتزع منه في بعض الاحيان كلمات عجيبة . فذات صباح كان يتمشّي في حديثه ؛ لقد حسب

« في اللاتينية ، ومناها : اؤمن بالآب .

« في اللاتينية ايضاً ، ومناها : لانه أحب كثيراً .

« جمع برهمي ، وهو احد افراد الطبقة الكهنوتية اعلى الطبقات الوراثة الاربع في المجتمع الهندوسي .

نفسه منفرداً . ولكن أخته كانت تمشي خلفه من غير ان يراها . وفجأة كفت عن السير ، ونظر الى شيء ما فوق وجه الارض . كانت وتيلاء سوداء ، شعراً ، رابعة . وسمعت أخته يقول :

« يا من هيمة مكينة ! الذنب ليس ذنبها ! »

ولم لا نتحدث عن طفلية الطيبة هذه التي تكاد تكون السّية ؟ انها قد تكون شيئاً صيانياً ، ولكن هذه الاشياء الصيانية الرفيعة هي التي نعرف بها القديس فرانسوا الأسيسي \* ، وماركوس اوريليوس \*\* وذات يوم آثر ان يلتوي مفصلاً على ان يسحق غلة .

كذلك عاش هذا الرجل المستقيم . كان يقصد الى جنينته ، بعض الاحيان ، لينام فيها ؛ وعندئذ لم يكن ثمة شيء ادعى الى التوقير والاحترام .

كان مونسينيور يبينفينو من قبل ، وفقاً للروايات المتصلة بصباه بل وبصدر شبابه ، رجلاً شديد الانفعال ؛ وقد لا نخطيء اذا قلنا انه كان رجلاً عنيفاً . ومن هنا لم يكن حمله الشامل غريزة طبيعية بقدر ما كان ثمرة يقين واسع قطر ، من خلال الحياة ، الى فؤاده ، مناقطاً في مهل ، فكرة بؤفكرة . ذلك بأن قطرات الماء قادرة على ان تحدث في الشخصية حفرأ كالتي نحدثها في وجه الصخر سواء بسواء . ومثل هذه التجاويف غير قابلة للمحو . إنها تمتنع على الزوال .

لقد بلغ عام ١٨١٥ ، كما نحسب أننا أسلفنا القول ، سنه السادسة والسبعين ، ولكنه كان يبدو وكأنه ماتا يتجاوز الستين . إنه لم يكن طويل القامة ؛ وكان بديناً بعض الشيء ، فهو كثيراً ما يأخذ بأسباب المشي الطويل ابتغاء التغلب على هذه البدانة . كان ثابت الخطو ، ولم يكن ظهره محدودباً الا قليلاً ؛ وهي ظاهرة

---

\* Francois D'Assise مؤسس رهبانية الفرنسيسكان . وقد اشتهر بعطفه على الفقراء وورثته بالمتضعف من الحيوان . ( ١١٨٢ - ١٢٢٦ )

\*\* Marcus Aurelius اكثر الاباطرة الرومان صلاحاً ، تولي الحكم من عام ١٦١ الى عام ١٨٠ . وخاض غمار حرب طويلة ظافرة ضد البرابرة المهددين للامبراطورية ، واشتهر بحكمته الرواقية ، واعتداله ، وحبه للفلسفة والادب .

لا نعتزم ان نخلص منها الى استنتاج ما . فقد كان غريغوار السادس عشر \* ، في سنّ الثمانين ، منتصب القامة باسمًا ، ولم يمنعه ذلك من ان يكون اسقفًا رديًا . وكان لمونسينيور بينفينو ما يدعوه الناس « عقلًا راجعًا » ولكنه كان أنيسًا الى حدّ يُنسيك أنه ذو عقل راجح .

فاذا ما تحدّث بذلك الابتهاج الطفليّ الذي كان مظهرًا من مظاهر اللطف عنده ، والذي سبق منا الكلام عليه ، استشعر كل امرئ الارتياح في حضرته ، وبدا الجبور وكأنه يشعّ من شخصه كله . كانت بشرته النضرة المتوردة ، وأسنانه البيضاء المحتفظة بسلامتها والتي كانت شفاهه تتكشف عنها حين يضحك ، تخلع عليه تلك السّيا الصريحة الدمثة التي تجعلنا نقول عن الرجل : إنه ولد طيب ؛ وعن الرجل العجوز : إنه رجل طيب . كان ذلك ، كما نذكر ، هو الاثر الذي تركه في نفس نابوليون . فللهزيمة الاولى ، وبالنسبة الى من يراه اول مرة ، لم يكن مونسينيور بينفينو اكثر من رجل طيب . ولكن ما لبث يُنفق المرء بضع ساعات معه ويرى اليه مستغرقًا في التفكير حتى تتحول تلك الصورة شيئًا بعد شيء ، فتغدو ناضجة بالملابة . كان جبينه العريض الجديّ الذي جعله شعره الاشيب أثيلًا يبدو أثيلًا كذلك لحظة التأمل والتفكير . وكان الجلال ينبثق من هذه الطيبة ، من غير ان تكفّ الطيبة عن الاشراق ؛ فيستشعر المرء شيئًا من تلك الهزة التي تعمره اذا ما رأى ملاكًا باسمًا ينشر جناحيه في بطن من غير ان يكفّ عن الابتسام . كان الاحترام – الاحترام الذي يعجز البيان عن وصفه – خليقًا به ان يداخلك تدريجيًا ، وان يتخذ سبيله الى فؤادك ، فتحسّ انك امام نفس من تلك النفوس القوية ، المجرّبة ، المنساحجة ، حيث الفكر هو من العظمة بحيث لا يستطيع إلا ان يكون رفيقًا لطيفًا .

وكما رأينا من قبل ، فقد كانت الصلاة ، والنهوض بأعباء الخدمات الدينية ، والتصدّق على الفقراء ، ومواساة المحزونين ، وزراعة زاوية من الارض ، والاخاء ، والزهد ، وقِرَى الضيف ، وقهر النفس ، والثقة ، والدّرس ، والعمل



تُفعم كل يوم من أيام حياته . أجل ، « تفعم » هي الكلمة الملائمة تماماً . وفي الحق ، إن يوم الاسقف كان مفعماً حتى الشفة بالافكار الطيبة ، والكلمات الطيبة ، والاعمال الطيبة . ومع ذلك فإنه ما كان ليكتمل اذا حال البرد او المطر بينه وبين قضاء ساعة او اثنتين من ساعات الليل - بعد ان تـؤوي المراتان الى فراشها - في حديثه قبل أن ينسلم للرقاد . لقد بدا وكأن الاستعداد للنوم من طريق التأمل أمام مشهد السماء الداجية الناضح بالعظمة كان ضرباً من الطقس الديني عنده . وفي بعض الاحيان ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، كانت العائسان تسعانه ، إذا ما أطالتا السهر ، يتمشى وتبدأ في ممرات الحديقة . كان يخلو هناك الى نفسه ، هادئاً ، رابط الجأش ، عابداً ، مقارناً ما بين صفاء قلبه و صفاء الاثير - وقد حرك عواطفه في الدجّة بهاء الكواكب المنظور وبهاء الله غير المنظور - باسطاً روحه للفكرات التي تهبط من المجهول . وفي مثل هذه اللحظات ، حين كان يقرب قلبه قرباناً لله في تلك الساعة التي تنفث فيها ازاهير الليل عبيرها ، وحين كان يبدو مضاعاً مثل مصباح في جوف الليل ذي النجوم ، ساطعاً في جندل وسط اشماع الكون الكلي ، لم يكن في ميوره هو نفسه ان يقول اي شيء كان يدور في خلده . لقد أحس بشيء يزايله ، وبشيء يهبط عليه . مبادلات عجيبة بين أعماق النفس وأعماق الكون .

كان يتفكر في عظمة الله ، وفي وجود الله ؛ في أبدية المستقبل ، وهي لغز عجيب ؛ في أزلية الماضي ، وهي لغز اعجب ، وفي جميع اللانهايات المحتجة من حوله في كل اتجاه ؛ ومن غير ان يحاول فهم ما لا سبيل الى فهمه كان يراها . إنه لم يدرس الله ؛ كان يبهره التفكير في ذلك . لقد تأمل في الاتحادات البهية التي تجمع ما بين الذرات ، والتي تخلع على الطبيعة اشكالاً منظورة ، كاشفة عن القوي من طريق إنشائها ، خافقة الفرديات في الوحدة ، والنسب في الامتداد ، واللامعدود في اللانهاية ؛ مولدة الجمال من خلال النور . ولما تتعقد هذه الاتحادات وتحل في غير انقطاع . ومن هنا الحياة والموت .

كان يجلس على مقعد خشبي مستند الى عريشة مكسورة ، وينظر الى النجوم

من خلال أشباح شجراته المثمرة ، المهزولة الكسيحة . فقد كانت هذه الفلذة من الارض ، البالغة ماحتها ربع أكر ، والمزروعة اسوأ زراعة ، والمثقلة بالحرب والانقاض ، أثيرةً لدبه ؛ وكانت تكفيه .

واي شيء أكثر من هذا كان يحتاج اليه ذلك الرجل العجوز الذي وزّع ساعات فراغه ، وما كان اندرها واقفها ، بين البسنة في النهار ، والتأمل في الليل ؟ ألم تكن هذه الخطيرة الضيقة ، التي تزلف السموات سمنكها ، كافيةً لأن تمكّنه من عبادة الله ، بالتناوب ، في مبتدعاته الأكثر جمالاً ، وفي مخلوقاته الأكثر سمواً ؟ البس هذا كل شيء ، في الواقع ؟ واي شيء يتبغي وراء ذلك ؟ جُنبنة يتشى خلالها ، وفضاء يتأمل فيه . فعند قدميه شيء يمكن ان يُزرع ويُجنى ، وفوق رأسه شيء يمكن ان يُدرّس ويُطلق سراح التأمل فيه ؛ بضع زهرات على الارض ، وجميع الكواكب في السماء .

## ١٤

### افكاره

بقيت كلمة اخيرة .

لما كانت هذه التفاصيل — وبخاصة في العصر الذي نعيش فيه ، ولكي نصطنع تعبيراً هو اليوم زيّ شائع — خليقةً بأن تخلع على اسقف ... سياء « بانتيبيستية »\* ما ، وتوقع في النفس — سواء أأدّى ذلك الى لومه او الى تعجده — انه كان يدبّن بأحدى هذه الفلغات الشخصية التي يميز بها عصرنا ، والتي تنجم أحياناً في العقول المتوحدة وتنمو وتستحصد حتى تحل محل الدين — لما كانت هذه التفاصيل

---

\* ال Panthéisme وحدة الوجود ، او الوهة الكون ، وهو مذهب فلسفي يقول بان الله والكون واحد ، اي ان الله حال في كل شيء ، ومن هنا جاز ان يطلق الله على كل شيء .

خليفة بأن توهمنا بهذا كله فأننا نصرّ على القول إن أحداً من عرفوا مونسنيور بينفينو ما كان ليجيز لنفسه أن يزعم هذا الزعم . لقد كان القلب هو الذي أثار بصيرة هذا الرجل . كانت حكمته مكوّنة من النور المنبعث من هناك .

لم تكن له طرائق ونظم ، ولكن كانت له أعمال كثيرة . إن البحوث النظرية العويصة تورث الصداق ، ولم يكن ثمة ما يؤذن بأنه سوف يعرض عقله للمخاطر من طريق الرؤى الصوفية التي تمتّ للقديس يوحنا الانجيلي واحدة منها . إن في إمكان الرسول ان يكون مقدماً ، اما الاسقف فينبغي ان يكون هيّاباً . ولعله كان يتردد في ان يسبر غور بعض المسائل التي يقصّر الحوض فيها بطريقة ما ، على العقول الكبيرة الخفيفة . ان ثمة رعباً مقدساً يكتنف الطريق الى الالغاز الصوفية . إن بعض الفجوات القائمة لتفغر فاهها هناك ، ولكن شيئاً يقول لك فيما انت تقترب من شفير الموت : لا تدخل ! الويل لمن يدخل !

إن هناك عباقرة يرفعون أفكارهم الى الله ، وهم في غمرة من التجريد الذي لا تُسبر أغواره ومن التأمل المحض ، فكأنهم ، اذا جاز التعبير ، فوق العقائد الدينية جميعاً . ان صلاتهم لتعرض ، في جراءة ، نقاشاً ما . وإن عبادتهم لتستجوب . ذلك هو الدين المباشر المقعم بالقلق والمسؤولية عند من يتسلق جدرانها .

ليس للفكر البشري حدود . انه بحال وبشرّح ، على مسؤوليته ، انهياره هو . وفي ميسورنا ان نذهب الى القول إنه ، بطريقة من الرجوع الرائع ، يبهز الطبيعة ؛ فالعالم الحثي الغامض الذي يحيط بنا يُعيد ما يتلقى ؛ ومن الجائز ان يكون المتأملون هم أنفسهم موضوع تأمل . وأياً ما كان ، فعلى ظهر الارض رجال - هل هم رجال وحسب ؟ - يستطيعون ان يلجوا بوضوح ، في أفق تأملاتهم ، قم المطلق الشاحنة ، ويملكون الرؤيا المروعة للجبل اللانهائي . ان مونسنيور بينفينو لم يكن واحداً من هؤلاء الرجال ؛ إنه لم يكن عبقرياً . كان خليفاً به ان يرهب هذه الذرى التي انزلت منها رجال ، بعضهم عظيم جداً ،

مثل سويدنبورغ\* وباسكال\*\*، نحو الجنون الكامل. وليس من شك في ان لهذا الاستغراق في التفكير الحالم فائدته الاخلاقية ؛ ومن هذه الطرق الوعرة يستطيع المرء ان يدنو من الكمال المثالي . أما هو فملك السبيل المستقيمة ، التي هي قصيرة : الانجيل .

انه لم يحاول ان يجعل حلة القداس التي يرتديها تتخذ ثنيات وداء ايليا . \*\*\* وما كان ليلقي أيما شعاع من أشعة المستقبل على تقلب الاحداث المظلم . انه لم يسع قط الى ان يركز وميض الاشياء حتى يغدو شعله . لم يكن فيه شيء من النبي أو شيء من الساحر . كانت نفسه المتواضعة تحب ؛ هذا كل ما هنالك . أما أنه بسط صلاته حتى تبلغ مطمحاً فوق بشري ، فهذا مرجح . ولكن الغلو في الصلاة كالغلو في الحب ، غير محمود . واذا كان ممن الزندقة ان يصلي المرء خارج النصوص فعندئذ تكون القديسة تسيروزا \*\*\*\* والقديس جيروم \*\*\*\*\* زنديقين .

---

\* Swedenborg فيلسوف متعريف سويدي ، ولد في ستوكهولم وتوفي في لندن ( ١٦٨٨ - ١٧٧٢ ) وكان يزعم انه على اتصال بالعالم الروحي وانه يوحى اليه منه . وكان له مريدون كثير .

\*\* Pascal هو الرياضي ، الفيزيائي ، والفيلسوف الفرنسي ( ١٦٢٣ - ١٦٦٢ ) وقد اتجه اثر حادثة وقت له ، انهماكاً دينياً ، ومات في ريمان شاباً قبل ان يتم دفاعاً عن النعراية كان قد شرع في وضعه ثم نشرت اجزاء منه بعنوان « خواطر » Pensées . وانما يشير فيكتور هيجو هنا الى ما رواه الكاهن برالو - وهو ما لم يؤيده شاهد آخر - من ان باسكال اصيب في آخر أيامه بهلوسة جعلته يرى في كثير من الاحيان وكان هاوية تحفر فاها غير بعيد عنه لكي تبثله .

\*\*\* هو نبي يهودي تذكر التوراة انه دعا شعبه الى نبذ عبادة بعل وعشترت وقام بمعجزات كثيرة . وفي التوراة ايضاً انه رفع الى السماء على عربة من نار ، وانه عبد الى أحد تلاميذه في متابعة رساله تاركاً له دواءه لكي يتسكن من أن يأتي بتل الاعاجيب التي اتى بها هو . ويرمز الفرنسيون بـ « دواء ليليا » الى ان شخصاً ما قد ورث موهبة ما عن استاذه أو سيده .

\*\*\*\* مصلحة اسبانية اشتهرت برؤاها وتصورها . ( ١٥١٥ - ١٥٨٢ )

\*\*\*\*\* احد آباء الكنيسة اللاتينية ، وهو الذي قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية ( ٣٤٠ - ٤٢٠ م )

كان يجذب على المحزونين والتائبين . لقد بدا الكون في نظره وكأنه داء ضخم عريض . كان يستروح الحمى في كل مكان ، وبصيح الى الآلام في كل مكان ؛ ومن غير ان يحاول حل اللغز سعى الى ان يضمد الجرح . لقد أوقع مشهد الخلوقات الرهيب رقة في نفسه واطفأ . وكان منهمكاً دائماً في ان يبحث لنفسه - ويوحى الى الآخرين - عن افضل الطرق الى العطف والمواساة . فقد كان العالم كله ، عند هذا الكاهن الصالح النادر المثال ، موضوع حزن سرمدى ، فهو يلتبس المواساة أبداً .

ان ثمة رجالاً يجهدون بسبيل استخراج الذهب ؛ أما هو فكان يجهد بسبيل استدرار المرحة . وكان الشقاء الشامل هو منجبه ، ولم يكن الالم المنفشي في كل مكان غير مناسبة للعمل الصالح مسترة . أحبوا بعضهم بعضاً ؛ لقد اعتبر ذلك عنوان الكمال . إنه ما كان يتنى شيئاً اضافياً ، فقد كانت هذه الكلمات تؤلف عقيدته كلها . وذات يوم قال ذلك الرجل الذي عد نفسه « فيلسوفاً » - عضو الشيوخ الذي أشرنا اليه سابقاً - قال للاستف :

- « ولكن انظر الى مشهد العالم . ان كل امرئ من الناس ليقاثل الناس جميعاً ، وإن أقوى الناس هو افضل الناس . وليست آبتك القائلة « أحبوا بعضهم بعضاً » اكثر من حماقة . »

فأجابه مونسينيور بينفينيو من غير ما مناقشة :

- « حسن . اذا كانت حماقة فيتعين على النفس أن تحتجب فيها كما تحتجب

للؤلؤة في الحارة . »

واحتجب هو فيها ، وعاش فيها ، واكتفى بها اكتفاء مطلقاً ، مطّرحاً المسائل الحفية العجيبة التي تجذب وترعب ، وأغوار التجريد التي لا تُبهر ، ومبائدي الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة - مهملات كل هذه الغوامض التي تنصب ، عند الرسول ، على الله ، وعند الملحد ، على العدم : - القدر ، والحير ، والشر ، وتناحر الخلوقات ، وضمير الرجل ، واحلام الحيوان التي تجاور التفكير ، والتحول الذي يتم بالموت ، ومراجعة الحيوانات النابوية في القبر ، وتلقح الأنا

المستمرة بالاهواء المتعاقبة تلقعاً لا سبيل الى فهمه ، والجوهر ، والمادة ،  
واللاشئية ، والشيئية ، والنفس ، والطبيعة ، والحرية ، والضرورة ؛ مسائل  
عويصة ، وأعماق كالحلحلي يجذب نحوها « رؤساء ملائكة » الجنس البشري الضخام ؛  
وهوى \* راعة يتفكر فيها لو كرينيوس \*\* وماني \*\*\* والقديس بولس ،  
ودانتي ، بتلك العين الساطعة التي تبدو ، اذ تحدق الى اللانهاية تحديقاً موحولاً ،  
وكأنها تضرع النار في النجوم نفسها .

كان مونسينيور بينفينو مجرد راجل تقبّل هذه المسائل الغامضة من غير ان  
يتعمقها ، ومن غير ان يثيرها ، ومن غير ان يقلق عقله بها ؛ رجلاً 'يكن' في  
ذات نفسه احتراماً عميقاً للسمر الذي يكتنفها .

---

\* جمع 'مروة' .

\*\* Lucretius شاعر روماني ( حوال ٩٥ - حوال ٥٣ ق . م ) نادى بمادية ابيقور في  
قصيدة له مشهورة غنية بالفكر الرب . ومات منتحراً .

\*\*\* Manou أو Mānava - bhārma . Cāstra أحد الكتب الهندية المقدسة التي تبسط العقيدة  
البرهية . وتطلق هذه اللفظة ، في ما تطلق ، على أنصاف الآلهة الاربعة عشر التي تحكم العالم  
- حسب المعتقد البرهمي - على التناوب .

## الكتاب الثاني

# السقوط

١

بعد مسيرة يوم بكامله

قبل المغيب بساعة تقريباً ، من احد الايام الاولى من شهر تشرين الاول ، سنة ١٨١٥ ، دخل رجلٌ متوحِّل على قدميه مدينة د... الصغيرة . فما كان من النفر القلائل من ابناء البلدة الذين كانوا واقفين في تلك اللحظة الى نوافذ بيوتهم أو على عتبات ابوابها إلا ان نظروا الى هذا المسافر في ضرب من القلق . فقد كانت من العسير ان تقع العين على عابر سبيل ذي مظهر اشدَّ بؤساً . كان ربعة في الطول ، بديناً ، جلدأً على الصعاب ، وفي عنقوان العمر ؛ ولعله ان يكون قد بلغ السادسة والاربعين او السابعة والاربعين . كانت قلنسوة جلدية حمالة الى

جانب تخفي ، نصف إخفاء ، وجهه الذي يرتزته \* الشمس والريح ، وسال منه العرق . كان صدره الاضئ بادياً من خلال القميص الاصفر الحشن المشدود حول الرقبة بثبت فضي صغير . وكان يرتدي ربطة عنق مفتولة كالجلجل ، وبطلوناً كتانياً ازرق خشناً ، منبرئاً بالياً ، ابيضت احدى ركبتيه وتناثرت النقوب في ركبته الاخرى ؛ وصدره رمادية عتيقة رثة وقعت عند احد جوانبها بقطعة من القماش الاخضر بواسطة خيط من قنّب . وعلى ظهره كان كيس من أكياس العساكر ، يحكم الربط ، جديد بالكلية ، وفي يده كان يحمل عصا هائلة ذات عقدة : كانت قدماء غير المجوربتين تنتعلان حذاءً رُصف بالمسامير ، وكان شعره مجزوراً ، وكانت لحيته طويلة .

وأضاف العرق ، والحرارة ، والدير الطويل ، والغبار فذارة تمتنع عن الوصف الى هذا المظهر الحرب .

كان شعره حليقاً حتى الجلد ، ولكنه مع ذلك قاسٍ خشن . ذلك بأنه كان قد شرع بنمو بعض الشيء ، وبدا وكأنه لم يخلق منذ مدة قصيرة .

إن احداً لم يعرفه . كان واضحاً أنه عابر سبيل ليس غير . من اين أقبل ؟ من الجنوب ، وربما من شاطئ البحر . ذلك بأنه دخل بلدة ... من الطريق نفسها التي سلكها الامبراطور نابوليون ، قبل سبعة اشهر ، من « كان » الى باريس . ولا بد ان يكون هذا الرجل قد سلخ سحابة يومه وهو يسعى على قدميه ، فقد بدا شديد الاعياء . لقد بصُرت به بعض نسوة البلدة العتيقة القائمة في الجزء الادنى من المدينة وقد وقف تحت شجرات جادة غاساندي وانشأ يشرب من ينبوع المتدفق عند اقصى المنزه . ولا بد انه كان شديد الظمأ ، ذلك بأن بعض الصبية الذين تعقبوه وأوه يقف كرة اخرى ، ولما يتقدم متني خطوة اضافية ، ليعاود الشرب من الفؤارة التي في السوق العامة .

وحين بلغ زاوية شارع بواسوفير انعطفت يسرة ، ومضى الى مكتب العمدة . ودخل المكتب ؛ ثم غادره بعد ربع ساعة . كان احد رجال الدرك جالساً قرب



الباب على المقعد الحجري الذي ارتقاه الجنرال درووه \* ، في ٤ آذار ، ليتلو على ابنائه ... المروءين إعلان غولف جوان \*\* فرفع الرجل فلسوته وحيثما الدركي في ذلة .

ومن غير ان يردّ التحية ، نظر الدركي اليه في انتباه ، وأتبعه عنبه فترة ما ثم دخل دار البلدية .

وكان في د ... فندق حسن يدعى « لا كروادو كولبا » ، وكان يتولى ادارته فندق في اسمه جاكان لا بار ، وهو رجل كان له بعض الاعتبار في المدينة بسبب من صلة النسب التي تربطه بـ « لا بار » آخر يدرفندقاً في غرينوبل يدعى « تروا دوفين » ، وقد سبق له ان خدم في كتائب الحرس . ومنذ أن وطىء الامبراطور \* \* \* الارض الفرنسية ثار في البلاد لفظ كثير حول فندق الـ « تروا دوفين » هذا . لقد قيل إن الجنرال برتران رحل الى هناك عدة مرات ، خلال كانون الثاني ، متكرراً بزي سائق عربية ، ووزع اوسمة « صليب الشرف » على الجنود ، وحفلات من الليرات المعروفة بـ « نابوليون » على جماعة من البورجوازيين . والحقيقة ان الامبراطور رفض ، يوم دخل غرينوبل ، أن ينزل في دار المحافظ قائلًا له بعد ان شكره : « سوف امضي الى بيت رجل شجاع لي به معرفة . » ثم شخص الى فندق الـ « تروا دوفين » . وانعكس هذا المجد الذي حظي به « لا بار » صاحب فندق الـ « تروا دوفين » - انعكس عبر خمسة وعشرين فرسخاً على « لا بار » صاحب فندق « لا كروادو كولبا » . وتحدث الناس عنه ، في البلدة ، فقالوا : « إنه ابن عم الرجل الغرينوبلي ! »

وولى ابن السبيل وجهه قبلاً هذا الفندق ، الذي كان احسن فنادق الاقليم كلها ، ودخل لتوّه الى المطبخ المنفتح على الشارع . كانت جميع وجباته موقدة ،

---

\* Drouot قائد فرنسي ( ١٧٧٤ - ١٨٤٧ ) ، ابلى بلاء حسناً في موقعة واغرام ، وموقعة لوتزن ، وموقعة واترلو .

\*\* Golfe - Juan من اعمال « اقليم الالب البحري » حيث هبط نابوليون الارض الفرنسية عند عودته من منفاه في جزيرة ألبا .

\* \* \* نابوليون ، إثر عودته من ألبا .

وكانت نار عظيمة تضطرم رشقة في الموقد . وكان صاحب النزول ، الذي كان في الوقت نفسه كبير الطهاة ، ينتقل من الموقد الى القدور المعدنية ذوات المقابض ، منهمكاً في إعداد عشاء ممتاز لبعض سائقي العربات الذين كانوا يضعكون ضحكاً مدوياً ويتحدثون احاديث صاخبة في الغرفة المجاورة . وكل من قدر له ان يسافر يعرف ان احداً لا يجيأ أحسن مما يجيأ سائقو العربات . كان مرموط مسمين \* يحيط به حجلان \* \* \* بيض واوز ، يدور على سفود طويل حول النار . وعلى الوجاقات نضج شبوطان \* \* \* ضيخان من بحيرة لوزيه ، وترونة \* \* \* من بحيرة آلوز .

وقال صاحب النزول ، وقد سمع الباب يُفتح ، ويدخل قادم جديد ، ولكن من غير ان يرفع عينيه عن الوجاقات :

- « ما الذي يريدك السيد ؟ »

- « اريد أن آكل وانام . »

فقال صاحب النزول : « ليس ثمة شيء اسهل من ذلك . »

حتى اذا ادار وجهه ، والقي نظرة على المسافر أضاف : « لقاء أجرة . »

وسحب الرجل من جيبه كيس نقود جليداً كبيراً وأجاب :

- « عندي مال . »

فقال صاحب النزول : « اذن ، أنا في خدمتك . »

وأعاد الرجل كيس نقوده الى جيبه . وفي جهد أنزل الكيس العسكري أعين

ظهره ، قرب الباب ، وجلس على كرسي منخفض ، الى جانب النار ، مسمكاً

عصاه بيده . ذلك بأن بلدة ... جبلية ، وليالي تشرين الاول قارسة فيها .

واياً ما كان فقد أبقي صاحب النزول في غدوة ورواحه عيناً حذرة على المسافر .

وقال الرجل : « هل العشاء جاهز ؟ »

\* حيوان من ذوات الاربع في حجم الارنب تقريباً وفي مثل هيئة إلا أن ذنبه أقصر .

\* \* جمع حجل .

\* \* \* الشبوط ضرب من مأكلا الحلو .

\* \* \* من مأكلا الحلو ايضاً .

فأجاب صاحب الفندق : « سيكون جاهزاً في الحال . »  
وفيا الوافد الجديد يتدفأ ، مديراً ظهره ، اخرج صاحب النزل الفاضل ،  
جاكان لا بارت ، فلماً من جيبه ثم مزق زاوية صحيفة عتيقة سحبها من طاولة صغيرة  
كانت قائمة قرب النافذة . وعلى هامش القصاصة الابيض خطاً سطرأ أو سطرين ،  
وطواها من غير ان يضعها في ظرف ، ودفعها الى غلام بدا وكأنه يعمل في خدمته  
مساعداً طاهٍ وخادماً في آن معاً . وهمس صاحب الفندق بكلمة في أذن الغلام ،  
فانطلق نحو مكتب العمدة .

ولم ير المسافر شيئاً من ذلك .

ونساءل كرة اخرى :

« هل الطعام جاهز ؟ »

فأجاب صاحب المنزل :

« سيكون جاهزاً في الحال . »

ورجع الغلام ، حاملاً قصاصة الورق . ونشرها صاحب المنزل على عجل ،  
فعمل من يتوقع جواباً . وبدا وكأنه يقرأ في انتباه ، ثم فكّر لحظة طارحاً  
رأسه الى جانب . واخيراً تقدم خطوة نحو المسافر الذي بدا مستغرقاً في تفكير  
مشوش كدير .

وقال : « انا لا استطيع ان استقبلك ، يا سيدي ! »

ونفض المسافر عن مقعده نصف نهضة .

« لماذا؟ أتخاف ان لا ادفع اليك الثمن ، أم انك تريدني ان ادفعه مقدماً؟ »

إن عندي مالاً ، اقول لك . »

« ليس هذا هو السبب . »

« ما السبب إذن ؟ »

« إن عندك مالاً ... »

فقال الرجل : « نعم . »

فاردف صاحب النزل : « ولكن ليس عندي غرفة . »

- فأجابه الرجل في هدوء :
- « ضمني في الاسطبل . »
- « لا أستطيع . »
- « لماذا ؟ »
- « لأن الخيل تحتل المكان كله . »
- فسارع الرجل الى القول :
- « حسن . زاوية في العلبة . حزمة من القش . سوف ننظر في هذه المسألة بعد العشاء . »
- « انا لا أستطيع ان اقدم اليك عشاء . »
- وبدا هذا الاعلان ، المفرغ في جرس موقّع ولكنه جازم ، خطيباً في نظر الرجل الغريب . فنهض .
- « آه ياه ! ولكنني أموت من الجوع . لقد مشيت منذ مطلع الشمس ؛ لقد قطعت اثني عشر فرسخاً \* . سوف ادفع . أريد ان آكل ! »
- فقال صاحب المنزل : « ليس عندي شيء . »
- وانفجر الرجل ضاحكاً ، واستدار نحو الموقد والوجافات .
- « لا شيء ! وهذا كله ؟ »
- « إنه طعام محجوز . »
- « ومن الذي حجزه ؟ »
- « هؤلاء السادة سائقو العربات . »
- « وما عددهم ؟ »
- « اثنا عشر . »
- « إن ثمة طعاماً يكفي عشرين . »
- « لقد حجزوا الطعام ودفعوا ثمنه كله مقدماً . »
- وعاود الرجل الجلوس وقال من غير ان يرفع صوته :
- \* الفرسخ : اربعة كيلومترات .

« انا في الفندق . إنني جائع ، وسوف ابقى . »  
فانحنى صاحب النزل فوق أذنه وقال في صوت جعله يرتجف :  
« أخرج من هنا ! »

ولم يكد المسافر يسمع هذه الكلمات ، وكان منحنيًا بجوارك بعض الجارات في النار بطرف عصاه المغلف بالحديد ، حتى استدار فجأة ، وفتح فاه ليصيح . فما كان من صاحب النزل ، الناظر اليه نظراً موصولاً ، إلا ان اضاف في الصوت الحقيقض نفسه :

« كفى . حذار ان تقول كلاماً كهذا بعد الآن ! أتريد أن أقول لك ما اسمك ؟ انت تدعى جان فالجان . والآن ، أتريد ان اقول لك من أنت ؟ فنذا ان رأيتك تدخل ، ساورني الشك . فانتصت بمكتب العمدة ، فكان هذا هو الجواب الذي جاءني . هل تعرف القراءة ؟ »

واذاً قال ذلك ، قدم الى الرجل الغريب تلك الورقة المنشورة التي انطلقت من النزل الى مكتب العمدة ، ثم رجعت من مكتب العمدة الى النزل . والقي الرجل نظرة عليها . وبعد صمت ، استأنف صاحب الفندق كلامه :

« من عادتي ان اكون لطيفاً مع الناس جميعاً . إذْهَبْ ! »  
وطأ الرجل رأسه ، ورفع كيسه عن الارض ، ومضى لسبيله .  
واتخذ الطريق الرئيسية ، هائماً على وجهه ، محاذياً البيوت مثل رجل محزون مهين : إنه لم يلتفت مرة واحدة الى وراء . ولو قد فعل ، اذن لراى صاحب فندق « لاكروا دو كولبا » واقفاً بباب 'نزه' ، وقد احاط به زبائنه جميعاً ، واجتمع حوله عابرو السبيل كلهم ، متحسدين في احتياج ، مشيراً اليه بأصبعه ؛ وإذن لأدرك من خلال نظرات الحذر والجزع التي تبادلها القوم ، ان قدومه سوف يصحح عما قليل حديث البلدة برمتها .

إنه لم ير شيئاً من ذلك كله . فالناس الذين كتبهم المموم لا يلتفتون الى وراء . إنهم يعرفون معرفة يقينية ان النحس يلاحقهم .  
وواصل سيره على هذه الشاكلة فترة ما ، هابطاً من غير ما قصد شوارع

يجهلها ، ناسياً التعب ، كالذي يقع في غمرة الحزن دائماً . وفجأة استشعر عضّة الجوع . كان الليل على وشك ان يبط فاجال طرفه في ما حوله باحثاً عن مأوى . لقد أوصدت ابواب الفندق الطيب في وجهه . فليتمس الآن حانة متواضعة ، أو قهواً حقيراً .

وفي تلك اللحظة التمع ضوء عند أقصى الشارع . لقد رأى غصن صنوبر معلقاً بسنادٍ حديديّ ناتيء ، تحت مماء الغسق البيضاء . فمضى الى هناك .

وفي الحق ، أنها كانت حانة . ألعانة القائمة في شارع دو شوفرو .

ووقف المسافر لحظة ، ونظر من خلال النافذة الصغيرة الى قاعة الحانة الخفيضة ، المضادة بمصباح يُرفع على إحدى الطاولات ، وبنار عظيمة تضطرم في الموقد . كان بعض الرجال يعاقرون الخمر ؛ وكان صاحب الحانة يتدفاً . وكانت قدر حديدية تتدلى من معلق الرجل ، فتحملها النار على الغليان .

وكان لهذه الحانة - وهي ضربٌ من المطاعم أيضاً - مدخلان اثنان ، أحدهما منفتح على الشارع ، والآخر منفتح على فناء صغير مليء بالقاذورات .

ولم يجرؤ ابن السبيل على الدخول من الباب الاول . لقد انسل الى الفناء ، ووقف كرة أخرى ، ورفع المزلاج في خشية ، ودفع الباب .

وقال ربّ الحانة : « مَنْ هناك ؟ »

- « رجل يلتمس عشاء ومبيتاً . »

- « هذا حسن . في استطاعتك هنا ان تتعشى وتنام . »

ودخل الحانة ؛ فلم يبتّع احدٌ من الشرّب \* إلا التفت نحوه . وأضاء المصباح جانباً من وجهه ، وازادت النار الجانب الآخر . وتأمله القوم فترةً فيما كان يحطّ كيسيّ عن ظهره .

وقال له صاحب الحانة : « هذه هي النار . إن العشاء يُنضج في القِدْر . تعال وتدفاً يا رفيقي . »

وجلس قرب المستوقد ، ونشر رجله نحو النار ، وقد كاد الأعياء يُميته .

---

• جماعة الشارين .

وانطلقت من القدر رائحة زكية . وكان كل ما بدا من بحياه تحت قلوبهم  
المجالة يتم عن مظهر غبطة غامض يترج بتلك السبا المحزونة التي يخلعها على المرء  
تطاول العذاب الموصول .

كانت هيئته الجانبية قوية ، نشيطة ، حزينة . وكانت سياه تلك غريبة حقاً ؛  
لقد بدت اول الأمر حقيرة ، ثم انتهت الى ان تبدو قاسية . والتمعت عينه تحت  
حاجبيه وكأنها النار تحت عوسجة .

بيد أن رجلاً من انتظمهم المائدة كان صياداً وضع جواده في الاسطبل  
المعلق بفندق لابرّ قبل ان يفد على الحانة القائمة في شارع دو شوفو . ولقد اتفق  
أن لقي ، صباح ذلك اليوم نفسه ، هذا الرجل الغريب المشبه وهو يقطع  
الطريق ما بين برا داس و ... ( لقد نسبت الاسم ، وأظن أنه ايسكوبلون . )  
فسأله الرجل الغريب ، الذي هذه الأعياء ، ان يُردفه على جواده ، فما كانت من  
الصيد إلا ان أطلق النعان لجواده مضاعفاً من سرعته . وقبل نصف ساعة ، كان  
الصيد بين الحشد الذي تملأ حول جاكان لابرّ ، وكان قد روى خبر اجتماعه  
البعيض به على مسامع القوم في « لأكروا دو كولبا » . وأوماً الى صاحب  
الحانة ، خلسة ، أن يدنو منه ، ففعل . وتبادلا بضع كلمات في صوت خفيض .  
كان المسافر قد استغرق في التفكير كرة اخرى .

وانقلب صاحب الحانة الى النار ، ووضع يده في خشونة على كتف الرجل  
الغريب ، وقال في فظاظه :

« ينبغي ان ترحل من هنا ! »

فاستدار الغريب وقال في رقة :

« آه ! هل تعرف ؟ ... »

« نعم . »

« لقد طردوني من ذلك الفندق . »

« ونحن نطردك من هذا . »

« والى اين تريد ان اذهب ؟ »

— الى مكان آخر . —

وتناول الرجل عصاه وكيسه ، ومضى لسبيله .

فلما وطئت رجلاه الطريق شرع نفر من الصبية يرشقونه بالحجارة — وكانوا قد تعقبوا أثره من « لاكروا دو كولبا » ، وبدؤوا وكأنهم ينتظرونه . فالتفت اليهم مغضباً ، وتهددهم بعصاه ، فانقضوا من حوله مثل سرب من الطير .

وانتهى الى السجن . كانت سلسلة حديدية تتدلى من الباب مشدودة الى جرس . فأمسك بها وقرع .

وفتحت نافذة الباب .

وقال الرجل وهو يرفع قلنسوته احتراماً :

— « سيدي السجن ، هل لك ان تفتح الباب وتسمح لي بالمبيت هنا

هذه الليلة ؟ »

فأجابه صوت :

— « السجن ليس فندقاً . إفعلي ما يحمل الشرطة على اعتقالك ، وعندئذ

نفتح لك ! »

وأوصدت نافذة الباب .

ومضى الى شارع صغير حافل بالجناث ؛ كان بعضها مسوراً بأسبجة ليس غير فهي تبهج الشارع . وبين تلك الحدائق بصر بيت صغير جميل ذي دور واحد ينبعث من نافذته نور . وحدق من خلال الزجاج فعلمه حين بلغ الحانة من قبل ، فرأى غرفة رحة بُيِّضت بماء الكلس ، تحتوي على سرير مجلجل بألشيت المطبوع ، ومهد قائم في الزاوية ، وبضعة كراسي خشبية ، وبندقية ذات اسطوانتين معلقة على الجدار . وكانت في وسط تلك الغرفة طاولة ، وكان مصباح نحاسي يضيء غطاء الطاولة الابيض الحشن . والتسع ابريق صفيحي مترع بالحر وكأنه الفضة ، وتساعد البخار من صحن الشورباه الأسمر . والى هذه المائدة كان يجلس رجل في نحو الاربعين ، جيج الفؤاد منطلق الاسارير ، يلعب على ركبتيه طفلاً صغيراً . وغير بعيد منه كانت امرأة شابة ترضع طفلاً آخر . كان الوالد يضحك ، وكانت



الولد يضحك ، وكانت الأم تبسم .

وظل ابن السبيل لحظة يتأمل هذا المشهد العذب المهدى للعصاب . ما الذي دار في تخلة ؟ كان هو وحده القادر على ان يجيب عن ذلك . ولعله قد تذكر بأن هذا البيت السعيد لا بد ان يكون مضافاً ، وبأنه قد يجد قليلاً من الشفقة حيث وقع بصره على هذه السعادة كلها .

ونقر على زجاج النافذة نقرة واحدة .

ولم يسمعه احد .

ونقر كرة اخرى .

وسمع المرأة تقول لزوجها :

« بخيل اليّ ان تمة شخصاً بقرع النافذة . »

فأجاب الرجل : « لا »

ونقر على الزجاج مرة ثالثة . فنهض الزوج ، وحمل المصباح ، وفتح الباب . كان رجلاً فارغ الطول ، نصفه فلاح ، ونصفه من اصحاب الصنائع . وكان يرتدي مئزراً جلدياً رجباً ارتقى حتى كشفه اليسرى وشكّل جيباً يحتوي على مطرقة ، ومندبل احمر ، وقرن بارود ، ومختلف ضروب الاشياء التي بانتظامها الحزام . وادار رأسه الى وراء . فكشف قميصه الواسع المفتوح عن رقبته البيضاء العارية الشبيهة برقبة الثور . كان ذا حاجبين غليظين ، وشاربين ضخمين سوداوين ، وعينين جاحظتين . وكان الجزء الاذن من وجهه محجوباً ، والى ذلك كله فقد كانت تغلب عليه سيما الرجل الآمن في بيته ، الآخذ اكبر قسط من الحرية والراحة ، وهي سيما لا سبيل الى وصفها البتة .

وقال المسافر : « سيدي ، ألمس عفوك : هل تستطيع ان تقدم اليّ ، لقاء مبلغ من المال ، صحناً من الحساء ، وزاوية في السقفة التي في حديقتك أنام فيها ؟ قل لي هل تستطيع ان تقدم اليّ ذلك ؟ لقاء مبلغ من المال أدفعه ؟ »

فسأله صاحب الدار : « من أنت ؟ »

فأجاب الرجل : « لقد اقبلت من بوي مواسون ؟ لقد مشيت طوال النهار .

لقد قطعت اثني عشر فرسخاً . هل تستطيع ؟ اذا دفعت اليك مالا ؟ »  
فقال الفلاح : « انا لا أرفض أن أؤوي اي رجل ملائم يدفع أجر ذلك .  
ولكن لماذا لا تذهب الى الفندق ؟ »

- « ليس ثمة متسع . »

- « بآه ! هذا مستحيل . ليس اليوم موعد معرض ولا سوق عامة . هل  
قصدت الى نزل لا بار ؟ »

- « نعم . »

- « ثم ماذا ؟ »

فأجاب المسافر في تردد :

- « لست ادري . لقد رفض ان يؤويني . »

- « هل قصدت الى ذلك المكان الذي في شارع دو شوفر ؟ »

فعاظم ارتباك الرجل الغريب ، وتتم :

- « لقد رفضوا إيوائي هناك ايضاً . »

ورانت على وجه الفلاح انطباعة ارتياح . ونظر الى الراكب الجديد من  
قمة رأسه الى اخمص قدميه ، ثم صاح فجأة وقد استبد به ضرب من الارتعاد :  
- « أنت ذلك الرجل ؟ »

وعاود النظر الى الغريب ، وارتد الى الوراء ، فوضع المصباح على الطاولة ،  
ونزع بندقيته عن الجدار .

ولم تكذ زوجته تسمع قوله : « أنت ذلك الرجل ؟ » حتى أجفلت ،  
وضمت ولديها بين ذراعيها ، وسارعت الى الاحتباء خلف زوجها . ونظرت الى  
الرجل الغريب في ذعر ، عارية العنق ، مشدوهة العينين ، ونفخت في صوت  
خفيض :

\* « Tre . marsude ! » -

« من كلام سكان مناطق الالب الفرنسية ، ومعناها : هرة ترق غلات الارض قبل ان تمصد ،  
أو كما يسرق الجنود زمن الحرب . »

جرى ذلك كله في وقت اقصر من ذلك الذي يحتاج اليه المرء لكي يقرأ نبأه . وبعد ان تأمل الرجل كما يتأمل الانسان أفعى ، تقدم رب الدار الى الباب وقال :

« أخرج من هنا ! »

فقال الرجل : « بامم الشفقة ، أعطني جرعة ماء ! »

فأجابه الفلاح : « سوف اعطيك طلقاً نارياً ! »

ثم إنه اوصد الباب في عنف . وسمع الرجل مغلفين تقبلين يسحبان . وما هي الا لحظة حتى أغلقت النافذة الحشبية وقُصِّتْ \* بالحديد على نحو صاحب . وواصل الليل هبوطه . وهبت رياح الألب القارسة . وعلى ضوء النهار المحتضر لمح الرجل الغريب - في احدى الجناين المواجهة للشارع - شبه كوخ مبني من اللبن . وفي عزم ، اجتاز بسياج خشبي ، فألقى نفسه في الحديقة . ودنا من الكوخ . كان بابه كناية عن فتحة ضيقة شديدة الانخفاض ، وكان هو شبه شيء بتلك الاكواخ التي يقيمها معبدو الطرق لأغراضهم المؤقتة . ولقد ظن الرجل الغريب ، من غير شك ، انه كان في الواقع مأوى معبد طرق . وكاث يقاسي ألم البرد والجوع جميعاً . ولقد أذعن للجوع واحتسله ، ولكن هنا وقاية من البرد على الاقل . وقد جرت العادة بأن يكون هذا الضرب من الاكواخ غير آهل في اثناء الليل . فانطرح على الارض وزحف الى الكوخ . كان الجو دافئاً هناك ، ولقد وجد ثمة فراشاً جيداً من قش . واستراح على هذا الفراش لحظة ، عجز خلالها عن ان يأتي بحركة لشدة ما ألم به من الاعياء . واذ أزعجه كبيه المشدود الى ظهره ، وإذ كان في ميسوره ان يتخذ من ذلك الكيس وسادة ، فقد شرع يفك احد سيوره . وفي تلك اللحظة طرق ممعه نباح ضار ؛ فرفع عينيه فإذا به يرى عند وصيد الكوخ كلباً ضخماً الرأس والعنق . كان ذلك المكان وجار كلب !

---

\* قصته بالحديد : وضع أحدثناه لبفيد معنى : أحكم إغلاق الباب او غيره بالقضبان الحديدية .

وكان هو نفسه شديد البأس راعباً . فشهر عصاه ، واتخذ من كيسه  
مجنأً ، وغادر الجرار على خير ما كان في وسعه ان يفعل ، وقد اتسعت خروق  
ثيابه وتعاطمت .

وغادر الحديقة أيضاً ، ولكن مرتدأ الى الوراء ؛ وقد اضطر ، تهرباً  
للكلب ، الى ان يصطنع بعصاه تلك المناورة التي يدعوها المترسومون بلعبة السيف  
والترس « الرودة المحبوبة » .

حتى اذا عاود الوئوب ، في مشقة ، من فوق السياج ، ألقى نفسه وحيداً ،  
كرة اخرى ، على فارعة الطريق ، من غير مرقد ، ومن غير سقف ، ومن  
غير مأوى ؛ بل ألقى نفسه طريداً حتى من الفراش القشبي الذي وقع عليه في ذلك  
الوجار الحثير . ثم انه طرح نفسه - ولا نقول جلس - على حجر ، وبدا وكأن  
عابرأ مرّ به سمعه يصيح :

- « أنا لست حتى كلباً ! »

ثم نهض ، وأنشأ يتسكع من جديد ، متجهاً نحو ظاهر البلدة ، رجاء ان  
يجد شجرة او ركناً ما في بعض الحقول حيث يستطيع ان يبيت ليلته تلك .

وواصل السير على هذا النحو ، فترةً ما ، مطرق الرأس ابدأ . حتى اذا  
خيل اليه انه أمسى بعيداً عن المنطقة الآهلة بالبشر رفع عينيه ، واجالها في ما  
حوله مستطلعاً . كان في حقل من الحقول ؛ وكانت امامه احدى تلك التلال  
المنخفضة المغطاة بقش الزرع المجزوز من أعقابها ، والتي تبدو بعد الحصاد اشبه  
شيء برؤوس حليقة .

كان الافق قائماً مظلماً جداً ؛ ولم يكن ذلك بسبب من ظلمة الليل فحسب ،  
ولكن بسبب من السحب الشديدة الانخفاض التي تراءت وكأنها تتكبيء على  
الكثيب نفسه ، والتي ارتقت مغطية السماء برمتها . بيد ان بعض الغسق تباطأ في  
سمت الرأس ؛ وإذ كان القمر على وشك ان يطلع فقد شككت تلك السحب في  
كبد السماء قوساً ضارباً الى البياض انبعث منه فوق الارض بعض الضياء .

كانت الارض إذن أحفل بالنور من السماء ، وهي حال توقع في النفس أثراً

مشووماً الى حد بعيد . وارسم الكتيب ، الفقير الحثير ، باهتاً شاحباً على  
الافق القاتم . وكان ذلك كله قبيحاً ، وضعياً ، فاجعاً ، محدوداً . ولم يكن في  
الحقل او على الكتيب غير شجرة سائنة - على بضعة خطوات من المسافر - شجرة  
واحدة بدت وكأنها تلوي نفسها وتشتتى .

وواضح ان هذا الرجل كان بعيداً جداً عن ان يملك تلك السجيا العقلية  
والعاطفية الرقيقة التي تهب المرء حساسة لمشاهد الطبيعة الممتعة على الفهم . ومع  
ذلك فقد كان في تلك السماء ، وذلك الكتيب ، وهذا السهل ، وهذه الشجرة  
شيء موحش الى درجة جعلت الرجل ينقلب على عقبيه ، بعد لحظة من الكون  
والتأمل ، ويسارع الى الطريق العام . إن تلك لحظات تبدو الطبيعة خلالها مخاصمة  
معادية .

لقد ارتدت على آثاره . كانت ابواب د ... موصدة . ذلك بأن د ... التي  
قاست ضروب الحصار اثناء الحروب الدينية كانت لا تزال محاطة ، سنة ١٨١٥ ،  
بأسوار عتيقة تقوم على جنباتها ابراج مربعة تُخربت منذ ذلك العهد . فما كانت  
منه إلا ان عبر من خلال احدى الثغرات ، ودخل البلدة .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء ، تقريباً . واذا لم يكن يعرف الشوارع ،  
فقد عاود السير على غير هدى . وهكذا انتهى الى دار المحافظ ، ثم الى معهد  
الكيركي . حتى اذا مرّ بساحة الكاتدرائية هزّ مجمع كفيه في وجه الكنيسة .  
وكانت في زاوية هذه الساحة مطبعة . هناك كانت تُطبع ، اول مرة ،  
بيانات الامبراطور والحرس الامبراطوري للجيش ، بعد أن يُملئها نابوليون  
نفسه ، ويُحمّل من جزيرة ألبا .

وإذ كان الاعياء قد أنهكه ، وإذ كان لا يطعم في شيء أفضل ، فقد استلقى  
على مقعد حجري نجاه تلك المطبعة .

وفي تلك اللحظة بالذات خرجت من الكنيسة امرأة عجوز . فرأت هذا  
الرجل مستلقياً في الظلام فقالت :

- « ماذا تفعل هناك ، أيها الصديق ؟ »

فأجابها في فظاظة والغضب بمازج صوته :  
« انت ترين ، ايها المرأة الصالحة ، أنني أزمع أن أنام . »  
وكانت المرأة الصالحة ، الجديرة بهذا الوصف حقاً ، هي مدام المركيز دو  
... و

وقالت : « على هذا المقعد ؟ »  
فقال الرجل : « لقد سلختُ تسع عشرة سنة وأنا أنام على فراش خشبي .  
أما الليلة فأنام على فراش حجري . »  
« أكنت جندياً ؟ »  
« نعم ، يا سيدتي الصالحة ، جندياً . »  
« لم لا تذهب الى الفندق ؟ »  
« لأنه لا مالَ عندي . »  
فقالت السيدة دو و ... : « وأسفاه ، ليس في محفظتي غير اربعة فلوس . »  
« امنحيني إياها . »

وأخذ الرجل الفلوس الاربعة . وتابعت مدام دو و ... كلامها :  
« هذه الفلوس المعدودات لن تمكّتك من المبيت في فندق . ولكن هل  
حاولت ؟ إن من المتعذر عليك أن تقضي الليل هكذا . ولا بدّ انك تشكو  
البرد والجوع . ينبغي ان يقدموا اليك مأوى تبين فيه من غير ما مقابل .  
يجب ان يفعلوا ذلك صدقة وإحساناً . »

« لقد طرقت كل باب . »  
« حسن ، ثم ماذا ؟ »  
« ولقد طردني كل إنسان ! »  
ومست العجوز ذراع الرجل ودلّته الى بيت صغير منخفض قائم في الناحية  
الاخرى من الساحة ، غير بعيد عن قصر الاسقف .  
وقالت : « تقول انك طرقت كل باب ؟ »  
« نعم . »

– « هل طرقت الباب الذي هناك ؟ »

– « لا . »

– « أطرقة إذن ! »

## ٢

### الفطنة تستسلم للحكمة

تلك الليلة ، مكث اسقف د... في غرفته - بعد أن قام بنزهته في البلدة - حتى ساعة متأخرة . كان منصرفاً الى العمل في مؤلفه الضخم عن « الواجبات » ، هذا المؤلف الذي لم يتم مع الاسف . لقد شرّح ، في عناية ، كل ما قاله آباء الكنيسة والثقات من رجال الدين في هذا الموضوع الخطير . وكان كتابه ينقسم قسمين : الاول ، في واجبات المجموع ؛ والثاني ، في واجبات كل واحد ، وفق الطبقة التي ينتمي اليها . وواجبات المجموع هي الواجبات الكبرى . وثمة أربعة من هذه الواجبات اشار اليها القديس متى ، وهي : واجبات نحو الله ( متى ٦ ) ، وواجبات نحو انفسنا ( متى ٥ آية ٢٩ ، ٣٠ ) وواجبات نحو جيراننا ( متى ٧ آية ١٢ ) وواجبات نحو المخلوقات ( متى ٦ آية ٢٠ ، ٢٥ ) . اما الواجبات الاخرى فقد ألفاها الاسقف محذرة وموصوفة في مكان آخر . فواجبات الملوك والرعايا في « رسالة بولس الرسول الى اهل رومة » \* وواجبات الولاة ، والزوجات ، والامهات ، والشبان في « رسالتي بطرس الرسول الاولى والثانية » \*\* ، وواجبات الازواج ، والآباء ، والاولاد ، والخدم في « رسالة بولس الرسول الى اهل أفسس » \*\*\* وواجبات المؤمنين في « الرسالة الى العبرانيين » \*\*\*\* وواجبات العذارى في « رسالتي بولس الرسول الاولى والثانية الى اهل كورنثوس » \*\*\*\*\*

---

\* إل ..... هذه كلها من اسفار الانجيل او « العهد الجديد » .

وفي جهد شاق أفرغ هذه النصائح جميعها في كلِّ متناغم كان يودّ ان يقدمه الى النفوس .

وكان لا يزال منصرفاً الى عمله ، في الساعة الثامنة ، يكتب في شيء من الانزعاج على قصاصات صغيرة من الورق ، واضعاً على ركبتيه كتاباً ضخماً مفتوحاً ، عندما اقبلت السيدة ماغلوار ، جرياً على عاداتها ، لتأخذ آنية الفضة من الخزانة الجدارية الصغيرة المجاورة للسريـر . وبعد لحظة اغلق الاسقف كتابه - وقد ادرك ان المائدة قد مُدّت ، وأن أخته قد تكون في انتظاره - ومضى الى حجرة الطعام .

وكانت هذه الحجرة غرفةً مستطيلة ، ذات موقد ، وذات باب يتفتح على الشارع كما سبق منا القول ، ونافذة تطلّ على الحديقة .

وكانت السيدة ماغلوار قد اتمت في الواقع وضع الاطباق . وفيما هي 'تعدّ' المائدة كانت تتحدث الى الآنة باتيستين .

وكان على المائدة مصباح . وكانت المائدة قرب الموقد ، حيث اضطربت نارٌ قوية .

وفي ميسور المرء ان يتخيّل ، في سهولة ، هاتين المرأتين اللتين تجاوزت كل منهما الستين من العمر : السيدة ماغلوار ، قصيرة ، بدينة ، نشيطة ؛ والآنة باتيستين ، عذبة الروح مهزولة ، واهنة ، أطول بعض الشيء من أخيها ، وترتدي ثوباً حريراً اسمر محمراً ( وهو لون كان شائعاً عام ١٨٠٦ ) استتره آنذاك في باريس ولا يزال يخدمها . ولكي نستعير زبناً في التعبير يمتاز بقدرته على ان يقول بكلمة واحدة ما لا تعبّر عنه صفحة كاملة الا بشق النفس ننصّ على ان السيدة ماغلوار كانت تبدو عليها سيما الفلاحة ، في حين ان الآنة باتيستين كانت تبدو عليها سيما السيدة . وكانت السيدة ماغلوار تعتمر قلنسوة بيضاء ، قمعيّة الشكل ؛ ويطوّق عنقها صليبٌ ذهبي صغير كالذي يجمله اهل الاريايف - وهي الحلية النسوبة الوحيدة في ذلك البيت - وترتدي منديلَ عنقٍ ناصع البياض ينبثق من ثوبها الصوفيّ الحشن الاسود ذي الردين الواسعين القصيرين ، ومزوّراً



من قماش قطني تزيينه مربعات حمراء وخضراء معقوداً عند الحصر بعصابة خضراء ، و « كشكش » صدر من النوع نفسه 'مبتأً بدوسين عند زاويتيها العلويتين ؛ وتنتعل حذاء غليظاً ، وجوربين صفراوين مثل نساء مرسيليا . اما ثوب الآنسة باتيستين فكان مفصلاً وفقاً لزي عام ١٨٠٦ - - خصر قصير ، ومهدب ضيق ، وردنان عالي الكتفين ، وعريّ وأزرار . وكانت تحفي شعرها الاشيب تحت لمة مستعارة جديدة تدعى *à la Pensant* وكانت تبدو على محبا السيدة ماغلوار أمارات الذكاء والنشاط والطيبة . وكانت زاويتا فمها المرتفعتان على غير نساء ، وشفتها العليا التي تفوق شفتها السفلى ضخامة ، تخلع عليها مسحة « نكدية » متفطرسة . كانت تتحدث الى الاسقف - ما اعتصم هو بالصمت - في عزم وفي مزيج من الاحترام والحرية ، ولكنه ما إن يفتح فمه ، كما قد رأينا ، حتى تدعن له من غير تردد ، مثل الآنسة باتيستين . اما الآنسة باتيستين فما كانت لتتكلم . لقد قصّرت نفسها على الطاعة والرغبة في الأرواح . وحتى حين كانت صبية ، لم تكن جبلة . كان لها عينان زرقاوان كبيرتان جاحظتان الى حد بعيد ، وأنف طويل أعقف ، ولكن وجهها كله ، وشخصها كله ، كانا كما رأينا بتضوّعان بطيبة تمتنع على الوصف . لقد كانت مصطفاة ابدأ للوداعة ؛ ولكن الايمان ، والمحبة ، والامل - هذه الفضائل الثلاث التي تدفي القلب في رفق - كانت قد سمّت بهذه الوداعة شيئاً بعد شيء حتى بلغت بها مستوى القداسة . لقد جعلتها الطبيعة سمحلاً ، ثم جاء الدين فجعلها ملاكاً . مسكينة تلك المرأة القدسية ! إنها ذكرى عذبة ، ولكنها ضائعة !

وكانت الآنسة باتيستين قد أكتوت منذ ذلك الحين من رواية ما حدث في منزل الاسقف آنذاك الى درجة جعلت كثيراً من الناس الذين ما يزالون على قيد الحياة قادرين على ان يذكروا أدق تفاصيله .

فلحظة دخل الاسقف ، كانت السيدة ماغلوار تتحدث في شيء من الحرارة . كانت تتحدث مع الآنسة باتيستين في موضوع مألوف ، تعود الاسقف السماع . أي : « على غرار الاطفال » .

اليه . كان حديثاً يدور حول وسائل إبعاد الباب الخارجي .  
لقد بدا وكأن السيدة ماغلوار ، حين غادرت المنزل لتشتري الاغذية  
الضرورية للعشاء، سمعت انباءً تُروى في مواطن شتى . كان القوم يتحدثون عن متسكع  
خبيث المنبت ، عن متشرد مشبوه ، وفد على البلدة ، وكانوا يقولون انه انتهى  
الآن من غير شك الى مكان ما منها . وإن بعض الاحداث الكريهة قد تصيب  
اولئك الذين يرجعون الى بيوتهم في ساعة متأخرة من تلك الليلة . والى هذا ،  
فقد كانت أداة الأمن رديئة ، لأن كلاً من المحافظ والعمدة يكره الآخر ويرجو  
ان يسيء اليه بأحداث مشؤومة ذات خطر . وان من واجب الحكماء من الناس  
ان يكونوا هم شرطة أنفسهم ، فيعملوا على حماية انفسهم بأنفسهم . وانه يتعين  
على كل امرئ ان يصطنع الحذر فيقلل بيته ويوصده بالزلاج ويقضبه بالحديد ،  
ويحكم اغلاق ابوابه .

وأطالت السيدة ماغلوار الوقوف عند هذه الكلمات الاخيرة ، ولكن  
الاسقف أقبل من غرفته حيث وجد لذع البرد ، وجلس امام النار ، وانشأ  
يتدفأ ، لينصرف بعد ذلك الى التفكير في شيء آخر . إنه لم يسمع كلمة من  
الحديث الذي تساقط من على لسان السيدة ماغلوار . فأعادته كرة اخرى .  
وعندئذ غامرت الآنسة بانستين ، وكانت تود أن تشفي غليل السيدة ماغلوار من  
غير أن تغيظ اخاها ، فقالت على استحياء :

— « اخي ، هل سمعت ما قالته السيدة ماغلوار ؟ »

فأجاب الاسقف : « لقد سمعت بعضه ، على نحو غامض . »  
ثم انه ادار كرسيه نصف دورة ، ووضع يديه على ركبتيه ، وقال رافعاً نحو  
الخادم العجوز وجهه الودود البشوش الذي اضاءه وهج النار :

— « حسن ، حسن ! ما المسألة ؟ هل نحن اذن في خطر عظيم ؟ »

عندئذ اعادت السيدة ماغلوار رواية الخبر من أوله ، مبالغة في ذلك بعض  
الشيء على غير وعي منها . لقد بدا ان غجرياً حافي القدمين ، أو قل شحاذاً  
خطراً ، قد ألمّ بالمدينة . لقد التمس المأوى في فندق لابار ، ولكنه ابى ان

يستقبله . ثم رُئي يدخل المدينة من جادة غاساندي ويهيم على وجهه في الشوارع عند العسقي . إنه رجل ذو كيس وحبل ، وإن له لوجهاً فظيماً .  
فقال الاسقف : « حقاً ؟ »

ووجدت السيدة ماغلوار في سؤاله هذا ما شجعها . لقد بدا لها وكأنه يؤذن بأن الاسقف لم يكن في نجوة من الجزع . فتابعت كلامها في لهجة المنتصر .  
— « أجل ، مونسينيور . ما أقوله صحيح . ولسوف يقع شيء ما ، هذه الليلة في المدينة . إن الناس جميعاً يقولون ذلك . إن ادارة الشرطة فاسدة جداً (تكرار مفيد) . تصوّر أننا نعيش في هذا الاقليم الجبلي ، وليس عندنا حتى مصابيح تضاء في الشوارع ليلاً ! فإذا ما غادر المرء بيت وجد نفسه في ظلمة كظلمة الجيب . وأنا أقول يا صاحب السيادة ، والآنة تقول معي ايضاً ... »  
فقاطعتها الاخوت : « أنا ؟ أنا لا أقول شيئاً . كل ما يعمله أخني هو عندي حسن . »

وتابعت السيدة ماغلوار كلامها وكأنها لم تسع هذا الاحتجاج :  
— « نحن نقول ان هذا البيت ليس آمناً على الإطلاق . وإذا سمح لي صاحب السيادة فعندئذ أمضي الى بولن موزبوا ، القفال ، وأدعوه لكي يعيد تسليح الباب بالمزالج القديمة . انها هناك ، ولن يستغرق ذلك كله غير دقيقة واحدة . أقول إن علينا أن نركب المزالج ، يا صاحب السيادة ، ولو من أجل هذه الليلة فحسب . لأنني اعتقد ان الباب الذي يستطيع اول عابر سبيل ان يفتحه من خارج بواسطة سقطة ، هو غاية في الفظاعة . وفوق هذا ، فإن من دأب صاحب السيادة ان يقول دائماً : « أدخل ! » حتى في منتصف الليل . ولكن ، يا السهي ! ليس ثمة حاجة الى التماس الأذن ... »

وفي تلك اللحظة 'قرع الباب في عنف ، فقال الاسقف :  
.. « أدخل ! »

## بطولة الطاعة العمياء

وُفتح الباب .

'فتح في خفة ، وعلى نحو واسع جداً ، وكأنما دفعه امرؤ ما في قوة وعزم .  
ودخل رجل .

إنه رجل عرفناه من قبل . انه ابن السبيل الذي رأيناه منذ حين هائماً على وجهه يلتبس مكاناً يبيت فيه .

لقد دخل ، وخطا خطوة ، ثم تعهل ، تاركاً الباب وراءه مفتوحاً . كان يحمل كبسه على كتفه ، ويمسك عصاه في يده ، وكانت ترين على عينيه سجا خشنة ، قاسية ، متعبة ، ضارية ، كشفت عنها نار الموقد . كان راعباً . وكان طيفاً يُنذر بالشؤم .

ولم تعجد السيدة ماغلوار حتى القوة على الصباح . لقد وقفت مرتعدة الاوصال ، فاغرة الفم .

واستدارت الانسة باتيسين ، فرأت الرجل يدخل ، فنهضت نصف مذعورة . ثم إنها ارتدت ، في بطة ، نحو نار الموقد ، ونظرت الى اخيها ، فقدا وجهها ساكناً جداً ، رافقاً جداً .

ونظر الاسقف الى الرجل بعينٍ مطمئنة .

وفيما هو يفتح فمه لكي يسأل الوافد الجديد - من غير شك - اي شيء يريد اتكأ الرجل بيديه الاثنتين على عصاه ، ونقل طرفه من الرجل العجوز الى كل من المرأتين . ومن غير ان ينظر كلمة ما من الاسقف ، قال في صوت عال :  
- « اسمع ! أنا أدعى جان فالجان . انا رجلٌ 'حكيم عليه بالاشغال الشاقة .  
لقد سلختُ تسعة عشر عاماً في سجن الحكوميين بتلك الاشغال . ومنذ اربعة ايام أطلق سراحي ، فضيت لسبيلي في اتجاه بونتارييه ، التي أفصد اليها . وها

قد انتضى على مسيري من طولون اربعة ايام ، اجتزت خلالها اثني عشر فرسخاً .  
وحين وصلت الليلة الى هذا البلد ، قصدت الى احد الفنادق ، فطردوني بسبب  
من جوازي الاصفر الذي أبرزته في مكتب العمدة . لقد كان إبرازي الجواز  
فرضاً واجباً . وشخصت الى فندق آخر فقالوا لي : « أخرج من هنا ! » لقد  
وقفوا كلهم مني موقفاً واحداً . إن احداً لم يرحب بي . لقد قصدت الى السجن ،  
فأبى البواب ان يفتح لي . وزحفت الى وجار كلب ، فعضني الكلب ، وطردني  
وكانه رجل ؛ لكننا كان هو ايضاً يعرف من أنا . ثم مضيت الى الحقول كي  
انام تحت النجوم . فلم يكن ثمة نجوم . وحسبت ان المطر سوف يطل ، ولم  
يكن ثمة رب رحيم يحول دون انهاره ، وهكذا رجعت الى البلدة بحثاً عن سقف  
يؤويني . وهناك في الساحة العامة انطرحت على حجر ، فدلستني امرأة صالحة على  
بيتك وقالت : « اطرق ذلك الباب ! » وها قد طرقت . ما هذا المكان ؟ أهو  
فندق ؟ إن لديّ مالاً ؛ إنه مجموع ما ادخرته . مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر  
« سر » كسبتها في السجن لقاء عملي طوال تسعة عشر عاماً . سوف ادفع . ماذا  
يمني ؟ ان لديّ مالاً . انا متعب جداً — اثنا عشر فرسخاً قطعتها على قدمي ،  
وانا جائع جداً . هل استطيع ان أبقى ؟

فقال الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار ، ضعي طبقاً آخر . »

وخطا الرجل ثلاث خطى ، واقترب من المصباح القائم على المائدة ، ثم صاح  
وكانه لم يفهم جيداً :

-- « قف . ليس الامر كذلك . هل فهمتني ؟ انا رجل 'حكيم' عليه بالاشتغال  
الشاقة . مجرم خرج من السجن منذ فترة قصيرة . ( وسحب من جيبه ورقة  
كبيرة صفراء ونشرها . ) هذا هو جوازي . إنه اصفر كما ترى . وهذا وحده  
كافٍ لأن يطردني الناس من اي مكان أقصد اليه . أتحب ان تقرأ ؟ انا أعرف  
القراءة ؛ أجل أعرف . لقد تعلمتني في سجن المحكومين بالاشتغال الشاقة . إن هناك  
مدرسة يتعلم فيها من يرغب من السجناء . أنظر ، هذا ما كتبوه على الجواز :  
« جان فالجان ، محكوم بالاشتغال الشاقة أطلق صراحه . من مواليد ... » ( انت

لا تنبالي بهذا ) سلخ في السجن تسع عشرة سنة . خمس سنوات لارتكابه جريمة السرقة مع الكسفر ؛ واربع عشرة سنة لمحاولة الفرار من السجن اربع مرات . إنه رجل خطرٌ جداً . « أرايت ! لقد طردني الناس جميعاً ، فهل تريد ، انت ، ان تستقبلي ؟ هل هذا فندق ؟ هل تستطيع ان تقدم اليّ شيئاً آكله ، ومكاناً انام فيه ! هل عندك إسطل ؟ »

فقال الاسقف : « ايها السيدة ماغلوار ، ضعي بعض الاغطية البيضاء على سرير المُخدع . »

لقد سبق لنا أن وصفنا نوع الطاعة التي غلبت على هاتين المرأتين . والتفت الاسقف الى الرجل :

« ايها السيد ، اجلس وتدفأ . سوف تتناول طعام العشاء بعد لحظة . ولسوف 'يهيا' فراشك فيما انت تتعشى . »

واخيراً فهمَ الرجلُ جيداً . وطففت على وجهه الذي كانت انطباعته حتى الآن قائمة صارمة - طفت على وجهه هذا انطباعة من الذهول ، والشك ، والابتهاج ، وغدا غريباً حقاً . لقد أنشأ يتمم مثل رجل معتوه . - « صحيح ؟ ماذا ؟ سوف تبقيني عندك ؟ انت لن تطردني ؟

محكوم عليه بالاشتغال الشاقة ؟ انت تناديني « ايها السيد » ! انت لا تخاطبني بضمير المفرد ، ولا تقول لي « أخرج ، ايها الكلب ! » كما قال لي الناس دائماً . لقد حببت انك ستطردني ، ولذلك قلت لك في الحال من أنا . أوه ! شكراً لتلك السيدة الطيبة التي هدتني الى هنا ! سوف اتناول عشاء ! وسوف انام في سرير ! سرير ذي فراش واغطية ! مثل سائر الناس ! لقد انقضت تسع عشرة سنة لم اتم خلاها في سرير ! اترغب حقاً في ان ابقى هنا ؟ أنتم أناس طيبون ! والى هذا ، فأنت عندي مالأ . سوف ادفع لكم بسخاء . ألتمس عفوك ، يا سيدي القندي ، ما اسمك ؟ سوف أدفع كل ما تطلبه مني . انت رجلٌ طيب . انت صاحب فندق ، اليس كذلك ؟ »

فقال الاسقف : « أنا كاهن يسكن هنا . »

فقال الرجل : « كاهن ! أوه ، كاهن نبيل ! واذن فأنت لن تتقاضى شيئاً من المال ! أنت القس ، اليس كذلك ؟ أنت قس هذه الكنيسة الكبيرة ؟ أجل ، هذا صحيح . ما أشدّ بلاهتي ! أنا لم انتبه الى قلنسوتك ! »

وكان قد طرح ، فيها هو يتكلم ، كلاً من كيسه وعصاه في إحدى الزوايا ، ثم أعاد جوازه الى جيبه ، وجلس . ورنّت اليه الآنسة باتيستين في ابتهاج . وتابع كلامه :

« أنت شقوق ، يا سيدي القس . انت لا تحتقري . إن الكاهن الطيب شيء عظيم . واذن فأنت لا تريد مني ان ادفع اليك اجراً . »  
فقال الاسقف : « لا . إحتفظ بمالك . كم معك ؟ لقد قلت مئة وتسعة فرنكات ، اليس كذلك ؟ »

فأضاف الرجل : « وخمسة عشر سو . »

« مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سو . وما المدة التي احتجت إليها حتى تكسب هذا المبلغ ؟ »

« تسع عشرة سنة . »

« تسع عشرة سنة ! »

وتنهّد الاسقف تنهداً حقيقياً .

وتابع الرجل حديثه :

« أنا لا ازال إحتفظ بمالي كله . فمئذ اربعة ايام لم أنفق غير خمسة وعشرين

«سو» كسبتها من تفرغ العربات في غراس . ولما كنت كاهناً ، فيتعبني عليّ أن اخبرك أنه كان عندنا مرشد في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة . وذات يوم رأيت أسقفاً . كانوا ينادونه مونسينيور . وكان اسقف ماجور ، في مرسيليا . إنه الكاهن الذي يرأس جميع الكهنة . انت ترى - وألتمس منك العفو - كيف أتلعن في رواية ذلك ، ولكن هذا امسى الآن قديم العهد جداً بالنسبة اليّ . لقد

أقام قداساً في وسط السجن ، على مذبح . وكان يضع على رأسه شيئاً ذهبياً محددًا والتمع هذا الشيء في وجه الشمس ، فقد كان ذلك عند الظهيرة . وكنا قد وقفنا صفًا ، في جهات ثلاث . والمدافع وذبالات المصابيح المشعلة أمامنا . إننا لم نستطع ان نراه جيداً . لقد تحدث إلينا ، ولكنه كان بعيداً جداً عنا . إننا لم نفهمه . هذا هو ما ندعوه الاسقف . »

وفيا هو يتكلم أغلق الاسقف الباب ، وكان مشرعاً على مدها .

وجاءت السيدة ماغلوار بطبق ، فوضعت على المائدة .

وقال الاسقف : « آيتها السيدة ماغلوار ضعي هذا الطبق اقرب ما تستطيعين

الى النار . » ثم التفت الى ضيفه وأخاف :

- « إن رياح الليل قاسية في الأب . لا بد أنك تشكو البرد : يا سيدي . »

كانت اسارير الرجل تشرق كلما قال الاسقف بصوته الرقور الرفيق ، وبجسن

وفادته وصدقها ، هذه الكلمة : « سيدي » . إن أفضة « سيدي » يقال لرجل

خارج من سجن الاشغال الشاقة أشبه بشيء بكوب ماء يقدم الى رجل يموت

ظماً في عرض البحر . إن الحزني ليتعطش الى الاحترام .

وقال الاسقف : « هذا المصباح لا يُرسل غير ضوء واهن جداً . »

وفهمت السيدة ماغلوار . فوضت الى حجرة نومه ، ورفعت الشمعدانين

الفضيين عن الموقد ، ثم وضعتها على المائدة بعد ان أضاءت الشمعتين .

وقال الرجل : « سيدي القس ، أنت رجل صالح . انت لا تحتقري . أنت

ترحب بي في منزلك . انت تضيء شموعك من اجلي . مع اني لم أخف عليك من

'بن أقلت' ، وأيّ بانس أنا . »

وفي رفق ، مس الكاهن يده - وكان يجلس قريباً منه - وقال : « كان في

إمكانك ان لا تخبرني من انت . هذا ليس بيتي . إنه بيت يسوع المسيح . إن

هذا الباب لا يسأل الداخل ما اذا كان له اسم ، ولكن يسأله ما اذا كان ذا ألم .

أنت تتعذب . انت جائع عطشان . اهلاً بك . ولا تشكرني . لا تقل لي اني

استقبلك في بيتي . إن هذا البيت ليس بيت احد ، ما خلا ذلك الذي يلتمس



مفرعاً . اني أقول لك ، انت باعبر السبيل ، إن هذا البيت هو بيتك اكثر منه بيتي . وكل شيء هنا ، هو لك . فما حاجتي الى ان أعرف اسمك ؟ والى هذا ، فقد عرفت اسمك قبل ان تعلمني به . »

وفتح الرجل عينيه في دهش .

- « حقاً ؟ أكنت تعرف اسمي من قبل ؟ »

فأجاب الاسقف : « أجل ، أنت تدعى أخي . »

فصاح الرجل : « قف ، قف ، يا سيدي القس . لقد كان الجوع يعضني حين دخلت هذا البيت ، ولكنك كريم الى درجة تجعلني لا ادري ، الان ، ما بي . لقد زابطني ذلك كله . »

ونظر اليه الاسقف ، كرة اخرى ، وقال :

- « هل تعذبت كثيراً ؟ »

- « أوه ، القبيص الاحمر ، وكرة الحديد المشدودة الى القدم ، ولوح

الحشب الذي نمت عليه ، والحر ، والبرد ، والشغل ، وجاعة السجناء المحكومين بالاشغال الشاقة ، والضرب بالعصي ! السلسلة المزدوجة من أجمل لاشيء . والحبس في حجيرة مظلمة عقاباً على كلمة . والسلسلة حتى في حالات المرض والانطراح في الفراش . ان الكلاب ، الكلاب ، هم اكثر سعادة ! تسع عشرة سنة ! وأنا في السادسة والاربعين . والان ، هذا الجواز الأصفر ! ذلك كل شيء . »

فقال الاسقف : « أجل ، لقد فارقت موطن بلاء وعذاب . ولكن اسمع .

ان السماء لتبتهج للدموع التي يسفحها آثم تائب ، اكثر مما تبتهج لمئة بُرد أبيض يرتديها مئة رجل صالح . فاذا غادرت ذلك المكان الألم وكرهية الناس والحقد عليهم يفهمان قلبك فأنت تستحق الشفقة . واذا غادرته والمحبة واللاطف والسلام تعمر فؤادك فعندئذ تكون خيراً من اي امرئ منا . » وكانت السيدة ماغلوار قد هبات ، في غضون ذلك ، طعام العشاء . كان يتألف من حساء أعد بالماء ، وزيت ، وخبز ، وملح ، وقليل من شحم الخنزير ، وقطعة

من لحم الضأن ، وشيء من التين ، وقطعة من الجبن الطازج ، ورغيف ضخم من خبز الجاودار . وكانت قد اضافت الى مائدة الاسقف العادية ، من غير ان يُطلب اليها ذلك ، زجاجة من خمر موف المعتقة .  
وأشرق بحيا الاسقف بسيا الابتهاج تلك التي تميّز اصحاب النفوس المضيفة .  
وقال في نشاط :

— « الى المائدة ! »

وأجلس الرجل الى يمينه ، وفقاً لعادته كلما اتفق ان تناول طعام العشاء على مائدة ضيف ما . واتخذت الآنسة باتيستين مكانها ، هادئة جداً ، طبيعية جداً ، الى يساره .

وتلا الاسقف صلاة البدء بالطعام ، ثم سكب الحساء بنفسه ، وفقاً للألوف عادته . وشرع الرجل يأكل في نهم .

وفجأة قال الاسقف : « يبدو لي ان شيئاً ما ، يُعوز هذه المائدة . »

وفي الحق ، ان السيدة ماغلوار لم تضع على المائدة غير الاطباق الثلاثة الضرورية جداً . وكان العرف يقضي في هذا البيت بأن تُعرض الاطباق الفضية الستة كلها عرضاً بريئاً فوق المائدة ، كلما شارك الاسقف عشاءه ضيف ما . وكان مظهر الترف اللطيف هذا ضرباً من الصبائية حافلاً بالفتنة في هذا البيت الوادع القاسي الذي رفع الفقر الى مقام الشرف .

وفهمت السيدة ماغلوار الملاحظة ؛ وغادرت الحجرة من غير ان تقول كلمة .  
وبعد لحظة كانت الاطباق الثلاثة التي طالب بها الاسقف تومض على غطاء المائدة ، وقد رُتبت على نحو متناسق أمام كلٍّ من المشاركين في تناول العشاء .

## تفاصيل حول مجانب \* بوتارليه

ولسنا نرى ، لكي نعطي فكرة عما دار على هذه المائدة ، خيراً من أن نذخ هنا جزءاً من رسالة بعثت بها الآنسة بايستين الى السيدة دو براشيفرون راوية الحديث الذي جرى بين المحكوم عليه بالاستغلال الشاقة وبين الاسقف في تدقيق ساذج .

( ... ولم يلتق هذا الرجل بالآ الى أحد . لقد أكل في شراة رجل جائع . بيد أنه قال بعد العشاء :

« سيدي أسقف الرب » ، ان هذا كله يكاد يكون اكثر مما أستحق . ولكن يتعين عليّ أن أقول ان سائقي العربات ، الذين لم يميزوا لي ان آكل معهم ، يحيون حياةً اكثر ترفاً من حياتك . وفي ما بيننا ، أقول لك ان تلك الملاحظة صدمتني بعض الشيء . ولقد اجاب اخي قائلاً :

« إنهم يتعبون اكثر مما أتعب . »

فقال هذا الرجل : « لا ، إن لديهم مالاً اكثر . أنت فقير . أنا ألاحظ ذلك . لعلك لست حتى كاهناً . هل أنت كاهن وحسب ؟ آه ، اذا كان الرب عادلاً فعندئذ تستحق أن تكون كاهناً من غير ريب . » فقال اخي : « إن الرب اكثر من عادل . » وبعد لحظة أضاف :

« جمع عينة ، وهي مكان يسع الجبن . »

« مسيو جان فالجان ، انت ذاهب الى بونتارليه ؟ »

« إنها رحلة إلزامية . »

أنا واثقة تماماً أن ذلك هو التعبير الذي استعمله الرجل . ثم إنه أضاف :

« ينبغي أن ابدأ المسير فبجرّ غد . إنها رحلة شاقة . إذا كان الليل بارداً ، فالتهار حاراً . »

فقال أخى : « انت ذاهب إلى بلد طيب . ففي أثناء الثورة ، حين نكبت اسرقي ، لجأتُ أولاً الى الـ « فرانش كونتية » وأقمتُ أودي هناك ببعض العمل اليدوي . كانت لديّ الشجاعة . لقد وجدتُ عملاً كثيراً ، ولم يكن عليّ إلا أن أختار . كانت ثمة مصانع ورق ، ومدايق ، ومعامل تقطير ، ومعامل زيت ، ومنشآت ضخمة لصنع الساعات ، ومصانع فولاذ ، ومسابك نحاس ، وعشرون مسبكاً للعديد على الأقل كانت اربعة منها - وهي كبيرة جداً - في لود ، وشاتيون ، وأودينكور ، وبور . »

أحسب اني غير مخطئة ، وان هذه هي الاسماء التي ذكرها أخى . ثم إنه قاطع نفسه ووجه الخطاب اليّ :

« ايتها الاخت العزيزة ، أليس لنا أنباء في تلك الديار ؟ » فأجبته :

« كان لنا انباء . ومن هؤلاء مسيو لوسينيه الذي كان « كابتن

الابواب » في بونتارليه في العهد القديم . »

فأجاب أخى : « أجل ، ولكن في عام ٩٣ لم يعد لأحد انباء . كان كل امرئ يعتمد على يديه . لقد كدحت . إن عندهم في منطقة بونتارليه - حيث تعتزم ان تذهب ، يا مسيو فالجان - صناعة مهمة جداً ، وساحرة جداً ، ايتها الأخت . ولما اعني مجانبهم التي يدعونها . \* Fruitières

\* ومعناها في الاصل : الثمرات .

وعندئذ شرع اخي ، فيما يخدم هذا الرجل - على المائدة ، يشرح له في تفصيل ماهية مجان بوتارليه هذه ، قائلاً لها على نوعين متميزين :  
 الالهراء الكبيرة التي يملكها الاغنياء ، وهي تحتوي على اربعين او خمسين بقرة ، وتنتج سبعة آلاف او ثمانية آلاف قطعة جبن خلال الصيف .  
 والمجان المشاركة التي يملكها الفقراء ؛ وفيها يضع فلاحو الجبل الاوسط ابقارهم على نحو مشترك ويقسمون نتائجها . وانهم يستأجرون جبّاناً يدعونه *Le grurin* ، وهذا الجبان يتسلم اللبن من المشاركين ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ويدون المقادير في سجل ذي نسختين . وإنما يبدأ عمل المجان في اواخر نيسان ؛ وحوالي منتصف حزيران يسوق الجبّانوث ابقارهم الى الجبل .

واستعاد الرجل نشاطه فيما هو ياكل . وقدم اليه اخي شيئاً من خمر موف الجودة التي لا يشربها هو ، لانها غالية كما يقول . وبسط اخي له جميع هذه التفاصيل بذلك الابتهاج الدمش الذي تعهده فيه مازجاً حديثه ببعض الجملات المرجحة اليّ . ولقد اظنبت في الكلام على حالة ال *Grurin* وكأنما كان يرغب في ان يفهم هذا الرجل ، من غير ان ينصحه بذلك مباشرة ومن غير ما تعهد ، أنه سوف يجسد في ذلك مفعزاً يفي اليه . إن شيئاً أثر فيّ . لقد كان هذا الرجل ما ذكرته لك ومع ذلك فأن اخي لم ينطق ، خلال العشاء ، وطوال السهرة ، في ما عدا بضع كلمات عن يسوع تلفظ بها حين دخل - أقول إن أخي لم ينطق بكلمة واحدة تستطيع ان تذكر هذا الرجل من هو ، او تذكره من هو اخي . لقد كانت ، في الظاهر ، فرصة ممتازة لالقاء عظة صغيرة ، ولرفع الاستف فوق المجرم المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لكي يتروك في ذهنه انطباعاً . ولقد كان غيره خليقاً بأن يحسب ان من واجبه ، وقد وجد هذا الرجل النعس بين يديه ، أن يغذي روحه فيما

هو يغذي جسده ، وان يوجه اليه لوماً موشعاً بعبارة ونصيحة ، او على الاقل شيئاً من الرأفة المصحوبة بتحريضه على ان يسلك في المستقبل مسلكاً أفضل . إن اخي لم يسأله لا عن بلده ولا عن تاريخه . ذلك بأن جريمته كامنة في تاريخه ، ولقد بدا اخي وكأنه يجتنب كل ما يمكن ان يذكره بها . وذات لحظة ، فبا كان اخي يتحدث عن جبلي بونتارليه الذين يقومون بعمل بهيج قرب السماء والذين اضاف قائلاً : انهم سعداء لانهم ابرياء ، كفّ فجأة عن الكلام خشية ان يكون في هذه اللفظة التي نددت منه شيء يمكن أن يجرح مشاعر هذا الرجل . وبعمد التفكير ، أحسب اني فهمت أي شيء كان يدور في خلد اخي . لقد فكّر ، من غير شك ، ان هذا الرجل ، الذي يدعى جان فالجان ، كان يتمثل بؤسه باكثر مما ينبغي ، وان من الخير أن يسلبه عن هذا البؤس ، وأن يوقع في نفسه ، ولو لحظة ليس غير ، أنه إنسان مثل سائر الناس ، بأن يسلك معه مسلكاً عادياً جداً . أليس هذا هو الفهم الصحيح للذبة ؟ الا تجدين ، يا سيدتي العزيزة ، شيئاً إنجيلياً حقاً في هذه الرقة التي كنزتها في الوعظ ، والقاء الدروس الاخلاقية ، وتوشيح الكلام بضروب الرمز والكناية ؟ ألا تقضينا الرحمة الفضلى ، حين يشكو الانسان ألماً ما ، ان لانغمسه في موضع الألم على الاطلاق ؟ يخيل اليّ ان هذا هو في الحقي ما دار في خلد أخي . وياً ما كان ، فكل ما استطيع ان اقله هو انه اذا صحّ ان تلك الافكار كلها قد راودته فقد احجم عن أن يبديها حتى لي انا . لقد كان طوال الوقت شأنه في الليالي الاخرى كلها . ولقد تناول طعام العشاء مع جان فالجان هذا بالسبب نفسها ، والطريقة نفسها ، اللتين كان خليقاً به ان يصطنعها لو انه تعشى مع مسيو جدعون ، رئيس السكاتدرائية ، أو مع كاهن الابرشية .

وحين أوسكننا على الانتهاء من تناول الطعام ، وفيما نحن نأكل شيئاً من  
 النين ، طُرق الباب . وكان الطارق الأمّ جبرو وقد حملت طفلاً  
 الصغير بين ذراعيها . وقبل أخي الطفل ، واستعار مني خمسة عشر  
 « سو » كانت معي ليقدمها الى الام جبرو . وفي غضون ذلك ، لم  
 يلتفت الرجل لما جرى غير التفات يسير . انه لم يتكلم ، ولقد بدا  
 وكأنه متعب جداً . وغادرتنا السيدة العجوز المسكينة ، وتلا أخي صلاة  
 الشكر التي تُرفع بعد الطعام ثم التفت الى الرجل وقال له : « لا شك  
 في انك بحاجة ماسة الى النوم . » وسارعت السيدة ماغلوار الى  
 نزع الغطاء عن المائدة . وادركت ان علينا ان ننسحب لكي يكون  
 في ميسور هذا المسافر ان ينام ، فقصدنا كلانا الى غرفتنا . بيد اني ما  
 لبثت ان ارسلت السيدة ماغلوار ، بعد لحظة ، لكي تضع على فراش  
 هذا الرجل جلد سمجور \* من « الغاية السوداء » كان في حجرتي . ان  
 الليالي قارسة جداً ، وهذا الجلد يبعث الدفء . ومن أسف ان  
 يكون هذا الجلد قديماً جداً ، وان يكون وبره كله قد زايله . لقد  
 اشتراه أخي يوم كان بألمانية ، في تولنجن ، قرب منابع الدانوب ،  
 كما استوى الكين الصغيرة ذات المقبض العاجي التي أستعملها على  
 المائدة .

ورجعت السيدة ماغلوار في الحال ، وتلونا صلواتنا في الصالة التي  
 نقيد منها لنشر الغسيل وتنشيفه ؛ ثم انقلبتنا الى حجرتنا من غير أن  
 نقول كلمة . )

---

\* السمور ، او الروبك ، نوع من الطياء .

## ٥ سكون

وبعد ان غنى مونسينيور بينفينو لاخته ليلة سعيدة ، رفع أحد  
الشمعدانين النضين عن المائدة ، وقدم الآخر الى ضيفه ، وقال له :  
- « سوف افودك الى غرفتك ، يا سيدي . »

وتبعه الرجل .

وكما أدرك القاري بما قلناه آنفاً ، كان البيت منظماً على نحو يحتم  
على من يريد بلوغ المصلى ، حيث المخدع ، او الخروج منه ، ان  
يجتاز بحجرة نوم الاسقف .

وفي اللحظة التي اجتازا خلالها هذه الحجرة ، كانت السيدة ماغلوار  
تضع الآنية الفضية في الخزانة الجدارية القائمة عند رأس السرير . وكانت  
ذلك آخر عمل تقوم به كل ليلة قبل ان تؤوي الى فراشها .

وغادر الأسقف ضيفه في المخدع ، أمام فراش ابيض نظيف . ووضع  
الرجل الشمعدان على طاولة صغيرة .

وقال الاسقف : « ارجو أن تنعم بليلة هائلة . وغداً صباحاً ،  
سوف تشرب ، قبل ان تنطلق ، كوباً من لبن بقرتنا الحار . »

فقال الرجل : « شكرآ ، يا سيدي الراهب . »

ولم يكذب ينطق بهذه الكلمات الناضجة بالمسألة حتى أتى فجأة ، ومن  
غير ما تمهيد ، بحركة غريبة كانت جديرة بأن تلقى الرعب في قلبي  
العانسين الطاهرتين لو أنهما شهداها . وحتى في هذه الآونة ، من العير



علينا ان نفهم لأيّ الحوافز خضع في تلك اللحظة . أياكون قد أراد ان يرسل تحذيراً أو يلقي إنذاراً ؟ ام أنه كان يدعى مجرد إذعان لحافز غريزيّ ليس يبجل هو نفسه كنهه ؟ فقد التفت فجأة نحو الرجل العجوز ، وصالب ذراعيه ، ممدداً الى مُضيفه نظرة ضاربة ، وصاح في صوت أبغى :

— « آه ، حقاً ! انت 'تنزلي في بيتك على مقربة منك على هذا الشكل ! »

ثم كبح نفسه ، واطاف في ضحكة كان فيها شيء راعب :

— « هل فكرت في ذلك ؟ ما يُدريك أني لست سقاكاً ؟ »

فأجابه الاسقف :

— « الرب سوف يتولى هذا . »

وفي خشوع ، حرّك شفتيه كمن يصلي او كمن يخاطب نفسه ، ورفع اثنتين من أصابع يده اليمنى وبارك الرجل الذي لم يركع . ومن غير ان يدير رأسه وينظر الى الراء مضى الى حجرته .

وحين احتلّ المهدع مُسجبت ستارة صوفية ضخمة غليظة من جانب المصلّى الى جانبه الآخر ، حاجبة المذبح . وأمام هذه الستارة ركن الاسقف ، واصلّى صلاة قصيرة .

وبعد لحظة كان يتشوّى في جنينته مُسلماً عقله ونفسه جميعاً الى تأمل حالم في تلك الاشياء العظيمة المحوطة بالامرار ، التي يجلوها الله ، في اثناء الليل ، للأعين التي لا تغض اجفانها .

أما الرجل فكان من الاعياء بحيث لم يُقد حتى من الاغطية النظيفة البيضاء . لقد أطفأ الشمعة بأحد منخريه ، على طريقة المحكوم عليهم بالاستغال الشاقة ، وانطرح على الفراش ، بتيابه التي يرتديها ، وغرق لتوّه في نوم عميق .

وأعلنت الساعة' منتصف الليل فيما كان الاسقف يغادر الحديقة عائداً  
الى حجرة نومه .  
وبعد لحظات ، كان كلّ من في البيت الصغير قد نام .

انتهى الجزء الاول  
ويليه الجزء الثاني



# البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم  
فيكتور هيجو

٢

نقله إلى العربية  
مُنِير العَبَّاسِي

دار العالم للملايين  
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

## جان فالجان

وحوالى منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .

لقد وُلد جان فالجان من امرة ويفة فقيرة في « بري » . وفي طفولته لم يُعلّم القراءة . وحين بلغ مبلغ الرجال عمل مشدّب اغصان في فافيرول . كانت أمه تدعى جانّ ماتيو ؛ وكان ابوه يدعى جان فالجان ، او فلاجان ، ولعله لقبٌ مُضَيّط من لفظي « فوالا جان » \* كان جان فالجان ذا مزاج نزّاع الى التفكير ، ولكنه غير حزين ، وهو مزاج يميّز اصحاب الطبائع العاطفية . بيد انه كان ثمة على الجملة شيء متوانٍ جداً وعدم الجدوى جداً في مظهره على الاقل . لقد كَفَقَدَ والديه وهو بعدُ طفل . فأما أمه فقد توفيت إثر حمّى ابنٍ أُسيئت معالجتها . وأما ابوه ، وكان مشدّب اغصان من قبله ، فقد صُرع إثر سقوطه من احدى الاشجار . ولم يبق لجان فالجان بعد ذلك نسيب غير اخت اكبر منه سناً ، وكانت ارملة لها سبعة اولاد ، بنين وبنات . واحتضنت هذه الاخت جان فالجان وآوت أخاها الاصغر واطعمته ما بقي زوجها على قيد الحياة . ثم قضى الزوج نحبّه ، وعمرُ ابنه الاكبر ثماني سنوات ، وعمر ابنه الاصغر سنة واحدة . وكان جان فالجان قد بلغ آنذاك سنّه الخامسة والعشرين ، فحلّ محلّ الأب ، وأعال بدوره تلك الاخت التي ربّته . ولما فعل ذلك في صدق واخلاص ، بوصفه واجباً ، بل وفي ضرب من النكد والشكامة . لقد أنفق شبابه على هذه

\* Voilà Jean اي هوذا جان .

الشائكة في عمل خشن شاقّ مطفئ الاجر . ولم يُعرف عنه قط انه كانت له في البلد حبيبة ؛ إنه لم يجد متسعاً من الوقت للحب .

وفي المساء كان يرجع الى البيت متعباً ، ويتناول حساءه من غيران يقول كلمة . وفيما هو يأكل ، كانت اخته ، الأمّ جانّ ، كثيراً ما تأخذ من صحفته خير ما فيها : قطعة اللحم ، وشطيرة شحم الخنزير ، وقلب الملفوفة ، لكي تقدمها الى احد اولادها . وكان هو يواصل الأكل ، منعياً فوق المائدة ، وقد اوشك رأسه ان يغمس في الحساء ، وتدلّ شعره الطويل حول صحنه حاجباً عينيه ، وكأنه لا يمي شيئاً ، ما يجري حوله . وكان في فافيرول ، غير بعيد عن بيت فالجان ، وعلى الجانب الآخر من الطريق ، زوجة مزارع تدعى ماري كلود . وكان الاطفال من أسرة فالجان ، الذين كانوا يتضورون دائماً من الجوع ، يذهبون في بعض الاحيان فيستعيرون باسم أمهم كيلّ لبن كانوا يحسونه خلف سياجٍ ما ، او في زاوية من الزقاق ، متنازعين الاياه في نهم شديد الى حدّ ينتهي بالبُنيّات الى ان يسفحن اللبن على مآزرهن واعناقهن . ولو قد عرفت الام بهذه السرقة اذن لأنزلت بالمذنبين عقاباً قاسياً . وكان جان فالجان ، على خشونته وتضجره ، يدفع الى ماري كلود ، على غير علم من الأم ، ثمن اللبن ، وهكذا كان الاطفال ينجون من القصاص .

كان يكسب في موسم التشذيب ثمانية عشر دسو ، كل يوم . ثم إنه اشتغل بعد ذلك حاصداً ، ومعاون بناء ، وخادماً في مزرعة من مزارع البقر ، وعاملاً كادحاً . كان يقوم بأيّما عمل يوفق اليه . واشتغلت اخته ايضاً ، ولكنّ انسى لها ان تعيل سبعة اطفال ؟ تلك كانت جماعة بائسة أحاط بها الشقاء وراح يطبق عليها شيئاً بعد شيء . وأقبل شتاء قاسم . ولم يقع جان على عمل . ولم يكن عند الاسرة خبز . اجل ، لم يكن ثمة خبز ، بالمعنى الحرفي ، وكان ثمة سبعة اولاد .



وفي مساء يوم من ايام الاحد ، كان موبير ايزابو ، وهو خباز في  
ساحة الكنيسة في فافيرول ، على وشك ان يأوي الى الفراش عندما  
سمع ضربة عنيفة على واجهة دكانه المزججة المشبكة بالحديد . وهرع في  
الحال فاذا به يرى ذراعاً مخنوقة الثغرة التي نشأت عن ضرب الشبكة  
والزجاج يجمع الكف . وقبض الذراع على رغيغ ، واخرجته .  
وانطلق ايزابو على جناح السرعة . واطلق السارق ساقيه للريح . ولحق  
به ايزابو وقبض عليه . كان السارق قد ا طرح الرغيغ ، ولكن ذراعه  
كانت ما تزال تقطر دماً . ولم يكن ذلك الرجل غير جان فالجان .

وبما حدث ذلك عام ١٧٩٥ . ومثل جان فالجان امام قضاة ذلك  
العصر بتهمة « السطو ليلاً على بيت آهل ، والكسر تسهلاً للسرقة » .  
وكانت لديه بندقية اصطنعها كأحسن ما يصطنع رجل بندقية ، وكان  
الى حد ما قانصاً يتصيد في املاك الآخرين ، وذلك ما آذاه ، اذ كان  
تمة ضمنية طبيعية على المتصيدين في املاك الآخرين . إن القانص المتصيد  
في املاك الآخرين ، كالهرب ، يجاور قاطع الطريق مجاورة شديدة .  
ومع ذلك ، فيتعب علينا ان نقول ، في طريقنا ، إن تمة برزخاً عميقاً  
بين هذا العرق من الرجال وبين سقّاح المدن الخفيف . إن المتصيد في  
املاك الآخرين يجيأ في الغابة ؛ والمهرب يجيأ في الجبل او على متن البحر .  
إن المدن تنتج رجالاً شرعين ، لانها تنتج رجالاً فاسدين . أما الجبل ،  
والبحر ، والغابة فتنتج رجالاً وحشين . إنها تقوي في ابناها الجانب  
الضاري ، ولكن من غير ان تُفسد في كثير من الاحيان الجانب  
الانساني .

واعتُبر جان فالجان مجرمًا ؛ فقد كانت نصوص القانون صريحة حاسمة .  
إن في حضارتنا ساعات مخيفة ؛ تلك هي الساعات التي يعلن فيها قانون  
العقوبات حكمه على رجل ما بالفرق أو السقوط . أية لحظة فاجعة تلك  
التي ينسحب فيها المجتمع ويتخلى الى الابد عن كائن مفكّر ! لقد حكم

على جان فالجان بالسجن خمس سنوات مع الاشغال الشاقة .  
وفي ٢٢ نيسان ١٧٩٦ أعلن في باريس انتصار مونتنيوت \* وقد  
احرز قائد جيش ايطالية العام الذي دعت رسالة حكومة الادارة \*\* الى  
مجلس الخمسة في ٢ فلوربال من سنة الجمهورية الرابعة ، برانابرت \*\*\* .  
وفي ذلك اليوم نفسه أوثقت سلسلة حديدية ضخمة في بيستر . وكانت  
جان فالجان يشكل جزءاً من هذه السلسلة . وثمة سجان عجوز ، هو  
اليوم في نحو التسعين من عمره ، لا يزال يذكر جيداً هذا الرجل البائس  
الذي سُدّ بالحديد عند اقصى القاعدة الحجرية الرابعة في الزاوية الشمالية من  
الفناء . كان جالساً على الارض مثل سائر السجناء . ولقد بدا وكأنه  
لا يفقه من وضعه شيئاً إلاّ انه وضع راعب . ولعله ان يكون قد  
امتزج ايضاً ، بفكار الرجل الجاهل الغامضة شعور بأن في العقوبة شيئاً  
من الافراط .

وحين كانوا يلوون مسار قيده بضربات مطرقة ثقيلة أعمالها خلف  
رأسه ، كان هو يبكي . لقد خنقته الدموع ، وحالت بينه وبين الكلام ،  
فلم يوفق بين الفينة والفينة الى ان يقول غير هذه الجملة : « كنت  
مشذب أشجار في فاوفيرول » . ثم إنه رفع يده اليمنى ، في غمرة  
التهنّد ، وخفضها سبع مرات ، وكأنها كان يمسّ على التعاقب سبعة  
رؤوس متفاوتة الارتفاع . ولقد كان في ميور المرء ان يجزر من هذه  
الايامات انه إنما فعل ما فعله لكي يطعم ويكسو سبعة اطفال صغار .

---

\* Montenotte قرية ايطالية في مقاطعة جنوا . وقد جرت فيها سنة ١٧٩٦ معركة  
شهيرة بين نابوليون ، والقوات النسوبة بقيادة « بولير » Beaulieu كان فيها النصر  
حليف نابوليون .

\*\* Directoire الاسم الذي يطلق على الحكومة التي توتت مابعد الامر في فرنسا  
ابتداء من ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ ( ٥ برومير ، من سنة الجمهورية الرابعة )  
والتي اسقطها الجنرال بوناپرت في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ ( ١٨ برومير ، من  
سنة الجمهورية الثامنة . )

Buonaparte \*\*\*

واقف يد الى طولون على متن عربية ، فبلغها إثر رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوماً ، والقيد ما يزال بطوق عنقه . وفي طولون ألبس قميصاً أحمر . وهناك امتعت حياته الماضية كلها ، حتى اسمه نفسه . إنه لم يعد جان فالجان . لقد غدا رقم ٢٤٦٠١ . ما الذي حلّ بالاخت ؟ ما الذي حلّ بالأطفال السبعة ؟ من الذي أزعج نفسه بذلك ؟ ما الذي يحصل بحفنة الاوراق الخضراء حين تُقطع الشجرة من جذعها ؟

إنها القصة نفسها دائماً . لقد مضت هذه الكائنات البشرية الحية ، هذه المخلوقات الالهية ، وقد تركت من غير سناد ، ومن غير هادٍ ، ومن غير مفرع . - مضت الى حيننا قاداتها المصادفة . وهل من سبيل الى معرفة ذلك ؟ لعل كلاً منهم اتخذ طريقاً مختلفة ، وغرق شيئاً بعد شيء . في ذلك الضباب القارس الذي يغمر المصائر المتوحدة ، تلك الظلمة النكدية التي يختفي فيها كثير من الرؤوس الشقية خلال سير الجنس البشري المعتم . لقد نزعوا عن تلك الديار . لقد نسيتم كنيّة القرية التي كانت قريبتهم ، ونسيهم معلم الحقل الذي كان حقلهم . وبعد بضعة سنوات من مقامه في سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، نسيهم جان فالجان نفسه . لقد امسى وفي قلبه نُدبة حيث كان من قبل 'جرح' . هذا كل ما هنالك . وفي إثناء مقامه بطولون لم يسمع عن أخيه إلا مرة واحدة . وكان ذلك ، في ما أحسب ، في اواخر السنة الرابعة من سجنه . ولست ادري كيف بلغه النبأ . لقد رأي أخيه رجلٌ من كانوا يعرفونه في بلده . كانت في باريس . كانت تحيا في شارع فقير قرب سان سوليبس ، هو شوارع جيندر . ولم يكن معها غير طفل واحد ، صبيّ طريّ العود ، كان هو اصغر الاخوة سناً . ابن كانت السنة الآخرون ؟ لعلها هي نفسها لم تكن ندري . وكل صباح كانت تنضم الى مطبعة تقع في رقم ٣ شارع سابو حيث كانت تطوي ملازم الكتب وتجملها . وكان عليها ان تباشر عملها في المادسة صباحاً ، اي قبل مدة

غير يسيرة من طلوع الشمس في ايام الشتاء . وكان في البناء الذي تشغله المطبعة مدرسة بعثت اليها بابنها الصغير ، البالغ عمره سبع سنوات . واذ كانت المدرسة لا تفتح ابوابها الا في الساعة السابعة ، واذ كانت مضطرة الى ان تلتحق بعملها في السادسة ، فقد تميّن على الغلام ان ينتظر في الفناء ساعة كاملة حتى تفتح المدرسة - ساعة من البرد والظلمة في ايام الشتاء . فانهم ما كانوا يسمحون للغلام بان ينتظر في المطبعة لأنه كان مزعجاً ، في ما زعموا . وكان العمال الوافدون الى المطبعة كل صباح يرون الى هذا المخلوق الصغير البائس جالساً على البلاط ، وقد غلب عليه النعاس ، واستلم للرقاد في الظلمة ، في كثير من الاحيان ، رابضاً منطوياً فوق سلته . فاذا ما هطل المطر كانت الشفقة تعطف عليه قلب البوابة العجوز ، فهي تجيز له ان يدخل الى مسكنها الضيق الحقيقير الذي اقتصر اثاثه على فراش من قش ، ودولاب للفضل ، وكريسيين خشبيين . وهناك في احدى الزوايا كان الغلام بنام ضامماً المرأة الى صدره لكي ينفي عن جسده البرد . حتى اذا بلغت الساعة السابعة ، فتحت المدرسة ابوابها ، فحسب اليها . ذلك ما قيل لجان فالجان . لكن نافذة قد فتحت فجأة على مصائر هؤلاء الذين أحبهم ، ثم أوصدت من جديد . ولم يسع شيئاً آخر عنهم بعد . لم يسع شيئاً عنهم الى الأبد . إن نبأ ما لم يفته اليه عن حالهم . إنه لم يرم ، ولن يراهم منذ اليوم ! ولن نلتقي بهم بعد في بقية هذه القصة الحزينة ، كرة اخرى .

وحوالى ختام هذه السنة الرابعة سحبت لجان فالجان فرصة الحرب . لقد ساعده رفاقه كما يقع دائماً في ذلك الموطن الكئيب ، فقر . لقد هام على وجهه حراً طلباً ، في الحقول ، يومين اثنين - اذا كان من الحرية ان تطارد ، وان تلتفت الى وراء ، كل لحظة ، وان ترتعد اوصالك لأي صوت ، وان يدب الرعب الى فؤادك من كل شيء : من السقف الذي يتصاعد منه الدخان ، من الرجل الذي يعبر السبيل ،

من الكلب الذي ينبع ، من الجواد الذي يجبّ ، من الساعة التي تدقّ ، من النهار لأنك تبصر فيه ، ومن الليل لأنك لا تبصر فيه ، من الطريق ، من المرّ ، من الدغل ، ومن الرقاد . وفي مساء اليوم الثاني القي القبض عليه . إنه لم يذق طعاماً ولا مناماً طوال ست وثلاثين ساعة . ومدّد القضاء البحري مدة حبسه ثلاث سنوات ، بسبب من هذه المحاولة ففقدت ثمانية أعوام . وفي السنة السادسة جاء دوره في الحرب كرة أخرى . ولم يضيّع الفرصة ، ولكنه أخفق من جديد . لقد افتقدوه حين تُودي على الاسماء . وأطلق مدفع الخطر . وفي موطن من الليل عثر عليه العسس الطواف مخبئاً خلف قاعدة مركب لما يتمّ بناؤه بعد . وقاوم معتقّليه من حرس السجن الخاص بالمحكومين بالاشغال الشاقة . هرب ومقاومة . وكانت أحكام القانون الخاص تعاقب على هذين بإضافة خمس سنوات الى مدة الحبس الاساسية ، اثنتان منها يصفّد خلالها السجين بالقيد الحديدي المزدوج . فاذا المجموع ثلاث عشرة سنة . وفي السنة العاشرة جاء دوره من جديد ، فقام بمحاولة أخرى لم يوفّق فيها الى خير بما وفق اليه من قبل . وعوقب على ذلك بثلاث سنوات اضافية فقدا المجموع ست عشرة سنة . واخيراً جرب مرة ثانية وكان ذلك خلال السنة الثالثة عشرة ، في ما اظنّ ، فأعيد الى محبسه بعد غياب اربع ساعات ليس غير . وحُكم عليه بثلاث سنين إضافية من اجل هذه الساعات الاربعة . وهكذا أمسى المجموع تسع عشرة سنة . وفي تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، أطلق سراحه : كان قد دخل ذلك السجن سنة ١٧٩٦ لأنه كسر زجاج نافذة ، واخذ رغيف خبز .

وهنا موضع ملاحظة قصيرة بين هلالين . هذه هي المرة الثانية التي يقع فيها مؤلف هذا الكتاب - في دراساته للمسألة الجزائية ولاحكام القانون - على سرقة رغيف كانت نقطة انطلاق في تخريب مصير . لقد سرق كلود غووو رغيفاً ، وسرق جان فالجان رغيفاً . ويشهد احصاء

انكليزي انت اربع سرقات من كل خمس تقع في لندن سببها المباشر هو الجوع .

لقد دخل جان فالجان سجن الاشغال الشاقة وهو ينتهب ويرتعد ؛ وغادره وقد قسا فؤاده وامتنع على الألم . لقد دخله يائساً ؛ وغادره كالحال الوجه .  
ما الذي ألم بهذه النفس ؟

## ٧

### أعماق القنوط

فلنحاول ان نجيب عن هذا السؤال .  
وانما لضرورة ملحة ان ينظر المجتمع في هذه الاشياء ، لأنها من صنع يديه .

لقد كان ، كما سبق منا القول ، جاهلاً ؛ ولكنه لم يكن أبله .  
كان النور الطبيعي 'مضاء' في ذات نفسه . وضاعف البؤس - واللبؤس ايضاً ضياؤه - تلك الاشعة القليلة التي افارت عقله . ففي الاصفاد ، وتحت السياط ، وفي حبيرة الحبس المظلمة ، وفي غمرة الاعياء ، وتحت شمس السجن المحرقة ، وفوق الالواح الخشبية التي تشكل 'سرر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة' ، كان يلتفت الى ضميره ويفكر .  
لقد أقام من نفسه هو محكمة .

وشرع يحاكم نفسه بنفسه . .  
لقد ادرك انه لم يكن رجلاً بريئاً عوقب ظلماً . لقد اعترف بأنه ارتكب عملاً منطرفاً بوجيب اللوم ؛ وبأنه كان من الجائز ان لا يُضن عليه بالرغيف لو طلبه ؛ وبأنه كان من الخير له على اية حال لو اعتصم

بالصبر في انتظار الرحمة ، او في انتظار العمل ؟ وبأن قول المرء :  
 « وهل أستطيع ان أنتظر حين أكون جائعاً ، ليس حجة لا تردّ على  
 الاطلاق ، وبأن من النادر جداً ، في المحل الاول ، ان يموت المرء  
 جوعاً بالمعنى الحرفي ؟ وبأن الانسان قد خلّق - لحسن الحظ او لسوءه  
 -- على نحو يمكنه من ان يتألم طويلاً وكثيراً معنوياً وجسدياً - من  
 غير أن يموت ، وبأنه كان يتمنّ عليه ، اذن ، ان يصبر ؟ وبأن ذلك  
 كان خليقاً به ان يكون خيراً حتى لاولئك الاطفال الصغار المساكين  
 انفسهم ؟ وبأنه كان من الخفاقة ، بالنسبة اليه وهو الرجل البائس الحقيير ،  
 أن يأخذ بخناق المجتمع كله في عنف ، وان يتوهم ان في ميسوره ان  
 ينجو من البؤس عن طريق السرقة ؟ وبأن الباب الذي يقودك الى العار  
 ليس على اية حال باباً صالحاً لأخراجك من الشقاء . وبكلمة ، لقد  
 اعترف بأنه قد اخطأ .

ثم إنه سأل نفسه :

أكان هو الشخص الوحيد الذي أخطأ خلال تاريخه المشؤوم ؟  
 أليس شيئاً فظيلاً في المحل الاول ان يلتبس ، هو العامل ، عملاً فلا  
 يجده ، وأن يلتبس ، هو المجتهد ، رغبةً فلا يقع عليه ؟ وفوق هذا ،  
 أفليست العقوبة - وقد ارتكب الخطأ واعترف به - وحشية مغالى فيها ؟  
 أليست الاساءة التي ارتكبها القانون ، في العقوبة ، أعظم من تلك التي  
 ارتكبها المذنب ، في الجريمة ؟ أليس ثمة ثقل اضافي في احدى كفتي  
 الميزان - تلك التي تمثل جانب التكفير عن الاثم ؟ أليس الافراط في  
 العقوبة عملاً للجريمة ؟ أليس من نتيجة هذا الافراط قلب الوضع رأساً  
 على عقب ، وبذلك نحلّ خطيئة القهر محلّ خطيئة الاثم ، ويسمي المجرم  
 ضحية ، والمدّين دائئاً ، وينتقل الحق نهائياً الى جانب ذلك الذي انتهك  
 حرمة ؟ ألم نذته هذه العقوبة بما اضيف اليها من علاوات متعاقبة بسبب  
 من محاولته الهرب غير مرة الى ان تصبح ضرباً من الاعتداء يشنه

للغوي على الضعيف ، وجريمة من جرائم المجتمع ضد الفرد ، جريمة  
تتكرر كل يوم ، جريمة استمرت نـع عشرة سنة ؟

وسأل نفسه ما اذا كان المجتمع البشري يملك الحق في ان يسحق  
عضاءه باعماله البالغ ، من ناحية ، وباهتمامه الذي لا يرحم ، من  
ناحية ثانية . وما اذا كان يملك الحق في ان يبقي الى الابد رجلاً فقيراً  
بين نقص وإفراط : نقص في العمل ، وإفراط في العقوبة . وما اذا  
كان فاضحاً ان يعامل المجتمع بمثل هذا التدقيق القاسي أعضاءه الذين  
نالوا اقل نصيب من توزيع الثروة الذي تمّ بالمصادفة ، والذين هم بسبب  
من ذلك احقّ الناس بالتساهل والتسامح .

حتى اذا طرح هذه الاسئلة وقررها دان المجتمع وأصدر حكمه  
عليه .  
لقد حكم عليه بالخذ والكراهية .

لقد اعتبروه مسؤولاً عن المصير الذي نَحَمَلَه ، ولعله ان يكون قال  
في ذات نفسه انه لن يتردد ذات يوم عن محاسبته ، واعلن بينه وبين  
نفسه ان ليس ثمة تكافؤ بين الاذى الذي أنزله هو ، وبين الاذى الذي أنزل  
به . وخلص اخيراً الى ان عقوبته لم تكن ، في الواقع ، ظالماً ،  
ولكنها كانت من غير ريب جوراً وإثماً .

قد يكون الغضب احقّ مخيئاً ، وقد يتثار غضب المرء وهو على  
خطأ ، ولكن المرء لا يمكن ان يتشعر السخط الناشئ عن الاجحاف  
للبالغ إلا وهو في الاساس على حق ، في ناحية من النواحي . لقد  
استشعر جان فالجان ذلك الضرب من السخط .

وفوق هذا ، فان المجتمع البشري لم يقدم اليه غير الاساءة . إنه لم  
يرَ من ذلك المجتمع غير هذا الوجه الخائن الذي يدعوه العدالة ،  
والذي يبيده لاولئك الذين يصرعهم . إن احداً من الناس لم يسّ جان



فالجنان يرمأ إلا ليخدشه . ولقد كان اتصاله كله بالناس لطماً وطعناً .  
إنهم لم يوجهوا اليه قط ، منذ طفولته ، منذ عهد امه ، منذ عهد اخته ،  
كلمة عذبة ، او نظرة كريمة . وفي مراحل تنقله من عذاب الى عذاب  
خلص شيئاً فشيئاً الى الاعتقاد بأن الحياة حرب ، وبأنه كان هو المهزوم  
في تلك الحرب . لم يكن لديه سلاح غير حقهده . ولقد وطن النفس على  
ان يشحذه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وان يفسح به  
حين يغادر ذلك الحبس .

وكان في طولون مدرسة للسجناء يديرها بعض الرهبان غير البارعين  
جداً ، وكانت هذه المدرسة تعلم المعارف الرئيسية التي لا يستغنى عنها  
للمراغبين في ذلك من اولئك البائسين . وكان هو واحداً من هؤلاء .  
وهكذا دخل المدرسة وهو في الاربعين ، وتعلم كيف يقرأ ، وكيف  
يكتب ، وكيف يحسب . لقد أحس بأن تعزيز ذكائه يعني تعزيز حقهده .  
ففي بعض الاحوال ، يكون في ميسور التعليم والنور ان يكونا عوناً  
على الشر .

ومن الحزن أن نقول إنه بعد ان حاكم المجتمع الذي صنع شقاءه  
حاكم العناية الالهية التي صنعت المجتمع .  
ودان العناية الالهية أيضاً .

وهكذا ارتفعت هذه الروح وانخفضت ، في آن معاً ، خلال هذه  
السنوات التسع عشرة من التعذيب والعبودية . لقد تسرب الى نفسه  
النور من جانب ، وتسرب اليها الظلام من جانب .  
ولم يكن جان فالجان ، كما قد رأينا ، ذا طبيعة شريرة . كان لا  
يزال حسن الطوية حين دخل السجن . وفي اثناء مقامه هناك دانت  
المجتمع البشري ، واستشعر انه امسى شريراً ؛ ودانت العدالة واستشعر  
انه امسى ملحداً .

ومن العسير ان لا نتمهل هذا لحظة ونأمل .

أستطيع الطبيعة البشرية ان تتقلب هكذا رأساً على عقب ؟ أيمكن  
 في مبدور الانسان ، الذي خلقه الله خيراً ، ان يحيله أخوه الانسان  
 شراً ؟ هل تستطيع النفس ان تتغير دفعةً واحدة لتجاري قدرها ،  
 وان تصبح شريرة حين يكون قدرها شراً ؟ أيمكن في وسع القلب  
 ان يتشوه ويصاب بالقباحات والعاهات التي لا برء منها ، تحت وطأة  
 بلاء فادح ، شأن العمود الفقري تحت قوس شديد الانخفاض ؟ اليس ثمة  
 في كل نفس بشرية ، ألم يكن في نفس جان فالجان شرارة ابتدائية - او  
 عنصر الدّهي - لا ينطرق اليها الفساد في هذا العالم ، ولا يلتم بها الفناء  
 في العالم الآخر . شرارة يستطيع الخير ان يطورها ، ويؤججها ،  
 ويضرمها ، ويقرها . وبمكثتها من ان تشع إشعاعاً يبهز الابصار ،  
 ويعجز الشر ابد الدهر عن اطفائها بالكلية ؟

اسئلة خطيرة معقدة لعل جميع علماء الفيسيولوجيا يجيبون عن آخرها  
 نقياً ، ومن غير ما تردد ، لو قدر لهم ان يروا في طولون - خلال  
 ساعات الراحة التي كانت عند جان فالجان ساعات تفكير - ذلك السجين  
 المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وقد قعد مكفهراً الوجه ، مطوي الذراعين  
 فوق قضيب احدى الآلات الرافعة ، وأقمع طرف قيده الحديدي في  
 جيبه الكبي لا ينسحب على الارض - ذلك السجين المستغرق في التفكير  
 بمجد وصمت ، المتبوء من القانون الذي ينظر الى الانسان في حقد ،  
 المحكوم عليه من المدنية التي تنظر الى السماء في قوة .

وليس من ريب - ولا نود ان نخفي ذلك - في ان الفيسيولوجي  
 الملاحظ خليف به ان يرى في جان فالجان شقاء لا سبيل الى شفائه ؛  
 ولعله ان يرى لهذا المريض الذي أورثه المجتمع علته ؛ ولكنه غير قمين  
 مع ذلك بأن يحاول معالجته . وأغلب الظن انه سوف يشيح بوجهه عن  
 هذه الكهوف الجدير به ان يراها في تلك النفس ؛ وانه سوف يمسح من  
 هذا الوجود - مثل داني عند باب الجحيم - تلك الكلمة التي خطتها ،

مع ذلك ، إصبع الله على جبين كل انسان : - الامل .  
هل كانت حاله النفسية هذه التي حاولنا ان نحللها ، واضحة عند جان  
فالجان وضوحها بعد محاولتنا هذه في اذهان القراء ؟ هل رأى جان  
فالجان في وضوح جميع العناصر التي رُكِّبَ منها بؤسه المعنوي ؟ هل  
رآها قبل ان تتكون ، وفيما هي تتكون ؟ هل تتبع ذلك الرجل  
الاميّ الجاني تنبّعاً دقيقاً تعاقب الأفكار التي رفعتة وخفضته - شيئاً  
بعد شيء - حتى انتهى الى ذلك المستوى الفاجع الذي طبع منذ سنوات  
عديدة افقَ روحه الداخلي ؟ هل كان يعي وعياً واضحاً كل ما يجري  
في ذات نفسه ، وكل ما كان يحركه ويقلقه ؟ ذلك شيء لا نجريء على  
إثباته ؛ إننا في الواقع لا نؤمن به . كان جان فالجان أجهل ، حتى  
بعد ان اصيب بهذا البلاء كله ، من ان يتمّ له تمييز حسن في هذه  
الشؤون . إنه ما كان يدري ، في بعض الاحيان ، ماهية مشاعره على  
وجه الضبط . كان جان فالجان في الظلام ؛ لقد شقي في الظلام ؛  
لقد أبغض في الظلام ؛ وفي وسعنا ان نقول إنه أبغض ببصره هو .  
لقد عاش في ذلك الظلام على نحو موصول ، ملتصقاً بطريقة مثل أعمى  
من العميان ، ومثل حالم من الحالمين . وبين الفينة والفينة فعسب كان  
ينمره 'فجأة' ، من باطن او من خاوج ، عاصف من غضب ، وقبض  
من عذاب ، ووميض خاطف شاحب يضيء نفسه كلها ، ويكشف من  
حوله - من امام ومن وراء ، على وهج نور خفيف - عن تلك  
الهوى \* القطيعة والمشهد الكالحة التي ينطوي عليها قدره .  
وخبا الوميض ؛ وهبط الليل من جديد ؛ أين كان ؟ انه ما عاد  
يدري .

إن ميزة هذا الضرب من العقوبة التي يمين فيها العنصر الذي لا

• جمع هوة •

يرحم ، يعني العنصر الذي يوحش \* ، هي أنه يحول الانسان - شيئاً فشيئاً - نحوياً أبه ، الى حيوان ، وفي بعض الاحيان الى حيوان مفتوس . وإن محاولات جان فالجان العنيدة المتكررة الى الحرب من السجن لتنهض دليلاً على ان ذلك هو الاثر الذي يتركه القانون في النفس البشرية . لقد جدّد جان فالجان هذه المحاولات ، المتقاء الى ابعاد الحدود ، غير المجدية الى ابعاد الحدود ، كلما منحت له الفرصة ، من غير ان يفكر لحظة واحدة في النتيجة ، او في التجارب التي سبق له ان قام بها . لقد فرّ على نحو ضارٍ ، كالكذب الذي يجد باب قصه مفتوحاً . قالت له الغريزة : « أنج نفسك ! » ، وقال له العقل : « ابق ! » ، ولكن أمام إغراء قوي الى هذا الحد ، اختفى العقل . الغريزة وحدها هي التي بقيت . كان الوحش وحده هو الناشط للعمل . حتى اذا عاودوا إلقاء القبض عليه لم تزد القضاة الجديدة التي أُنزلت به غيرَ ضراوة الى ضراوة .

وغة ناحية واحدة ينبغي لنا ان لا ننفلها ، وهي انه كان على قوة جسمية لم ينعم بثلاث أيّ من نزلاء السجن . ففي العمل الشاق ، وفي قتل الحبال المعدنية ، وفي ادارة الآلات الرافعة كانت قوة جان فالجان تعدل قوة اربعة رجال . كان في بعض الاحيان يرفع ويحمل على ظهره اثقالاً هائلة ، ويقوم في بعض الاحيان بدور تلك الاداة التي ندعوها رافعة أثقال ، او ما كان يدعى في الفرنسية القديمة *orgueil* وهي الكلمة التي نستطيع ان نقول ، بالمناسبة ، ان شارع مونثورغويّ ، قرب اسواق باريس المسقوفة ، مدينٌ باسمه لها . ولقد لقبه رفاقه بـ « جان ، رافعة الاثقال » . وذات يوم ، فيما كانت شرفة دار بلدية طولون ترّم ، مالَ تمثال من تماثيل النساء الرائعة التي تحمل ثقل الشرفة ، وهو من عمل

---

\* الذي يحمل الشيء وحشياً .

بوجه \* - مال عن موضعه ، وكاد ان يسط . فما كان من جان  
فالجان ، الذي اتقن ان كان هناك ، إلا ان أسنده بكفته حتى اقبل  
العمال .

وكانت لدانة جسده تفوق قوته ايضاً . والواقع ان بعض السجناء ،  
الحالمين ابدأ بالفرار ، انتهوا الى ان يجعلوا من القوة والبراعة مجتمعين علماً  
حقيقياً . ذلك هو علم العضلات . وان نظاماً غامضاً من توازن القوى  
ليُمارَس كل يوم من جانب السجناء ، هؤلاء الحاسدين السرمديين للذباب  
والمصافير . كان تسوّر الجدران واكتشاف نقاط ارتكاز حيث لا يرى  
المرء تنوءاً ما إلا بشق النفس - كان هذان ضرباً من اللهو عند جاث  
فالجان . أعطه زاوية في جدار تجده - وقد توترت ركبته وتوتر ظهره  
واندبعت بداء ومرفقاه بوجه الجدار الحشن - يرتقي بتل السحر حتى الدور  
الثالث . وقد صعد ذات مرة على هذه الشاكلة ، الى سطح السجن الخاص  
بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

لقد تكلم قليلاً ، ولم يضحك البتة . كان في حاجة الى انفعال  
متطرف لكي ينتزع منه ، مرةً او مرتين في العام ، ضحكة السجين  
الفاجعة تلك ، التي هي اشبه بصدى ضحكة شيطان من الشياطين . كان  
يبدو في عين من يراه وكأنه مستغرق في النظر ، على نحو موصول ، الى  
شيء فظيع .  
ولقد كان مستغرقاً حقاً .

فمن خلال الاحساس المريض الذي يميز الطبائع غير الكاملة ، ومن  
خلال الذكاء المحمّد أحسن إحساساً غامضاً بأن عبثاً هائلاً يجثم فوقه . وفي  
ذلك الظل الشاحب القائم حيث كان يزحف ، وكلما ادار وجهه وحاول  
ان يرفع عينيه ، كان يرى في ذعر يمازجه الفيظ ركماً بتشكيل وبتجميع  
وبصعد فوقه حتى يغيب عن نظره في منحدرات رابعة - ركماً مخيفاً

\* Pierre Puget غات فرنسي اشتهر بأعماله الفنية ( ١٦٢٢ - ١٦٩٤ )

من الاشياء ، من القوانين ، من الاحقاد ، من الرجال ، ومن الاعمال التي كانت خطوطها الكبرى تقرأ منه ، والتي كانت ثقلها يربعه ، والتي لم تكن غير ذلك الهرم العجيب الذي ندعوه الحضارة . وهناك ، وهناك ، في ذلك الركام البشع المتألب ، القريب منه حيناً ، البعيد عنه حيناً ، المغالي في الارتفاع الى أعالي لا تدرك ، ميز جان فالجان مجموعة ما ، بعض الجزئيات الشديدة الوضوح ، فهنا السجان حاملاً عصاه ، وهنا الدركي شاهراً سيفه ، وهناك كبير الاساقفة وعلى رأسه التاج ، وهناك فوقهم جميعاً ، وفي ضرب من وهج المجد ، الامبراطور متوجاً يعشي بهاؤه العيون . لقد بدا له أن هذه الأبهة النائية كلها ، التي ما كانت لتبدد ليله ، إنما جعلت ذلك الليل اسد حلكة وأدعى الى إثارة الشجن . كانت هذه جميعاً - القوانين ، والاحقاد ، والاعمال ، والرجال ، والاشياء ، تغدو فوقه وتروح ، وفقاً للحركة المعقدة الخفية التي يطبع الله بها الحضارة البشرية - فهي تدوم وتصحق بوحشية هادئة تمتنع على الوصف ، وبلامبالاة لا تعرف الرحمة . إن النفوس المتوترة في قعر الشقاء الاقصى ، والرجال البائسين الضائعين في الاعماق السفلى حيث يجتنبون عن العيان ، واولئك الذين صب عليهم القانون اعنته - إن هؤلاء جميعاً ليحسّون فوق رؤوسهم بكامل ثقل ذلك المجتمع البشري الخفيف الى ابعد الحدود في عين المنبوذ خارجه ، الفظيع الى ابعد الحدود في عين القائم تحته .

في مثل هذا الوضع فكّر جان فالجان ، وأي طبيعة يمكن أن تغلب على تأملاته ؟

لو كان في ميسور حبة الذرة البيضاء ان تفكر ، إذن لفكرت بما فكر به جان فالجان من غير شك .

كانت كل هذه الاشياء - وهي حقائق مليئة بالاشباح ، واشباح مليئة بالحقائق - قد احدثت في ذات نفسه آخر الامر حالة يكاد التعبير

عنها ان يكون مثبثاً متعذراً .

وفي بعض الاحيان ، كان يقف ، وهو في غمرة من عمله في سجن الاشغال الشاقة ، وبسوسل في التفكير . كان عقله ، وقد ازداد نضجه وتعاطف قلقة في آن معاً ، ينتفض ويثور . إن كل هذا الذي حدث له ليدو في عينه عبثاً ، وإن كل هذا الذي يحيط به ليدو له مستحيلاً . كان يقول في ذات نفسه : « انه حلم . » وكان ينظر الى السجانب الواقف على بضع خطوات منه ، فاذا بالسجان يبدو في ناظره وكأنه طيف من الاطيف ؛ وفجأة كان هذا الطيف يحود عليه بضربة عصا .

كاد العالم الخارجي ان لا يكون له وجود عنده . ونكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ، بالنسبة الى جان فالجان ، لم تكن ثمة شمس ، ولم تكن ثمة ايام صيف جميلة ، ولا سماء مشعة ، ولا صبح نضر من اصباح نيسان . كان شيء من نور النافذة القاتم سو كل ما اضاء نفسه .

ولكي نوجز ، في الحتام ، ما يمكن ان 'يوجز وان يسترجع الى نتائج ايجابية من كل ما بسلطناه حتى الآن ، سوف نقصر على التيقن من ان جان فالجان ، مشذب الاشجار الفايرولي المسالم ، والرقيق المستعبد في سجن طولون ، أمسى قادراً خلال تسع عشرة سنة ، وبفضل المران الذي تم له في محبسه ، على ارتكاب نوعين من الجريمة ، أولها قباحة خاطفة طائشة ، مفعمة بالتهور ، مفعمة بالغريرة ، ضرب من التار للظلم الذي أزل به . وثانيها قباحة خطيرة متروكة فيها ، خضعت لمناقشة الضمير ، ونظر فيها على ضوء الفكرات الخاطئة التي يمكن لمثل هذا المصير البائس ان يقدمها . ومرّ تبصره في الرأي بالمراحل الثلاث المتعاقبة التي لا تستطيع غير بعض الطبائع المعبّنة ان تجتازها : التفكير ، الارادة ، العناد . كانت دوافعه هي السخط الموصول ، ومرارة النفس ، والوعي العميق للمظالم التي يعانيها ، وردّ الفعل حتى ضد الحسيّين والابرياء والمستقيمين من الناس ، اذا كان على وجه الارض من يستحق هذه

الصفات . كانت بداية افكاره كلها ونهايتها كلها هي الحق على القانون  
البشري ، هذا الحق الجدير به ، اذا لم تكسح من غوه حادثة ذات نفعة  
الآية ، أن 'بمى' حقداً على المجتمع ، ثم حقداً على الجنس البشري ، ثم  
حقداً على الخليفة ، ويتجلى في شهوة غامضة موصولة ضاربة الى ان يؤدي  
مخلوقاً حياً ، كائناتاً من كان . وهكذا نرى أن وصف الجواز لجان  
فالجان بأنه « رجل خطر جداً » كانت له اسبابه المبررة .

ومن عام الى عام ذبلت هذه النفس اكثر فاكثر - ذبلت في بطة  
ولكن بقضاء محتوم . والى هذا القلب الذوي كانت له عين جامدة .  
فحين غادر سجن المحكومين بالاشغال الشاقة ، كان قد سلخ نعمة عشر  
عاماً لم يذرف خلالها دمعاً واحدة .

## ٨

### الموج والظل

رجل في عرض البحر !

وأي بأس في ذلك ! إن السفينة لا تقف . وإن الريح تنهب ؛  
ولهذه السفينة القاعة طريق مقدر عليها ان تسير فيها . إنها تضي لسيولها .  
ويحتفي الرجل ، ثم يعاود الظهور ، ويفوص في الماء ، ثم يرتفع  
ثانية الى السطح . إنه يستغيث ، وينشر يديه ، فلا يسمعون . ان  
السفينة المترنحة تحت العاصفة ، لتجند طاقاتها كلها في سبيل الخلاص .  
ويحتفي الرجل الغريق عن اعين الملاحين والمسافرين ؛ إن رأسه البائس  
لا يبدو أن يكون نقطة في خضم الامواج الواسع العريض .  
إنه يطلق نداءات بائسة وسط الاعماق . أي شبح هو ذاك الشراع  
المتواري ! إنه ينظر اليه - إنه ينظر اليه في سمر . ولكنه بنأى ،



ولكنه يغدو قائماً ، ولكنه يتقلص . لقد كان هناك منذ لحظة ، كان واحداً من الملاحين ؛ لقد ذرع ظهر المركب مع سائر القوم ، جيئةً وذهوباً . كان له حظه من الهواء واشعة الشمس ؛ كان كائناً حياً . والآث ، ما الذي اصابه ؟ لقد زلت به القدم ، لقد سقط ، وانقد انتبهى كل شيء .

إنه في الاحماق الرابعة . وليس تحت قدميه غير الفرار والانهيار . إن الامواج ، وقد مزقتها الرياح وبددتها ، لتطبق عليه إطباقاً كريهاً ، وإن تقلبات اللجة لتحمله على متنها . إن فلذ الماء لتجيش حول رأسه ، وإن سفلة الامواج لتبصق في وجهه ، وإن الفجوات المختلطة لتبتلع نصف ابتلاع . وكلما غاص في الماء يلح هوى مفعمة بالظلام ، وتتشبث به نباقات خيفة بجهولة ، فتوثق قدميه ، وتشده نحوها . إنه يحس بأنه قد اصبح لجة وبأنه غدا جزءاً من الزبد . ان الامواج لتتقاذفه ؛ وإنه ليزوق طعم المرارة ؛ وإن الاوقيانوس النهم لثائق الى التهامه . إن العظم ليعبث بنزعه الاخير ؛ ويبدو أن هذا كله لا يعدو ان يكون حقداً سائلاً .

إنه يحاول الدفاع عن نفسه ؛ إنه يحاول ان يتاسك ؛ إنه يناضل ؛ إنه يسبح . إنه -- وهو تلك القوة المسكينة الموشكة على النفاد -- يصارع الطاقة التي لا تنفد . ومع ذلك فهو يكافح .

ابن السفينة الآن ؟ بعيداً هناك . إنها لا تكاد تترى في ظلمات الافق الشاحبة .

وتهبّ الريح هبات شديدة ؛ وتغمره الامواج . إنه يرفع عينيه ، ولكنه لا يرى غير زرقة السحب الضاربة الى السواد . إنه ليشكل في نزعه الاخير جزءاً من جنون البحر الهائل . إن هذا الحبل لينكّل به حتى الموت . وإنه لسمع اصراً غريبة على الاذن الانسانية ، اصراً

تبدو وكأنها لا تقبل من الأرض ، ولكن من عالم خفي قائم وراءها .  
إن في السحب طيوراً ، كما أن ثمة ملائكة فوق الأحزان الانسانية ،  
ولكن أي شيء تستطيع أن تفعله من أجله ؟ إنها تطير ، وتغني ،  
وتتدفق ، فيما هو يحسج .

إنه يستشعر ان هاتين اللانهايتين قد دفنتاه في آن معاً : الاوقيانوس ،  
والسما . الاولى قبر ، والثانية كفن .

ويهبط الليل . لقد سلخ ساعات وهو يسبح ؛ ولقد اوشكت قوته  
على النفاد . لقد انمحت تلك السفينة ، ذلك الشيء الثاني حيث كان يوجد  
ناس . إنه وحيد في ظلمة اللجة الفظيعة . إنه يغوص ؛ إنه يتصلب ؛  
إنه يناضل ؛ إنه يحسّ تحته بغيلان اللامنطور الغامضة ؛ إنه يصيح .

لم يبق ثمة ناس . ولكن اين الله ؟

ويصيح . النجدة ! النجدة ! ويصيح على غير انقطاع .

ليس ثمة شيء في الافق . ليس ثمة شيء في السماء .

إنه يتضرع الى المدى ، الى الموج ، الى الأستة \* ، الى الصخر .  
ولكن هذه كلها صماء . ويبتهل الى العاصفة . ولكن العاصفة الرابطة  
الجأش لا تدعن لغير اللانهاية .

إن من حوله الظلمة ، والضباب ، والوحدة ، والجلبة الضارية غير  
الواعية ، وتغضن المياه الهائجة غير المتناهي . وإن في باطنه الذعر  
والاعياء . أما تحته فكان السقوط . لم يكن ثمة نقطة ارتكاز . إنه  
يفكر في مغامرات جسده الميت المظلم وسط الدجنة غير المحدودة . إن  
البرد اللاذع ليشله . وإن يديه لتتشنجان وتنطبقان ، ولكن على العدم .  
رباع ، غيوم ، زوابع ، عصافات ، ونجوم لا غناء فيها ! ما العمل ؟  
إنه يستسلم لليأس . إنه ، وقد هدّء الاعياء ، يلتمس الموت . إنه لا  
يقاوم بعد الآن . لقد ألقى السلاح ؛ لقد اطرّح القتال ، وما هو ذا

\* Algae وهو نبات يحيا على سطح المياه العذبة والمالحة أوفى أعماقها .

يفرّس الى اعماق اللجة الفاجعة الى الابد .  
 إيه يا سير المجتمع الانساني الحاقدا ! إن تحطيم الرجال والنفوس  
 لطبيع سبيلك ! إيه أيها الاوقيانوس حيث يسقط كل ما يدعه القانون  
 يسقط ! أنت انعدام النجدة المشؤوم ! إيه أيها الموت الادي !  
 البحر هو الليل الاجتماعي المتحجر الفزاد الذي يلقي القانون ضحاياه في  
 عبابه . البحر هو الشقاء الذي لا حد له !  
 إن النفس التي تتلاعب بها امواج ذلك البحر قد تصبح جثة . فمن  
 ذا الذي يعيدها الى الحياة ؟

## ٩

### مظالم جديدة

وحين أزف موعد خروجه من سجن المحكوم عليهم بالأشغال  
 الشاقة ، وحين ضجت في اذن جان فالجان هذه الكلمات القوية :  
 « أنت مطلق السراح ! » بدت تلك اللحظة ، في عينيه ، غير محتملة وغير  
 واقعية . وفجأة تسرب الى روحه شعاع من النور الحي ، شعاع من  
 نور الأحياء الحقيقي . وسنده جان فالجان بفكرة الحرية . كان قد  
 آمن بحياة جديدة . ولقد رأى في الحال أيّ ضرب من الحرية ذلك  
 الذي يحتمل جوازاً أصفر .

وكان ثمة الى جانب هذا كثير من التجارب المبررة . كان قد حسب  
 ما أدتخذه من مال طوال مقامه في سجن الاشغال الشاقة فبلغ مئة  
 وواحد وسبعين فرنكاً . ومن العدل ان نضيف انه غفل عن ان يأخذ  
 بعين الاعتبار الراحة الالزامية أيام الاحد والاعياد ، تلك الراحة الجدير  
 بها ان تنقص هذا المبلغ ، خلال تسعة عشر عاماً ، نحواً من اربعة

وعشرين فرنكاً . وعلى أية حال ، فقد أنقصت أمواله تلك مختلف الرسوم المحلية حتى أمست مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » ، دُفعت إليه عند رحيله .

ولم يفهم شيئاً من هذا . واعتقد أنه مُظلم ، بل اعتقد - ولثقلها بصراحة - انه مُسروق .

وفي اليوم التالي لاطلاق سراحه رأى امام باب معمل من معامل تقطير زهر الليمون في غراس رجالاً يفرغون بعض الأكياس . ففرض عليهم خدماته . وكانوا في حاجة الى المساعدة فقبلوا عرضه . وانصرف الى العمل . كان ذكياً ، شديد البأس ، رشيقاً . ولقد بذل غاية جهده .

وبدا ربّ العمل وقد داخله الارتياح . وفيما هو يعمل سرّ بهم دركي ، فرآه ، وسأله ان يُبرز اوراقه . واضطر الى إبراز الجواز الاصفر . حتى اذا تمّ ذلك ، استأنف جان فالجان عمله . وقبل ذلك بقليل ، كان قد سأل احد العمال عن الاجرة التي تُدفع اليه ، يومياً ، لقاء هذا العمل فكان جوابه : « ثلاثون سو » . وهبط الليل ؛ واذ كان مضطراً الى الرحيل صباح اليوم التالي قصد الى رب العمل والتبس ان يدفع اليه أجره . ولم يقل رب العمل كلمة ، ولكنه قدّم اليه خمسة عشر « سو » . واحتجّ . فأجابه الرجل : « هذا يكفيك . » وألحّ . فصدّق رب العمل الى عينيه وقال : « حذار من السجن ! »

وهنا أيضاً اعتبر أنه قد مُسروق .

لقد سرقه المجتمع وسرقته الدولة - حين أنقصا المال الذي ادّخره على نطاق واسع . وما قد جاء دور الفرد في ان يسرقه على نطاق مصغر .

إن اطلاق السراح ليس هو الخلاص . فقد يغادر المرء سجن الاشغال الشاقة ، ولكنه لا يستطيع ان يغادر الحكم الذي صدر بحقه . ذلك ما أصابه في غراس . ولقد سبق ان رأينا كيف استُقبل في د...

## الرجل يستيقظ

فيا كانت ساعة الكاندرائية تدقّ الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .

كان الذي أيقظه أن الفراش وثير اكثر بما ينبغي . فطوال عشرين عاماً تقريباً لم يرقد يوماً في فراش ؛ وعلى الرغم من انه لم يخلع ثيابه فقد كان ذلك الاحساس جديداً عنده الى درجة تجعل من المحنوم عليه ان يعكّر صفو رقاد .

كان قد نام اربع ساعات ونيفاً . وكان الاعياء قد زايه . لقد تعود أن لا يستجم غير ساعات معدودات .

وقتح عينه ، وحدق لحظة في الظلام المحيط به ، ثم أغمضها لينسلم النوم كرة اخرى .

وحين تكون احاسيس كثيرة متباعدة قد اقلقت نهارنا ، حين تكون عقولنا مستغرقة في التفكير ، نستسلم للرقاد مرة ، ثم نعجز عن ان نعاود النوم من جديد . إن النوم يتقاد اليها في المرة الاولى بطواعية لا تتم له في المرة التالية . وذلك ما وقع لجان فالجان . إنه لم يستطع أن ينال كرة ثانية ، وهكذا بدأ يفكر .

كان في احدى تلك اللحظات التي تكون افكارنا خلالها قلقة مشوشة . كان ثم ضرب غامض من المدّ والجزر في دماغه . لقد طفت ذكرياته القديمة والحديثة حوله كما اتفق ، وتقاطعت على نحو مختلط ، فاقدة اشكالها الخاصة ، متضخمة الى ما لا حد له ، لتختفي كلها بعد دفعة واحدة وكأنها وسط سيل موحل هائج . وراودته افكار كثيرة ،

ولكن كانت ثمة فكرة برزت على نحو موصول وطردت كل ما عداها .  
اما هذه الفكرة ف سوف نبسطها في الحال . كان قد لاحظ الاطباق  
الفضية الستة والملقعة الكبيرة التي وضعتها السيدة ماغلوار على المائدة .

لقد استحوذت هذه الاطباق الفضية الستة عليه . كانت هناك ، على  
مدى بضع خطوات . ففي اللحظة التي اجتاز فيها الحجرة الوسطى ليبلغ  
تلك التي هو فيها ، كانت الخادم المعجوز تضعها في خزانة جدارية صغيرة قائمة  
فوق رأس السرير . وكان قد لاحظ موضع هذه الخزانة الجدارية جيداً :  
الى اليمين وانت مقبلٌ من حجرة الطعام . كانت آنية فضية قديمة ،  
آنية كثيفة ثقيلة . وخلقٌ بها ، إذا ما أضفت اليها الملعقة الكبيرة ،  
إن تباع بمئتي فرك على الاقل ، وهو ضعف المبلغ الذي كسبه خلال  
تسع عشرة سنة من العمل . صحيح انه كان في امكانه ان يكسب  
اكثر لو ان « الحكومة » لم « تسرقه » .

وعلى دماغه ساعة كاملة ، ساعة طويلة حفلت بالارتجافات المتزجة  
بشيء من الصراع . واعلنت الساعة الثالثة . وفتح عينيه من جديد ،  
وانتصب في سريره فجأة ، وبسط ذراعه ومسّ جرابه ، وكان قد طرحه  
في زاوية المدع ، وارخى رجله ، ووضع قدميه على الارض ، ووجد  
نفسه - من غير ان يدري كيف - جالساً على سريره .

وظلّ فترة من الزمن مستغرقاً في التفكير على ذلك النحو ، وهو  
وضعٌ كان خليقاً به أن يوقع الرعب في فؤاد الناظر اليه في تلك الظلمة ،  
وقد أفاق وحده في البيت المستسلم للرقاد . وفجأةً انحس الى امام ،  
وخلع نعليه ، ووضعهما في رفق على الحصير المذشور قرب السرير ، ثم  
استأنف وضعه المفكر ، وغداً ساكناً من جديد .

وفي غمرة من ذلك التفكير البشع أفلقت الأفكار التي اشرنا اليها  
دماغه على غير انقطاع ، فهي تدخل ، وهي تخرج ، وهي تعود ، وهي تغدو  
ضرباً من العبء الثقيل عليه . ثم إنه فكر ايضاً -- وليس بدري كيف ،

وبذلك العناد الميكانيكي الذي يميّز التفكير الحالم ، بمجرم يدعى بروفيه كان قد عرفه في سجن الاشغال الشاقة ، وكان لا يرفع بنظلوله غير رباط مفرد من نسج قطني مزرود . وكان نمط ذلك الرباط الشطرنجيّ التربع لا يفارق خياله أبداً .

وظلّ على هذه الحال ، ولعله كان خليقاً به أن يظل على هذه الحال حتى مطلع الفجر لولا أن دقت الساعة دقة النصف او دقة الربع . لقد بدت الساعة وكأنها تقول له : « هيا ! »

وانتصب واقفاً ، وتردّد لحظة اخرى ، وأصاخ . كان كل شيء هادئاً في المنزل . فضى مباشرة ، وفي حذر ، الى النافذة التي كانت قادراً على ان يلحها . لم يكن الليل حالماً جداً . فقد كان القمر بدراً تجري عبره سحائب ضخام تطاردها الريح . وكان هذا يحدث ، في الخارج ، تراوحاً بين الظل والنور ، فيظلم الكون حيناً ويضيء حيناً ، ويحدث في الداخل ضرباً من الشفق . وكان هذا الشفق - الكافي لتمكينه من ان يرى طريقه ، المتقطع بسبب من السحائب العابرة -- يشبه ذلك الضرب من النور الازرق المودّ الذي يخترق نافذة سجن مظلم يروح الناس امامها ويغدون . حتى اذا انتهى جان فالجان الى النافذة تلتها . لم تكن مقضبة بالحديد ، وكانت مفتوحة على الجنيّة ، ولم تكن موصدة ، وفقاً للعرف السائد في تلك الديار ، إلا بمسار مسطح صغير . وفتح النافذة ، حتى اذا اندفع الهواء القارس الى الغرفة أعاد إصاها في الحال . وحدّق الى الجنيّة بتلك النظرة المستغرقة التي تدرس اكثر مما ترى . كانت الجنيّة مطوّقة بجدار ابيض ، شديد الانخفاض ، سهل التسلّ . وهناك ، في المدى ، بصُرّ برؤوس اشجار متباعدة على مسافات متساوية ، فأدرك من هنا أن هذا الجدار يفصل الجنيّة عن جادة عريضة ، أو زقاق مشجّر .

وحين تمّت له هذه الملاحظة ، استدار مثل رجل وطن النفس على

أمر ، ومضى الى مخدعه ، وتناول جرابه ، وقطعه ، ونقّب فيه ، ثم أخرج منه شيئاً وضعه على السرير ، ودسّ نعليه في احد جيوبه ، وسدّ جرابه ، وطرحه على منكيه ، واعتبر قلنسوته ، وخفض حافتها فوق عينيه ، وتلّس عصاه في الظلام ، ومضى فوضعها في زاوية النافذة ، ثم ارتدّ الى السرير ، وفي عزم تناول الشيء الذي وضعه فوقه منذ بركة . لقد بدا اشبه بقضيب حديدي صغير ، مستدقّ عند احد طرفيه كالخربة .

كان من العسير على المرء ان يدرك وسط الظلام ، لأيّ غرض جعلت هذه القطعة الحديدية ؟ أهى محل ؟ أهى دبوس \* ولو قد نظر المرء الى ذلك الشيء على ضوء النهار اذن لرأى انه لم يكن غير مثقب معدّن . ففي ذلك العهد كان المحكوم عليهم بالاشتغال للشاقة يُكلفون أحياناً اقتلاع الحجارة من الكتبان المرتفعة المحيطة بطولون وكانوا كثيراً ما يزوّدون بادوات المعدّنين . ومثاقب المعدّنين تصنع من حديد صلب ، وينتهي طرفها الأدنى برأس مستدقّ 'تقحم بواسطته في الصخر .

وأمسك المثقّب بيده اليمنى ، وجلس نفسه ، وتقدم في خطى متسلّقة نحو باب الغرفة المجاورة ، التي كانت غرفة الاسقف ، كما نعلم . وحين انتهى الى ذلك الباب ألغاه مفتوحاً بعض الشيء . إن الاسقف لم يرصده قط .

## ١١

### ما الذي يفعله

واصاخ جان فاجان . لم يكن ثمة صوت ما .

\* الدبوس ، هنا ، عمود من حديد يضرب به .



ودفع الباب .

دفعه في رفق بطرف إصبعه بمثل الحذر الخفي الجازع الذي يطبع حركات مرة تريد ان تدخل .

واذعن الباب للضغط بحركة صامتة لا تكاد 'تدرك' ، جعلت الفرجة أوسع بعض الشيء .

وانتظر لحظة . ثم دفع الباب كرة أخرى في عزم اسد .

وواصل الباب إذعانه في صمت . كانت الفتحة قد أمت عريضة يستطيع ان يضي من خلالها . ولكن كان ثمة قرب الباب طاولة صغيرة شكلت معه زاوية 'مربعة' تعوق الدخول الى الحجرة .

ورأى جان فالجان هذه العقبة ، ولكن الفرجة ينبضي ان توسع اكثر مهما كلف الامر .

وإذ أزمع على ذلك ، دفع الباب كرة 'ثالثة' بأعنف مما دفعه في المرتين السابقتين . فما كان من مفصل الباب الصدى إلا ان ارسل في تلك الظلمة ، صرياً أبغ متطاولاً .

وارتعد جان فالجان . لقد ضجّ صوت هذا المفصل في أذنيه صارخاً فظيماً وكأنه 'تفخ' الصور يوم القيامة .

وفي غمرة المبالغة الوهمية التي تلازم الدقيقة الاولى ، كاد يتوهم ان هذا المفصل قد دبت فيه الحياة فجأة وان حياته تلك فظيعة ، فهو ينبج كالكلب ليحذر الناس جميعاً ، ويوقظ النائمين .

ووقف مرتعداً مرتبكاً ، وهبط من على رؤوس اصابعه الى عقيقه . واحس 'بشرايينه تنبض عند صدغيه مثل مطرقي حداد ، وبدا له وكأن 'نفسه خرج من صدره بمثل هدير الريح المنطلقة من كهف . لقد تراءى له ان من المستحيل ان لا يكون هذا الصباح المروع الذي اطلقه المفصل المحتاج قد قلقل المنزل كله بمثل رجة الزلزال . لقد أطلق الباب الذي دفعه هو ، صيحة الخطر ونادى مستغيثاً . ولن تنقضي لحظة حتى

يستيقظ الرجل المعجوز . وتصرخ المرافان المعجوزان ، وعندئذ 'تقبل النجدة ؛ وبعد ربع ساعة ليس غير تضج البلدة كلها بالبكاء ويطارده رجال الدرك . واعتقد لحظةً ، انه هالك لا محالة .

ووقف ساكناً ، مثل تمثال الملح ، وقد فقد الجرأة على ان يأتي بحركة ما .

وتنقضت بضع دقائق . كان الباب مفتوحاً على مداه . وغامر فألقى نظرةً على الغرفة . إن شيئاً لم يتحرك . وأصغى . لم يغير شيء ما مكانه في البيت . ان جلبة مفصل الباب الصدى لم توقظ احداً .

وانقضى هذا الخطر الاول ، ولكنه ما يزال يستشعر في ذات نفسه هيجاناً مروّعاً . ومع ذلك ، فانه لم يتقلب على عقبيه . بل إنه لم يتقلب على عقبيه حتى في تلك اللحظة التي اعتقد فيها انه قد هلك . إنه لم يفكر إلا بالهجاز ما اعتزم عليه في الحال . وخطا خطوةً ، فاذا هو في الغرفة .

كانت هذه الغرفة غارقة في هدوء كامل . وكان في ميسوره ان يبين هنا وهناك بعض الاشكال المختلطة الفامضة التي كانت - على ضوء النهار - اوراقاً مبعثرة على طاولة ، وكتباً مفتوحة من قطع النصف ، وكتباً مركومة على كرسي منخفض ، وكرسيّاً ذا ذراعين مثقلاً بالثياب ، ومرءكماً ذا مسند لليدين ، ولكنها لم تكن الآن غير زوايا مظلمة ، وبقع ضاربة الى البياض . وسندّم جان فالجان ، محاذراً ان يمس الاثاث . وفي الطرف الاقصى من الغرفة كان في ميسوره ان يسمع انقاس الاسقف النائم ، المنكافئة الهادئة .

ووقف فجأة . كان قرب السرير . لقد انتهى اليه بأسرع مما كان يحتسب .

ان الطبيعة لتشدّ ، في بعض الاحيان ، مفاعيلها ومظاهرها الى افعالنا في ضرب من الملازمة الجدية الذكية ، وكأننا تريد ان 'نكرها على التفكير . فمنذ نصف ساعة تقريباً واحدى السحب العظيمة تغطي وجه

السما . حتى اذا وقف جان فالجان تجاه السرير تبددت تلك السحابة ، وكأنما تفعل ذلك عامدة ، واخترق النافذة العالية شعاع قمرى ما لبث ان اضاء وجه الاسقف الشاحب . كان نائماً في سكون . وكان متلفعاً في سريره - بسبب من ايلالي ديار الالب الدنيا القارسة - برداء صوفى داكن يغطي ذراعيه حتى المرفقين ، فكانه مرند ثيابه كلها تقريباً . وكان رأسه مترجماً الى الوسادة في وضع الرقاد المهنكل . وفوق جانب السرير تدلّت يده المزدانة بالحاتم الاسقى ، والتي انهرت منها دفقات من المبرّات والعمل الصالح . كان يحياه كله مشرقاً بانطباعة غامضة من الرضا ، والامل ، والسعادة . كانت اكثر من ابتسامة . كانت إشعاعاً أو تكاد . وعلى جبينه استقر انعكاس لا يوصف من نور غير منظور . إن ارواح المستقيين من الناس ل ترى في الرقاد سما عجيبة .

كان انعكاس من هذه السما يسطع على محيا الاسقف . وكان في الوقت نفسه شفافية مضيئة ، لأن هذه السما كانت في ذات نفسه . هذه السما كانت ضميره .

وفي اللحظة التي استقر فيها شعاع القمر على هذا الضياء الباطني بدا الاسقف النائم وكأنما تحيط به هالة من النور . ولكنها كانت معتدلة ، ومحجوبة بشفق لا سبيل الى وصفه . وزاد هذا القمر الذي في السما ، وهذه الطبيعة الوسى ، وهذه الحديقة التي لا نبضة فيها ، وهذا المنزل الهاديء ، والساعة ، واللحظة ، والصمت ، - زاد هذا كله طمأنينة هذا الحكيم الجليلة ، وغلّف بضرب من الهالة الماجدة الرائقة هذا الشعر الأبيض ، وهاتين العينين المغضبتين : هذا الوجه حيث كل شيء امل ، وحيث كل شيء ثقة - رأس الرجل العجوز ، ورقاد الطفل . كان ثمة ألوهية تقريباً في هذا الرجل المعظم هكذا على غير وعي منه .

ووقف جان فالجان في الظل ، رمتقه الحديدي في يده ، منتصب

القائمة ، جامدآ ، سروع الفؤاد امام هذا الوجد المشع . إنه لم يرو من قبل نظيراً لذلك البتة . وملأت هذه الطمانينة فؤاده رعباً . والحق أنه ليس للعالم الاخلاقي مجلّى اعظم من هذا : ضمير قلق مضطرب على وسك ارتكاب عمل شرير ، يتأمل رقاد رجل صالح .

كان هذا الرقاد في هذه العزلة ، وعلى مقربة من رجل مثله ، ينطوي على شيء رفيع أحسن به في غموض ، ولكن في قوة .

إن احداً ما كان قادراً على ان يعرف اي شيء كان يدور في خلده . حتى هو نفسه لم يكن يدري . ولكي يحاول المرء ان يلمّ بذلك بتعين عليه ان يتخيل أقصى العنف في حضرة أقصى الاعتدال . ولم يكن ثمة على وجهه شيء يمكن ان يلمح في يقين . كان يرب عليه ضرب من الدهش الشكس . لقد رآه . هذا كل ما هنالك . ولكن ايّ الافكار طافت في ذهنه ؟ كان من المستحيل على المرء ان يجزر ذلك . كان واضحاً ان الاضطراب والارتباك استبدا به . ولكن ما طبيعة هذا الانفعال ؟

إنه لم يرفع عينيه عن الرجل العجوز . كان التردد العجيب هو الشيء الوحيد الواضح في مسلكه ومحياته . ولقد كان خليفاً بالناظر اليه ان يعتقد أنه إنما تردّد بين عالمين : عالم الهالكين ، وعالم الناجين . لقد بدا على استعداد لسحق هذه الجمجمة ، او لتقيل هذه اليد !

وبعد لحظات رفع يده اليسرى ، في بطء ، نحو جبينه ؛ ونزع قلنسوته . ثم رفع يده بمثل ذلك البطء ، واستغرق في تأملاته ، كرة أخرى ، وقد حمل قلنسوته في يسراه ، وعصاه في بناء ، وقفّ شعره فوق رأسه الضاري .

ونحت هذه النظرة المروّعة ، واصل الاسقف رقاده في طمانينة عميقة . كان تمثال المصلوب القائم على المرقد يبدو على نحو باهت في ضوء القمر ، وكأنما كان يبط ذراعيه نحوها كليهما ، مباركاً احدهما ،

غافراً للآخر :

وفجأةً اعتمر جان فالجان قلنسوته ، ثم انطلق مسرعاً من غير ان ينظر الى الاسقف ، محاذياً السرير ، متجهاً مباشرة نحو الخزنة الجدارية الصغيرة التي لمحا قرب رأس السرير . ورفع المثقب الحديدي لكي يحطم القفل ، فاذا به يجد المفتاح فيه . وفتحه ، فكان اول ما رآه سلة الآنية الفضية ، فتناولها ، واجتاز العرفة في خطى واسعة ، غير مصطنع الحذر ولا مبالٍ بالضجة . وانتهى الى الباب ، ودخل المصلى ، وتناول عصاه ، واجتاز بالعتبة ، ووضع آنية الفضة في جرابه ، واطرح السلة ، وركض عبر الجنية ، ووثب فوق الجدار وكأنه النمر ، وولى فراراً .

## ١٢

### الاسقف يعمل

وعند مطلع الشمس من اليوم التالي كان مونسينيور بينفينو يتمشى في حديقته . وهرعت السيدة ماغلوار نحوه وقد عصف بها الاضطراب . وصاحت :

— « مونسينيور ، مونسينيور ! هل تعرف عظمك ابن سلة الآنية الفضية ؟ »

فقال الاسقف : « نعم . »

فقالت : « ليتبارك امم الرب ! انا لم أدر ما الذي حل بها . »  
كان الاسقف قد وجد السلة ، منذ لحظة ، فوق احدى مسابك الزهور . فقدمها الى السيدة ماغلوار .  
— « ها هي ذي . »

فقلت : « نعم . ولكن لا شيء فيها ؟ ابن الآنية الفضية ؟ »  
فقال الاسقف : « آه . إن الآنية الفضية هي التي تشمل بالك اذن ؟  
أنا لا ادري ابن هي . »

- « يا الهي ! لقد سُرقَت ! لقد سرقها هذا الرجل الذي وفد  
علينا امس . »

وفي طريقة عين ، وبكامل الرشاقة التي تقدر عليها امرأة في مثل  
سنها ، اندفعت السيدة ماغلوار نحو المصلى ، ومضت الى التمدد ، ثم  
انقلبت الى الاسقف .

وكان الاسقف ينحن في شيء من الحزن فوق نبتة من ذلك النوع  
المعروف بمحبيشة الملاعق كانت اللة قد هشمها عند سقوطها على الارض .  
فانتصب لدن سمع صيحة السيدة ماغلوار :

- « مونسينيور ، لقد هرب الرجل ! لقد سُرقَت الآنية الفضية ! »  
وفيا هي تنطق بهذه الكلمات وقعت عيناها على زاوية من الحديقة  
حيث وجدت آثار تسوُّر . كانت عارضة الجدار الخشبية قد طُرحت  
على الارض .

- « أنظر ! لقد فرَّ من هنا . لقد وثب الى زقاق كوشفيليه ! يا  
له من رجلٍ مقيت ! لقد سرق آبنتنا الفضية ! »  
واعنصم الاسقف بالصمت لحظة ، ثم رفع عينيه الرصينتين وقال للسيدة  
ماغلوار في رقة :

- « ولكن قبل كل شيء ، هل كانت هذه الآنية الفضية لنا ؟ »  
ولم تجب السيدة ماغلوار . وبعد لحظة تابع الاسقف كلامه :  
.. « ايها السيدة ماغلوار ، لقد احتفظت بهذه الآنية الفضية ، بغير  
حق ، دهرآ طويلاً . إنها ملكٌ للفقراء . من كان هذا الرجل ؟ رجلاً  
فقيراً من غير شك . »

فقلت السيدة ماغلوار : « وأسفاه ! وأسفاه ! أنا لستُ تأثرة من

اجلي شخصياً أو من اجل الآنسة . سيان عندنا بقاء الآنية الفضية وذهاهما .  
ولكني نائرة من اجلك يا صاحب السيادة . بأي شيء سوف يتناول  
مونسينيور طعامه منذ اليوم ؟

فنظر الاسقف اليها دهشاً :

« وكيف ذلك ؟ أليس عندنا أطباق من صفيح ؟ »

وهزّت السيدة ماغلوار كتفها .

« للصفيح رائحة . »

« حسن . فلنستعمل أطباقاً حديدية اذن . »

وأومأت السيدة ماغلوار ايماءة ذات مغزى .

« وللحديد رائحة . »

فقال الاسقف : « حسن ، اذن نستعمل أطباقاً خشبية . »

وبعد دقائق معدودات تناول فطوره على المائدة عينها التي جلس  
اليها جان فالجان الليلة البارحة . وفيما هو يُفطر ، قال مونسينيور  
بيينفينو ، في جدل ، لأخته التي لم تنطق بكلمة ما ، وللسيدة ماغلوار التي  
كانت تدمدم مخاطبة نفسها ، انه ليس ثمة حاجة ، حقاً ، حتى الى  
ملعقة او شوكة خشبيتين لغمس قطعة من الخبز في كوب من اللبن .

وقالت السيدة ماغلوار لنفسها فيما هي تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً :

« هل يخطر شيء كهذا ببال انسان ؟ أن تستقبل رجلاً مثل

هذا ، وتقدم اليه سريراً الى جانبك ، ثم يشاء حسن الحظ ان لا يفعل

شيئاً اكثر من السرقة ! آه ، يا الهي ! ان الرعدة لتسرى في اوصالي

حين أفكر بذلك ! »

وفيما الاخ والاخت ينهضان عن المائدة 'قرع الباب .

وقال الاسقف : « أدخل . »

وفتح الباب . وبرز على العتبة جمعٌ غريب ضارب . كان ثلاثة رجال

يسكون بخناق رجل رابع . أما الثلاثة فكانوا من رجال الدرك ، واما

الرابع فكان جان فالجان .

كان أحد ضباط الدرك قرب الباب ، وكان يقود الجمع في ما يبدو .  
وتقدم الضابط نحو الاسقف ، وادى له التحية العسكرية .

وقال : « مونسينيور ... »

وهنا رفع جان فالجان رأسه - وكان مقطب الجبين مفتأ - وغنم  
في جرس مشدود :

« مونسينيور ! اذن فانت لست الكاهن ! »

فقال احد رجال الدرك : « اسكت ! إنه المونسينيور ؛ إنه  
الاسقف . »

وفي غضون ذلك كان مونسينيور بينفينو يقترب بامرع ما تمكنه  
شيخوخته من الاقتراب .

وقال وهو ينظر الى جان فالجان : « آه ، هانت ذا ! انا  
سعيد بأن اراك . ولكن ! لقد اعطيتك الشمعدانين ايضاً ، وهما  
فضيان مثل غيرهما ، وفي إمكانك ان تبيعهما بمئتي فرنك . لماذا لم  
تأخذهما مع أطباقك ؟ »

وفتح جان فالجان عينيه ونظر الى الاسقف وعلى وجهه انطباعة لا  
يقدر أيما لسان بشريّ على وصفها .

وقال الضابط : « مونسينيور ، إذن فقد كان ما قاله هذا الرجل  
صحيحاً ؟ لقد التقينا به . كان منطلقاً مثل رجل هارب ، فالتقينا القبض  
عليه لكي نحقق . كان يحمل هذه الآنية الفضية . »

فقاطعه الاسقف في ابتسامة : « ولقد قال لكم إن كاهناً عجوزاً  
طبيعاً بات الليلة البارحة عنده منحة' إياها . لقد فهمت . وقد أرجعتموه  
الى هنا ؟ هذه إهانة . »

فقال الضابط : « اذا كان الامر كذلك فهل نستطيع ان نحلي  
سبيله ؟ »



فأجاب الاسقف : « من غير شك . »  
واطلق رجال الدرك مراح جان فالجان . فنكص على عقبه .  
ثم انه قال في صوت لا يكاد يُفهم ، وكأنما كان يتحدث في نومه :  
« أصبح أنهم يطلقون سراحي ؟ »  
فقال احد رجال الدرك : « اجل ! في استطاعتك ان تذهب .  
ألا تفهم ؟ »

فقال الاسقف : « على رسلك ، يا صديقي . هذان هما الشمعدانان  
اللذان قدمتهما اليك . خذهما قبل ان تذهب . »  
ومضى الاسقف الى الموقد ، ورفع الشمعدانين الفضيّين ، وحملها الى جان  
فالجان . وراقبته المراتان وهو يفعل ذلك من غير ان تنبأ بكلمة ، او  
نومًا ايماءة ، او تلقيا نظرة يمكن ان تزجج الاسقف .  
كانت اوصال جان فالجان ترتعد كلها . وتناول الشمعدانين على نحو  
آليّ ، وقد غلب على محياه الذهول .

وقال الاسقف : « والآن ، اذهب في سلام . وبالمناسبة ، اذا  
رجعت كرة ثانية يا صديقي فلا داعي الى ان تمرّ من خلال الجنيّة .  
ان في استطاعتك دائماً ان تدخل وتخرج من الباب الامامي . إنه لا  
يُغلق إلا بسقطة ، ليلاً ونهاراً . »  
ثم التفت الى رجال الدرك وقال :

— « ايها السادة ، في استطاعتكم ان تنسحبوا . »  
ومضى رجال الدرك لسبيلهم .

كان جان فالجان أشبه برجل على وشك الانغماء .  
وتقدّم الاسقف نحوه وقال في صوت خفيض :

— « لا تنس ، لا تنس ابدأ انك وعدتني بان تصطنع هذه الآنية  
الفضية في السبيل التي تجعل منك رجلاً صالحاً . »  
ووقف جان فالجان ، الذي لم يذكر أنه وعد الاسقف بذلك قط ،

وقد غلب عليه الدهش والذهول . كان الاسقف قد وضع كثيراً من التوكيد على هذه الكلمات وهو ينطق بها . وتابع كلامه في احتفال :  
 - « جان فالجان ، يا اخي ! انت لم تعد ملكاً لشر ، ولكن ملكاً للخير . واني انما اشتري نفسك . انا أنزعها من الافكار السوداء ، ومن روح الهلاك ، وأقدمها الى الله ! »

## ١٣

### جيرفيه الصغير

وغادر جان فالجان المدينة وكأنه يفرّ منها . لقد اندفع يسعى في أقصى السرعة ، عبر الحقول ، سالكاً أولى الازقة والطرق الفرعية التي تبدّت له ، غير مدرك انه كان يرتدّ في كل لحظة على آثاره . وظل قائماً على هذا النحو طوال الصباح ، لم يذق طعاماً ، ولم يحسّ بمجموع . كان فريسة مجموعة من الاحاسيس الجديدة . لقد استشعر ضرباً من الغضب ، ولكنه لم يدر على من كان غاضباً . كانت لا بدري أثبتت كوامن العاطفة في فؤاده ام ازدري وأهين ؟ وكانت نعروه في بعض الاحيان رقة غريبة كان يكافحها ، ويقيم في وجهها قوة سنواته العشرين الماضية . وأتعبه هذا الوضع . لقد رأى في ابتساس الى ذلك الضرب من الهدوء المروع الذي منحه اياه الظلم المنزل به - رأى اليه يتقلقل في ذات نفسه . وسأل نفسه اي شيء ينبغي ان يحل محله . وفي بعض الاحيان كان يتسنى لو انه كان في السجن مع رجال الدرك ، ولو ان الاحداث لم تتخذ هذا المجرى ؛ فقد كان ذلك خليقاً به ان يورثه احتياجاً أقل . وعلى الرغم من انقضاء الشطر الاعظم من الموسم فقد كانت ما تزال ههنا وههناك ، في أسيجة العليق ، بعض الزهرات المتخلفة

التي فاح عبيرها من حوله ، فيما هو يجتاز بها مشياً على قدميه ، فأعاد  
الى مخيلته ذكريات طفولته . وكانت هذه الذكريات لا 'تحتل' او تكاد  
بعد ان غابت عن ذاكرته دهرأً طويلاً .

وهكذا تجهمرت في ذهنه ، طوال النهار ، افكار لا سبيل الى  
التعبير عنها .

وفيا الشمس تخبج نحو الافق ، 'مطيلة فوق الارض ظل' أصفر الحصى ،  
كان جان فالجان جالساً خلف دغل في سهل واسع أصهب يكاد يكون  
صحراء حقيقية . لم يكن في الافق غير جبال الالب . حتى ولا برج  
كنيسة في قرية نائية . ولعل جان فالجان كان على مسعدة ثلاثة فراسخ  
من د ... كان مجاز ضيق محتوق السهل ينسبط على بضع خطوات  
من الدغل .

وفي غمرة هذا التأمل الجدير بأن يضاعف أثر اسماله الرابع في نفس  
ايما امريء يقدر له ان يراه ، طرق سمعه صوت 'مرح بهيج' .  
وأدار رأسه فرأى غلاماً صغيراً يتقدم في ذلك المجاز - غلاماً من  
من غلمان سافوا لا يزيد عمره على عشر سنوات ، يتغنى وآلته  
الموسيقية الشبيهة بالكمان على جنبه ، وصندوقه الحاص بسك المرموط  
على ظهره .

كان واحداً من اولئك الصبية المرحين ذوي النفوس العذبة الذين  
يتنقلون من مكان الى مكان وقد بدت 'ركبهم من ثقوب بنطلوانهم' .  
ومن غير ان يكف الغلام عن الغناء ، كان يقف بين الفينة والفينة  
ويقذف في الهواء ببعض القطع النقدية التي كانت في يده ، وليس بمسبعد  
ان تكون هي كل ثروته . وكان بين تلك القطع واحدة من فئة  
الاربعين د سو ، .

ووقف الغلام الى جانب الدغل من غير ان يرى جان فالجان ،  
وقذف ما بيده من القطع النقدية الصغيرة في الهواء ، فتلقاها جميعاً ،

حتى تلك اللحظة ، على ظاهر كفه في كثير من البراعة .  
ولكن قطعة الاربعين و سر ، ولت منه ، هذه المرة ، وكررت  
نحو الدغل حتى انتهت الى جان فالجان .  
ووطنها جان فالجان بقدمه .

ولكن الغلام كان قد تابع سير القطعة النقدية بعينه ، وعرف الى  
اين انتهت .

ولم يأخذه الخوف ، وتقدم نحو الرجل مباشرة .  
كان المكان منعزلاً انزالياً كاملاً . وعلى مدى البصر لم يكن أحد  
في السهل أو في المجاز الضيق . ولم يكن ثمة ما يُسمع غير صيحات  
جماعة من الطيور القواطع \* كانت تنطلق عبر السماء على ارتفاع عظيم .  
وإدار الغلام ظهره للشمس ، فجعلت شعره أشبه بأسلاك الذهب ،  
وخضبت بوهج دائم وجهه جان فالجان الوحشي .

وقال الغلام الصغير في تلك الثقة الصبائية التي قوامها الجمال  
والبراعة :

« قطعتي النقدية ، أيها السيد ؟ »

فقال جان فالجان : « ما اسمك ؟ »

« جيرفيه الصغير ، يا سيدي . »

فقال جان فالجان : « اذهب من هنا . »

فألح الغلام : « يا سيدي ، أعطني قطعتي النقدية . »

ونكس جان فالجان رأسه ، ولم يجب .

واردف الغلام :

« قطعتي النقدية ، يا سيدي ! »

وظلت عين جان فالجان مسرّة على الأرض .

وصاح الغلام : « قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية البيضاء ! قطعني

---

\* التي تنتقل من بلد الى بلد .

التقديّة الفضيّة ! ،

لقد بدا وكأنّ جان فالجان لم يفهم شيئاً . وأمسك الغلام به من طوق قميصه ، وهزّه . وفي الوقت نفسه ، قام بمحاولة لزعزعة الحذاء الضخم ، المثقل نعلته بالحديد ، الجاثم على كتفه .

- « اريد قطعتي التقديّة ! قطعتي التقديّة ذات الاربعين سو ! »  
وبكى الغلام . ورفع جان فالجان رأسه . كان لا يزال قاعداً ، وكانت نظراته قلقة . لقد حدثق الى الغلام في ضرب من الدهش . ثم بسط يده نحو عصاه ، وصاح في صوت فظيع :  
- « من هناك ؟ »

فأجابه الغلام : « انا ، يا سيدي . جيفيه الصغير ! انا ! انا ! أعطني قطعتي التقديّة ذات الاربعين سو ، من فضلك ! ارفع قدمك ، يا سيدي ، من فضلك ! »

ثم ان الغضب استبد به ، على الرغم من حداثة سنه ، فهو يتحدث في لهجة تكاد تكون تهديدية :

- « آه ، واخيراً ، ألا تريد ان ترفع قدمك ؟ هيا ، ارفع قدمك . »

فقال جان فالجان : « أهذا انت ايضاً ؟ »  
وفجأة انتصب واقفاً ، وقدمه ما تزال فوق القطعة الفضيّة ، وأضاف :

- « من الخير لك ان تنجو بحذاءك ! »  
ونظر الغلام اليه في ذعر ، ثم شرع يرتعد من قمة رأسه الى اخص قدميه . وبعد بضعة ثوان من الانشده اطلق ساقيه للريح من غير ان يجرؤ على الالتفات ، او الصياح .  
بيد أنه ما لبث ان وقف ، على مسافة ما ، لكي يستعيد أنفاسه .  
ومن خلال تكبيره الحالم مجمعه جان فالجان يشق وينتحب .

وبعد بضع دقائق اختفى الغلام عن للعيان .  
كانت الشمس قد غربت .

وكانت الظلمة تتكاثر حول جان فالجان . إنه لم يذق طوالَ النهار طعاماً ما . ومن الجائز ان تكون النخى قد اصابته .  
وكان قد ظلّ واهماً لم يغير وضعه منذ ان ولى الغلام فراراً . كان صدره يعلو ويهبط في فترات طوال غير متساوية . وكانت عيناه مسمرتين على بقعة قائمة على عشر خطى او اثنتي عشرة خطوة أمامه ، وكانتا تبدوان وكأنهما تدرسان في انتباه بالغ شكلَ كسرة من الحزف المطليّ العتيق منطرحة على العشب .

وفجأة ارتعدت اوصاله . لقد بدأ يستشعر برد الماء .

وخفض قلنوته على جبينه ، وحاول على نحو ميكانيكي ان يضم جانبي قميصه حول صدره وان يزرره . ثم انه خطا خطوة ، وانحنى الى أمام لكي يتناول عصاه عن الارض .

وفي تلك اللحظة بَصُرَ بقطعة الاربعين « سو » التي كانت قدمه قد دفنتها نصف دفن في التراب ، والتي التمت بين الحصى .

واصيب بمثل الصدمة الكهربائية . ومن خلال اسنانه قال : « ما هذه ؟ » وارتدت خطوة او خطوتين ، ثم وقف عاجزاً عن ان يرفع طرفه عن هذه النقطة التي غطتها قدمه اللحظة السابقة ، وكأن الشيء الملتصع هناك ، وسط الظلمة ، كان عيناً مفتوحة مسمرة عليه .

وما هي الا بضع نوان حتى وثب في تشنج نحو القطعة المالمية ، وأمسك بها ؛ ثم استقام ، وسرّح طرفه بعيداً فوق السهل ، محدّقاً في وقت معاً الى نقاط الافق جميعاً ، واهماً ، مرتعداً مثل ظبي مروّع يلتبس مفزعاً .

ولم ير شيئاً . كان القلب قد هبط ، وكان السهل بارداً خالياً ، وكان ضباب ارجواني كثيف يرتفع في الفسق الواهن النور .

وقال : « آه ! » وشرع يشي مسرعاً في الاتجاه الذي اتخذته الغلام عند فراره . وبعد ان خطا نحواً من ثلاثين خطوة ، وقف ، وأجال البصر في ما حوله ، ولم ير شيئاً .

ثم نادى بأقصى ما يستطيع من قوة :  
-- « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »  
ثم أصاخ .

ولم يكن ثمة جواب ما .

كان الريف موحشاً كالخا ، وكان الفضاء يحيط بالمنطقة كلها . ولم يكن حول جان فالجان غير ظلمة ضاعت فيها نظرتة ، وغير صمت ضاع فيه صوته .

وهبت ربيع شمالية قارسة خلعت ضرباً من الحياة الحداثية على كل ما حوله . وهزّت شجرات العليق اذرعها الصغيرة الهزيلة في ثورة لا تصدق . كانت خليقاً بالناظر اليها ان يقول انها تنهد شيئاً ما وتطارده .

وعاود السير من جديد ، ثم أغدّ الخطى حتى صار سيره عدوياً . وبين الفينة والفينة كان يقف ، وينادي في ذلك الحلاء بصوت ليس ارفع منه ولا احفل بالحزن :

— « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ولو قد سمعه الغلام إذن لألقي في فواده الرعب ، واذن لاجهم عن الظهور امامه . ولكن الغلام كان قد انتهى ، من غير ريب ، الى مكان بعيد جداً .

ولقي كاهناً على صهوة جواد . فتقدّم نحوه وقال :

— « سيدي الكاهن ، هل رأيت غلاماً مرّ من هنا ؟ »

فأجابه الكاهن : « لا . »

— « غلاماً يدعى جيرفيه الصغير ؟ »

- « انا لم ار احداً . »

واخرج من كيس نقوده قطعتين نقديتين من ذوات الحمة الفرنكات ،  
وقدمها الى الكاهن .

- « سيدي الكاهن ، خذ هذه الفرنكات لقرائك . سيدي الكاهن ،  
إنه غلام صغير ، في نحو العاشرة من العمر ، يحمل صندوقاً لملك  
المرموط في ما اعتقد ، وآلة موسيقية تشبه الكمان . لقد مضى في هذا  
الاتجاه . انه واحد من صبية سافوا ، أفهت ؟ »  
- « انا لم أره . »

- « جيرفيه الصغير ؟ أليست قريته قريبة من هنا ؟ هل تستطيع  
ان تعلمني ؟ »

- « اذا كان كما تقول ، يا صديقي ، فعندئذ يكون الغلام الصغير  
غريباً عن هذه الديار . انهم بطوفون في هذه المنطقة وليس ثمة من  
يعرفهم . »

وسارع جان فالجان الى اخراج قطعتين نقديتين أخريين من ذوات  
الحمة الفرنكات ، وقدمها الى الكاهن .

وقال : « من اجل قرائك . »

ثم اضاف في هذيان :

- « سيدي الكاهن . ألقى القبض عليّ . انا سارق . »  
ونخس الكاهن جواده بالمهززين في شدة ، وولى وقد عصف به خوف  
عظيم .

واستأنف جان فالجان الركض في الاتجاه الذي اتخذه اول الامر .  
وقطع على هذا النحو مسافة غير يسيرة ، مجيلاً الطرف في ما حوله  
منادياً صائحاً ، ولكنه لم يلتق احداً آخر . ومررتين او ثلاث مرات  
تسكّب الجاز ليكي ينظر الى ما بدا له شخصاً منطرحاً على الارض او  
جائفاً فوقها ، ولكن ذلك لم يكن غير شجرات عليق او صخور منخفضة .



واخيراً ، وفي موطن التقت عنده ثلاث طرق ضيقة ، وقف . كانت القمر قد طلع ، فأمن النظر في المدى البعيد وصاح كسرة اخرى :  
« جيفيه الصغير ! جيفيه الصغير ! جيفيه الصغير ! » ، ولكن صيحاته تلاشت في الضباب ، من غير ان تثير حتى صدى من الاصدا . وغم مرة ثانية : « جيفيه الصغير ! » ، ولكن في صوت واهن لا يكاد يُبين . وكانت ذلك آخر جهوده . لقد التوت ركبته من تحته على نحو مفاجيء ، وكأنه ناء دفعة واحدة تحت ثقل ضميره الفاسد الذي القته عليه قوة غير منظورة . وسقط خائر القوى على حجر ضخم ، وبداه متشبثان بشعره ، ووجهه فوق ركبته ، وصاح :

— « انا رجل بائس ! »

وتقطر فزاده ؛ وانفجر بالبكاء . كانت هي اول مرة يبكي فيها منذ تسع عشرة سنة .

حين غادر جان فالجان منزل الاسقف ، كما قد رأينا ، كان في حال نفسية لم يسبق له ان عرفها قط من قبل . كان عاجزاً عن ان يفهم ايما شيء ، كما كان يجري في ذات نفسه . لقد ثبت في وجه اعمال الشيخ وكلماته الانجيلية : « لقد وعدتني بأن تصبح رجلاً صالحاً . اني انما اشتري نفسك . انا انتزعها من روح الفساد وأقدمها الى الله ! »

لقد عاودته هذه الكلمات على نحو موصول . وفي وجه هذا الحلم السماوي اقام الضرور ، الذي هو حصن الشر في الانسان . لقد احس احساساً غامضاً بأن مغفرة هذا الكاهن هي اعظم غارة وافظع هجرم سُتّا عليه عمره كله ، وبأن قسوة قلبه تكون كاملة اذا ما قاوم هذه الساحة ، وبأنه اذا ما استسلم فعندئذ يتعين عليه ان يتغلب عن ذلك الحقد الذي ملأت روحه به أفعال الآخرين طوال هذه السنوات كلها ، والذي وجد فيه الرضا والارتياح ، وبانه يتعين عليه هذه المرة ان يغلب أو يغلب ، وبأن الصراع — الصراع المائل الحاسم — قد بدأ

بين خباته هو ، وطية هذا الرجل .

وفي حضرة هذه البوارق كلها مشى جان فالجان مثل رجل ثمل .  
وفيا هو يمشي هكذا ، شارد العينين ، هل كان يدرك ادراكاً واضحاً  
الى اى نتيجة يمكن ان تؤدي به مغامرته في د...؟ هل سمع تلك المهمات  
الحفية التي تحذر النفس وتلحّ عليها في لحظات بعينها من الحياة ؟ هل  
همس في اذنه صوت انبأه انه يجتاز الساعة الحاسمة من مصيره ؛ وأنه لم  
يبق امامه طريق وسط ؛ وانه اذا لم يصبح منذ اليوم احسن الرجال  
فسوف يكون اسوأهم ؛ وان عليه الآن ، اذا جاز التعبير ، ان يسو  
الى اعلى بما سما اليه الاسقف ، او يهبط الى ادنى من درك العبد  
الرقيق في سجن الاشغال الشاقة ؛ وانه اذا شاء ان يصبح خبيراً فيتعين  
عليه ان يصبح ملاكاً ، واذا شاء ان يبقى شريراً فيتعين عليه ان  
يصبح غولاً ؟

وهنا ينبغي ان نسال تلك الاسئلة التي طرحناها من قبل : هل  
تشكل في ذهنه ظلٌ مختلط لهذا كله ؟ لا ريب في ان البؤس - كما  
سبق منا القول - يرتبي الذكاء . بيد اننا لسنا واثقين من ان جان  
فالجان كان في وضع من يقدر على ان يستجلي كل ما ألمنا اليه هنا .  
واذا كانت هذه الأفكار قد خطرت له ، فالراجح انه لحها لحاً ، ولم  
يرها رؤية ، فلم توفق الى اكثر من إلقائه في اختلاط لا يُطاق -  
اختلاط يكاد يكون أليماً . واذا كان قد فارق ، منذ قريب ، ذلك  
الشيء المشوه الاسود الذي يدعى سجن الاشغال الشاقة فقد آذى الاسقف  
روحه ، كما كان خليقاً بالنور الساطع ان يؤذي عينيه لدن خروجه  
من الظلام . لقد ملأته الحياة المستقبلية ، الحياة الممكنة التي قدّمت نفسها  
اليه ، منذ تلك اللحظة ، طاهرة كل الطهارة مشرقة كل الاشراق - لقد  
ملأته هذه الحياة بالارتعاد والقلق . إنه ما عاد يدري ان كان حقاً .  
فمثل بومة ترى الشمس تشرق فجأة 'بهير' ذلك الخارج من سجن

الاشغال الشاقة وكان الفضية قد أمت ناظره .

اما الشيء الراهن ، الذي لم يشك هو به ، فهو انه لم يعد الرجل نفسه ، وان كل شيء فيه قد تغير ، وانه لم يعد في ميسوره ان يمنع الاسقف من ان يقول له ما قاله ، او يثير في ذات نفسه من كوامن العاطفة ما أثار .

في هذا الجو النفسي التقى جبريه الصغير وسرق قطعه النقدية ذات الاربعين « سو » . لماذا ؟ انه ما كان قادراً على ان يفسر هذه الواقعة ، من غير ريب ؛ هل كانت هي الاثر الاخير والجهد النهائي للافكار الرديئة التي حملها من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ هل كانت بقية من حافر باطني ، او ثرة لما يدعى في علم توازن الاجسام « القوى المكتسبة » ؟ لقد كانت هذا ، ولعلها كانت ايضاً اقل من هذا . ولنقل ببساطة ان الذي سرق القطعة النقدية لم يكن هو ؛ لم يكن الرجل . إن البهية هي التي وضعت قدمها في بلاهة وبسائق العادة والفرية ، على تلك القطعة ، فيما كان العقل يناضل وسط جمهرة من الماثرات الجديدة ، المجهولة . حتى اذا استيقظ العقل ، ورأى الى ما فعلت البهية ، ارند جان فالجان والالم يعتصر فؤاده ، واطلق صيحة دعر . كانت ظاهرة غريبة ؛ ولعلها ان لا تكون ممكنة إلا في الحالة التي كان فيها آنذاك . ولكن الحقيقة هي انه حين سرق هذا المال من الطفل لما اقدم على عمل لم يعد قادراً على مثله .

واياً ما كان ، فإن هذا الاثم الختامي كان له اثر حاسم في نفس جان فالجان . لقد اندفع عبر فوضى عقله وبددها ، مقيماً السحب القاتمة في جانب والنور في جانب ؛ وفعل فعله في روحه ، وهي على وضعها ذاك ، كما تفعل بعض الكواشف \* الكيماوية فعلها في مزيج كدر بأن ترسب عنصراً وتحدث من الآخر محلولاً نقياً .

\* الكواشف ( ومفردها : كاشف ) مراد تكشف بها صفات مراد اخرى .

في البدء ، حتى قبل ان يفرغ للتفكير والتأمل في ذات نفسه ، وفيها هو ذاهل مشتب الذهن ، مثل رجل يحاول ان يولي فراراً ، حاول ان يبحث عن الغلام ليعيد اليه ماله . حتى اذا وجد ان ذلك غير مجدٍ ومستحيل ، اقلع عنه يائساً . وفي اللحظة التي صاح فيها : « انا رجل بائس ! » رأى نفسه على حقيقتها ، وكان قد انتهى الى ان يصبح شديد الانفصال عن نفسه بحيث خيل اليه وكأنه لم يكن الا شعباً ، وان جان فالجان الفظيع ، المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، كان امامه بلعبه ودمه - وعصاه في يده ، وقميصه على ظهره ، وجرابه المليء بالامتعة المسروقة فوق كتفيه - وبجيهام الحازم الكالنج ، وبفكره الحافل بالمشروعات المقيمة .

إن كَفرط الشقاء ، كما لاحظنا ، قد جعله بمعنى من المعاني خيالياً كثير الاوهام . واذن فقد كان ذلك ضرباً من الوم . لقد بَصُرَ فعلاً بجان فالجان ، هذا الوجه المشؤوم ، أمامه . وكان على وشك ان يسأل نفسه مَنْ ذلك الرجل ، وقد عصف به الرعب لمرآه .

كان دماغه في احدى تلك الحالات العنيفة ، المادئة مع ذلك على نحو خفيف ، حين يكون الوم من العمق بحيث يبتلع الحقيقة . فنحن لا نرى ، بعد ، تلك الاشياء المحيطة بنا ، بل نرى - وكأنها خاراج انفسنا - تلك الاشكال التي في اذهاننا .

لقد رأى الى نفسه اذن ، اذا جاز التعبير ، وجهاً لوجه . وفي الوقت نفسه ، ومن خلال تلك الملامسة ، رأى على مسافة مبهمه ، ضرباً من النور حسبه باديء الأمر مشعلاً . حتى اذا حدق في انتباه اشد الى ذلك النور الذي اشرق على ضميره ادرك ان له شكلاً بشرياً ، وان هذا المشعل كان الاسقف .

ووازن ضميره بين هذين الرجلين اللذين أقبما امامه على هذا النحو : الاسقف وجان فالجان . كان ايما شيء دون الاول خليقاً به ان يخفق

في اذابة الآخر . وبأحد تلك الآثار الفريدة المتميز بها هذا الضرب من الانخفاف . وفيما نطاول وهمه ، رأى الاسقف يزداد عظمةً وتألقاً في عينيه . وانكمش جان فالجان وانحس . وفي لحظة من اللحظات لم يبق منه غير طيف . وفجأة اختفى . إن الاسقف وحده قد بقي .

لقد ملأ روح هذا الرجل البائس بأشعاع جليل .

وبكى جان فالجان طويلاً . لقد سفع دموعاً حارة ؛ لقد بكى في سرارة ؛ بكى في ضعف شديد من ضعف المرأة ، وفي ذعر اقوى من ذعر الطفل .

وفيما هو يبكي ازداد النور اشراقاً في ذهنه ؛ كان نوراً غير عادي ، نوراً فاتناً وفظيعاً في آن معاً . إن حياته الماضية ، وخطيته الاولى ، وتكفيره الطويل ، وظاهره الوحشي ، وباطنه الذي قتله الايام ، واطلاق سراحه المبهج بمجموعة كبيرة من خطط الانتقام ، وما تم له في منزل الاسقف ، وآخر حمل قام به ، وسرقته قطعة الطفل النقية ذات الاربعين « سر » ، وهي جريمة يزيد بها حساسة وفحشاً وقوعها إثر مغفرة الاسقف . كل هذا عاد وتبدى له ، في وضوح ، ولكن على ضوء لم يره قط من قبل . لقد رأى حياته ، فبدت له فظيعة ، ورأى روحه ، فبدت مروعة . بيد انه كان ثمة نور رقيق الحاشية فوق تلك الحياة ، وتلك الروح . لقد تراءى له وكأنه كان يرى الى الشيطان على ضوء الجنة .

كم ساعة ظل يبكي على هذه الشاكلة ؟ اي شيء فعله بعد البكاء ؟ الى اين ذهب ؟ إن احداً لم يعرف ذلك قط . كل ما عرف من امره ان الحوذي الذي كان منطلقاً بعربته ، آنذاك ، على طريق غرينوبل ، والذي بلغ بلدة ... في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، رأى فيما هو يجتاز بشوارع الاسقف رجلاً متخذاً وضع المصلي ، فهو راكع في الظلام ، على حصباء الطريق ، أمام باب مونسينيور بينفينيو .

## الكتاب الثالث

# في عام ١٨١٧

١

سنة ١٨١٧

كانت سنة ١٨١٧ هي السنة التي نعتها لويس الثامن عشر ، في ضرب من التوكيد الملكي الذي لا يعوزه التسامخ ، بالسنة الثانية والعشرين من سني حكمه . كانت السنة التي لمع فيها نجم ميسو بروغوبير دو سورسوم . كانت دكاكين صانعي الشعر المستعار كلها ، الآملة في عودة الذرور والطائر الملكي ، مزخرفة باللون اللازوردي وبزهرات الزنبق \* كانت هي العهد الساذج الذي كان الكونت لينش يجلس فيه

---

\* وهي شعار ملوك فرنسا .

كل يوم أحد ، بوصفه وكيل كنيسة ، على المقعد الرسمي في سانت جبرمين دو بربه ، مرندياً ثوب بارون من بارونات فرنسة ، بشريطته الحمراء وأنفه الطويل ، وبجلال الصورة الجانبية الذي يميز من قد قام بأثرة من المآثر . اما المآثرة التي قام بها الكونت لينش ، فهي انه - بوصفه عمدة بوردو - سلم المدينة ، في ١٢ آذار سنة ١٨١٤ ، بأبكر قليلاً مما ينبغي ، الى دوق انغوليم \* . ومن هنا استحق ان يكون باروناً من بارونات فرنسة . وفي سنة ١٨١٧ كان الذي يتلص بالصيبة الصغار المتراوح عمرهم ما بين الرابعة والسادسة تحت فلانس جلدية حمراء واسعة ذات آذان ، فهي تشبه أعطية مداخن الاسكيو . كان الجيش الفرنسي يرندي الملابس البيضاء ، على الطريقة النموية . كانت السرايا تدعى كتائب ، وكانت تحمل بدلاً من الارقام اسماء المدريبات . كانت نابوليون في سانت هيلانة ، واذا ضنت عليه انكثورة بالجوخ الاخضر فقد اضطر الى ان يقلب ثيابه القديمة . في عام ١٨١٧ غنى بليغريني ؛ ورقصت مدموازيل بيغوتيني ، وملك بوتييه ؛ ولم يكن أودري قد رأى النور بعد . وخلفت فودروزو السيدة ساكي . كان لا يزال في فرنسة بروسبون . وكان مسيو دولالو شخصية مرموقة . وكانت التشريعية قد أكدت ذاتها ، منذ قريب ، بأن قطعت بايدي الار قبضة كل من بلينييه ، وكاربونو ، وتوليرون ، ثم احتزت رؤوسهم . كان الامير دو تاليران \*\* الخاجب الاكبر ، والراهب لويس \*\*\* ، وزير المالية ، ينظر

---

\* Duc D'Angoulême ( ١٧٧٥ - ١٨٤٤ ) هو الابن البكر لشارل العاشر . قاد حملة اسبانية ( ١٨٢٣ ) وعند وفاة لويس الثامن عشر امسى ولياً لعهده فرنسة . وقد استقال سنة ١٨٣٠ مع أبيه .

\*\* Talleyrand سياسي فرنسي شهير . ( ١٧٥٤ - ١٨٣٨ ) كان في عهد ما قبل الثورة اسقف أوتون ، ثم اصبح رئيس الجمعية الوطنية ( ١٧٩٠ ) ووزيراً للخارجية في حكومة الادارة ، ثم في عهد القنصلية ، ثم في عهد الامبراطورية . وقد لعب دوراً كبيراً في مؤتمر فينا ، ثم في لندن حيث عينه لويس فيليب سفيراً .

\*\*\* وزير المالية في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر ثم في عهد لويس فيليب . ولد سنة ١٧٥٥ وتوفي عام ١٨٧٢ .

كل منهما في وجه الآخر ، ضاحكين مثل عرافين . كان كل منهما قد احتفل ، في ١٤ تموز عام ١٧٩٠ بقداس الاتحاد \* في شان دو مارس . لقد رئسه ناليران بوصفه اسقفاً ، في حين ساعده لويس بوصفه شماساً . وفي عام ١٨١٧ رُئيت في الطرق الموازية لشان دو مارس هذه اعمدة خشبية ضخمة مدهونة بلون ازرق وعليها بقايا من النور والنحل زايلا تذهيبها بعد ان هطلت عليها الامطار ونهأت في العشب . تلك كانت الاعمدة التي ارتفعت فوقها ، قبل عامين ، منصة الامبراطور في شان دو مي . وكانت قد اسودت ههنا وههناك بنار مخيمات الجنود النموسيين المعسكرين قرب غرو كابو . وكان عمودان او ثلاثة من هذه الاعمدة قد اخفت وسط نيوان هذه المخيمات ، ودفأت ايدي جنود الامبراطور الالماني الضخمة . وقد تميزت ساحة شان دو مي بأنها كانت قد احتلت في شهر تموز ، على ساحة شان دو مارس . وفي عام ١٨١٧ كان ثمة شيطان شعبيان : ال « فولتير - توكيه » ، \*\* وعلب السعوط الدستورية \*\*\* وكانت احدث الاخبار الباريسية المثيرة هي جريمة دوتين الذي القى رأس اخيه في بركة « مارشيه أو فلور » . وكان التحقيق قد بدأ ، في وزارة البحرية ، حول البارجة المشؤومة « لا ميدوز » التي كان خليقاً بها ان

---

\* في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠ احتفل الفرنسيون بعيد الاتحاد fête de la Fédération في باريس بمناسبة انقضاء عام واحد على سقوط الباستيل . وقد رئس اسقف اوتون ، ناليران ، القداس الكبير الذي اقيم لهذه المناسبة ، ولفظ لا لايت عظة الولاء للدستور الذي رضي به الملك ، بينما رفضت الملكة ابنها بين ذراعيها . وهذا العيد يرمز الى عاطفة الاخاء التي ولدت آنذاك في فرنسا .

\*\* ضرب من الكراسي منخفض المعد مرتفع الظهر حق الرأس ، انتشر في ذلك العصر .

\*\*\* اشارة الى الدستور الذي وضع سنة ١٨١٤ عندما نول لويس الثامن عشر العرش ، والذي عدل على نحو جعله أكثر تحوراً عام ١٨٣٠ بعد سقوط شارل العاشر .



تغمر شوماريكس بالعار ، وجيريكو \* بالجد . ومضى الكولونيل سيلف الى مصر ، وهناك اصبح سليمان باشا . وحُولَ قصر تيرم ، في شارع دو لا هارب ، الى دكان لصنع البراميل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يرى فوق سطح برج اوتيل دو كارني المثنى الزوايا تلك السقفة الخشبية الصغيرة التي كانت بمثابة مرصد لـ « ميسييه » ، فلكي الاسطول في عهد لويس السادس عشر . وقرأت ورقة دروا \*\* ، في جهوها المؤث على طراز لويس العاشر بالاطلس الساهوي الزرقعة ، مخطوطة « اوريكا » على ثلاثة او اربعة من اصدقاتها . كانت حروف N قد نُحِت من اللوفر \*\*\* . وتنازل جسر اوستوليتز عن اسمه فاصبح جسر « حديقة الملك » وهي احجية قُتعت جسر اوستوليتز و « حديقة النباتات » في وقت معاً . ولم يكن للويس الثامن عشر - المستغرق في التعليق بظفره على « هوراس » ، \*\*\*\* فيما هو يفكر في الابطال الذين أصبحوا أباطرة وصانمي الاحذية الذين صاروا ولاية عهد - غير هممين اثنين : نابوليون ، ومانووين برونو . واقامت الاكاديمية الفرنسية مسابقة في موضوع : « العادة التي تتيحها الدراسة » . وكان ميسو بيلار \*\*\*\*\* بليفاً من وجهة النظر الرسمية . وفي ظله كان في إمكان المرء ان يرى الى نشوء النائب العام المقبل ، دو برويه ،

---

« Géricault رسام فرنسي ( ١٧٩١ - ١٨٢٤ ) امتاز بالينوغرافيا والنحت ، ومن روايته تلك اللوحة التي صور فيها حادث البارجة الذي يشير اليه المؤلف وقد نطاه « أطواف البارجة لا ميدوز » .

\*\* duchesse de Duras روائية فرنسية ( ١٧٧٨ - ١٨٢٨ ) كتبت روايتين : « اوريكا » Ourika التي يشير اليها المؤلف و « ادوار » Edouard .  
\*\*\* رغبة في القضاء على آخر أثر من آثار نابوليون الذي يبدأ اسمه كما لا يخفى بحرف N .

\*\*\*\* مسرحية مشهورة لكورني .

\*\*\*\*\* Bellart ( ١٧٦١ - ١٨٢٦ ) النائب العام في عهدي لويس الثامن عشر وشاول العاشر وقد عرف بمهونه في قمع الحركات التمردية وخلق حرية الرأي .

الذي كانت تنتظره سخرات بول لويس كورييه . \* كان ثمة شاتويربان \*\* مزيف يدعى مارسانجي ، \*\*\* كما قدّر ان يكون ثمة في ما بعد مارسانجي مزيف يدعى دارلنكور . \*\*\*\* وكانت « كلير ألبا » Claire d'Albe و « الملك العادل » Malek Adil راعيتين من الروائع . وأعلنت مدام كورنين \*\*\*\*\* كاتبة العصر الاولى . وحذفت « مؤسسة فرنسة » \*\*\*\*\* اسم الاكاديمي ، ناوليون بوناپرت ، من جدولها . وأنشأ أمر ملكي مدرسة بحرية في آنغوليم ، لأنه كان واضحاً - وقد غدا دوق آنغوليم امير البحر الاكبر - ان لمدينة آنغوليم ، بلا جدال ، صفات المرفأ البحري كلها ، التي يتعرض المبدأ الملكي بدونها للخطر . وفي جلسات مجلس الوزراء أنيم ما اذا كان ينبغي غض الطرف عن الصور التي تمثل بعض الهلوانيين والتي كانت ترّين إعلانات فرانكوفي ، وتجمع حولها أولاد الشوارع الداعرين . وفاد ميسو پاير ، \*\*\*\*\* مؤلف L'Agnesse ، وهو رجل فاضل ذو فكين مربعين وثؤلوله على الحد ، الحفلات الموسيقية الصغيرة المقصورة على نفر من المقرّبين في قصر المركيزة

---

\* Paul - Louis Courier كاتب فرنسي ( ١٧٧٢ - ١٨٢٥ ) اشتهر برسائله الساخرة اللاذعة ضد رجال الحكم في عهدي لويس الثامن عشر وشاول العاشر .  
 \*\* الكاتب الفرنسي المشهور ( ١٧٦٨ - ١٨٤٨ )  
 \*\*\* Marchangy كاتب فرنسي ( ١٧٨٢ - ١٨٢٦ ) عُرف بتراسه وحامته الملكية .

\*\*\*\* d'Arlinecourt روائي وشاعر فرنسي ( ١٧٨٩ - ١٨٥٦ ) اشتهر بأسلوبه المفض على نحو غريب .

\*\*\*\*\* Cotin روائية فرنسية ( ١٧٧٠ - ١٨٠٧ ) انتمت كتبها بطابع الكتابة الرومانتيكية . ومن اشهر رواياتها « كلير ألبا » Claire d'Albe التي يشتر اليها المؤلف .  
 \*\*\*\*\* Institut de France وهي تتألف من اكااديميات خمس اهمها الاكاديمية الفرنسية واكاديمية العلوم واكاديمية الفنون الجميلة .

\*\*\*\*\* Ferdinando Paër مؤلف موسيقي ايطالي ( ١٧٧١ - ١٨٣٩ ) عاش معظم حياته في فرنسة : وكان مديراً للفرقة الموسيقية الخاصة بنابوليون الاول .

دو سسوناي ، في شارع « لافيل ليفيك » . وغنت جميع الفتيات اغنية « ناسك سان آفيل » ، من نظم ادمون جيرو . و«حول » القمر الاصفر ، \* الى « ميروار » . ووقف مقهى لامبلين الى جانب الامبراطور \*\* معارضاً مقهى قالوا الذي كان من انصار آل بوربون \*\*\* وكانت احدى اميرات صقلية قد تزوجت الى دوق دو برتي \*\*\* الذي كان لوفيل ، \*\*\*\*\* في الواقع ، يتربص به الدوائر منذ ذلك الحين . وكانت قد انقضت سنة على وفاة مدام دو ستال \*\*\*\*\* وصفر حرس الملك ، ازدراءً واستهجاناً ، للآنة مارس . \*\*\*\*\* وكانت الصحف الكبرى كلها صغيرة . كانت صحيفة « الدستور » Le Constitutionnel دستورية . وكانت صحيفة « مينيرفا » تدعو شاتوبريان Chateaubriand شاتوبريانت Chateaubriant \*\*\*\*\* وكان حرف (i) هذا ينير ضحكاً كثيراً بين المواطنين على حساب الكاتب الكبير . وفي الصحف المشتراة أهان العواهر من الصحفيين مُبْعَدِي عام ١٨١٥ .

---

• Le Nain jeune لعبة من ألعاب الورق ، وهي هنا علم على مقهى .

• • نابوليون بوناپرت .

• • • الاسرة الفرنسية الحاكمة التي اطاحت بها الثورة الفرنسية ثم استعادت عرشها في شخص الملك لويس الثامن عشر .

• • • • de Berry الابن الثاني لشارل العاشر ، وقد قتله لوميل في باريس عام ١٨٢٠ .

• • • • • Louvel عامل سروجي قتل دوق دو بري بطعنة خنجر وهو خارج من الابرار ، وقد أعدم شقاً عام ١٨٢٠ .

• • • • • de Staël كاتبة فرنسية شهيرة ( ١٧٦٦ - ١٨١٧ ) ذات نزعات تحررية ، وقد أسهمت إسهاماً بارزاً في الحركة الرومانتيكية .

• • • • • Mlle. Mars ممثلة فرنسية كوميدية ( ١٧٧٩ - ١٨٤٧ ) ألح نجمها في

« المسرح الفرنسي » حيث حظيت بمجد عظيم ، وبرعت بتمثيل دور « سيلمين » في رواية « الناظر من البئر » Misanthrope لولبير .

• • • • • ضرب من الطعام معروف يصنع من لحم ظئر الثور المشوي مع البطاطس عادة .

فلم يعد دافيد \* ذا موهبة ، ولم يعد آرنو \* ذا مقدرة ، ولم يعد كارنو \*\*\* رجلاً ذا فضل وصلاح . ولم يسبق له سولت \*\*\*\* ان كسب نصراً واحداً في حياته . ولا ريب في ان نابوليون لم يعد ذا عبقرية . وكل امرئ يعرف ان الرسائل التي توجهت الى المبعث نادوا ما نصل الى عنوانها ، لان الشرطة تعتبر ان من واجبها الديني ان تصدّها عن سبيلها . وليست هذه الظاهرة جديدة . فقد شكّا ديكارت منها في منفاه . واذ أبدى دافيد في إحدى الصحف الفرنسية تضايقه لعدم تلقيه الرسائل الموجهة اليه بدا ذلك مضحكاً للصحف الملكية التي اغتنمت الفرصة لتسخر من المنفي . وكان في قول « قتل الملوك » بدلاً من « الناجين » و « الاعداء » بدلاً من « الحلفاء » ، و « نابوليون » بدلاً من « بوناپورت » ما يكفي لفصل الانسان عن الانسان باكثر مما تفصلها هاوية ما . وأجمع اصحاب الحفاة كلهم على ان عهد الثورات قد اختتم بفضل الملك لويس الثامن عشر الملقب بـ « الواضع الخالد للدستور » . وعلى سطح جسر « بون نوف » نقت كلمة *Redivivus* \*\*\*\*\* على القاعدة التي انتظرت تمثال هنري الرابع . وكان مسيو بييه يضع مع متآمره ، في شارع تيوز راف ، الحطة لتدعيم الملكية . وقال زعماء البين في المآزق الحرجة : « ينبغي ان نكتب الى باقو . » واستهل ذلك السادة كانوويسل ،

---

• Louis David رسام فرنسي شهير ( ١٧٤٨ - ١٨٢٥ ) نفى الى بروكسل حيث توفي . وكان في عهد الامبراطورية رسام نابوليون بوناپورت .  
 •• Arnault شاعر تراجيدي فرنسي ( ١٧٦٦ - ١٨٣٤ )  
 ••• Carnot ضابط من ضباط الجيش الفرنسي ( ١٧٥٣ - ١٨٢٣ ) دس « المؤتمر الوطني » عام ١٧٩٤ وانتأ جيوش الجمهورية الاربعة عشر وكان فوق ذلك منظم النصر ، وقد تم عليه نابوليون لزعامة الجمهورية ، ثم أبدى في عهد لويس الثامن عشر عن البلاد .  
 •••• Soult مارشال فرنسا ( ١٧٦٩ - ١٨٥١ ) اطي بلاه حناً في معركة زوريخ ، وفي الدفاع عن جنوا ، ولعب دوراً هاماً في موقعة اوسترليتز .  
 ••••• كلمة لاتينية تعني : عاد الى الحياة .

وأوماهوني ، ودو شاتديين ، ولم يكن علمهم هذا ليعوزه بعض الموافقة من اخي الملك الاصغر منه سناً ، وهذا ما عرف بعد « مؤامرة الشاطي » . وتآمر « الدبوس الاسود » من ناحيته ايضاً . وتقاض دولافيردري مع تروغوف . وساد مسيو دو كاز \* ، وهو عقل متحرر بعض الشيء . وكان شاتويريان ، يقف كل صباح امام نافذته في شارع سان دومينيك رقم ٢٧ ، وقد ارتدى بنطلوناً جورياً وانتعل مشاية ، وغطى شعره الاشيب بتديل من مناديل مدراس ، واقام امام عينيه مرآة وضدوقاً كاملاً من صناديق ادوات الانسان ، فهو ينظف اسنانه التي كانت ممتازة ، فبا هو يلي « الملكية وفقاً للدستور » على مسيو بيلورج ، امين سره . وآثر كبار النقاد لافون \*\* على تالما \*\*\* وكان مسيو دو فيلتر \*\*\*\* يوقع هكذا ٨ وكان مسيو هوفمان \*\*\*\*\* يوقع هكذا z وكان شارل نوديه \*\*\*\*\* يؤلف « تيريز اويير » Thérèse Anbert . وألني الطلاق . ودعت المدارس الثانوية ( Lycées ) نفسها كليات ( Collèges ) وكان طلابها ، الذين ازدانت أطواق قمصانهم بالزنابق الذهبية يتقاتلون بسبب من ملك رومة . وشكت شرطة القصر السرية لصاحبة السو ، بنت الملك ، من ان رسم دوق دورليان معروض في كل مكان ،

---

\* Decazes سياسي فرنسي ( ١٧٨٠ - ١٨٦٠ ) تولى منصب الوزارة في عهد لويس الثامن عشر . وكان يسمى الى ان يجبل « الامة ملكية » ويجبل « الملكية قرمبة » .

\*\* Lafon مسرحي تراجيدي فرنسي ( ١٧٧٣ - ١٨٤٦ )

\*\*\* Talma مسرحي تراجيدي فرنسي ايضاً ( ١٧٦٣ - ١٨٢٦ ) . وكان مؤلف الكوميديا المفضل عند نابوليون بوناپرت .

\*\*\*\* De Feletz قائد فرنسي ( ١٧٦٧ - ١٨٥٠ ) كان يدافع عن القواعد الكلاسيكية ويناديء بالحركة الرومانتيكية .

\*\*\*\*\* Francis-Benoit Hoffman كاتب مسرحي وقائد فرنسي ( ١٧٦٠ - ١٨٢٨ )

\*\*\*\*\* Nodier كاتب فرنسي وضع عدة مؤلفات في النقد وفقه اللغة والفن .

وكان 4 سالون ادبي شهير ( ١٧٨٠ - ١٨٤٤ )

وانه يبدو في اللباس الرسمي لقائد سلاح الفرسان أجمل من دوق دورري في اللباس الرسمي لقائد سلاح التناحين او الدراغون - وهي مسألة خطيرة . واعادت مدينة باريس تذهيب قبة الانفاليد \* على نفقتها . وساءل الجديون من الناس بعضهم بعضاً ما الذي يجدر بمسيو دو زانكولاغ ان يفعله في هذه الحالة او تلك . واختلف مسيو كلوزيل دو مونتال في قضايا شتى ، مع مسيو كلوزيل دو كوسبرغ . ولم يكن مسيو دو سالابري راضياً . وكانت رواية *Les deux Philiberts* للكاتب المسرحي بيكار عضو الاكاديمية التي لم يوفق مولير الى الفوز بعضويتها ، تمثل على مسرح الاوديون حيث كان لا يزال في ميسور الناظر ان يقرأ في وضوح على مقدم البناء ، رغم ازالة الاحرف عنه ، هذه العبارة : « مسرح الامبراطورة » . وتعصّب بعض الناس لـ « كوغنيه دو مونتالو » وتعصّب بعضهم عليه . كان فابيه \* \* متيراً للشحناء ، وكان باقو ثورياً . ونشر الكتبي بيلاييه طبعة من كتب فولتير تحت هذا العنوان : « مؤلفات فولتير ، عضو الاكاديمية الفرنسية . » وقال ذلك الناشر الساذج : « إن هذا خلق به أن يجذب المشتري » ! وكان الرأي العام منقاداً على ان المسيو شارل لواسون سوف يكون عبقرية العصر . وبدأ الحسد يلمسه ، وتلك آفة الجحد . ولقد نظم بعضهم فيه هذا البيت :

« حتى حين يسرق لواسون

نحس ان له قوائم ! »

واذ رفض السكاردينال فيش ان يستقيل تولي مسيو دو دين ، كبير اساقفة آماسي ، ادارة اسقفية ليون . وبدأ النزاع بين سويسرة وفرنسة .  
Invalides . الاثر الباريسي المشهور ، وقد نقل اليه رفات نابوليون بوناپرت عام ١٨٤٠ .

•• Fabvier جنرال فرنسي ( ١٧٨٢ - ١٨٥٥ ) أسهم إسهاماً كبيراً في الحركة التحريرية التي نشأت في عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، ولعب نعمة في حرب الاستقلال اليونانية .

على وادي دابّ بمذكرة وضعها الكاتب دوفور \* الذي أصبح في ما بعد جنرالاً . وكان سان سيون \*\* المعمور بيني حمله الرفيع الذرى . وكان في اكاديمية العلوم فورييه \*\*\* شهر نسبته الذرية ، على حين كاث في عليّة ما فورييه \*\*\*\* حامل الذكر سوف يذكره المستقبل . وكان نجم اللورد بايرون \*\*\*\*\* قد بدأ يبرز . وكانت احدى الملاحظات على قصيدة لـ « ميلفوا » \*\*\*\*\* قد عرفت الى الوسط الادبي في فرنسة بوصفه رجلاً يدعى اللورد بايرون . كان داود دانجيه يحاول ان يجبل الرخام . وتحدث الراهب كارون باطراء ، في اجتماع صغير لطلاب المعاهد الاكاديمية في زقاق الفوياننن ، عن كاهن مجهول يدعى فيليبتيه روبرير الذي أصبح « لامنيه » \*\*\*\*\* في ما بعد . كان شيء برسل دخاناً ويهدر في رفق على صفحة السين ، في مثل صوت الكلب السابغ ، يروح ويحيى تحت نوافذ التويلتري ، من « الجسر الملكي » الى « جسر لويس الخامس عشر » . كان جهازاً آلياً ليس ذا تغناء كبير ، ضرباً من الدمية ، « حلم مختزع ذي أوهام - زورقاً بخارياً » . ونظر الباربيسيون الى ذلك الشيء غير المجدي في لا مبالاة . وعجز مسيو دو فوبلان ، مصلح « مؤسسة فرنسة » على نحو جذري ، بأمر ملكي ، والصانع البارز لعدد كبير من اعضاء الاكاديمية - عجز ، بعد ان

---

\* Guillaume - Henri Dufour جنرال سويسري ( ١٧٨٧ - ١٨٧٥ ) قاد القوات السويسرية الاتحادية في الحرب السويسرية الاهلية وقضى على الحركة الانفصالية ( ١٨٤٧ )  
 \*\* Saint - Simon فيلسوف فرنسي اشتراكي ( ١٧٦٠ - ١٨٢٥ ) نادى بملكية الدولة لثروة العامة ، والناء الملكية الوراثية ، كما نادى بالبدء القاتل : « لكل حسب قدرته ، ولكل مقدرة حسب اعمالها . »

\*\*\* Joseph Fourier رياضي فرنسي ( ١٧٦٨ - ١٨٣٠ )  
 \*\*\*\* Charles Fourier فيلسوف وعالم اجتماعي فرنسي ( ١٧٧٢ - ١٨٣٧ )  
 \*\*\*\*\* Byron الشاعر الانكليزي الشهير ( ١٧٨٨ - ١٨٢٤ )  
 \*\*\*\* Milleroye شاعر فرنسي ممتاز قصائده بالامسان في الكتابة ( ١٧٨٢ - ١٨١٦ )  
 \*\*\*\*\* Lamennais كاتب وفيلسوف فرنسي شهير ( ١٧٨٢ - ١٨٥٤ )

صيرهم اعضاء، عن أن يدخل هو الى حرّم تلك المؤنة . وغنت ضاحية  
 سان جيرومان ومرادق مارسان لو يصبح مسيو دولافو مديراً للشرطة  
 بسبب من ورعه . واختتم دوبويتران \* وريكاميه \*\* في مدرّج  
 مدرسة الطب، وهزّ احدهما 'جمع كفه في وجه الآخر لخلافها حول ألوهية  
 المسيح . ووضع كوفيهه \*\*\* احدى عينيه على سفر التكوين والاخرى  
 على الطبيعة ، وحاول ان يرضي الرجعة المتطرفة في التقوى من طريق التوفيق  
 بين الحيوانات والنباتات المتحجرة المطبوعة في الارض وبين النصوص  
 الدينية ، ومن طريق جعل الماستودون \*\*\*\* يؤيد موسى . وكانت  
 مسيو فرانوا دو نوفشاتو ، الراعي المحمود لذكرى بارماتيهه ، \*\*\*\*\*  
 قد بذل جهوداً جبارة لكي يجعل الناس على ان يلفظوا ال pomme de terre  
 ( البطاطا ) Parmenière \*\*\*\*\* ، بيد أنه لم يوفق قط الى النجاح .  
 وكان الراهب غريغوار ، الاسقف السابق ، والعضو السابق في المؤتمر  
 الوطني ، والعضو السابق في مجلس الشيوخ - كان قد انتقل الى حالة  
 غريغوار المردول ، في هاترات الصحف الملكية . وهذا التعبير الذي  
 استعملناه منذ لحظة انتقل الى حالة ، إنما اعتبره مسيو روييه

---

\* Dapuytren جراح فرنسي شهير كان له على العلم فضل كبير ( ١٧٧٧ -  
 ١٨٣٥ )

\*\* Récamier طبيب فرنسي . ( ١٧٧٤ - ١٨٥٢ )

\*\*\* Cuvier عالم طبييات فرنسي ، يعتبره الفرنسيون خالق علم التشريح المقارن  
 وعلم الأحياء او علم مطبورات الارض من النبات وغيره . ( ١٧٦٩ - ١٨٣٢ )  
 \*\*\*\* حيوان مفترس يشبه الغيل .

\*\*\*\*\* Antoine - Augustin Parmentier اقتصادي فرنسي وخبير في الزراعة  
 ( ١٧٣٧ - ١٨١٣ ) كان عضواً في اكاديمية العلوم . وقد طوّر زراعة البطاطا  
 في فرنسا بتشجيع من لويس السادس عشر .

\*\*\*\*\* أي على اسم بارماتيهه العالم الاقتصادي المشار اليه آنفاً .



كولار \* تعبيراً جديداً لم تعرفه اللغة من قبل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يميز ، ببياضها الظاهر تحت القوس الثالث من جبر إبيانا ، تلك القطعة الجديدة من الحجر التي استعملت قبل عامين لشد مدخل المنجم الذي شقهُ بلوخر \*\* لنسف الجسر . ومثل أمام المحكمة رجلٌ كان قد صاح إذ رأى الى الكونت دارتوا \*\*\* يدخل كاتدرائية نوتردام : « وحقّ الاله ، انا آسف على ذلك العهد الذي دخل فيه بونابرت ونالنا الى « مرقص سافاج » وذراع احدهما في ذراع الآخر . » لغة مثيرة للفتنة . السجن ستة اشهر للقائل .

وبدا الحونة مجردين حتى من الرياء . كان نفرٌ من الرجال الذين انضموا الى العمدوة عشية معركة ما لا يخفون الرشوة التي فازوا بها ، ويمشون غير خجلين ، في وضح النهار ، تحيط بهم وقاحة الثروة والجاه . وكان الهاربون من معركتي « لينبي » \*\*\*\* و « كاتر برا » \*\*\*\*\* يعرضون ، في خلاعة عارهم المرتشي ، ولاهم للملكية عارياً بالكلية ، ناسين ما هو مسطورٌ على الجدران الداخلية في المراحيض العامة بانكلترة : « الرجاء ان تسوي ثيابك قبل ان تغادر المكان ! »

تلك هي ، كيفاً اتفق ، جبهة الاحداث التي طفت على سطح عام

---

\* Royer - Collard سياسي فرنسي ( ١٧٦٣ - ١٨٤٥ ) تولى رئاسة مجلس النواب .  
 \*\* Blucher جنرال بروسي ( ١٧٤٢ - ١٨١٩ ) لم نجده في الحملة على فرنسا ( ١٨١٤ ) ، ولمب دوراً كبيراً في معركة واترلو ( ١٨١٥ ) حين هرع لنجدة وليبتنتون وبذلك هُزم نابوليون نهائياً .

\*\*\* Comte d'Artois أخو لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر . وقد تولى عرش فرنسا سنة ١٨٢٤ فمرف باسم شارل العاشر . ( ١٧٥٧ - ١٨٣٦ )  
 \*\*\*\* Ligny في بلجيكا حيث هزم نابوليون قوات بلوخر البروسية في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥

\*\*\*\*\* Quatre - Bras في بلجيكا ايضاً حيث شنّ القائد الفرنسي « ني » Ney الحملة على الائكلبز في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥ ايضاً عشية معركة واترلو ، وحيث قتل دوق بروترويك .

١٨١٧ ، والتي 'نسبت' الآن . ان التاريخ ليهمل هذه الخصوصيات كلها تقريباً ، وليس في وسعه ان يفعل خلاف ذلك ؛ إنه واقع تحت سلطان اللاتمية . ومع ذلك ، فهذه التفاصيل الذي يعمدها الناس ، خطأً ، صغائر - فليس ثمة وقائع صغيرة في الانسانية ، وليس ثمة اوراق صغيرة في الحياة النباتية - لا تخلو من غناء . إن ملامح السنين هي التي تشكل وجه الاجيال والقرون .

في هذه السنة ، ١٨١٧ ، مثل أربعة من الشبان الباربيين و مهزلة حلوة .

## ٢

### رباعية مزدوجة

كان احد هؤلاء الباربيين من تولوز ، والثاني من ليسوج ، والثالث من كاهور ، والرابع من مونتوبان ، ولكنهم كانوا تلامذة . وحين نقول « تلميذ » فكأننا قلنا « باريسي » ، فلأن يدرس المرء في باريس يعني انه 'ولد في باريس' .

وكان هؤلاء الشبان قافيين ؛ ولقد عرف كل منا مثل هؤلاء الاشخاص . وإن اول أربعة منهم لينهضون غاذج لهم جميعاً . إنهم ليسوا صالحين وليسوا طالحين ، ليسوا علماء وليسوا جهلة ، ليسوا موهوبين وليسوا مغفلين ؛ إنهم شباب 'أغبر' في نيسان الحياة الفاتن ذاك الذي ندعوه سنّ العشرين . كان كل منهم « اوسكار »\* ، لأن طبقة «آرتور»\*\*

---

\* اشارة الى اوسكار الاول ملك السويد وزوج ( ١٧٩٩ - ١٨٥٩ ) ، وقد

ولد في باريس وتولى العرش من عام ١٨٤٤ - ١٨٥٧

\*\* اشارة الى وليتوتون الوارد ذكره في احدى حاشيتي الصفحة التالية .

لم تكن قد وجدت بعد . و أحرقوا على شرفه طيب جزيرة العرب ، ، هكذا كانت تصيح الاغنية . و اوسكار يقتوب ! اوسكار ، أنا على وشك ان اراه ! ، كان أوسيان \* هو الزي الشائع ، وكانت الاناقة اسكتلندية واسكتلندية ؛ أما الضرب الانكليزي المحض فلم يَسُدْ إلا في ما بعد ، وكانت قد انقضت على انتصار اول الآرثوريين ، ولينغتون \*\* في وازلو فترة قصيرة لبس غير .

كان اول هؤلاء « الأوسكارات » يدعى فيلكس تولوميس ، من تولوز ، وكان ثانيهم لبتوليه ، من كاهور ؛ وكان ثالثهم فامول ، من ليموج ؛ وكان آخرهم بلاشوفيل ، من مونتأوبان . وكان لكل منهم حبيته طبعاً . أما بلاشوفيل فقد تعشّق فافوريت ، وقد دعت بهذا الاسم لانها سافرت ذات يوم الى انكاوة . واما لبتوليه فأحب داهليا التي اتخذت من اسم احدى الزهرات اسماً مستعاراً لها . وأما فامول فكان يعبد زيفين ، مصغر جوزيفين . وأما تولوميس فكانت صاحبه هي فانتين ، المسماة بالشقراء ، بسبب من شعرها الجميل المشبه لونه لون الشمس .

كانت فافوريت ، وداهليا ، وزيفين ، وفانتين اربع فتيات فانتات ، متآلقات منخوحات بالعطر ، ما تزال تبدو عليهن سيما العاملات لانهن لم يهجرن شغل الابرّة نهائياً ، قد أثارنهن شؤون الحب ولكنهن احتفظن على وجوههن بصفاء العمل ، واحتفظن في نفوسهن بزهرة الطهر التي تعمّر عند النساء الى ما بعد السقوط الاول . كانت واحدة من الفتيات

---

\* Ossian شاعر اسكتلندي من اهل القرن الثالث الميلادي . تنسب اليه مجموعة من الاناشيد اللعبية . وقد نشر له في عام ١٧٦٠ ديوان من الشعر الكتيب لفي رواجاً كبيراً وترك اثراً عميقاً في الادب الرومانتيكي .

\*\* Arthur Wellesley, duc de Wellington القائد الانكليزي الشهير ( ١٧٦٩ - ١٨٥٢ ) الذي قاد الجيوش المتحالفة ضد فرنسا فهزم نابليون في معركة واترلو سنة ١٨١٥ .

الاربع تدعى الطفلة ، لأنها كانت صغراهن ، وكانت واحدة اخرى تدعى العجوز . وكانت العجوز في الثالثة والعشرين من العمر . ولكي لا نخفي شيئاً ، نقول ان الثلاث الأوليات كن اكثر اختبأراً ، واشد لا مبالاةً ، واعظم انغماساً في ضجيج الحياة من فانتين - الشقراء - التي كانت ما تزال في أحلامها الاولى .

ولم يكن في ميسور داهليا ، وزيفين ، وبخاصة فافوريت ، أن يزمن أنهن يُشبهن فانتين من هذه الناحية . فقد كان ثمة أكثر من حادثة واحدة في روايتهن التي ما كادت تبدأ ، وكان الحب الذي يدعى ادولف في الفصل الاول يصبح الفونس في الفصل الثاني ، وغوستاف في الفصل الثالث . إن الفقر والدلال لمستشاران مشؤومان . إن أحدهما يؤنب ، والآخر يُطري . وإن قنيت الشعب الحساوات ليجدن المستشارين جميعاً يسان في آذانهن ، كلٌّ من ناحية . وتصفي نفوسهن غير المصونة الى هذا الهوس ؛ ومن هنا هاربة السقوط التي يتدبّر فيها ، والحجارة التي يُرجمن بها . لأنهن يُسحقن بالبهاء الذي ينطوي عليه كل طاهر عبر المثال . وأنساء ! هل عرفت الـ « يونغفراو » ؟

وأعجبت زيفين وداهليا بفافوريت لأن الايام اتاحت لهما السفر الى انكلترة . كان لهما وهي بعد في سن مبكرة جداً بيت خاص بها . وكان ابوها استاذاً عجوزاً قاسياً متبعجاً من اساتذة الرياضيات . إنه لم يتزوج قط ؛ وكان منغمساً في المذات يرغم سنه العالية . لقد رأى ذات يوم من ايام شبابه الى ثوب إحدى الخادومات يعلق بحاجز الموقد ، فوقع في حبها إثر هذا الحادث . وكانت فافوريت هي الثمرة . وكانت نلتقي بين القبة والقبة بأبيها فيرفع لها قبعة . وذات صباح وفدت على

---

• Jungfrau ، لفظة ألمانية تعني « العذراء » وهي عكّمت على إحدى قمم الألب البالغ ارتفاعها ١٣٦٦٨ قدماً .

منزلها عجوزٌ تبدو على وجهها سِبا التعصب للدين وسألتها : « دالا  
 تعرفيني ، اينها الائمة ؟ » - « لا . » - « أنا أمك . » وفي  
 الحال فتحت العجوز خزانة الطعام ، فأكلت وشربت حتى الشبع ،  
 واستقدمت فراشاً كان لها ، واقامت هناك . وكانت هذه الأم ورعة  
 كثيرة التذمر ، ولم تتكلم قط مع فافوريت . لقد سلخت عدة ساعات  
 من غير ان تنبس ببيت شقة . لقد تناوت طعام الفطور ، وطعام  
 الغداء ، وطعام العشاء ، وكأنها اربعة اشخاص ، وهبطت لتستقبل  
 الضيوف في كوخ البواب ، وتذمر ابنها وتطمعن عليها .

وكان الذي جذب داهليا الى ليستوليه ، وربما الى غيره ايضاً ، الى  
 البطالة ، اظافرها الوردية الجميلة . كيف السبيل الى حمل تلك الاظافر  
 على العمل ؟ إن تلك التي ترغب في الاحتفاظ بفضيلتها ينبغي ان لا  
 تأخذها الشفقة على يديها . اما زيفين فكانت قد غزت فؤاد فامول  
 بطريقتها المتسردة المتوددة ، في قول كلمة : « نعم ، يا سيدي . »

كان الشبان الاربعة اصدقاء ، وكانت الفتيات الاربعة صديقات . إن  
 مثل هذا الضرب من الحب ليكون مُردفاً دائماً بمنزلة هذه الصداقة .

إن الحكمة والفلسفة شيان مختلفان . والدليل على ذلك ان فافوريت ،  
 وزيفين ، وداهليا كنّ ، بعد إبداء جميع التحفظات المتصلة بهذه الأسر  
 الصغيرة الشاذة ، فتيات فيلسوفات ، وان فانتين كانت فتاة حكيمة .

وقد ينسأل متسائل : حكيمة ؟ وتولوميس ؟ ولو قد وُجّه السؤال  
 الى سليمان إذن لأجاب قائلاً إن الحب جزء من الحكمة . أما نحن  
 فنكتفي بالقول إن حب فانتين كان حباً اول ، حباً وحيداً ، حباً  
 مخلصاً .

كانت هي وحدها ، من بين الصديقات الاربعة ، التي لم يدلبها قط غير  
 رجل واحد .

كانت فانتين واحدة من اولئك المخلوقات المنتزعة من قلب الشعب .  
 وإذا قد انبثقت من أعماق الظلمة الاجتماعية التي لا يُسبر غورها ، فقد  
 حملت على جبينها آية الغنل والجهول . لقد رأت النور في « مونتروي  
 سور مير » . من كان أبواها ؟ من يدري ؟ إنها لم تعرف قط لا أباهما  
 ولا أمها . لقد سميت فانتين لماذا ؟ لأنها لم تعرف قط بأي  
 اسم آخر . وبوم 'ولدت' ، كانت حكومة الادارة لا تزال قائمة . ولم  
 يكن لها اسم أسرة ، إذ ما كانت لها أسرة ما . ولم يكن لها اسم  
 معبودية ، لان الكنيسة لم تكن عندئذ هناك . لقد سميت وفقاً لمشيئة  
 اول عابر سبيل عثر عليها ، وهي بعد صغيرة جداً ، هائمة في الشوارع .  
 لقد تلقت اسمها كما تلقت ماء السحب الكثيفة الذي سقط على جبينها  
 عندما هطل المطر . لقد دُعيت فانتين . إن احداً لم يعرف عنها ايما  
 شيء آخر . تلك هي الطريقة التي وفدت بها هذه المخلوقة البشرية الى  
 الارض . وفي العاشرة من العمر ، غادرت فانتين المدينة ، وراحت  
 تعمل في خدمة زراع الضواحي . وفي الخامسة عشرة شغلت الى باريس « بحثاً  
 عن الحظ » . كانت فانتين جميلة ، ولقد احتفظت بظهورها ما وجدت  
 الى ذلك سبيلاً . كانت شقراء مليحة ذات أسنان جميلة . كان عندها  
 مهر من الذهب واللؤلؤ . ولكن ذهبها كان على رأسها ، ولؤلؤها  
 كان في ثغرها .

لقد اشتغلت لتعيش . ثم احبت لكي تعيش ايضاً ، لأن القلب  
 جوعه كذلك .

لقد احبت تولوميس .

كان ذلك ، عنده ، عشقاً عابراً ، ولكنه كان عندها هياماً . لقد  
 شهدت شوارع « الحي اللاتيني » - التي تعج بالطلبة والفتيات المرتدات  
 ابراداً خفيفة شهباء - بداءة هذا الحب . وهناك ، في متاحف هضبة  
 البانتيون ، حيث توثق وتنقسم كثير من العُرى ، كانت فانتين تجتنب

تولوميس فترة طويلة ولكن لتعود بعد فلتقيه من جديد . إن ثمة طريقة في الاجتناب هي شبه ما تكون بالبحث والالتاس . وبالاختصار ، فقد علفت جبالها بجباله .

وَأَلَفَ بلاشوفيل ، وليسنولييه ، وفامول زمرة كان تولوميس على رأسها . لقد كان هو عقلها المدبّر .

كان تولوميس تنفيذاً عتيقاً من الطواز القديم . كان غنياً ، يملك دخلاً مقداره اربعة آلاف فونك . اربعة آلاف فونك : فضيحة رائعة فوق جبل سان جانفيف ! وكان تولوميس في الثلاثين من عمره ، منغمساً في المذات مفرطاً في ذات صحته . كان متغضن البشرية ، مهشم الانسان ، وكانت أمارات الصلع قد شرعت تبدو عليه ، فهو يشير الى ذلك في مرح قائلاً : « الجمجمة في الثلاثين والركبتان في الاربعين . » كان يشكو سوء الهضم ، وكانت له عين راشحة . ولكن مرجه كان يزداد انقذاً كلما خمد شبابه . لقد استعاض عن اسنانه بالانعامات المجونية ، واستعاض عن شعره بالمرح ، واستعاض عن صحته بالسخرية ، وكانت عينه الراشحة ضاحكة ابدأ . كان متهدماً ، ولكنه مثقل بالازهار . كان شبابه الذاوي قبل الأوان يتقهقر في انتظام ، وينفجر بالضحك ، غير متكشف الا عن نار مشبوبة . لقد قدّم الى مسرح الـ « فودفيل » رواية تشيلية فرفضت . وكان ينظم الشعر بين الفينة والفينة في شتى الموضوعات . وفوق ذلك ، فقد كان يرتاب في كل شيء بشموخ وتعالٍ ، وتلك قوة عظيمة في أعين الضعفاء . واذن فقد كان ، بوصفه ساخرأ وأصلع ، هو ورئيس الزمرة . ان كلمة Irony \* انكليزية معناها الحديد ، فهل يكون الحديد هو الاصل الذي اشتقت منه لفظة السخرية ؟

وذاث يوم انتهى تولوميس بالثلاثة الآخرين ، وقال لهم في إيماءة

---

\* يحسن بالتاريه ان يعرف ان كلمة Ironie أو Irony لبدي في الفرنسية والانكليزية من السخرية والتهكم .

وقور :

- « منذ سنة تقريباً وفانتين ، وداهليا ، وزيفين ، وفاموريت  
يلتمس منا ان نقدم اليهن مفاجأة . ولقد وعدناهن بذلك وعداً جازماً .  
وهنّ ما يرحن يذكرنا بالوعد ، ويذكرني أنا به بخاصة . وكما  
تخاطب النسوة المجاز في نابولي القديس جانففيه \* صانحات :  
*Faccia gialluta fa o miracolo* « أيها الوجه الاصفر ، إجتزح معجزتك ! » كذلك  
تقول حساننا في غير انقطاع : « تولوميس ، متى ستلد مفاجأتك ؟ »  
وفي الوقت نفسه فإن آباءنا يكتبون النساء . فلنصب عصفورين بحجر  
واحد . لقد آن الاوان فيها يبدو لي . فلنتحدث في ذلك . »  
وهنا خفض تولوميس صوته ، ونطق على نحو غامض بشيء ما جن  
الى درجة اطلقت من الحناجر الاربعة ، في وقت معاً ، قهقهة حامية  
متطاولة ، وجعلت بلاشوفيل يصيح :

-- « يا لها من فكرة ! »

وتبدت لهم حانة ، فدخلوها ، وضاعت بقية حديثهم في ظلامها .  
وكانت ثمرة هذه الظلمات حفلة فاتنة اقيمت يوم الاحد التالي ، عندما  
دعا الشبان الاربعة الفتيات الاربعة .

### ٣

## اربعة إزاء اربع

من للمسير على المرء ان يتصور ، اليوم ، نزهة ريفية من تلك التي  
كان يقوم بها الطلاب والفتيات منذ خمس واربعين سنة : فلم تبقى  
لباريس ضواحيها السابقة عينا ، ولقد تغير وجه ما يكنز ان ندعو  
راعي مدينة نابولي ، وقد استشهد سنة ٣٠٠ م .



و الحياة حول باريس ، تغيراً كاملاً خلال نصف قرن . فبدلاً من  
العربة الجافية ذات الجواد الواحد أصبح عندنا الآن عربة السكة الحديدية ،  
وبدلاً من المركب الصغير أصبحنا نشاهد السفينة البخارية . نحن نقول  
فيكان \* اليوم ، كما كانوا يقولون - ان كلو \*\* آنذاك . إن باريس  
١٨٦٢ مدينة ضواحيها فرنسا كلها .

واستمع الأزواج الاربعة ، في دقة بالغة ، بجميع ضروب الطيش والتمائة  
التي كانت ميسورة آنذاك . كانوا في مستهل العطلة ، وكان اليوم يوماً  
حاراً صافياً من أيام الصيف . وفي الليلة السالفة ، كانت فافوريت - وهي  
وحدها التي تعرف الكتابة من بين الرفيقات الاربعة - قد كتبت الى  
نولوميس رسالة قالت فيها باسم صواحيها جميعاً : « من حسن الطالع  
ان نطلق باكراً . » من اجل ذلك نهضوا في الساعة الخامسة صباحاً  
ثم امنطوا العربية الى سان كلو ، وراؤا الى الشلال الجاف وصاحوا :  
« لا بد ان يكون هذا جميلاً جداً حين يجفل بالماء ! » وتناولوا  
الفتور في « الرأس الازرق » ، ولم يكن كاستين \*\*\* قد مرّ بذلك  
المكان بعد ، وتمعوا النفس بلعبة الحوام في مربع الحوض الكبير ،  
وصعدوا الى مصباح ديوجين ، وجعلوا يكرتون الحلوى ذات الاقراص  
المدورة فوق جسر سيفر ، وجمعوا باقات الزهر في بوتو ، واشتروا  
صفارات الفص في نوي ، واكلوا حلوى التفاح في كل مكان ، وكانوا  
على غاية السعادة .

وهذرت القيات وثرثرن كالطير المغردة أطلقت من اقفاصها . كنّ  
نشاوي بالابتهاج . وبين الفينة والفينة كنّ يداعبن وفاقهن الشبان بضربة  
صغيرة بالكف . ذلك غلّ الحياة في فجرها ! سنوات خليك بها ان

---

\* Fécamp ثمر واقع على بحر المانش .

\*\* Saint - Cloud وتقع على نهر السين ، على مسافة تسعة كيلو مترات من فرساي .

\*\*\* Castelnau طبيب فرنسي معروف بأفاده للاخلاق . ( ١٨٢٣ - ١٨٩٧ ) .

تُعَبِّد ! إن اجنحة اليعاسيب لترتجف ! أوه ، ألا تزال ، كائناتاً من كنت ، تذكر أيامك الماضية ؟ هل قدر لك ان تمشي في الادغال ، راداً الاغصان ليكون في ميسور الوجه الجليل السائر خلفك ان يتابع سبيله ؟ هل قدر لك ان تنزلق ضاحكاً من فوق منحدر بلله المطر ، وقد شدت بك الى الورا يد امرأة تحبها ، وانشأت تصبح : « أوه ، حذائي الجديد ! الى اية حالة قد انتهى ! »

ولنسرع الى القول ان هذا العائق البهيج ، المطر ، لم يُسعف الزمرة الانسية المرحمة على الرغم من ان فافوريت كانت قد قالت ، لحظة انطلقوا ، في جرس استاذي أمومي : « ان البزاق يتزدهر في الممرات . وهذه علامة المطر ، يا ابنائي . »

كانت كل من الفتيات الاربع جميلة الى حد يفن العقول . وكانت ميسو دو لا بوبيس - وهو شاعر كلاسيكي عجوز طيب من مشاهير الادباء آنذاك ورجل ساذج كانت في حياته ايلينورا \* - كان يجم على وجهه ذلك اليوم تحت شجرات الكستناء في سان كاو ، فراحن في طريقه في نحو الساعة العاشرة صباحاً فصاح وهو يفكر في « آلهات الملائكة » \*\* : « ولكن هنا واحدة اضافية ! » وكانت فافوريت ، صاحبة بلاشوفيل ، « العجوز » ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً ، تعدو امامهم تحت الاغصان الخضر العريضة ، وتقفز عبر الحفر ، وتشب في جنون من فوق شجرات العليق ، حاملة لواء المرح بمنزل محميا الله ساب من آلهة الاحراج الرومانيين . أما زيفين وداهليا اللتان حبتهما المصادفة

---

\* في المصدر ان ايلينورا دو غوبين تزوجت عام ١١٣٧ من ملك فرنسا لويس السابع الصغير الذي ما لبث ان طلقها عام ١١٥٢ إثر الفضائح التي حفلت بها حياتها الخاصة . فتزوجها هنري بلاغنيث الذي اصبح ملك انكلترا سنة ١١٥٤ واغلب الظن ان المؤلف يشير هنا الى هذا المنز .

\*\* Les Graces عند الاغريق ، وهن آلهات ثلاث تذهب الاسطورة الى انهن يجسدن كل ما في الجمال من فتنة . وهن Aglaé و Thalie و Euphrosine .

بضرب من الجمال كان يسو ويتكامل بالمغايرة فلزمت احدهما الاخرى بدافع من غريزة الغنخ والدلال اكثر بما فعلتا ذلك بدافع من الصداقة ، وانعظت احدهما على الاخرى في اوضاع انكليزية . كانت الاليومات للذكارية التي اعتاد الشباب والشابات تبادلها في ذلك العصر قد سادت منذ فترة قصيرة ، وكانت الكتابة زياً شائعاً عند النساء ، كما كانت البارونية \* بعد ذلك عند الرجال ؛ وكانت غداثر الجنس الرقيق قد بدأت تسقط متناثرة . كانت زيفين وداهليا قد زينتا شعرهما على نحو دائري ملتف . واستغرق ليستولييه وفامول في نقاش حول اساتذتهما ، وراحا بشرحان لفائنين الفرق بين مسيو ديلفينكور ومسيو بلونندو .

وبدا بلاشوفيل وكأنه خلق خصيصاً ليحمل على ذراعه ، يوم الاحد ، شال فافوريت الشبه لونه بلون الاوراق الميتة .

وتبعهم تولوميس ، مهيئاً ، ميطراً على الزمرة . كان مبتهجاً جداً ، ولكن كان في ميسور المرء ان يتشعر فيه السلطان . كان ثمة ديكتاتورية في جذله . وكانت حليته الرئيسية بنطلونا من نيج قطني أصفر مفصل على طريقة رجل الفيل ، مع سير 'يربط تحت العمل ذي جدية بلون النحاس . كانت في يده عصاً ضخمة من أسل الهند تبلغ قيمتها مئتي فرنك . واذا لم يجرم نفسه شيئاً ، فقد كان في فة شيء غريب يدعو به سيجاراً . واذا لم يكن ثمة شيء مقدس عنده ، فقد أنشأ بدخن .

وقال الآخرزون في إجلال :

« ان تولوميس هذا لمدش . أي بنطلون ! أية قوة ! »

أما فائنين فكانت المرح عنه . كان واضحاً ان الله قد عهد الى

---

\* اي اللعزة الرومانشكية التي عرف بها الشاعر الانكليزي اللورد بايرون والسوي كبراً ما استوحاها الرومانشكيون الفرنسيون .

اسنانها الرائحة في مهة واحدة ، هي الضحك . كانت تحمل في يدها ،  
 اكثر مما تحمل على رأسها ، فبعتها الصغيرة من القش الحبيط ، ذات  
 الاشرطة الطويلة البيضاء . وكانت غداؤها الكثيفة الشقراء ، للزراعة الى  
 التمتوج والمتحررة في سهولة من عقالاتها بحيث تكرهها على ان تمسك وثاقها  
 على نحو موصول - كانت هذه الغدا تبدو وكأنها جعلت لفرار  
 غالانيا \* تحت الصفاف . وكانت شفتاها الزهراوان تثرثران في سحر .  
 وكانت زاويتا فمها المرفوعتان على نحو شهوي مثل اقنعة اريغون \*\*  
 العتيقة ، تبدوان وكأنهما تشبعان الجراءة . ولكن اجفانها الطويلة الظليلة  
 انخفضت في رزانه نحو الجزء الادنى من وجهها وكأنها تريد ان تكبح من  
 نزاعها المرحه . وكانت زينتها كلها متناغمة ساحرة الى حد يمتنع على الوصف .  
 كانت ترتدي ثوباً رقيقاً مُعَبَّازِيّ اللون ، وحذاء ذا نعل عال أسمر  
 ذهبياً تصالب شريطاه فوق جوربيها الرائعين البياضين المتقوين ، وكان  
 ذلك الضرب من الـ « سنسر » \*\*\* المتخترع في مرسيليا والذي يدعى  
 كانيزو Canezou - وهي تحريف لكلمتي Quinte Aout \*\*\*\* في اللهجة  
 الكانابيرية \*\*\*\*\* - يعني الجو البديع ، والدفء ، والظهرة . أما  
 القنيتات الثلاث الاخريات ، وكنّ أقلّ خجلاً كما ذكرنا ، فارتدين  
 ملابس تكشف عن العنق واعلى الصدر ، ومثل هذه الملابس يكون في  
 الصيف ، وتحت القبعات المغطاة بالرباجين ، ناضجاً بالملاحظة والدلال .

---

\* Galatée حورية من حوريات الماء الاسطورية أحبا بوليفيوس . ولكنها آثرت طبع  
 « آيسيس » الراعي ، وذات يوم فاجأها العلق لسحق رأس منافه بصخرة .  
 \*\* Erigone اريغون في الميثولوجيا ، محبوبة باخوس الاله الخمر ، وقد تحول ، لكي  
 ينقوها ، الى عقود حبيب .  
 \*\*\* ضرب من الواب اللهاء يكون ضيقاً عادة . وهو ينسب الى شريف برطالي  
 يدعى الايرل سنسر ( ١٧٨٢ - ١٨٤٥ )  
 \*\*\*\* أي الخامس عشر من آب .  
 \*\*\*\*\* نسبة الى Canabière ها وهو هارح جميل في مرسيليا .

ولكن الى جانب هذا التبرج الجريء بدا « كانيزو » فانتين الشراء ،  
 بشفايته وإنشائه لما دونه وسترة له - فهو كاشفٌ حاجبٌ في آن معاً -  
 وكأنه مدعاة الى الاحتشام 'مرسلة' من عند الله . ولقد كان خليقاً  
 ببلاط الحب الشهير ، يرثيه الفيكونت دو سيت ذو العينين الخضراوين  
 كمثل خضرة البحر ، ان يخلع جائزة الفنج على هذا الـ « كانيزو » الذي  
 خاض المعركة طمعاً في الفوز بجائزة العفة . إن أبسط الاشياء هو في بعض  
 الاحيان أحفظها بالحكمة . كذلك تجري الأمور .

وجه مشرق ، صورة جانبية دقيقة ، عينان عميقتا الزوقة ، اجفان  
 كثيفة ، قدمان صغيرتان مقنوستان ، معصمان وعقبان مغلقة تغليفاً  
 رائعاً ، بشرة فاصعة تلمع هنا وهناك عن اشكال الازودة اللازوردية ،  
 وجة طفلية نضرة ، عنق قوية كعنق جيتو \* ، قفا عنق ثابت  
 لدن ، ركتفان كأنما نحتهما كوستو \*\* في وسطها 'خفيرة' شهوية  
 تتواءم من خلال الشاش الموصلية ، بهجة 'مصفولة' بالاحلام ، نقشبة  
 سائقة - كذلك كانت فانتين ؛ ولقد كان في ميسور المرء ان يكتشف  
 تحت هذا الثوب وهذه العصابات تنالاً ، وان يشعر في هذا التمثال  
 روحاً .

كانت فانتين حناء من غير ان تعي ذلك كثيراً . والحق ان  
 اولئك الحالمين القلائل ، كهنة الجمال المحاطين بالاسرار ، الذين يقارنون  
 في صمت ما بين الاشياء كلها وبين الكمال ، كان في ميسورهم ان  
 يلمحوا في هذه العامة ، من خلال شفاية الملاحه الباريسية ، ذلك  
 التطريب المقدس العريق في القيدم . لقد كان لأبنة الظلام هذه نسب .

---

\* Juno في الميثولوجيا الرومانية ، إلهة رومانية قديمة ، كانت زوجة جوبيتر ،  
 والمجسدة على شؤون الزواج والنساء . وهي تقابل « حيرا » عند الاغريق .

\*\* Coustou اسم اسرة فرنسية شهيرة في فنيون النحت ، وقد أطلت ثلاثة نحاتين سرورين  
 اولهم تولا كوستو ( ١٦٥٨ - ١٧٣٣ ) ووليم كوستو الاب ( ١٦٧٧ - ١٧٤٦ )  
 ووليم كوستو الابن ( ١٧١٦ - ١٧٧٧ )

كانت تلك ضربي الجمال جميعاً : النبط والايقاع . النبط هو شكل  
المثل الاعلى ؛ والايقاع هو الحركة .

لقد قلنا ان فانتين كانت هي المرح . لقد كانت فانتين ايضاً  
هي الحياة .

ذلك بأن المراقب القادر على ان يدرسها في انتباه خليق بأن يقع  
من خلال نشوة العمر هذه ، ونشوة الموسم ، ونشوة الحب كلها على تعبير  
لا يقهر من التحفظ والاحتشام . لقد ظلت منذهولة بعض الشيء .  
وهذا الاندخال العفيف هو الظل الذي يفصل بينه \* عن فينوس .  
كانت لفانتين اصابع الكاهنة في هيكل فتا \*\* ، تلك الاصابع الطويلة  
المهزولة البيضاء التي تثير رماد النار المقدسة بقضيب ذهبي . وعلى الرغم  
من انها ما كانت لتضن على تولوميس بشيء ، كما نستطيع ان نرى في  
وضوح ، فقد كان وجهها ، في الهدأة ، بالغا الغاية في البتولية . كان  
ضرب من الوقار الجدي ، الذي يكاد يكون كالخاف ، يرين عليه فجأة في  
بعض الاحيان ، وما كان شيء اغرب ولا ادعى الى القلق من ان يرى  
المرة الى الابتهاج تخمد جذوته هناك في مثل هذه السرعة ، والى التفكير  
يتخلف الجدل من غير ما مقدمة او تهديد . وكانت هذه الرصانة المفاجئة  
المؤكدة على نحو عفيف احياناً ، تشبه ازدياء الالهة من الآلهات .  
وكان جبينها ، وانفها ، وذقنها تبرز توازن الخطوط ، المختلف كل  
الاختلاف عن توازن النسب ، الذي يحدث تناغم الملامح . وفي الفاصل  
المميز لها جداً ، والذي يفصل قاعدة الأنف عن الشفة العليا ، كانت لها  
تلك الثنية الفاتنة غير الملحوظة - وهي آية غامضة على الطهر - التي

---

\* Psyché في الاساطير انها فتاة كانت على جبال عظيم ، حتى لقد احبها الحب .  
وعصتها ترمز الى مصير الروح الساطلة التي تتحد دائماً ، اثر مصائب متعددة ،  
بالحب الالهي .

\*\* Vesta الالهة النار عند الرومان . وهي تقابل هيبا عند الاغريق .

أوقعت برابروسا \* في حب د ديانا ، \*\* وجدها في اطلال  
ايقونيوم \*\*\*  
الحب خطيئة . فليكن . لقد كانت فانتين هي البراءة تطفو على  
سطح هذه الخطيئة .

## ٤

تولوميس مبتهج الى درجة تحمله على

انشاد اغنية اسبانية

كان ذلك اليوم مشرقاً بأشعة الشمس من بدايته الى نهايته ، فقد بدت  
الطبيعة وكأنها انطلقت كلها في عيد . وكانت رياض سان كلو عابضة  
بالعير . وفي رفق ، موّجت نسائم السّين اوراق الاشجار . كانت الاغصان  
تحدث مكثرة من الاشارات في وجه الريح . وشتت النحل غاراتها على  
الياسمين . وكانت جهرة من الفراشات قد حطت رحالها على زهرات  
الفنديل ، والبرسيم ، والشوفان البري . لقد غزا حديقة ملك قرنة  
الفضية حشد من المتشردين : العصافير .

وتألق الأزواج المبتهجون الاربعة ، متناغمين مع اشعة الشمس ،  
والازهار ، والحقول ، والاشجار .

وفي هذه الجماعة الفاتحة منها روائع' اللجنة ، الجماعة اللاغية ، المغنية ،  
الراكضة ، الراقصة ، المطاردة للفراشات ، الجامعة للتلاب ، المبتلة

---

\* أمير البحر التركي الشير الذي قاد اساطيل سليم الاول وتوفي عام ١٥٤٦

.. (لاهة رومانية ، بنت جوييتير ، واخت ابولو .

... نوبة التركة .

جواربها الوردية المتقوية بالعشب العالي ، النضرة ، المجنونة ، وإن تكن غير شريرة ، اختلس كل ، بين الفينة والفينة ، القبلات من كل ، ما خلا فانتين التي كانت متحصنة في مقاومتها الغامضة ، الذاهلة ، العنيفة ، والتي كانت عاشقة . وقالت لها فافوريت :

.. « انت دائماً منحرفة المزاج . »

تلك هي المباحج الحقيقية . إن هذه المقاطع في حياة الشباب السعيدة هي نداء عميق للحياة والطبيعة ، وهي 'تفجّر' الوداد والضياء من كل شيء . لقد كانت في غابر الايام جنية انشأت المروج والاشجار خصيصاً للعاشقين . ومن هنا مدرسة المحبين السرمدية هذه ، القائمة وسط الفياض ، والمفتوحة الابواب ابدأ ، والتي سوف تعمّر ما دام ثمة ادغال وتلاميذ . ومن هنا شعبية الربيع عند المفكرين . إن العظيم والحفيظ ، والدوق والامير ، والفلاح ، ورجال البلاط ، ورجال المدينة ، كلهم - كما كانوا يقولون في المهود القديمة - خاضعون لسلطان هذه الجنية . انهم يضحكون . انهم يلتسون بعضهم بعضاً . إن الهواء يبدو طافصاً باسراق جديد . أيّ تحوّل في الصورة 'مجدّنه' الحب ! إن الكتاب المدول ليصبحون آلهة . وإن الصيحات الصغيرة ، والمطارادات وسط الاعشاب ، والحصور التي تطوّق خلعة ، وهذه الرطانات التي هي نغمات ، وهذا الهيام الذي يتفجّر في مقطع من كلمة ، وحبات الكرز هذه التي يستزعها ثم من ثم ، كل اولئك يلتصق ويتحول الى ابحاد سماوية . إن الفتيات الحائات ليترن فنتهن في اسراف عذب . وان المرء ليتوهم انها لن تنضب ابدأ . ويرى الفلاسفة ، والشعراء ، والرسامون الى هذه النشوات الوجدية كلها ولا يدرون ما يصنعونه بها . انها باهرة الى هذا الحد !



للرحيل الى سبتير \* ! كذلك بصبح واتو . \*\* أما لانكره \*\*\* ،  
رسام العامة ، فتأمل بورجوازيه المخلّفين في السماء . على حين يفتح  
ديدرو ذراعاه لجميع هؤلاء العشاق ؟ ويقرنهم دورفيه \*\*\*\*  
بال « ذرويد » \*\*\*\*\*

وبعد الفطور ، مضى الأزواج الاربعة ليروا ، في ما كان يدعى  
آنذاك ساحة الملك ، الى نبتة جيء بها من الهند حديثاً ؛ نبتة غاب  
عنا اسمها في الوقت الحاضر ، وكانت تجتذب باريس كلها آنذاك الى  
سان كلو . كانت شجيرة غريبة فاتنة ، طويلة الساق ، ذات اغصان لا  
حصر لها دقيقة كالخيط ، شعناء ، غير مورقة ، مثقلة بلالين الزهورات  
البيضاء ، مما جعلها اشبه ما تكون بشعرٍ مُنساب تناثرت فوقه الرياحين .  
وكان يجتشد حول هذه النبتة دائماً جمهرة من المعجبين .

حتى اذا سعدوا بمشاهدتها صاح تولوميس : « انا اقترح ان نستاجر  
حميراً . » وبعد مساومة مع سائق حمير ارتدوا من طريق « فايف »  
و « إيسي » . وفي إيسي كانت لهم مغامرة . ذلك أن الحديقة التي  
كانت من قبل ملكاً قومياً والتي كان يملكها آنذاك موتن الجند  
« بورغوان » كانت بمجرد المصادفة مشرعة الابواب . فاجتازوا حاجز  
القضبان المشبكة ، وزاروا الناسك القزم في كهفه ، وجربوا المفاعيل  
الصغيرة العجيبة الخاصة بحجرة المرايا - وهي شرك داعرٍ جدير برجل

---

\* Cythère احدى جزر الارخبيل في شمال غربي كريت . وفي الاساطير اليونانية  
انها موقوفة على فينوس التي ولدت من زبد الموج . ولدت غدت سبتير ، في لغة  
الشمر ، موطن الحين الرمزي .

\*\* Watteau رسام فرنسي ( ١٦٨٤ - ١٧٢١ )

\*\*\* Lancret رسام فرنسي ( ١٦٩٠ - ١٧٤٣ ) اشتهر برسومه المذبذبة الضاحكة .

\*\*\*\* Honoré d'Urfé كاتب فرنسي ( ١٥٦٨ - ١٦٢٦ )

\*\*\*\*\* Druides هم كهان الغالين ، وكانوا يعتقدون اجتماعهم في الهواء الطلق ، وفي  
النباتات . وكانوا يعبدون آلهة عدة ويؤمنون بخلود النفس وتناسخ الارواح .

«من في الفُسُوق أُمى ملبونيراً ، او بـ «توركاريه \*» استحال الى  
 برياب \*\* - وتأرجحوا في عزم بالارجوحة الكبيرة المشدودة الى شجرتي  
 الكتناء اللتين شهرهما الراهب بيرنيس \*\*\* وفيما هم يؤرجحون  
 الفتيات ، واحدة إثر واحدة ، يحدثن بذلك ثاباً من التناير كانت  
 خليقاً بـ « غروز » \*\*\*\* ان يجدها جديرةً بالدرس ، أنشد تولوميس  
 التولوزي - وكان فيه شيء من الدم الاسباني ، فد « تولوز » هي  
 ابنة عم « تولوزا » \*\*\*\*\* - أنشد في نبوة كشيبة اغنية « غالبغا »  
 القديمة التي اوحتها الى الناظم ، في ما يبدو ، فتاة صغيرة تأرجحت في  
 الهواء بين شجرتين :

*Soy de Badajoz.  
 Amor me llama.  
 Toda mi alma  
 Es en mi ojos  
 Porque ensenas  
 A tus piernas. \*\*\*\*\**

\* Turcaret كوميديا لـ « لياج » Lesage ( ١٦٦٨ - ١٧٤٧ ) كان  
 بطلها خادماً ثم غداً من طريق النصب غنياً يتعلق حوله منافرون اشدّ إيماناً في  
 الاثم منه .

\*\* Priape الاله الجنائن والكرمة والتاسل . ابن ديونيسوس وأفروديت . وهو  
 في الاساطير رمز الرجولة والفتوة .

\*\*\* de Bernis شاعر وكاهن فرنسي ( ١٧١٥ - ١٧٩٤ )

\*\*\*\* Greuze رسام فرنسي ( ١٧٢٥ - ١٨٠٥ ) وهو يجاز خاصة في رسم  
 المشاهد المألوفة ووجوه الاشخاص .

\*\*\*\*\* مدينة اسبانية في اقليم الباسك او البشكنس .

\*\*\*\*\* أنا من باداغوز

الحب يناديني .

كل دوشي

هي لي عيني ،

لأنها تشيران

الى صافيك .

ورفضت فانتين ، وحدها ، أن تتأرجح .

وغمضت فافوريت في شيء من الحدة :

« انا لا احب هذا النوع من التصنع . »

وتركوا الخير ، لينصرفوا الى متعة جديدة . وعبروا نهر السين في زورق ، ثم مشوا ، على الاقدام ، من باسي الى « حاجز الأيتوال » . لقد سعوا على أرجلهم ، كما نذكر ، منذ الساعة الخامسة صباحاً ، ولكن فافوريت قالت : « ليس في أيام الاحد تعب . ان التعب لا يشغل يوم الاحد ! » وحوالى الساعة الثالثة ، كان الأزواج الاربعة يسرعون في المهبوط ، وقد دلتهم السعادة ، نحو الجبال الروسية \* وهي صرح فريد كان يحتل آنذاك مرتفعات « بوجون » ، وكان في استطاعة المرء ان يلمح منه ذلك الخط الافغواني الممتد فوق شجرات ال « شان زيليزيه » . وبين الفينة والفينة ، كانت فافوريت تصيح :

« والمفاجأة ؟ انا اريد المفاجأة ! »

فيجبها تولوميس :

« ابعصمي بالصبر ! »

## 5

### في حانة بومباردا

حتى اذا استنفدوا الجبال الروسية ، فكثروا في الغداء . وجنع السعداء الثانية ، وقد أصابهم التعب بعض الشيء آخر الامر ، الى حانة بومباردا ، وهي مؤسسة فرعية انشأها في شان زيليزيه ذلك المطعمي \* يقصد بالجبال الروسية سلسلة من المرتفعات والمنخفضات الشديدة الانحدار يتزلج عليها المتزلجون .

الشهير ، بومباردا ، الذي كانت لافته تـرى آنذاك فوق شارع ريفولي ،  
قرب مجاز دولورم .

كانت قاعة رجة ، ولكنها بشعة ، في ادناها مخدع وسرير . ( كان  
المكان يفس بالرواد يوم الاحد بحيث يتعين على بعضهم ان يرتضوا هذا  
المأوى ) وكانت ثمة نافذتان كان في استطاعة المرء ان يرى منهما ،  
خلال شجرات الدردار ، الى الرصيف والنهر . وكانت اشعة رائعة  
من شمس آب تمسّ النافذتين مثاً رقيقاً . وكانت هنالك طاولتان ،  
احدهما مثقلة بجبل مظفر من باقات الزهر المختلطة ببيعات الرجال  
والنساء ، والاخرى ، وهي التي تملّئ حولها الازواج الاربعة ، مثقلة  
بركام بهيج من الصعاف والاطباق ، والكؤوس والزجاجات ، واكواز  
الجلعة وقناني الحر . كان ثمة قليل من النظام فوق الطاولة ، وقليل  
من القوضى تحتها .  
يقول مولير :

« انهم يمدنون تحت الطاولة  
ضجة وقرع طبول عبقاً بأقدامهم . »

الى ههنا كانت النزهة الريفية التي انطلقت في الحامسة صباحاً قد  
انتهت بأصحابها عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . كانت الشمس  
تجنح للغروب ، وكانت شهوتهم الى الطعام قد خمدت .  
ولم يكن الشان زيليزيه ، الحافل باشعة الشمس وبالناس ، شيناً  
اكثر من ضياء وغبار ، وهما العنصران اللذان يتألف منهما المجد . كان  
جرادا مارلي ، \* هذا الرخام الصاقل ، يشبان في غمامة ذهبية .

\* Marly موضع على بعد عشرة كيلومترات من فرساي ، قرب نهر السين .  
وكان لويس السادس عشر قد انشأ فيه قصرأ فخماً خربته الثورة . وكان « جوادا  
مارلي » Chevaux de Marly - وهما ثلاثان شيران من عمل النحات رلم كوستو -  
يزينان قصر مارلي هذا ثم نقلتا الى الشان زيليزيه .

وكانت العربات تروح وتجي . وكانت كوكبة رائعة من حرس الملك ، تنقدمها الابواق ، تمبط شارع دو نوي . ورفرف العلم الابيض ، الذي خضبه الشمس المختصرة بلون احمر باهت ، فوق قبة التويلري . وكانت ساحة الكونكوردي ، التي عُرفت آنذاك ككرة أخرى ، بساحة لويس الخامس عشر ، تفص بالتزهين المبهجين . وكان كثير من الناس يحملون زنابق فضية تتدلى من العصائب البيضاء المنسوجة التي لم تكن قد اختفت نهائياً ، عام ١٨١٧ ، من عُرى الثياب . وهنا وهناك ، وسط جماعات من عابري السبيل المصفقين ، كانت حلقات من الفتيات تطلق في الهواء لحناً بوربونياً نافعاً ، قصيدته الى اث يُفهم « الأيام المنة » ؛ وكانت لازمته تجري هكذا :

« اعيدوا بنا ابانا الذي في غان »

« اعيدوا بنا مولانا ! »

وكانت حشود من ابناء الأرباض المرندين ملابسهم الخاصة يوم الاحد ، المترنين احياناً بالزنابق مثل البورجوازيين ، قد انتشرت فوق الساحة الكبرى وساحة ماريني يلعبون لعبة الخواتم ، \*\* ويطوفون على متون الخيل الحشوية . وكان آخرون يجذون الحمار . على حين كان نفرٌ قليل ، وهم من عمال المطابع ، يعمرون قبعات من الورق . كان في ميسور المرء ان يسمع صدى ضحكاتهم . وكان كل شيء مشعاً مشرقاً . كان عهداً من السلام الوطيد والسلامة الملكية العميقة - عهداً اختتم فيه آنغلير مدير الشرطة تقريراً شخصياً وخصوصياً رفعه الى الملك حول الوضع في ضواحي باريس بهذه الاطر : « اذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، يا مولاي ، استطعنا ان نقول ان لا خطر البتة من هؤلاء القوم .

• اي الملك لويس الثامن عشر ، وكان قد لجأ ، خلال « الايام المنة » ، الى مدينة غان Gand إحدى مدن بلجيكا .

• • jeu de bagues من الباب الرشاقة ، وقوامها ان ينتزع الفارس ، بواسطة رمح او سيف ، بعض الحلقات التدلية ، فيا الجواد منطلق به .

إنهم مهيلون متكاملون ككفررة . وإذا كان العوام من أبناء الولايات قلقين غير راضين فإن عوام باريس ليسوا كذلك . إنهم جميعاً رجال صغار ، يا مولاي ، إذا وضع اثنان منهم واحداً فوق الآخر لم يكادا يشكلان رجلاً من رماة قنابلك . لا ، ليس ثمة ما يُخشى من ناحية سكان العاصمة . وبما بلغت النظر ان هذا الجزء من السكان قد تقاصرت قاماته ايضاً خلال السنوات الحسنة الماضية ، وان ابناء الضواحي الباريسية أضال اجساماً بما كانوا قبل الثورة . إنهم ليسوا خطرين . وبالاختصار ، فانهم سفة طيبون . »

أما ان من الجائز ان تنقلب الهرة الى أسد فذلك ما لا يعتقد مدراء البوليس بأنه ممكن . وأياً ما كان فقد يقع هذا ، وتلك هي معجزة شعب باريس . وإلى ذلك ، فإن الهرة التي يزدريها الكونت آنغليز الى هذا الحد قد حظيت بأجلال الجمهوريات في العصر الحالية . كانت تجسداً للحرية ، في نظرم . ولقد كان في ساحة كورنت العامة تمثال ضخم جداً للهرة ما ، فهو يحيل الى المرء ان القوم قصدوا الى جعله نداءً لمينيرفا « بيويه » \* غير المجنحة . كانت الشرطة الساذجة ، في عصر لويس الثامن عشر ، تنظر الى شعب باريس نظرة نحفل بالأمل والتفاؤل اكثر مما ينبغي . انهم ليسوا ، بحال من الاحوال ، « سفة طيبين » بقدر ما يُظن . فالباريسي هو بين الفرنسيين ما كانه الاثيني بين الاغريق . إن احداً لا ينام احسن مما ينام هو ؛ إن احداً ليس اكثر منه ولا اصرح طيشاً وكسلًا ؛ إن احداً لا يبدو أيسر نسياناً للاشياء منه ، ومع ذلك فحذار ان تطعن اليه . إنه قادر على مختلف ضروب البلادة والتراخي . ولكن ما إن يقبض له طيف تجسد حتى ينتزع اعجابك بأنواع الاحتدام المجنون كلها . أعطه حربة يعطك يوم

١٠ آب \* أعطه بندقية يُعطك معركة أوستريتز . إنه مرتكز نابوليون ،  
ومعين دانتون \* هل الوطن في خطر ؟ إذن ، يتطوع للنضال . هل  
الحرية في خطر ؟ إذن ، يقتلع بلاط الشارع . حذار ! إن سَعَره  
الطافح بالغضب هو ملحمي ؛ إن قميصه ليبدو وكأنه معطف من معاطف  
الجند الاغريقي القديم . انتبه ! فعند الزاوية الاولى ، يصنع « غرينيتا »  
« شو » كات كودية \* \* \* \* \* ونحن يدق ناقوس الخطر بنمو هذا الرجل  
الساكن في الضواحي ، وينهض هذا الرجل الضئيل . عندئذ تغدو  
نظراته فظيمة ، ويصبح نفسه عاصفة ، وتنطلق من صدره البائس المهزول  
ريح عاتية تقلقل جبال الالب . إن رجل الضواحي الباريسية هو الذي  
جعل الثورة ، وقد أفرغت في جيوش ، تفتح أوروبا . إنه يغتشي ؛  
تلك هي بهجته . وازن ما بين اغنيته وطبيعته ، ثم انظر فما دام لا  
يملك غير الكارمانبول \* \* \* \* \* لازمة غنائية فلن يسقط غير لويس السادس  
عشر . ولكن دعه ينشد المارسيلاز بخلص العالم .  
وبعد ان كتبنا هذه الملاحظة على هامش تقرير آنگليز نعود الى ازراجنا  
الاربعة . كانوا قد تناولوا ، كما قد قلنا ، طعام الغداء .

## ٦

### فصل من محبة الذات

إن احاديث المائدة واحاديث الحب لا سبيل الى ان تمسك بها قبضة

\* يوم ثار الشعب الفرنسي ( ١٠ آب ١٧٩٢ ) ثورته التي انتهت بسجن لويس  
السادس عشر وسقوط الملكية .

\*\* Danton احد زعماء الثورة الفرنسية المشاهير ( ١٧٥٩ - ١٧٩٤ )

\*\*\* Fourches Caudines وهو مضيق مجاور لكوديوم ( مدينة في ايطاليا القديمة )

حيث هزم القائد السمي بوتنبوس هيرينبوس الجيش الروماني وازل به ضروب الحف  
والاذلال ( ٣٢١ ق . م ) والمقصود انه يعمل عملاً يذل المغلوبين .

\*\*\*\* carmagnole ضرب من الرقص والفناء شاع في اثناء الثورة الفرنسية .

القايض . احاديث الحب سُبُح ، واحاديث المائدة دَسَّان .  
ودندن فـامول وداهليا بالانعام ؛ واحنسى تولوميسى الشراب ؛  
وضحكت زيفين ، وابتسمت فانتين . ونفع لبسوليه في بوق خشبي  
اشوي في سان كار . ونظرت فافوريت ، في حنان ، الى بلاشوفيل  
وقالت :

- « بلاشوفيل ، أنا اعبدك . »

فأدى هذا الكلام الى سؤال من بلاشوفيل :

- « ماذا تفعلين ، يا فافوريت ، إذا اقلعتُ عن حبك ؟ »

فصاحت فافوريت : « أنا ! آه ، لا تقل ذلك ، ولو على سبيل  
المزاح ! إذا اقلعت عن حي فسوف ألحق بك . سوف أخذسك . سوف  
اشدّ بشعرك . سوف اقدفك بالماء . سوف أحمل الشرطة على ان تلقي  
القبض عليك ! »

وابتم بلاشوفيل في الاختيال الخليع الجدير برجل دغدغ حبّ  
الذات عنده . وازافت فافوريت :

- « أجل ، سوف استغيث ! لا ! سوف أصبح مثلاً : وغد ! ،  
وفي نشوة بالغة ارتدت بلاشوفيل في كرسيه الى الوراء ، وأنغض كلتا  
عينيه في زهر .

وممت داهليا ، وكانت لا تزال تأكل ، في اذن فافوريت وسط  
الضجة :

- « انت مولعة بفلاشوفيل الى حد بعيد ، اذن ؟ »

فأجابت فافوريت ، بالجرس نفسه ، وهي تمسك بشوكتها من جديد :

- « أنا اكرهه . إنه شحيح . انا احب ذلك الفتى الساكن في  
المنزل المقابل لمزلي . إنه شاب ممتاز ، هل تعرفينه ؟ في استطاعة كل  
امريء ان يرى انه 'خلق' لكي يكون مثلاً ! انا احب الممثلين . إنه  
لا يكاد يدخل البيت حتى تصيح أمه : « اوه ، يا السهي ! لقد فقدت



طأنتني . ها هو ذا في طريقه الى الصراخ ! إنك سوف تفلق رأسي !  
وما ذلك إلا لأنه يطوف في المنزل ويمضي الى العلية ذات الجردا  
والى الزوايا المعتمة ، مصعداً أعلى ما يستطيع ان يصعد ، وهناك يغني  
وينشد - ومن اين لي أن اعرف أن في إمكانهم ان يسمعه تحت ؟ إنه  
يكسب الآن عشرين « سو » يومياً من طريق كتابة الدعاوى لأحد  
الحامين الصغار . إنه ابن مرتل كنسي قديم في سان - جاك - دو -  
هو - با . آه ! انه شاب ممتاز . إنه يجني الى درجة جعلته يقول لي  
ذات يوم ، وكنت اعجن الدقيق لعمل بعض الحلوى : « يا آنسة ،  
اجعلي من قفازيك زلاية أسارع الى اكلها ! » ان الفنانين وحدهم  
الذين يستطيعون ان يقولوا اشياء مثل هذه . أنا على وشك ان اجنّ  
بهذا الفتى . لست ابالي . انا اقول لبلاشوفيل اني اعبد . يا لي من  
كاذبة ! اوه ، يا لي من كاذبة !

وتهمت فافوريت لحظة ثم اردفت :

- « داهليا ، انت تلاحظين أنني محزونة . إن هذا الصيف لم يجد  
علينا بغير المطر المتواصل . إن الريح تثير عصبي ؛ وان الريح تشوهني  
بالكآف . بلاشوفيل بخيل جداً . ان المرء لا يكاد يجد شيئاً من  
الجليان في السوق . والناس لا يعنون بشيء غير الطعام . أنا امتشعر السأم  
والسوءداء كما يقول الانكليز . الزبدة غالية جداً ! وفوق ذلك ، انظري !  
إن هذا مخيف . نحن نتناول طعام الغداء في غرفة تحتوي على سرير .  
إن هذا ليجعلني أتقرز من الحياة . »

## ٧

### حكمة تولوميس

وفي غصون ذلك ، بينا كان بعضهم يتغنى كان سائرهم يتحدثون في

صخب دفعة واحدة . كان ثمة هدير كامل . واعترض تولوميس صاحجاً :  
 - « لا تتحدثوا كيفما اتفق ، ولا في مرة فائقة ! يتعين علينا ان نتأمل  
 اذا كنا نرغب في ان نكون متألفين . إن الامعان في الارتجال يجعل الذهن  
 فارغاً على نحو احمق . والجمعة الجارية لا تجمع شيئاً من الزبد . اياها  
 السادة ، على رسلكم ! امزجوا الجلال بالقصف والابتهاج . كلوا في تأمل  
 وتعموا في بطن . لا تتعجلوا . انظروا الى الربيع . اذا اسرع اصابه  
 الحراب ، يعني أنه يتجمد . ان الافراط في الاندفاع يقتل شجرات الحوخ  
 والشمس . والافراط في الاندفاع يقتل طلاوة الموائد السخية وهيجتها . لا  
 اندفاع ، ايا السادة ! إن غريمون دو لا رينبير هو من رأي تاليوران . »  
 فقال بلاشوفيل : « اليك عنا ، يا تولوميس . »

فصاح قامول : « لبسقط الطاغية ! »

فهتف ليستوليه : « بومباردا ، بومبانس ، وبامبوش ! » \*

فقال قامول : « إن يوم الاحد لم ينته بعد . »

واضاف ليستوليه : « نحن زاهدون في الطعام والشراب . »

فقال بلاشوفيل : « تولوميس ، تأمل هدوتي . » *men calme*

فاجاب تولوميس : « انت مركيزها . »

وكان لهذا التلاعب اللامبالي بالالفاظ مثل اثر الحبر الذي يُلقى في  
 بركة . كان المركيز دو منكالم \*\* ملكياً من ملكي العصر المشهورين .  
 وصمت الضفادع كلها .

وصاح تولوميس في لهجة من استعاد السلطة :

- « ايا الاصدقاء ، التزموا الرصانة . هذه النكتة الجناحية لا  
 ينبغي ان تستقبل رغم هبوطها من السماء ، بكثير من الدهش ، وكل

\* بومباردا هو صاحب الحانة . وبومبانس Bombance وبامبوش Bamboche تفيدان  
 متى القصف والتلذذ بالطعام والشراب . وفي ذلك كله تلاعب بالالفاظ واضح .

\*\* Montcalm ويبدو الجنس واضحاً بين هذا الاسم وبين قوله في الاسطر  
 السابقة *mon calme*

ما يهبط على هذه الشاكلة لا يستحق ، بالضرورة ، الحماية والاحترام .  
 النكتة الجناسية هي رَوْتُ الروح المحلقة . والمزاح الماجن يتساقط في أيما  
 مكان . حتى إذا تحوّرت الروح من حماقتها غاصت في السُّحب . إن  
 الرقعة البيضاء المنبسطة على الصخر لا تحول بين القندر \* وبين التحويم  
 في الجو . لستُ أنا الذي يزدري النكتة الجناسية ويسفّنها ! أنا أجلّتها  
 على قدر براعتها . إن كل معن في العظمة ، وكل معن في السنو ،  
 وكل معن في السحر ، سواء في الانسانية او خارج الانسانية ، قد  
 اصطنع التلاعب بالالفاظ . فقد اطلق المسيح نكتة جناسية حول القديس  
 بطرس . واطلق موسى نكتة جناسية حول اسحق . وكذلك فعل  
 أشيل ببولينيس \*\* وكليوباترة بأوكتافيوس . ولا ننسوا ان نكتة كليوباترة  
 هذه سبقت معركة آكتيوم \*\*\* ، وانه لولاها لما استطاع احد أن  
 يتذكر مدينة تورين ، وهو اسم يوناني يعني المغرفة . والآن وقد  
 حسنا هذه المسألة ، استطيع ان اعود الى موعظتي . ايها الاخوة ،  
 إني اكرر : لا اندفاع ، لا ضجة ، لا إفراط ، حتى في النكت ،  
 والخجور ، والابتهاج ، والتلاعب بالالفاظ . اسمعوا لي . ليكن لكم  
 تبصر آمفيارائوس \*\*\*\* وجارة قبر . ينبغي ان يكون ثمة حد  
 حتى للألغاز Et inodus in rebus \*\*\*\*\* ينبغي ان يكون ثمة حد حتى للموائد .  
 أنقّ تحبين حلوى التفاح ، يا سيداتي ، فلا تفرطن في ذلك . ينبغي أن

---

\* غلاب ضم طويل الاجنحة شديد التحليق في الفضاء .

\*\* polynice ابن اوديب ، وفي الميثولوجيا اليونانية انه تقاتل مع اخيه ايتيوكل  
 Étéocle وان الموت نفسه عجز عن ان يطفىء البضاء بين الاخوين المدونين فريث  
 نيران الحطب تنفصل الى قسمين .

\*\*\* هي المعركة البحرية التي اتمر فيها اوكتافيوس وآغريبا على انطونيوس  
 وكليوباترة عام ٣١ ق . م .

\*\*\*\* Amphiaræus عرف اغريقي شهير .

\*\*\*\*\* من كلام هوارس الشاعر اللاتيني ومنه : يحسن الاعتدال في كل شيء .

يتحلى المرء ، حتى حين يأكل حلوى التفاح ، بالحصافة والمهارة . أنت الشرّ يعاقب الشرّ . ولقد عهد الربّ الى سوء المضم في توبيخ المعدة . واذكروا هذا : لكلّ من أهواننا ، حتى الحب ، معدة ينبغي ان لا تُحمّل فوق ما تطيق . وفي كل شيء ، ينبغي ان نكتب كلمة « انتهى » في الوقت المناسب . يجب ان نكبح جماح انفسنا حين يغدو الامر ملهماً . يجب ان نوصد على شهوتنا بالمغاليق الحديدية ، وأن نزع أهواننا في السجن ، ونغضي الى محطة البريد . الرجل الحكيم هو ذلك الذي يعرف متى يقف وكيف يقف . ثقوا بي . واذا كنت قد درست القانون بعض الشيء ، كما تثبت امتحاناتي ؛ واذا كنت اعرف الفرق ما بين الدعوى المرفوعة الى المحكمة ، والدعوى التي لما تقطع المحكمة بأمرها ؛ واذا كنت قد وضعت اطروحة باللاتينيف عن طرائق التعذيب في رومة يوم كان موناتپرس ديمتز قاضياً ينظر في الدعاوى الخاصة بقاتلي آبائهم وأمهاتهم ، واذا كنت على وشك ان اصبح طبيباً في ما يبدو ، فلا يستفاد من ذلك ، بالضرورة ، أنني أبه . أنا أوصيكم بالاعتدال في رغباتكم جميعاً . أنا واثق بأنني اقول قولاً حكيماً ثقني بأن اسمي فيلكس تولومبيس . سعيدٌ هو ذلك الذي يتخذ ، عندما تأزف الساعة ، قراراً بطولياً ، ويستقبل مثل سيلّا \* أو أوريجين ! ،

وأصغت فافوريت في انتباه عميق . وقالت :

« فيلكس ! ما اجلها كلمة ! انا احب هذا الاسم . إنه لاتيني .

إنه يفيد معنى الازدهار . »

وأضاف تولومبيس :

« ايها المواطنون ! ايها السادة ! ايها الاصدقاء ! اريدون ان

لا نشعروا بأي حافز ، وان تستغنوا عن المطبخ الزوجي ، وتحدّوا

---

\* ديكتاتور روماني ( ١٣٦ - ٧٨ ق . م ) وقد استقال سنة ٧٩ ق . م .

الحب ؟ ليس قة ما هو أيسر من ذلك . واليسكم الوصفة : شراب الليمون ، والافراط في الرياضة البدنية ، والعمل الشاق . ارهقوا انفسكم بالتعب ؛ إسحبوا الاثقال ؛ لا تناموا ؛ أطيلوا السهر ؛ اكرعوا الاشربة النظرونية وماء النيلوفر ؛ تقطقوا بمستحلبات الحشخاش وكفّ مريم ؛ تبّلوا ذلك بغذاء خشن ؛ جوعوا انفسكم ؛ وأضيفوا الى هذا الابتعاد بالماء ، وأهزمة الاعشاب ، واستخدام طبق رصاصي ، وضروب الغسول \* مع سائل ملح الرصاص ، والكدمات مع مزيج من الخلّ والماء . ، فقال ليستولييه : « أنا أفضل امرأة على ذلك كله . »

فأضاف تولوميس : « المرأة ! إحترز من هذا . شقيّ هو ذلك الذي يُسلم نفسه الى قلب المرأة المتقلب ! المرأة خاتلة غادرة . إنها تكره الافعى بحكم التنافس في الصناعة . الافعى هي الدكان المقابل . ، وصاح بلاشوفيل : « تولوميس ! انت سكران ! »

فقال تولوميس : « وحق الشيطان ! »  
فأضاف بلاشوفيل : « كن مبتهجاً اذن . »  
فأجاب تولوميس : « موافق . »  
ثم إنه أترع كأنه ونحس :

— « المجد للخمر ! \*\* *Nunc , te, Bacche, Canam* عفوآ ، ايها الآنسات ، هذا كلام اسباني . واليكنّ البرهان ، سينورا : مثل ' هذا الشعب يحتاج الى مثل هذه الدنان . إن « آرّوب » قشالة مجنوي ستة عشر ليتراً ؛ وقطار « لقنت » اثني عشر ؛ و « آلودا » جزر الكاناري خمسة وعشرين ؛ و « كوارتن » جزر الباليار ستة وعشرين ؛ و « جزمة » القيصر بطرس ثلاثين . فليحيّ هذا القيصر الذي كان عظيماً ، ولتحيّ جزمته التي كانت أعظم ! ايها السيدات ، إني أسدي اليكنّ نصيحة \* الغسول : ما يُفعل به من الماء . وقد اعتمدناها لتؤذي معنى « لوسيون »

Lotion في اللغات الاجنبية .  
\*\* « والان سأغني لك ، يا باخوس ! » وهو كلام لاتيني وليس اسبانياً .

صديق : إخذعن جيوانكنّ اذا بدا ذلك حسناً في أعينكنّ . إن خاصة الحب الاولى هي انه يهم على وجهه . فالحب لم يجعل لكي مجلس القرفصاء ويصيه الحبل مثل خادمة انكليزية يبتس الفك العنيف ركبتيها . إن الحب اللطيف لم يجعل لهذا ؛ إنه يهم على وجهه مبتهجاً . لقد قيل : إن الهيام على الوجه ظاهرة إنسانية . أما انا فأقول : الهيام على الوجه ظاهرة عشقية . ايها السيدات ، انا أعبدكنّ جميعاً . اوه زيفين ، اوه جوزيفين ، يا ذات الوجه الاكثر من متجمد ، لقد كنتِ جديرة ان تكوني فاتنة لو لم تكوني عبوساً . ان وجهك اشبه ما يكون بوجه جميل جلس عليه بعضهم خطأ . اما فافوريت ، إيه حوربات الماء وعرائس الشعر ! ففي ذات يوم كان بلاشوفيل يعبر مجرى شارع غورين بواسر فرأى فتاة حزناء ترندي جورين بيضارين مشدودين شداً محكمأً ، وكانت تلك الفتاة تكشف عن ساقها . وأعجب بلاشوفيل بهذا الاستهلال ، فوقع في الحب . وكانت تلك التي أحبها هي فافوريت . اوه ، فافوريت ! إن لك شفتين يونانيتين . لقد كان في غابر الزمن رسام اغريقي ، اسمه أوفوريون ؛ وكانوا يلقبونه برسام الشفاء . إن هذا الاغريقي وحده يستحق ان يصور فك . اسمي ! قبلك لم يكن ثمة مخلوقة جديرة بهذا الاسم . لقد جعلتِ لكي تتلقي التفاحة مثل فينوس ، ار لكي تأكلها مثل حواء . إن الجمال بيتدي بك . لقد تحدثتُ عن حواء ؛ إنكِ أنتِ التي خلقتِها . انت تستحقين ان تمنحي شهادة اختراع المرأة الجميلة . اوه ، فافوريت ، إني انتقل من مخاطبتك بضمير المفرد الى مخاطبتك بضمير الجمع لأنني أنتقل من النثر الى الشعر . لقد تحدثتُ منذ لحظة عن اسمي . لقد أثّر ذلك فيّ . ولكن يتعين علينا ، كأناً من كنا ، ان نحذّر الاسماء . إنما قد تكون خادعة . أنا أدعى فيلكس \* ، واست بالرجل السعيد . إن الكلمات لتكذب : فليس ينبغي ان

\* نغيد لفظة felix في اللاتينية معنى السادة واليمن .

نقبل دلائلها قبولاً أعمى . وانه لمن الخطأ ان نكتب الى ليبيج \*  
 التماساً للقليل والى « بو » \* التماساً للقفازات . ويا آتسة داهليا ، لو  
 كنت مكانك لسميت نفسي روزا \* يجب ان يكون للزهرة شذى ،  
 وان يكون للمرأة ذكاء . انا لا اقول شيئاً عن فانتين . إنها متخيلة ،  
 حاملة ، متفكرة ، حساسة . إنها طيف له شكل حورية من حوريات  
 الماء ، وحياة راهبة تاهت فاتخذت سبيل عاملة مغناج ، ولكنها تقفز  
 الى الاوهام ، وتغني ، وتصلي ، وتحدث الى السماء من غير ان تعرف في  
 وضوح ما الذي تراه وما الذي تعمله ، وتنبه - وعيناها مسرعتان الى  
 السماء - في حديقة تنتظم من الطير أكثر مما يوجد هناك . أوه ، فانتين ،  
 اعرفي هذا : أنا ، تولوميس ، وهم - ولكنها لا تسميني مجرد سماع ،  
 هي ابنة الاوهام الشفراء . ومع ذلك ، فكل ما فيها نظارة ، وحلاوة ،  
 وشباب ، وضياء صباحي ناعم . أوه ، فانتين ، انت خليقة بأن تسمي  
 « مرغريت » \*\*\* أو « لؤلؤة » . انت امرأة ذات لمعان ليس أجل  
 منه . ايها السيدات ، اليكن نصيحة ثانية : لا تتزوجن ابداً . الزواج  
 طعم كالذي تطعم به الاشجار . وقد ينبعج هذا الطعم وقد يخفق ، فاجتنبن  
 هذه المغامرة . ولكن ماذا أقول ؟ أنا أضيع كلامي سدى . إذ لا شفاء  
 للنساء من داء الزواج . وكل ما نستطيع نحن الرجال الحكماء قوله لن  
 يحول بين صانعات الصدورات ورابطات ساقيات الاحذية وبين ان يحلن  
 في ازواج مثقلين بالماس . حسن ، ليكن ذلك . ولكن ، ايها الحسان ،  
 اذكرن هذا : انتن تسرفن في أكل السكر . إن لكن خطيئة واحدة ،  
 ايها النساء ، ليس غير ، هي قضم السكر . أوه ، ايها الجنس

\* « ليبيج » و « بو » مدينتان ، الاولى بلييكية والثانية فرنسية .

\*\* اي وردة . و « داهليا » في الاصل اسم زهرة نجمية الشكل ، جبة ولكنها غير

ذات عير .

\*\*\* الزهرة المعروفة بهذا الاسم . وتدعى ايضاً زهرة اللؤلؤ وزهرة الربيع .

القاضم ، إن اسنانكن الصغيرة البيضاء مدلتها بالسكر . والآن ، انهن جيداً ! السكر ملح . وكل ملح يختلف . والسكر اكثر الاملاح تجفيفاً . إنه يمتص سوائل الدم من طريق الأوردة ، ومن هنا ينشأ تخثر الدم ، ثم تصلبه . ومن بعد ذلك يكون السلّ الرئوي ، فالموت . وهذا هو السبب الذي من أجله يتأخم الداء السكريّ داء السلّ . فلا تقضن شيئاً من السكر ، اذن ، وعندئذ تعشن ! ولا تلتفت الآن الى الرجال . ايها السادة ، عليكم بالفتوح . لينهب بعضكم محبوبات بعضكم الآخر من غير ان تستمعروا وخز الضمير ! اقتصوا وتقاتلوا ! فليس في الحب اصدقاء . وحيثما توجد امرأة جميلة يفتح باب الحصومة على مصراعيه . لا رافة ولا استبقاء ، ولكن قتالاً حتى الموت ! المرأة الجميلة هي *Casus Belli* \* المرأة الجميلة هي جرم مشهود . إن جميع غزوات التاريخ إنما قورتها تناير النساء . المرأة هي حق الرجل . فقد سبا رومولوس \*\* نساء سابيين \*\*\* وسبا ولم \*\*\* نساء السكسون ، وسبا قبصر نساء الرومان . إن الرجل غير المحبوب يحوم كالعقاب فوق معشوقات الآخرين . أما أنا ، فأقدم الى جميع الارامل البائسات الاعلان السامي الذي قدمه نابوليون الى جيش ايطالية : « ايها الجند ، إنكم في حاجة الى كل شيء . وإن العدو ليملك كل شيء . »

وكعب تولوميس جراح نفسه .

وقال بلاشوفيل : « خذ نفسك ، يا تولوميس . »

وفي الوقت نفسه مهمم بلاشوفيل ، يساعده ليسنولييه وقامول ، في صوت نادب ، باحدى اغنيات العمال المؤلفة من أولى الكلمات التي ترد على الحاطر ، الغنية بالقوافي والمحرومة منها في وقت معاً ، المجردة من

\* تعبير لاتيني يعني : حالة حرب .

\*\* Romulus ، مؤسس رومة الاسطوري واول ملوكها ( ٧٥٣ - ٧١٥ ق.م )

\*\*\* Sabine من ممالك ايطالية الوسطى في العصور القديمة .

\*\*\*\* ولم الفاتح الذي استول على انكلترا عام ١٠٦٦ ( ١٠٢٧ - ١٠٨٧ )



المعنى مثل حركة الشجر وعزف الرباح ، والمولودة من بخار الانابيب ، المتبددة معه المولدة في إثره . وهذا هو المقطع الذي اجابت به الزمرة على خطاب تولومبيس .

« لقد دفع الآباء المتفلون  
مالاً الى احد الوكلاء ،  
ليمكن يتمكن مسيو كليرمون تونير ،  
من ان يصبح بابا في « سان جان » .  
ولكن كليرمون لم يكن قادراً على ان يصبح بابا .  
لانه لم يكن كاهناً :  
وعندئذ تميز وكيلهم من النبط ،  
واعاد اليهم مالهم . »

وما كان ذلك ليهدي من وحي تولومبيس . لقد افترغ كأسه ، ثم أترعها ، واستأنف الكلام :

— « فلتسقط الحكمة ! أنسوا كل ما قلته . ينبغي ان لا نكون  
مفرطين في التعفف ، ولا متبصرين ، ولا حكماء صالحين . انا اشرب  
نخب الجذل . لكن جذلين . لنختم دراستنا للقانون بالحققة والغذاء .  
سواء المضم ومجموع الفتاوى . \* ليكن جوستنيان هو الذكّر والشرهة  
هي الانثى . إن في الاعناق لبهجة . عيشي ايها الخليفة ! ان العالم ماسة  
ضخمة . انا سعيد . ان الطيور مدهشة ! أيّ عيد هذا الذي يعمّ  
الكون ! إن العنديل هو « ايليفيو » \* بجاني . ايها الصيف ، اني  
احبك . ايه يا حديقة اللوكسمبورغ ، ايه يا قصائد « رو مدام »  
وزقاق الاوسرفاتوار ! ايه ايها الخالمون الذاهلون ! ايه يا جميع أولئك

\* Digeste وهي مجموعة الفتاوى التي وضعها اشهر رجال القانون الرومان بأمر من  
الامبراطور جوستنيان . وبين سوء الهضم indigestion ولنظة Digeste نلاحظ لفظي  
واضح .

\*\* Francois Ellevier من فرنسي مشهور . ( ١٧٦٩ - ١٨٤٢ )

الخدمات الفاتنات اللواتي يتسلّين برسم الاطفال فيما هنّ يقمن بخدمتهم !  
لقد كانت سهول اميركة الجنوبية الواسعة المغطاة بالعشب خليقة بأن  
تبهجني لو لم تكن عندي قناطر الاوديون \* إن روعي لتنتطلق نحو  
الغابات العذراء ونحو السهوب . كل شيء جميل . ان الذباب ليدندن  
في أشعة الشمس . وان الشمس لتدعو صغار الطير الجواثم الى العطاس .  
قُبِّليني ، يا فانتين !  
وَضِّلْ ، وعانق فافوريت .

## ٨

### موت فرس

وصاحت زيفين :

« الغداء في حانة إيدون خيرٌ من الغداء في حانة بومباردا .  
فقال بلاشوفيل : « انا افضل بومباردا على إيدون . إنه أكثر ترفاً .  
إنه أشد آسيوية . انظري الى القاعة السفلى . هناك مرايا *glaces* على  
الجدران . »

فقالت فافوريت : « انا افضل ان اجد المرطبات *glaces* في صحن .  
وأصرُّ بلاشوفيل :  
« انظري الى السكاكين . إن مقابضها فضية عند بومباردا ،  
وعظمية عند إيدون . والفضة طبعاً أثمن من العظم .  
فلاحظ تولومبيس قائلاً :

---

\* اثر اغريفي قديم اطلق اسمه على « المسرح الفرنسي الثاني » الذي اسس  
عام ١٧٩٧ ، والذي أُلحق عام ١٩٤٦ بـ «الكومبيدي فرضيه » تحت اسم « صالة  
اللوكمبورغ » .

- « إلا عند اصحاب الذقون الفضية . »  
وفي هذه اللحظة القى نظرة على قبة الانفاليد ، وكانت تبدو لعيني الناظر من نوافذ حانة بومباردا .  
وران الصمت .  
ثم صاح قامول :  
— « تولوميس ، لقد جرى اللحظة نقاشٌ بيني وبين ليستوليه . »  
فاجاب تولوميس : « النقاش حسن . ولكن النزاع أحسن . »  
— « كنا ننقاش في الفلسفة . »  
— « ليس عندي اعتراض . »  
— « من تفضل : ديكارت أم سبينوزا ؟ »  
فقال تولوميس :  
— « أنا افضل ديسوجيهه \* . »  
حتى اذا اطلق هذا القرار ، احتسى قليلاً من الخمر و اضاف :  
— « انا أرتضي ان اعيش . ليس كل شيء بنتهي على الارض ما دام لا يزال في امكاننا ان نهذي . وانا اعزو الفضل في هذا الى الالهة الخالدة . نحن نكذب ، ولكننا نضحك . نحن نؤكد ، ولكننا نشك . ان غير المتوقع ليتفجر من قياس منطقي . هذا شيء جميل . ولا يزال ثمة على الارض ناس يعرفون كيف يفتحون ويفلقون ، في ابتهاج ، صندوق المفاجآت المنطوي على ما يناقض الآراء السائدة . إلا فاعلمن ، ايها السيدات ، ان هذه الخمرة التي تشربنها في كثير من المدهو هي خمر ماديرا المعتصرة من كروم « كورال داس فريراس » التي تعلو ثلاثئة وسبع عشرة قامة فوق سطح البحر . إنتهين وانتهين تشربن ! ثلاثئة وسبع عشرة قامة ! ومسيو بومباردا ، هذا المطعبي الرائع ، يقدم اليكن هذه الثلاثئة والسبع عشرة قامة لقاء أربعة
- 
- \* Désaugiers من " وتمثل فرنسي ( ١٧٧٢ - ١٨٢٧ )

فرنسكات وخمين سنياً . »

وقاطعه فامول كرة اخرى :

— « تولوميس ، إن آراءك فانون . من هو الكاتب المفضل عندك ؟ »

-- « بير ... »

— « ... كين ؟ » \*

وتابع تولوميس :

— « الحمد لمباردا ! إنه جدير بأن يكون صنواً لـ « مونوفيس ديليفانتا » اذا استطاع أن يأتيني بمألة \*\* وصنواً لـ « تيجيليون دو شيرونه » اذا استطاع ان يأتيني بأحدى بنات الهوى ! لانه كان ثمة — اوه ، ايتها السيدات — بومباردات في اليونان ومصر . ذلك ما نجبرنا به « أبولي » \*\*\* وأسفاه ! الشيء نفسه دائماً ، ولا جديد البتة . لم يبق شيء غير منشور في خليفة الحالتى ! \*\*\*\* *Nil sub sole novum* \*\*\*\*\* *Amor omnibus idem* كذلك يقول فيرجيل . وتركب كلاراين مع كارابان في الزورق في سان كلو كما ركبت آسباسيا \*\*\*\*\* مع بريكلis \*\*\*\*\* مغن اسطول ساموس . كلمة اخيرة . هل تعرفن ، ايتها السيدات ، من كانت آسباسيا هذه ؟ على

---

\* المقصود « بيركين » Berquin الكاتب الفرنسي ( ١٧٤٧ - ١٧٩١ ) صاحب كتاب « مديق الاطفال » .

\*\* هكذا في الاصل almée وهي كلمة عربية مصرية تعني الراضة المنية .

\*\*\* Apulée كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني .

\*\*\*\* في اللاتينية وممتاها : لا جديد تحت الشمس .

\*\*\*\*\* في اللاتينية : الحب واحد عند الجميع .

\*\*\*\*\* Aspasie بنى اغريقية اشتهرت ببها لها وذكاها ، وقد اصبحت في ما بعد

زوجة بريكلis ، وكان منزلها موئلاً لاعظم الفلاسفة والفنانين والكاتب وبخاصة سقراط .

\*\*\*\*\* Périclès رجل الدولة الاغريقي الكبير ، وكانت له يد يضاء على الحياة

الادبية والفنية في اثينا . وقد جرد حلة بحرية على ساموس ، احدى جزر

الارخبيل اليونانية .

الرغم من انها عاشت في عصر كانت المرأة لا تزال فيه غير ذات روح ، فقد كانت روحاً ؛ روحاً ذات ظلٍ وردىٍ وارجواني ، اشدّ توهجاً من النار ، وأنضر من الفجر . كانت آسبانيا مخلوقة مست طرفي المرأة الاكثر نظراً ؛ كانت البنية الالاهة . كانت سقراط ، مضافاً اليه مانون ليسكو . \* لقد خلقت آسبانيا للظرف الذي قد يحتاج فيه بروميثيوس \*\* الى زانية . ،

ولم يكن من اليسير ان يُكبح جماح تولوميس ، بعد ان انطلق ، لو لم يسط جواد ، في هذه اللحظة ذاتها ، على رصيف الشاطئ . لقد اوقفت الصدمة كلاً من العربية والحطيب . كانت فرساً من افراس مقاطعة بوس ، عجوزاً سهولة جديرة بالقصاب ، تسحب عربة ذات ثقل ثقل . حتى اذا انتهت الدابة الى حانة بومباردا ، وقد هدّتها الاعياء ، أتت ان تتقدم خطوة واحدة . وادى هذا الحادث الى تجهم القوم . ولم يكده سائق العربية ، المهدف المفتاظ ، يجد الوقت الذي يمكنه من ان يلفظ ، في عزم ملائم ، تلك الكلمة الحاسمة : « كلب ! » مردفاً ايها بضربة سوط رهيب ، حتى خرّت الفرس الحفيرة على الارض لكي لا تنهض بعد ذلك ابداً . وعلى جلبه عابري السبيل أدار رفاق تولوميس ، المستمعون الى خطابه ، رؤوسهم ، واغتم تولوميس هذه الفرصة فغتم الخطاب بهذا المقطع الكتيب :

« كانت من ذلك العالم حيث تنتهي طيور الزوايا  
والعربات الفاخرة الى الصبر نفسه .

---

\* Manon Lescaut هي بطلّة الرواية التي تحمل اسمها وقد عاشت عيش البغايا الفاضلات .  
والرواية من تأليف الراهب بريغوست ( ١٧٩٧ - ١٧٦٣ )  
\*\* الله النار ، وهو يبدو في الاساطير السلافيّة وكأنه مبدع اول حضارة انسانية . فبدأ أن شكل الانسان من الوحل الراسب في قعر المياه الزاكدة سرق النار من السماء لكي يمت الحياة في انسانيته ذاك ، فانتم منه جويثير ، الخ ...

والفرس الضعيفة ، لقد عاشت على قدر ما تعيش النادل ،  
فترة صباح ! »

وتنهدت فانتين : « يا لها من فرس مكينة ! »  
وصاحت داهليا :

- « هي ذي فانتين توفي للخيول ! هل عرفتم قبل اليوم شيئاً اكثر  
حماقة من هذا ؟ »

وفي هذه اللحظة صالت فافوريت ذراعها ، وادارت رأسها الى  
الوراء ، وحدّقت الى تولوميس قائلة :

- « آه ! والمفاجأة ؟ »

فأجابها تولوميس :

- « تماماً . لقد أُرِفت اللحظة . ايها السادة ، لقد آن لنا ان نقدم

المفاجأة الى هاته السيدات . ايها السيدات ، انتظرننا لحظة . »

فقال بلاشوفيل : « إنها تبدأ بقبلة . »

واضاف تولوميس :

- « على الجبين . »

وفي رصانة ، طبع كل منهم قبلة على جبين صاحبه ، ومن ثم تقدم  
الشباب الاربعة نحو الباب ، واحداً إثر واحد ، وقد وضع كل منهم  
إصبعه على فمه .

وصفقت فافوريت فيما كانوا يخرجون .

وقالت : « إنها بمتعة منذ الآن . »

وتمت فانتين :

- « لا تأخروا اكثر بما ينبغي ! نحن في انتظاركم ! »

## نهاية الابتهاج البهيجة

واسندت الفتيات سرافقهن ، اثنتين اثنتين ، - وقد غودرن وحدهن - على دعامة النوافذ ، وانشأن يثرثن ، حانيات رؤوسهن ، ويتكلمن من نافذة الى اخرى .

لقد رأين الشبان يفادرون حانة بومباردا متشابكي الاذرع ، ثم يلتفتون الى وراء ويومثون اليهن ضاحكين ، ليخفوا بعد ذلك وسط حشود يوم الأحد المغبرة التي تغزو الـ « شان زيليزيه » مرة كل اسبوع .

وصاحت فانتين :

- « لا تتأخروا ! »

وقالت زيفين : « اي شيء سيحملونه الينا ؟ »

فقات داهليا : « سيكون شيئاً جيلاً من غير شك . »

واندفعت فافوريت الى القول :

- « ارجو ان يكون من ذهب . »

وما هي الا فترة قصيرة حتى اذهلتهن الحركة المضطربة عند شاطيء الماء - تلك الحركة التي ميزنها من خلال اغصان الاشجار السامقة ، والتي ألهتهن إلهاء شديداً . كانت ساعة انطلاق مركبات البريد وعربات المسافرين . ولقد مرت العربات العامة ، القاصدة الى الجنوب والغرب - مرت كلها تقريباً ، آنذاك ، بـ « شان زيليزيه » . واتخذ القسم الاعظم منها سبيل الرصيف ، وانطلق من خلال « حاجز باسي » . ففي كل دقيقة كانت احدى العربات الضخمة ، المدهونة باللونين الاصفر والاسود ، المثقلة الى حد بعيد ، المجهزة على نحو صارخ ، المشوّهة

بصناديق الامتعة ، والاغطية الجلدية ، والحفائب ، الملقى بالرووس التي كانت تحتفي على نحو موصول ، المفتحة الجزء المقوس من الطريق ، المحوثة حصاء الشارع الى زناد للقدح - في كل دقيقة كانت احدى هذه العربات تندفع وسط الحشد مطلقة الشرر مثل كور الحداد ، وقد حلّ الغبار محلّ الدخان ، وبدت عليها سيما الحدة والغضب . وسرت الفتيات بهذه الجلبة . وصاحت فافوريت :

— « يا لها من ضواء ! يجيّل الى المرء ان اكواماً من السلاسل تولي فراراً . »

وشاءت المصادفة ، ان تقف احدى هذه العربات التي كان في ميسورهن رؤيتها في عسر من خلال شجرات الدردار الكثيفة ، ثم تنطلق بعد لحظة على جناح السرعة . واثار ذلك عجب فانتين . وقالت : « هذا عجيب ! لقد حسبت ان عربات المسافرين لا تقف أبداً . »

وهزّت فافوريت كتفيها :

— « ان فانتين هذه تثير الدهش ؛ أنا انظر اليها في فضول . إنها تعجب لا بسط الاشياء . لنفرض اني مسافرة من المسافرين ؛ عندئذ أقول للعربة العمومية : انا راحلة ؛ في استطاعتك أن تحمليني في طريقك من على رصيف الشاطيء . وتمر العربة ، وتراني ، وتقف ، وتقلّني على متنها ، هذا يقع كل يوم . أنت لا تعرفين الحياة ، يا عزيزتي . » وتقصّى بعض الوقت ، على هذا النحو . وفجأة أجهلت فافوريت إجحال ناظم استيقظ من الرقاد .

وقالت : « ولكن ... اين المفاجأة ؟ »

فقال داھليا :

— « اجل ، المفاجأة الشهيرة . »

وقالت فانتين :



- « لقد تأخروا كثيراً جداً ! »  
 ولم تكده فانتين تمّ تهديتها حتى دخل النادل الذي خدمهم على المائدة .  
 كان يحمل في يده شيئاً بدا وكأنه رسالة .  
 وتساءلت فافوريت :  
 - « ما هذا ؟ »  
 فأجاب : « انها ورقة تركها اولئك السادة الى هؤلاء السيدات . »  
 - « ولماذا لم تحملها اليها في الحال ؟ »  
 فأجاب الغلام :  
 - « لأن اولئك السادة اروني ان لا اقدمها الى هؤلاء السيدات  
 الا بعد ساعة من تلسمي اياها . »  
 وانتزعت فافوريت الورقة من يدي الغلام . كانت رسالة حقاً .  
 وقال : « عجيب ! ليس ثمّة عنوان . ولكن انظرت ما كتّبت  
 فيها :

### هذه هي المفاجأة

وفي مثل لمح البصر ، فضّت الرسالة ، وفتحتها وقرأت ( كانت  
 تعرف القراءة ) :

« أوه ، يا احببتنا !

« اعلن ان لنا أهلاً . أجل أهلاً . إنكنّ لا تكدن تعرفن معنى  
 هذه الكلمة . إنهم اولئك الذين ندعوم في القانون المدني آباء وامهات .  
 إنهم بسطاء ولكنهم فاضلون . إنهم يحثون اليها . ان هؤلاء العجائز  
 يطالبون بنا . ان هؤلاء الرجال الطيبين وهاته النساء الطبيبات يدعوننا  
 « الابناء الضالين » وهم يتمنون عودتنا ، ويعيدون بأن يذبحوا العجول  
 لنا . ولما كنا متعلقين باهداب الفضيلة فسوف نطيعهم . وهكذا ستتطلق

حالما تقرأن هذه الورقة ، خمسة جياذ قوية عائدة بنا الى آبائنا وامهاتنا . نحن ننصب خيامنا ، كما يقول بوسويه . إتنا ذاهبون ؛ لقد ذهبنا . نحن نظير بين ذراعي لافيت ، وعلى جناحي كاتار . ان عربة تولوز العمومية تنتشلنا من الهوة ، وما هذه الهوة الا انتن ، يا صغيراتنا الجليات ! نحن عائدون الى المجتمع ، الى الواجب والنظام ، في سرعة عظيمة بمعدل ثلاثة فراسخ في الساعة . إنه لما بهم الوطن ان نصبح مثل سائر الناس ولاة ، وارباب -أمر ، ونواطير ، ومشاري دولة . إحترمتنا ووقرتنا ! نحن نضحى بانفسنا . إنتعن علينا في الحال ، وسارعن الى الاستعاضة عنا بغيرنا . واذا مزقت هذه الرسالة اقتدتكن ، فزقنها بدوركن . وداعاً .

« لقد أدخلنا السعادة على نفوسكن طوال سنتين تقريباً . فلا نخقدن علينا من اجل هذا .

« التواقيع : بلاشوفيل .

« فامول .

« ليستولييه .

« فيلكس تولوميس .

« حاشية : - نفقات الغداء قد دُفعت . »

وتبادلت الفتيات الاربعة النظرات .

وكانت فافوريت اول من قطع حبل الصمت .

وصاحت : « إنها مهزلة حلوة حقاً . »

وقالت زيفين :

- « إنها مضحكة جداً . »

واردفت فافوريت :

- « لا شك في ان بلاشوفيل هو صاحب الفكرة . هذا ما يجعلني

أحبه . فراق عاجل ، وحب عاجل . تلك هي القصة . »

فقلت داهليا :

— « لا . إنها فكرة تولوميس . هذا شيء واضح . »

فمادت فافوريت الى القول :

— « اذا كان ذلك ، فليسقط بلاشوفيل ، وليحي تولوميس ! »

وهتفت داهليا وزينين :

— « فليحي تولوميس ! »

وانفجرن ضاحكات .

وضحكت فانتين مثل غيرها .

وبعد ساعة ، عندما عاودت الدخول الى غرفتها ، سفعت الدمع .

كان ذلك ، كما ذكرنا ، حبها الاول . وكانت قد اسلمت نفسها الى

تولوميس ذاك وكأنه زوجها . كانت الفتاة المسكينة أمّ ولد .

## الكتاب الرابع

# الإيداعُ يعني التحصيلُ حيّاناً

١

أمّ تلتقي أمّ

كان في الربع الاول من هذا القرن ، في مونفيرماي قرب باريس شبه مطعم حقير لم يعد قائماً اليوم . وكان يدير هذا المطعم رجل يدعى تيناردييه ، وزوجته . وكان يقوم في زقاق بولانجيه . وفوق الباب كان المرء يرى لوحةً مسطرةً على الجدار قائماً . وكان مرسومًا على هذه اللوحة شيء يشبه رجلاً على ظهره رجلٌ آخر يحمل كتابتين \* ضخمتين مذهبتين كاللتين يحملها الجنرالات ، وقد زانتهم

---

\* الكتافة لفظة اصططنها لتقابل كلمة épaulement وهي ما يضعه الجندي من زينة عسكرية على كتفيه .

نجوم كبيرة مفضضة . وكانت قمة لطخات حمراء ترمز الى الدم . اما سائر الصورة فكان دخاناً ، ولعله كان يمثل معركة . وتحت الرسم كانت مكتوباً : رقيب \* واترلو .

وليس شيء اكثر شيوعاً من عربة او عجلة ذات دولابين امام باب فندق . ومع ذلك ، فان تلك المركبة ، او على الاصح ، ذلك الجزء من مركبة ، التي اعتوت الشارع امام مطعم « رقيب واترلو » ذات مساء من ربيع عام ١٨١٨ ، كانت خليفة من غير شك بأن تلفت بضخامتها انتباه أيما رسام يمر بها .

كانت عربة امامية من تلك العربات الضخام ، التي تُصطنع في الديار المحاطة بالغابات لنقل ألواح الحشب الفليضة وجذوع الاشجار . وكانت هذه العربة الامامية تتألف من محور حديدي ضخيم ذي قطب مُدَّ اليه بحجر ثقيل ، وتنهض على عجلتين هائلتين . وعلى الجملة ، فقد كانت ضخمة قصيرة ، ساحقة ، مشوَّهة : لقد كان من الجائر ان يحسبها الرائي عربة مدفع عملاقة .

كانت الطرق قد غطت العجلتين وإطاريهما ، ومركزهما ، والمحور ، والمجر بطبقة من الطين قيحة ضاربة الى الصفرة شبيهة لونها بذلك الذي نرغب في ان نزين به جدران الكاتدرائيات . لقد اختفى الحشب تحت الطين ، واختفى الحديد تحت الصدا .

وتحت المحور كانت تتدلى سلسلة ضخمة نلاثم جباراً من جبابرة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وما كانت هذه السلسلة لتعيد الى الذاكرة العوارض الحشبية الضخمة التي كانت تحملها ، ولكن صور الحيوانات المنقرضة من ماستودونت وماموث \*\* التي كان خليقاً بها أن تقرئها . كانت لا تذكر المـرءـة

\* الرقيب رتبة عسكرية تقابل « سرجان » sergeant

\*\* الماموث mammoth ضرب من فيلة الاعمى الجيولوجية المنقرضة .

يسجون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الخاصة بالبشر ، ولكن يسجون الاشغال الشاقة الخاصة بجماعة السيكلوب \* ومن هم فوق البشر . ولقد بدت وكأنها قد نُزعت عن مارد من المردة . كان هوميروس خليفاً بأن يوثق بها بوليفيوس \*\* ، وكان شيكسبير خليفاً بأن يوثق بها كاليبان \*\*\* . لم كانت هذه العربية الامامية في ذلك الموضع من الشارع ؟ اولاً ، لكي تعترض السبيل ، وثانياً لكي تستكمل صداها . إن في النظام الاجتماعي القديم مجموعة من المؤسسات التي نجدها هكذا معترضة سبيلنا ، والتي ليس لوجودها أي مبرر آخر .

كان وسط السلسلة يتدلى فَوَيق الارض ، تحت المحور . وعلى منحناها ، جلست ذلك المساء ، في تشابك رائع ، فتاتان صغيرتان ، وكأنهما فوق جبل ارجوحة من الاراجيع . كانت صغراهما تبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً ، وكانت كبراهما تبلغ من العمر سنتين ونصف سنة تقريباً . وكانت الكبرى تضم الصغرى بين ذراعيها .

كان مندبل بارع العقْد يقيها من السقوط . ولقد رأَت احدى الامهات هذه السلسلة المروعة ، ذات يوم ، فقالت : « آه ، هي ذي لعبة لأولادي ! »

كانت الطفلتان مزيتتين على نحو بهيج ، وكانتا عند التحقيق 'مشرقي الوجه ، فكأنهما وردتان 'غمرستا في الحديد الصدي . كانت أعينهما تومض إيماءة الظفر ، وكانت وجنتاهما النضرة تضحك . كانت أحدهما

---

\* Cyclope في الاساطير اليونانية عملاق ذو عين واحدة في وسط الجبين . وعائلة السيكلوب هؤلاء كانت مهمتهم ان يطرقوا الصواعق لجوبيتر ويساعدوا فولكان ، اله النار والامادن ، في اعماله .

\*\* Polyphème هو اشهر عمالقة السيكلوب ، وابن نبتون . وقد اقتلع اوليس بطل اوديسة هوميروس عينه الوحيدة ، وجبه في كهفه مع سائر رفاقه .

\*\*\* Caliban من شخصيات شيكسبير في روايته « العاصفة » . وهو يمثل القوة البهيمية الجبارة التي تُكره على الخضوع لقوة عليا ، ولكنها تحاول دائماً الثورة عليها .

كسنانية اللون ، وكانت الاخرى سمراء . وكان وجههما الازجاء عبيين فانتين . وكان العير الذي اطلقته بعض الشجيرات البرية المنورة غير بعيد منها يبدو وكأنه انفسها . وكانت الصغرى تكشف عن جسدها اللدن بقلّة الاحتمام العفيفة التي تميز الطفولة . وفوق هذين الرأسين الناعمين وحولهما - هذين الرأسين المفرغين في العادة ، المستحعين بالضياء - تقوّست العربية الهائلة - سوداء بالصدأ ، مروعة ، او تكاد ، بانحناءاتها المتشابكة وزواياها الوعرة - وكانت في مفارقة من المغاور .

وكانت أمهما - وهي امرأة بشوش بعض الشيء ولكنها كانت مؤثرة في هذه اللحظة - جالسة على عتبة الفندق ، تؤرجح الطفلتين بحبل طويل ، حاضنة إلهما بعينها خشية ان يصيبها حادث ما ، وقد طفت على بحياها تلك الانطباعة الحيوانية السهاوية التي تميز الامومة . ومع كل اندفاعة من اندفاعات السلسلة الى امام والى وراء كانت الحلقات البشعة تطلق ضجة صارة أشبه ما يكون بصيحة غصبي . كانت الطفلتان الصغيرتان في نشوة غامرة ؛ ولم يكن ثمة شيء اكثر فتنة من هوى المصادفة هذا الذي جعل من سلسلة من سلاسل المرافقة ، ارجوحة لصغار الملائكة .

وفيما الأم تهز الطفلتين غنت في صوت ناسر أغنية كانت شعبية آنذاك :

« يجب ، يجب ، قال احد الحارين ، »

ومنعها غناؤها وسراقبتها طفلتيها من ان تسمع وترى ما كان جارياً في الشارع .

كان شخص ما يقترب منها ، على اية حال ، فيما هي تستهل المقطع الاول من الاغنية . وفجأة سمعت صوتاً ، قريباً جداً من اذنها ، يقول :

- « إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدي . »

هذا اجابت الأم ، منسمة اغنيها . ثم ادارت رأسها .  
كانت امرأة واقفة على بضع خطى منها . وكان لها هي ايضاً طفلة  
تحملها بين ذراعيها .

وكانت تحمل ايضاً 'خرجاً ضخماً من اخراج السفر ، بدا ثقيلاً جداً .  
وكانت طفلة هذه المرأة من اكثر الكائنات التي تقع عليها العين بهاءً  
والوهية . كانت فتاة براوح عمرها ما بين سنتين وثلاث سنوات . وكان  
في ميسورها ان تخوض الى جانب الطفلين الصغيرتين الاخيرين في مسابقة  
في روعة اللباس . كانت تعتمر قبعة من كتان ناعم ، وكانت على  
كتفها عصائب ، وعلى قبعتها وشي . كانت ثنيات تنورتها مرفوعة الى  
درجة تكشف عن ساقها البيضاء البدنية المكتنزة . كانت وردية فاضحة  
بالصحة الى حد فائق . وكانت الطفلة الصغيرة الحلوة تغري المرء بأن  
يضع تفاح خديها . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً عن عينيها إلا أنها  
كانتا من غير ريب متسعيتين جداً ، محوطين باجفان باهرة . كانت نائمة .  
لقد استغرقت في ذلك الرقاد الموهل في الطمأنينة ، الذي لا يعرفه  
غير الاطفال . إن اذرع الامهات مصوغة من خنان . وإن الاطفال  
لينامون عليها نوماً عميقاً .

أما الأم فقد بدت فقيرة محزونة . كانت تظفر عليها انطباعة عاملة  
من العائلات تريد ان تستأنف العيش في الريف . كانت نضرة العود  
- وجيلة ؟ جائز . ولكن الجمال لا يمكن ان يتبدى في تلك الكسوة .  
وكان شعرها ، الذي تدلت منه خصلة شقراء ، يبدو أثيراً جداً ،  
ولكنه كان محبوباً في قسوة تحت قلنسوة من قلائس الراهبات بشعة ،  
محكمة الربط ، خيطة ، معقودة تحت ذقنها . ومن شأن الضحك ان  
يكشف عن الاسنان الجيلة حين يكون للمرء اسنان جميلة ، ولكنها لم



تضحك . ولقد بدت عيناها وكأنها سلختا دهرآ طويلاً تسفحات  
العبرات . كانت مهزولة ، وكانت تبدو عليها سبا الاعياء الشديد ،  
والمرض الطفيف . لقد نظرت الى طفلتها الراقدة بين ذراعيها تلك  
المنظرة التي لا تتم الا لأمّ "تضع فلة كبدها . وكان مندبل عريض  
أزرق كمناديل العبرة مطويّ عبر صدرها ، يفتح شكلها على نحو تعوزه  
البراعة . وكانت يداها مسفوعتين ، منقطتين بالنمش ؛ وكانت سابقتها  
متصلة بمنزقة من اثر الابرة . كانت ترتدي رداء فضفاضاً بنيّاً من  
صوف غليظ ، وفستاناً من خام ، وتنتعل حذاء ضخماً ثقيلآ . كانت  
فانتين .

أجل ، فانتين . كان من العسير على المرء ان يعرفها . ومع ذلك  
فما ان يمين النظر اليها حتى يرى انها ما تزال محتفظة بجمالها . كان خطّ  
كيب كذلك الذي ينشكل عند مطلع التهم ، يطبع خدها الايمن .  
اما زينتها - تلك الزينة الرقيقة المؤلفة من حرير موصليّ ومن عصائب ،  
والتي بدت وكأنها مصنوعة من البهجة ، والحاقة ، والموسقى ؛ والتي  
حفلت بالبهارج ، ونعطرت بالزنابق - فكانت قد ذابت كما يذوب  
الجليد المائت الجليل الذي تحسبه تحت اشعة الشمس ماساً متوهجآ . لقد  
ذابت ، مخلّفة الغصن اسود موحشآ .  
كانت عشرة أشهر قد تقصّت على « المهزلة الحلوة » .

ايّ شيء جرى خلال هذه الاشهر العشرة ؟ في استطاعتنا ان  
نحزر .

فبعد التهوؤ يأتي البلاء . فما هي إلا فترة حتى غابت فافوريت ،  
وزيفين ، وداهليا عن ناظرَيّ فانتين . ذلك بأن الصلة التي قطعت من  
جانب الرجال ما لبثت أن حُلّت من جانب النساء ، فهن خليقات  
بأن يدهشن اذا ما زعت لإحداهنّ ، بعد اسبوعين اثنين ، انهنّ كنّ  
صديقات . لم يكن ثمّة سبب يدعوهن الى الابقاء على تلك الصداقة .

وغودرت فانتين وحدها . وإذ مضى والد طفلتها لبيبه - وأسفاه !  
فأمثال هذه الهجرة تكون دائماً الى غير رجعة - ألقت نفسها في عزلة  
مطاقة ، وقد تضاءلت عندها عادة العمل ، وتعاظمت عندها الرغبة في  
الملاذات . كانت صلتها بتولوميس قد قادتها الى ان تزدي المهنة  
الصغيرة التي عرفتها ، فاذا هي تشبع بوجهها من المنافذ التي عرضت لها ،  
واذا بهذه المنافذ توصل آخر الامر في وجهها . وغدت ولا مورد لها .  
كانت فانتين لا تكاد تفك الحرف ، ولم تكن تعرف الكتابة . لقد  
علموها في طفولتها كيف توقع اسمها ليس غير . وعهدت الى احد  
كتاب الرسائل العموميين في ان يسطر لها رسالة الى تولوميس . ثم  
عهدت اليه في ذلك ثانية وثالثة . ولكن تولوميس لم يجب على اي  
من تلك الرسائل . وذات يوم ، سمعت فانتين بعض النوبة الثورات  
يقلن ناظرات الى ابنتها : « وهل ينظر الناس الى هؤلاء الأطفال جدية ؟  
إنهم يهزون أكتافهم حين يرون امثال هؤلاء الاطفال ! » وعندئذ  
فكرت في تولوميس الذي هزّ كتفيه لولده ، والذي لم يأخذ هذه  
المخلوقة البريئة أخذاً جدياً . وغدا فزادها مظلماً في الوطن الذي كان  
موطنه . ما الذي يتعين عليها ان تفعله ؟ لم يكن ثمة من تستشير . لقد  
اركتبت خطيئة ، ولكن طبيعتها كانت ، في اعماقها ، كما عرفنا ، عنوان  
الحياء والفضيلة . وراودها شعور غامض بانها على وشك التردّي في الشقاء  
والانزلاق الى الشارع . ينبغي ان تكون لديها الشجاعة الكافية . ولم  
تعوزها الشجاعة . وتحملت مصيبتها في صبر . وخطر لها ان ترجع الى  
موطن رأسها ، قرية مونتروي سور مير ، فقد تجد هناك من يعرفها ،  
ويعطيها عملاً . اجل ، ولكن عليها ان تحفي خطيئتها . وتؤامى لها  
على نحو غامض شعب فراق اشدّ ايلاماً من الفراق الاول . وانقبض  
صدرها ، ولكنها وطئت النفس على ذلك . لقد كانت فانتين غفلة ،  
كما سوف نرى ، شجاعة الحياة الضاربة .

وكانت قد نخلت ، في بسالة ، عن تبرّجها ، وارتدت الملابس المصنوعة من الحام ، وحوّلت اثوابها الحريرية كلها ، وخرقها كلها ، وعصائبها كلها ، ووشيا كله الى ابنتها - زهوا الأوحـد الذي بقي لها ، وإنه لزهوٌ إلهي . وباعت كل ما تملك ، فعاد عليها بمئتي فرنك . حتى اذا وفّت ديونها الصغيرة لم يبق معها غير ثنتين فرنكاً تقريباً . وذات صباح جميل من أيام الربيع ، وفي سنـها الثانية والعشرين ، غادرت باريس حاملة طفلتها على ظهرها . وخلق بكل من رأى اليها تجوزان الشوارع ان يأخذها الاشتاق عليهما . فهذه المرأة لم يكن لها في العالم غير هذه الطفلة ، وهذه الطفلة لم يكن لها في العالم غير هذه المرأة . كانت فانتين قد ارضعت ابنتها ؛ وكان ذلك قد اوهن صدرها بعض الشيء ، فهي تسعل سعالاً طفيفاً .

ولست بنا حاجة ، بعد ، الى ان نتحدث عن مسيو فيلكس تولوميس . فنجتريه هنا بالقول انه انتهى الى ان يصبح ، بعد عشرين سنة ، وفي عهد الملك لويس فيليب ، نائباً عاماً ريفياً بديناً ، ذا ثروة وذا نفوذ ؛ وناخباً حكيماً ومخلصاً شديد القسوة ، بيد انه ظل دائماً رجل هو ومتعة .

وحوالى الظهر ، وبعد أن امتطت بين الفينة والفينة - التماساً للراحة ومقابل ثلاثة فلوس او اربعة اكلّ فرسخ - مقنّ ما كان يُعرف آنذاك بـ « العربات الصغيرة الخاصة بضواحي باريس » وصلت فانتين الى مونفيرماي ، ووقفت في زقاق بولانجييه .

وفيا هي تجتاز بفندق تيناردييه ، ترك منظر الطفلتين القاعدتين في ابتهاج على ارجوحتهما المائلة ، اثراً مذهلاً في نفسها ، وتملت امام هذا المشهد المرح .

إن ثمة رُقى . ولقد كانت هاتان الطفلتان الصغيرتان رُقية لهذه الأم . وتأملتـهما في انفعال غامر . ان وجود الملائكة بشرى بالجنة . وخيل لها انها رأت فوق هذا الفندق لفظة « هنا » الحُصية التي تخطّها العناية

الالهية . كانت هاتان الطفلتان سعيدتين من غير شك ! وحدثت اليها  
وأعجبت بها ، وقد غلب عليها التأثر الى حد جعلها لا تملك نفسها -  
حين اخذت الأم نفساً يعين يسي أغنيتهما - عن ان تقول ما سبق  
ان قرأناه :

« إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

إن أشد الحيوانات ضراوة لتلقي السلاح حين ترى صغارها موضع  
تودد وملاطفة .

ورفعت الأم رأسها ، وشكرتها ، وسألت عابرة السبيل ان تجلس  
على درجة السلم الحجرية ، وكانت هي نفسها قاعدة على عتبة الباب .  
وتجاذبت المرأتان اطراف الحديث .

فقال أم الفاتنتين الصغيرتين :

« اسمي مدام تيناردييه . نحن ندير هذا الفندق . »

ثم واصلت انشادها فغنت من بين أسنانها :

« يجب ، يجب ، فأنا فارس

« ولوف اسافر الى فلسطين ! »

وكانت السيدة تيناردييه امرأة حمراء الشعر ، بدينة ، ذات زوايا  
وتنوءات : نموذج زوجة الجندي بكل ما يوحى به من الرعب . ومن عجب  
انه كانت تظفوا على عيها انطباعة استرخاء اكتسبتها من قراءة الروايات .  
كانت مغناجاً متوجلة . والواقع ان الروايات القديمة المنطبعة على خيال  
صاحبات الفنادق لتختلف مثل هذه الآثار . كانت لا تزال شابة لمّا  
تتجاوز الثلاثين من عمرها . ولو كانت هذه المرأة ، الجالسة القرفصاء ،  
واقفة منتصبه القامة ، اذن لكان من الجائز لقسامتها الشاحنة وكتفيها  
العريضتين المشبهتين كنفي تمثال عظيم متحرك - الجديرة بأمرأة من نساء  
السوق الموسمية - ان تجفل عابرة السبيل ، وتعكر صفو اطمئنانها وتحول

دون وفروع الاحداث التي سنرويها . شخصٌ جالسٌ بدلاً من ان يكون واقفاً : إن القَدَرَ ليتأرجح على خيط رقيق مثل هذا .  
وقعت عابرة السبيل حكايتها ، في شيء من التعديل .

قالت انها كانت عاملة ، وان زوجها قد مات ؛ واذ لم توفق الى عمل في باريس فقد مضت تلتسه في مكان آخر ، في المقاطعة التي ابصرت فيها النور ؛ وانها غادرت باريس ذلك الصباح سعيًا على قدميها ؛ وان حملها طفلتها قد اورثها إعياءً شديداً ؛ وانها التقت عربة فيلموبل فركبته ؛ وانها انطلقت من فيلموبل الى مونفيرماي سيرا على القدمين ؛ وان الطفلة الصغيرة مشت قليلاً ، ولكن ليس كثيراً ، فهي اصغر من ان تقدر على ذلك ؛ وانها اضطرت الى ان تحملها ؛ وات الجوهرة كانت قد استسلمت للرقاد .

حتى اذا لفظت هذه الكلمة طبعت على جبين ابنتها قبةً حنوناً أيقظتها من نومها . لقد فتحت الطفلة عينيها الزرقاوين الواسعتين ، مثل عيني أمها ، وأبصرت - ماذا أبصرت ؟ لا شيء ، كل شيء ، بانطباع الاطفال الصغار الجدية ، الصارمة في بعض الاحيان ، التي هي احد اسرار برامتهم امام فضائلنا المعتة . وفي ميسور المراء ان يزعم أن اولئك الاطفال يستشعرون انهم ملائكة ، ويعرفون اننا بشر . ثم انشأت الطفلة تضحك . وعلى الرغم من ان امها كبتت جماعها ، فقد انزلت الى الارض بمثل القوة التي لا سبيل الى قهرها والتي تكون لطفل يريد ان يفر . وفجأة رأت الطفلتين الاخريين على ارجوحتهما ، فوقفت فجأة ، واخرجت لسانها علامة الاعجاب .

وحلّت السيدة نيناردييه وثاق طفلتها وأنزلتها عن الارجوحة ،  
قائلة :

- « الْعَبْنُ كُلُّهُنَّ مَعًا . »

إن الاطفال في مثل هذه السنّ لئانس بعضهم الى بعض في سهولة

ويسر . فما هي إلا لحظة حتى كانت بنتا السيدة تيناردييه تلعبان مع الوافدة الجديدة ، حافرات ثقباً في الارض بابتهاج غامر .

كانت هذه الراقدة الجديدة مريحة جداً : ان طيبة الأم لمطورة في بهجة الطفلة . كانت قد تناولت شطبة من خشب واتخذت منها مجرفة ، وراحت تشق في نشاط حفرة تلائم ذبابة . إن عمل حفار القبور ليصبح سائناً جميلاً حين يقوم به طفل . واستأنفت المرأتان حديثها .

- « ما اسم طفلك الصغيرة ؟ »

- « كوزيت . »

ولكن عليك ان تقرأ أوفرازي بدلاً من كوزيت . فقد كانت الصغيرة تدعى أوفرازي . بيد ان الأم جعلتها كوزيت بتلك الغريزة الحلوة الفاتنة التي تجعل الامهات والناس يحولون « جوزيفا » الى « يبييتا » ، و « فرانسواز » الى « ميليت » . ذلك ضرب من الاستقاق يزعج علم علماء الاستقاق وبشوشه كله . فنحن نعرف جده « وفقت الى ان تقلب « تيودور » الى « غنون » .

- « ما عمرها ؟ »

- « انها تخطو نحو الثالثة . »

- « هي اذن في عمر ابنتي الكبرى . »

كانت الفتيات الثلاث قد اجتمعن في وضع من القلق والغبطة العميقين . لقد وقع حادث خطير . كانت دودة كبيرة قد انبثقت من الارض . وكنّ قد خفن منها ، وكنّ قد غمرت النشوة لمراآها . لقد تماست جباههنّ الواضحة ، ولقد كان في وسع المرء ان يزعم أنها كانت ثلاثة رؤوس تحيط بها هالة من النور .

وصاحت السيدة تيناردييه :

- « ما اسرع ما يتعارف الاطفال ! أنظري اليهن ! ان المرء

ليقسم انهن ثلاث أخوات . «  
وأغلب الظن ان تلك الكلمات كانت الشرارة التي انتظرتها الام  
الآخري . فامسكت بيد السيدة تيناردييه ، وحدثت اليها قائلة :  
- « هل لك ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »  
وأنت السيدة تيناردييه بمركبة من حركات الدمش التي لا تفيد ايأ  
من القبول أو الرفض .  
واردفت والده كوزيته :

- « انتِ ترين انني لا استطيع ان أصحب ابنتي الى الريف . إن  
العمل يحظر ذلك . إني لن أجد عملاً ، هناك ، ما دامت طفلي معي .  
إنهم على غاية السخف في تلك الديار . إن الرب هو الذي جعلني امرأ  
بفندقك . وحين وقعت عيناى على ابنتيك الصغيرتين ، البالغتي الجمال ،  
والنظافة ، والسعادة ، غلبني التأثر . لقد قلت : ههنا أمٌ طيبة . إنهن  
سوف يكنن مثل ثلاث أخوات . وعندئذ قلن أغيب طويلاً . هل لك  
ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »

فقات السيدة تيناردييه :

- « ينبغي ان أفكر . »

- « سوف أقدم اليك ستة فرنكات في الشهر . »

وهنا سمع صوت رجل من داخل المطعم الحثير :

- « لا نرضى بأقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر مدفوعة

مقدماً . »

فقات السيدة تيناردييه :

- « ستة في سبعة يساوي اثنين واربعين . »

فقات الام : « سوف اعطيكما ذلك . »

فأضاف صوت الرجل :

« وخمسة عشر فرنكاً إضافية مقابل النفقات الاولى . »

فقلت السيدة تيناردييه : « اصبح المجموع سبعة وخمسين فرنكاً . »  
وفي غمرة من هذه الأرقام غنت على نحر غير معين :

« يجب ، يجب ، قال احد الحارين ... »

فقلت الأم : « سوف ادفعها اليكما . إن عندي ثمانين فرنكاً .  
وهذا سوف يترك لي ما يكفي للذهاب الى الريف اذا مشيت على  
قدمي . وسوف اكسب شيئاً من المال هناك ، وحالاً يجتمع لدي  
مبلغ قليل ارجع الى هنا لأخذ حبيتي الصغيرة . »  
واستأثرت صوت الرجل الكلام :

« هل عند الصغيرة ملابس ؟ »

فقلت السيدة تيناردييه : « هذا زوجي . »  
« طبعاً ، إن عند حبيتي المسكينة ملابس . لقد أدركت جيداً  
أنه زوجك . وملابس جميلة ايضاً ! ملابس كثيرة تتجاوز الحد . من  
كل شيء دزينات ، وفساتين حريرية كفساتين السيدات . إنها هناك في  
جراب سفري . »

فأمرع صوت الرجل الى القول :

« يجب ان تعطينا هذا كله . »

فقلت الأم : « طبعاً ، سوف اعطيكما اياه . وهل يعقل ان اترك  
ابنتي عارية ؟ »

وبرز وجه صاحب الفندق .

وقال : « هذا حسن . »

وأنختت المساومة . وأمضت الأم ليلتها في الفندق ، ودفعت ما  
'طلب اليها ان تدفعه ، وتركت طفلتها ، واعادت عقد جرابها الذي  
تقلص بعد ان جرّد من ملابس الطفلة وغدا خفيفاً ، ومضت لسيبلها  
في الصباح ، متوقعة ان ترجع وشيكاً . إن هذه المعبرات ونظائرها



تنظم في هدوء ، ولكنها مفعمة بالقنوط .  
والتقت إحدى جارات امرأة تيناردييه هذه الام فيما هي تنضي لسبيلها .  
حتى اذا رجعت قالت :

- « لقد رأيت اللحظة امرأة تبكي في الشارع وكأن قلبها يتمزق . »  
وحين مضت والددة كوزيت قال الرجل لزوجته :  
- « إن في ذلك ما يمكنني من ان ادفع السند الماليّ البالغة قيمته  
مئة وعشرة فرنكات ، والمستحق أدائه غداً . كنت في حاجة الى  
خمسين فرنكاً . أتدري ان حاجب المحكمة كان من المنتظر ان يفد عليّ ،  
وأن وثيقة بعدم الدفع كان من المنتظر ان تحرر بحقي ؟ لقد مثلت  
انتر وابنتاك الصغيرتان دور مصيدة الفيران تمثيلاً جيداً .  
فقلت المرأة : « من غير أن نعرف ذلك . »

## ٢

### رسم إعدادي أول لوجهين مبهمين

كانت الفأرة التي بقي القبض عليها ضعيفة البنية جداً ، ولكن النطة  
ابتهجت لاصطيادها مجرد فأرة مهزولة .

من كان تيناردييه هذا وزوجته ؟

سوف نجتزئ بكلمة نقولها هنا . وفي ما بعد سنكمل الصورة .

كانا ينسبان الى تلك الطبقة النغلة المزلفة من أناس أجلاف ارتفعت  
بهم الايام ، ومن أناس اذكياء هبطت بهم الايام ، والتي تقع بين ما  
ندعوه الطبقة الوسطى وما ندعوه الطبقة الدنيا ، والتي تجمع بعض  
خطيئات الثانية ، الى وذائل الأولى كلها تقريباً ، من غير أن تملك حوافز

العامل الكريمة ، وسجاي البرجوازيّ الباعثة على الاحترام .  
كانا من تلك الطبائع القزمية التي اذا اتفق ان مستها نارٌ كالحة  
أمت ، في سهولة ، ذات ضخامة هائلة . كانت المرأة ، في أعماقها ،  
بهيمة شرسة ، وكان الرجل ، في أعماقه ، وغداً محتملاً . وكان كلاهما ،  
في اعلى الدرجات ، قادراً على ذلك الضرب من التقدم البشع الممكن  
تحقيقه في اتجاه الشر . إن ثمة نفوساً ترحف مثل عقرب الماء \* زحفاً  
موصولاً نحو الظلمة ، راجعةً القهقري في الحياة ، بدلاً من ان تتقدم  
فيها ، مصطنعة ما تمّ لها من تجارب لكي تزيد تشوّها الذاتي ، فكل  
يوم يمر بها يجعلها اكثر سوءاً ، واكثر انحداراً نحو الرذيلة المتكاثفة .  
هذا الرجل وهذه المرأة كانا من اصحاب هذه النفوس .

لقد كان الرجل على الخصوص خليقاً به ان يجبر المتسكن من علم  
الفراسة . اتنا لا نحتاج الى اكثر من النظر الى بعض الناس لكي نرتاب  
فيهم ، ذلك لأننا نستشعر ظلمة نفوسهم من ناحيتين . انهم قلقون بالنسبة  
الى ما قاتهم ، مهددون بالنسبة الى ما يستقبلهم . إنهم لغز من الالغاز .  
فنحن لا نستطيع بعد ان نقرر ما قد فعلوه باكثر مما نستطيع ان نقرر ما  
سوف يفعلونه . إن الظلمة التي في نظراتهم تشي بهم . فإذا ما سمعناهم  
ينطقون بكلمة ، او رأيناهم يرمثون ايماءة وقعنا على لمحات اسرار مجرمة  
في ماضيهم ، والغاز قائمة في مستقبلهم .

وكان تبناردييه هذا ، اذا شئنا ان نصدفه ، جندياً ، برتبة رقيب  
كما قال . ولعله ان يكون اشترك في حملة ١٨١٥ وان يكون قد  
ابلى بلاءً حسناً في ما يبدو . وسوف نرى في ما بعد علام قام بلاؤه  
هذا . والواقع ان اللافنة التي تعلق باب فندقه ترمز الى احدي مآثره  
الحربية . لقد رسمها بربشته ، إذ كان يعرف شيئاً من كل شيء ، ويعرفه  
على نحو ردي .

---

\* او الحيوان اللائي العروف بالمرطان .

كانت تلك الحقبة هي الحقبة التي أهدت فيها الرواية الكلاسيكية العتيقة ( التي كانت من قبل د كليي ، \* فهبطت حتى امست د لودويسكا ، والتي احتفظت بنبلها ؛ ولكنها امعت في الابتذال يوماً بعد يوم ، هابطة من مدموزيل دو سكوديري الى مدام بارتيليمي هادو ، ومن مدام دو لا فاييت \*\* الى مدام بورنون مالارم ) نفوس بوابات باريس المحبة ، وحدثت بعض الاضرار حتى في الضواحي . وكانت السيدة تينارديه على قدر من الذكاء يكفي بشق النفس لتمكينها من قراءة هذا الصنف من الروايات . لقد اغتذت بها . لقد اغرقت فيها عقلها الصغير كله . وهذا ما منحها منذ صباها الاول ، وحتى بعد ذلك بقليل ، ضرباً من النزعة التأملية تجاه زوجها ، وكانت نذلاً على شيء من العمق ، خليعاً لا تكاد ثقافته تبلغ حد علم النهر ، جلفاً ومصقول الحاشية في آن معاً ؛ اما في القضايا د العاطفية ، - وكان من فراء بيغو لوبران \*\*\* - و د في كل ما يتصل بشؤون الجنس ، - كما عبر برطانت - فكان احمق حقيقياً ، احمق صرفاً غير مشوب . وكانت زوجته اصغر منه باثنتي عشرة سنة او خمس عشرة سنة . وفي فترة متأخرة ، عندما بدأ شعر الباكين الرومانتيكيين يشيب ، وطلقت الـ « ميجير ، \*\*\*\* الـ « بامبلا ، \*\*\*\*\* ، انتهت مدام تينارديه الى ان تصبح مجرد امرأة بدينة شريرة تدونق الروايات الخفاه . والحق ان الناس لا

---

\* Clélie رواية من تأليف الادبية الفرنسية مادلين سكوديري ( ١٦٠٧ - ١٧٠١ ) .

\*\* Madame de La Fayette اديبة فرنسية ( ١٦٣٤ - ١٦٩٣ )  
 \*\*\* كاتب فرنسي وضع عدة روايات داعرة وقد ورد ذكره سابقاً .  
 \*\*\*\* Mègère احدى آلهات الجمع الثلاث ، رمز الحد والكراهية . ويقصد بها هنا المرأة الذقة الشريرة .

\*\*\*\*\* Pamela رواية للكاتب الانكليزي ريكاردسون ( ١٦٨٩ - ١٧٦١ ) وهي قصة خادمة شابة تنجها الفضيلة من جميع ما نُسب لها من الاثراك . وقد جعلها المؤلف همت نموذجاً للرواية الاخلاقية .

يقرأون الحقايق من غير ان يمسم الضرر . فكان من عاقبة ذلك ان سميت ابنتها الكبرى ايونين ، وان ابنتها الصغرى كانت على وشك ان تسمى غولنار ، ولكن انحرفاً سعيداً سببه رواية من تأليف دوكري دومينيل \* جعلها لا تسمى إلا آزيلا .

واياً ما كان قلنقل بالمناسبة إن كل شيء لم يكن مضحكاً وضحياً في هذه الحقبة الغريبة التي 'نلمع اليها' ، والتي نستطيع ان ندعوها فوضى أسماء العمودية . فالى جانب العنصر الرومانتيكي الذي اشرنا اليه كان ثمة العَرَض الاجتماعي . فليس من النادر ، اليوم ، ان نرى صببة بقارين يدعون آرثور ، وألفرد ، أو آلفونس ؛ وان نرى فيكوتات - اذا كان لا يزال ثمة بقية من هؤلاء - يدعون توماس ، وبطرس ، أو جاك . وهذا التغير الذي يخلع الاسم 'الأنيق' ، على ابن السوقة ، والاسم الريفى على ربيب الارستقراطية ، ليس غير اندفاعة من اندفاعات المروج في مدّة المساواة . ان تسرّب الاجاء الجديد الذي لا يقاوم نشاطه هناك نشاطه في كل شيء آخر . وان تحت هذا التنافر الظاهري لحقيقة ضخمة وصيقة : الثورة الفرنسية .

### ٣

#### القبرة

ان كون المرء شريراً لا يكفل له الرخاء ؛ وآية ذلك ان المطعم الحقيق لم يعرف الازدهار .

واذا كان تيناردييه قد وفق الى تشريف توقيعه والتخلص من تلك الوثيقة التي تؤذن بعدم الدفع فالفضل في هذا راجع الى فرنكات فانتين

\* Ducray - Duminil روائي سمي فرنسي ( ١٧٦١ - ١٨١٩ )

السبعة والحقين . وفي الشهر التالي كانا لا يزالان في حاجة الى المال ، فحملت المرأة ملابس كوزيت الى باريس حيث رهنها في مـون دو بيتيه مقابل ستين فرنكاً . حتى اذا نفذ هذا المبلغ شرع تينارديه وزوجته ينظران الى الطفلة الصغيرة نظرتها الى طفلة يؤويانها صدقة واحساناً ، وعاملاها على هذا الاساس . واذ لم يبق لديها أيّ ملابس ، فقد ألباسها قمصان طفليها القديمة وتانيرهما العتيقة ، يعني انها الباسا أحياناً بالية . ليس هذا فحسب ، بل لقد أطعمتها فضلاتها وفضلات بنتيها - أطعمتها على نحو أحسن قليلاً من الكلب ، وأسوأ قليلاً من المرأة . كان الكلب والبرة رفيقي مائدتها الدائمين . لقد أكلت كوزيت معها تحت الطاولة في صحن خشبي مثل صحنها .

وكانت أمها ، التي استقرت كما سوف نرى بعد في مونتروي سور مير ، تكتب اليها ، او على الاصح تكلف احداً بالكتابة اليها ، مرة كل شهر ، مستطلعة انباء ابنتها . وكان تينارديه وزوجته يجيبانها جواباً لا يتغير :

« كوزيت في حال ممتازة جداً . »

وتقضت الاشهر الستة الأولى . وأرسلت الأم سبعة فرنكات مقابل الشهر السابع ، وواصلت ارسال هذا المبلغ على نحو نظامي شهراً إثر شهر . ولم يكد العام ينقضي حتى قال تينارديه : « إن هذا لئن رائع حقاً ! اي شيء تنتظر منا ان نفعله مقابل فرنكاتنا السبعة ؟ » وكتب اليها رسالة مطالباً بانني عشر فرنكاً . ووافقت الأم - وهي التي أقنعها صاحب المطعم وزوجته بأن ابنتها سعيدة مسرورة - وارسلت اليها الفرنكات الاثني عشر .

ان ثمة بعض الطبائع التي لا تستطيع ان تحب من ناحية من غير أن تكره من ناحية أخرى . كانت تينارديه الأم هذه تحب طفليها الصغيرين حباً جماً ، واند حملها ذلك على ان تبغض الطفلة الغريبة .

وانه لمن المؤسف ان يفكر المرء بأن حب أم من الامهات يمكن ان تكون له مظاهر بشعة . فعلى الرغم من ضيق المجال الذي احتلته كوزيت في منزلها ، فقد تراءى لها ان هذا المجال الصغير قد انتزع من طفلتيها ، وان هذه الغريبة الصغيرة قد أنقصت الهواء الذي تنفسته ابنتاها . وكانت لهذه المرأة ، شأن كثيرات من نوعها ، جبهة من اللطافات ، وجبهة من الضربات والشتائم تتفقهها كل يوم . ولو لم تكن كوزيت ضيفة عليها اذن لكان من الثابت ان تتلقى ابنتاها - برغم حبها العظيم لهما - ذلك كله . ولكن الغريبة الصغيرة خدمتهما فحوّلت الضربات الى جسدها هي . وهكذا لم يُصِيب ابنتيها غير اللطافات . فما ان تتحرك كوزيت حركة حتى ينهال على رأسها وابل من ضروب العقاب القاسي الذي لا تسعفه . كانت طفلة رقيقة ضعيفة لا تعرف شيئاً عن هذا العالم ، او عن الله ، ثسام الحف على نحو موصول ، وثقوع ، وتعاقب ، وتضرب ، ثم ترى الى جانبها طفلتين صغيرتين تعيشان وسط هالة من المجد !

لقد أساءت المرأة الى كوزيت وخاشتها . وكذلك فعلت ايونين وآزليما ايضاً . فليس الاطفال في هذه السن إلا نسخاً طبق الاصل عن الأم . إن القَطْع أصغر ، ليس غيو . وانقضى عام ، وتبعه ثانٍ . وقال الناس في القرية :

« ما اطيب تيناردييه وزوجته ! لهما لبا غنيين ، ومع ذلك فهما ينشئان فتاة مسكينة تركت عندهما ! »  
لقد حسبوا أن أم كوزيت نسيها .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان علم تيناردييه من طريق خفي ان الطفلة كانت في اغلب الظن غير شرعية وان امها لا تستطيع ان تعترف بها ، طالب بخمسة عشر فرنكاً في الشهر قائلاً ان « المخلوقة » كانت تنمو

وانها « تسرف في الأكل » ، مهدداً بطردها .  
وصاح : « انها لن تخدعني ! سوف اسحقها وطفلتها في قلب المكان  
الذي تختبئ فيه ا يجب ان احصل على مبلغ اكبر . »  
ودفعت الأم خمسة عشر فرنكاً .

ومن عام الى عام كبرت الطفلة ، وكبر معها شقاؤها ايضاً .  
كانت كوزيت اول الامر « تبس المغفرة » الذي يتحمل ذنوب  
الفتاتين الأخريين . ولكن ما ان اخذت تنمو قليلاً ، يعني قبل ان  
تبلغ الخامسة من العمر ، حتى غدت خادمة المنزل .

وقد يقول قائل : خمس سنوات ؟ هذا غير محتمل الوقوع .  
وأستفاه ! انه صحيح . إن العذاب الاجتماعي يبدأ في مختلف الاعمار .  
ألم نشهد منذ قريب محاكمة دومولارد ، ذلك اليتيم الذي امسى قاطع  
طريق ، والذي وجد نفسه وحيداً في هذا العالم فحاول - وهو بعد في  
الخامسة من العمر كما تقول الوثائق الرسمية - أن « يكسب قوته ،  
فسرق ؟ »

و«كلفت كوزيت بشراء الحاجات المنزلية ، وكنس الغرف ، والقناء ،  
والشارع ، وغسل الاطباق ، بل وبحمل الاثقال . واستشعر تيناردييه  
وزوجته ان حقها في معاملتها على هذا النحو يتعاضم بعد ان بدأت  
الأم ، المقيمة ابدأ في مونتروي سور مير ، تتأخر في الدفع . لقد  
استعقت عليها اجور بضعة اشهر .

ولو قد عادت هذه الأم الى مونفيرماي ، عند نهاية هذه السنوات ،  
اذن لما عرفت ابنتها . ذلك ان كوزيت ، التي كانت بالغة الملاحظة  
بمعة في النضارة لدن وصولها الى هذا المنزل ، امست الآن مهزولة  
شديدة الشعوب . كانت تطفو على وجهها انطباعة قلقه مضطربة . وكان  
تيناردييه وزوجته يقولان : « خبيثة ماكرة ! »  
كان الظلم قد جعلها كالحة الوجه ، وكان الشقاء قد جعلها فيبحة .

ولم يبق لها غير عينيها الجليتين ؛ وكان النظر اليها يوقع الالم في النفس لانها بدت ، بسبب من اتساعها ، وكأنها تريد ان في مقدار حزنها وكآبتها .

وكان بما يمزق القلب ان ترى ، في ايام الشتاء ، الى هذه الطفلة البائسة التي لم تتجاوز السادسة ، ترتجف تحت الحرق البالية التي كانت ذات يوم فستاناً من الخام ، كانه الشارع قبل مطلع الفجر بمكنة ضخة تحملها بيديها الصغيرتين المراوين ، وقد تفرقت الدموع في عينيها الواسعتين .

وفي تلك المنطقة كانوا يدعونها القبرة . ان الناس يحبون الاسماء المجازية ، ومن هنا سرتم ان يخاموا هذا الاسم على تلك المخلوقة الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجم الطائر ، المرتعدة ، المروءة ، المرتجفة ، المستيقظة كل صباح قبل اهل المنزل جميعاً واهل القرية جميعاً ، العاملة ابدأ في الشارع او في الحقول قبل ان يرتفع الضحى .

بيد ان القبرة المسكينة لم تنطلق حنجرتها بالغناء في يوم من الايام .



الكتاب الخامس

## الانحذار

١

قصة تحسين في صناعة الزجاج الاسود

ما الذي حلّ ، في غضون ذلك ، بهذه الأم التي بدت - وفقاً لما ذهب اليه أبناء مونفيرماي ، وكأنها هجرت طفلتها ؟ أين كانت ؟ ماذا كانت تعمل ؟

لقد مضت لسبيلها ، بعد ان تركت بنتها الصغيرة عند نيناردييه وزوجته ، حتى بلغت مونتروي سور مير .

وانما كان ذلك ، كما نذكر ، في عام ١٨١٨ . كانت فانتين قد غادرت تلك الديار منذ اثني عشرة سنة تقريباً ،

وكانت معالم مونتروي سور مير قد تغيرت . ففما كانت فانتين تنحدر في بطة من شقاء الى شقاء كان مسقط رأسها قد اخذ سبيله نحو الازدهار . فنذ سنتين تقريباً تم في تلك البلدة تطور من تلك التطورات الصناعية التي تقلب وجه الحياة في المجتمعات الصغيرة . وهذا الحدث ذو خطر . ونحسب ان من الخير ان نروي خبره ، بل ان نرويه بأحرف ضخام .

فمن اقدم الازمان وصناعة سكان مونتروي سور مير الخاصة تقليد الزواج الانكليزي المألوف والحزب الالاماني الاسود . وكانت تلك الصناعة تشكو أزمة موصولة بسبب من غلاء المواد الاولية على نحو كان له اثره في اليد العاملة . حتى اذا رجعت فانتين الى مونتروي سور مير كانت تغير كامل قد طرأ على انتاج هذه البضائع السوداء . ذلك بأن رجلاً مجهولاً كان قد استقر في تلك البلدة ، اواخر عام ١٨١٥ ، وخطر له ان 'يجمل' صمغ اللك \* ، في تلك الصناعة ، محل صمغ الصنوبر . اما في محل الاساور على الخصوص فقد صنع المشابك بمجرد قتل احد طرفي المعدن على الآخر بدلاً من لجمها بالاسام .

واحدث هذا التغير البالغ الضالة ثورة في الصناعة . ان هذا التغير البالغ الضالة قد خفض نفقات المواد الاولية تخفيضاً هائلاً ، وهذا ما جعل من الممكن ، اولاً ، رفع اجرة اليد العاملة - وفي ذلك فائدة للبلاد - وثانياً ، تخمين الانتاج - وفي ذلك خدمة للمستهلك - وثالثاً بيع ذلك الانتاج بسعر ادنى مع الفوز بثلاثة اضعاف الربح القديم - وفي ذلك كسب للمنتج . وهكذا نشأت عن هذه الفكرة نتائج ثلاث .

وفي اقل من ثلاث سنوات غدا مبتدع هذه الطريقة غنياً ، وهو شيء حسن ، وجعل كل من حوله غنياً ، وهذا أحسن . كان غريباً

---

\* اللك : نبات يتخذ منه نوع من الصمغ .

عن المقاطعة . وكان الناس لا يعرفون عن اصله شيئاً ، ولا يعرفون عن تاريخه الاول غير القليل .

وتحدثت الناس بأنـه وفد على المدينة وليس معه غير دراهم معدودات - بضع مئات من الفرنكات على الاكثر .

ومن رأس المال الضئيل هذا ، المستخر في خدمة فكرة عبقرية ، المتمر بالنظام والروية ، أستمـد ثروة لنفسه ، وثروة للمنطقة كلها .

وعند وصوله الى مونتروي سور مير لم يكن عنده غير ثياب العامل ، وعادات العامل ، ولغة العامل .

ويبدو انه في اليوم نفسه الذي دخل فيه بلدة مونتروي سور مير على هذا النحو الغامض ، عند هبوط الليل من احد ايام كانون الاول ، وعلى ظهره كيس وفي يده عصاً شوكية ، اندلعت نار هائلة في دار البلدية . فافتحم هذا الرجل النار ، وأنقذ ... مغارراً بحياته -- طفلين ظهر بعدئذ انها ولدا قائد الدرك . ومن هنا لم يفكر احد قط في ان يسأله إبراز جوازه . ولقد عرف منذ ذلك الحين بالاب مادلين .

## ٢

### مسيو مادلين

كان رجلاً في نحو الحسين ، تبدو عليه سيما المستغرق في العمل ، ذي النفس الكريمة . ذلك كل ما كان في استطاع المرء ان يقوله عنه .

وكانت مونتروي سور مير قد غدت بفضل ما تم لهذه الصناعة من تقدم مربع أسبع هو عليه حياة رائعة جداً ، مركزاً تجارياً ذا خطر . لقد أخذت تصدر كل عام مقادير هائلة من انتاجها الى الاسواق الاسبانية حيث تشتد الرغبة في الحرز الاسود ، وكادت ان تضاهي ، في هذا

الميدان ، كلاً من لندن وباريس . وكانت ارباح الاب مادلين كبيرة الى درجة مكنته ، في نهاية السنة الثانية ، من ان ينشيء مصنعاً ضخماً يحتوي على معملين واسعين ، احدهما للرجال والآخر للنساء . كان في ميسو اياماً جانح ان يطرق ابواب هذا المصنع ، وان يستيقن انه سوف يجد فيه عملاً وخبراً . وكان الاب مادلين يتطلب في الرجال حسن النية ، ويتطلب في النساء الاخلاق الحميدة ، ويتطلب فيهم جميعاً الامانة والاخلاص . لقد قسم المصنع لكمي يفصل ما بين الجنسين ، ولكمي يحفظ النسوة والفتيات باحتشامهن . وفي هذه المسألة ، كان حلياً لا يبلين . كانت هي المسألة الوحيدة التي لم يعرف فيها التسامح قط . وانما زاده تعلقاً بهذه النسوة ان المراتق الاخلاقية كانت موفورة في مونتروي سور مير بوصفها مقرراً حامية من الحاميات العسكرية . واخيراً كان قدومه نعمة ، ووجوده فضلاً من الله . فقبل ان يصل الاب مادلين الى المنطفة كانت ذابطة كلها ، اما الان فقد غدا كل ما فيها ناضراً بحياة العمل الصحية . لقد أوقع الدم الناشط الدفء في كل شيء ، وتسرب الى كل شيء . واعمت البطالة والبؤس ، فلم تبق ثمة جيب قائمة الى حد يجعلها خلواً من بعض الدراهم ، ولم يكن ثمة مأوى فقير الى حد يجعله حراماً على شيء من البهجة .

وشغل الاب مادلين كل انسان . كان عنده شرط واحد ليس غير :  
 « كن رجلاً أميناً ! » ، « كوني امرأة أمينة ! » ،

وفي ضرة هذا النشاط ، الذي كان هو سببه ومحوره ، جمع الاب مادلين ثروته . ولكن ذلك لم يبدُ منه الرئاسي ، وهي ظاهرة غريبة جداً بالنسبة الى مجرد رجل من رجال الاعمال . لقد بدا انه يفكر في مصلحة الآخرين كثيراً ، ويفكر في مصلحته الذاتية قليلاً . وفي عام ١٨٢٠ كان معروفاً انه يملك ستئة وثلاثين الف فرنك موضوعة باسمه في مصرف لافيت . ولكن قبل ان يدخر هذه الستئة والثلاثين الف

فرنك كان قد انفق اكثر من مليون فرنك على المدينة وعلى الفقراء . كانت اوقاف المستشفى هزيلة فأخذ على عاتقه نفقة عشرة سُرُر إضافية . وتنقسم مونتروي سور مير قسمين : المدينة العليا ، والمدينة السفلى . ولم يكن في المدينة السفلى حيث يقطن غير مدرسة واحدة هي عبارة عن بناء حقير يتداعى الى السقوط . فبنى اثنتين : احدهما للصبيان ، والاخرى للبنات ، ودفع الى المعلمين من جيبه هو ضعف راتبها الحكومي الهزيل . وذات يوم قال لجار له استغرب هذا الوضع : « ان أسمى موظفين في الدولة هما الممرضة والمعلم . » وشيد على نفقته الخاصة ملجأ للعاجزين ، وهي مؤسسة تكاد تكون غير معروفة في فرنسا ، ورصد اموالاً للعمال الشيوخ والمعتلين . وما لبث ان نشأ حول مصنعه ، حيّ جديد نما نمواً سريعاً ، وانتظم كثيراً من الأسر الفقيرة . وهناك اس صيدلية قدمت الدواء الى الجميع ، من غير مقابل .

وفي البدء ، حين شرع يجتذب الانتباه العام ، قال الطيبون من الناس : « هذا رجل يريد ان يغتني . » وحين رأوه يُعني البلاد قبل ان يُعني نفسه قال الاناس الطيبون انفسهم : « هذا الرجل طموح . » ولقد بدا هذا اكثر احتمالاً ، اذ كان تقياً ، حريصاً على اداء الطقوس الكنسية ، الى حد ما ، وهو شيء كان يُستقبل في ذلك الزمن بكثير من الرضا . كان يمضي يوم الاحد ، على نحو نظامي ، لسماع القداس . فما هي الا فترة قصيرة حتى امتلأ نائب المنطقة - وكان يستروح المناظرة في كل مكان - شيئاً من القلق بسبب من ندين مادلين . وكان هذا النائب - العضو في هيئة الامبراطورية التشريعية - يقول بالآراء الدينية التي نادى بها احد آباء رهبانية الأوراتور ، ويُعرف باسم فوشيه دوق اورانت ، وكان صنيعة وصديقه . وفي المجالس الخاصة ، كان هذا النائب يسخر من الله سخريّة خفيفة . ولكنه ما إن رأى الصناعات المومر ، مادلين ، يشهد القداس غير الصارخ في الساعة السابعة حتى

استدشفت فيه مرشحاً من مرشحي المستقبل المنافين له على النيابة ، وعزم على أن يزيّره . فاصطحب كاهناً يسوعياً معترفاً ، وشهد وإياه القداس الصارخ وصلوات العصر او الغروب . وكان الطموح في ذلك العهد ، كما يدل المعنى المباشر لهذه اللفظة ، ضرباً من سباق مجرى بين الفرسان في حفل كثير العوائق والمعقات . وافاد الفقراء ، وافاد الله ايضاً ، من هذا الهول ؛ ذلك بأن النائب النبيل تبرّع بنفقة مريرين اضافيين من مرور المستشفى ، وهكذا أصبح عددها اثني عشر .

واخيراً ذاع بين الناس في المدينة ، ذات صباح من ايام سنة ١٨١٩ نبأ يقول انه بناء على اقتراح المحافظ ، وتقديرًا للخدمات التي اداها الاب مادلين الى المنطقة ، فقد اصدر الملك امرًا بتعيينه عمدة لبلدة مونتروي سور مير . فما كان من اولئك الذين حكموا على الوافد الجديد بأنه « رجل طموح » إلا ان اغتنموا هذه الفرصة - التي يتمتعها كل انسان - ليصبحوا في حماسة بالغة :

- « أرايتم ! ألم نقل لكم ذلك ؟ »

ولغطت مونتروي كلها بالنبأ . وما كان النبأ كاذباً . فبعد بضعة ايام نشر مرسوم التعيين في الـ « مونيتور » . وفي اليوم التالي رفض الاب مادلين قبول المنصب .

وفي تلك السنة نفسها - ١٨١٩ - وجدت نتائج الطريقة الجديدة التي ابتدعها مادلين مكاناً لها في الممرض الصناعي . وبناء على تقرير لجنة المحكمين منحه الملك مخترعها وسام جوقه الشرف من رتبة فارس . وهنا لغطت المدينة الصغيرة كرة اخرى . « حسن ! وإذن فقد كان بطمع في وسام جوقه الشرف دون غيره ! » ورفض الاب مادلين الوسام .

ليس من ريب في ان هذا الرجل لغز من الالغاز . وألقى الطبيون من الناس سلاحهم قائلين :

— « وعلى أية حال ، فهو لا يعدو أن يكون مغامراً ! »  
كانت البلدة مدينةً لهذا الرجل كثيراً ، كما قد رأينا ، وكان الفقراء  
مدينين له بكل شيء . كان نافعاً الى درجة اكرهتهم كلهم على إجلاله ،  
وكان دمثاً الى درجة جعلتهم كلهم يجمعون على حبه . وكان عماله ، على  
الخصوص ، يحبونه حتى العبادة ، وكان هو يتقبل حبهم هذا بضرب من  
الوقار الكتيب . وحين انقادت اليه الثروة شرع اولئك الذين يتألف منهم  
« المجتمع الراقي » ينحنون له حين يلقونه ، واخذ أهل المدينة يدعونه  
« ميو مادلين » . اما عماله ، واما الاطفال فظلوا يدعونه « الاب  
مادلين » ؛ وكان وجهه يشرق دائماً بابتسامة ، لدن سماعه هذا النداء .  
وظفت الدعوات تهال عليه كال مطر بعد ان اتخذ سبيله في مراقي العز  
والشهرة . وادعاه « المجتمع الراقي » . وفتحت صالونات مونتروي سور  
مير الصغيرة المتكلفة للعظمة ، الحسنة التنظيم ، والتي كانت في الايام الأولى  
محرومة على الصانع الحقيق — فتحت هذه الصالونات ابوابها على مصاريعها  
للمليونير . لقد قدّم اليه الف عرض وعرض ، ولكنه رفضها كلها .  
وهذه المرة ايضاً لم يكف أصحاب النفوس الطيبة عن لغوم .  
« إنه رجل جاهل ، ذو ثقافة هزيلة . إن احداً لا يعرف من اين  
أقبل . إنه لا يعرف كيف يسلك في المجتمعات الراقية . وليس من  
الثابت مجال من الاحوال أنه يعرف القراءة . »

حين رأوه يكسب ثروة قالوا : « انه تاجر » . وحين رأوه يبذر  
ثروته قالوا : « انه طموح » . وحين رأوه يرفض المناصب والالوسمة  
قالوا : « إنه مغامر » . وحين رأوه يجتنب المجتمع الراقي قالوا : « إنه  
بهيمة » .

وفي سنة ١٨٢٠ ، بعد انقضاء خمس سنوات على وصوله الى مونتروي  
سور مير ، كانت خدماته التي قدّمها الى المنطقة ساطعة جداً ، وكانت  
رغبة السكان كلهم إجماعية الى حد جعل الملك يعيد تعيينه عمدة

للمدينة . ورفض كرة اخرى . ولكن المحافظ لم يقبل رفضه ذاك ، ووفد عليه وجوه البلدة يسألونه ان يقبل ، وتضرع اليه الناس في الشوارع ، وكان الالحاح شديداً الى درجة حملته آخر الأمر على الاذعان . ولقد لاحظ القوم ان الذي دعاه الى القبول اكثر من اي شيء آخر ، في ما يبدو ، تلك الصيحة التي توسك ان تكون غاضبة ، والتي أطلقناها من على عتبة بابها - في شيء من الحق - امرأة من الطبقة الاكثر فقراً :

- « العمدة الصالح شيء مفيد . فهل انت خائف من الخير الذي تستطيع أن تعمله ؟ »

كانت هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل ارتقائه . كان الاب مادلين قد أمسى مسيو مادلين ، وها قد غدا مسيو مادلين السيد العمدة .

### ٣

#### اموال مودعة عند لافيت .

وأياً ما كان ، فقد ظلّ بسيطاً شأنه في ابامه الاولى . كان ذا شعر اسنوب ، وعين واعية ، وبشرة سمراء كبشرة العامل ، ومحباً مفكر كحبيبا الفيلسوف . وكان من دأبه ان يعتبر قبعة عريضة الحاشية ، وان يرتدي سترة طويلة من قماش خشن ، مزررة حتى الذقن . لقد ادى واجباته بوصفه عمدة ، ولكنه عاش في ما وراء ذلك عيشاً منعزلاً . كان يتحدث مع نفر قليل من الناس ؛ وكان ينفر من المجاملات ، فهو يمسّ قبعته ذلك ويضي لسيله في غير اناة . كان ينتمى اجتناباً للكلام ، وكانت يعطيه ، اجتناباً للابتناس . وقالت النسوة عنه : « ياله من دب طيب نافر من الناس ! » كانت متعته التمشي في الحقول .



كان يتناول طعامه وحده دائماً ، وامامه كتاب مفتوح يطالع ف كانت مكتبته صغيرة ، ولكنها مختارة . لقد احب الكتب ، فالكتاب صديق بارد ، ولكنه موثوق . واذ سمحت له ثروته المتعاطية بمقدار اكبر من اوقات الفراغ ، فقد بدا وكأنه يفيد من هذا الفراغ ، في تثقيف عقله . ومنذ ان وفد على مونتروي سور مير لوحظ ان لغته غدت اكثر صفالاً ، واحسن اختياراً ، وارق حاشية ، عاماً إثر عام . وكان يجب ان يحمل في زهاته ، بندقية ، ولكنه لم يكن يستعملها الا نادراً . حتى اذا اتفق له ذلك اجاباً ، كان هدفه لا يخطئه ، الى حد مروع . إنه لم يقتل قط حيواناً غير مؤذٍ ، ولم يطلق النار قط على أي من صغار الطير .

وعلى الرغم من أنه لم يعد شاباً فقد قيل إنه كان على قوة أسطورية . كان يبدد يد العون الى كل من يحتاج اليها ، فيقبل عثرة جواد كبا ، ويدفع عجلة ساخنة في الطين ، او يمسك بقرفني ثور هارب . وكانت جيبوه مملوءة بالنقود كلما انطلق ، وكانت جيبوه فارغة من النقود كلما رجع . فاذا اجتاز بقربة من القرى لحق به الاطفال ذوو الاسمال البالية فرحين مبتهجين ، وتحلقوا حوله مثل سرب من الذباب .

وحس القوم بأنه ينبغي ان يكون قد عاش ، قبل ذلك ، في الريف ، فقد كان على علم بضروب الاسرار النافعة يعلتها للفلاحين . لقد علمهم كيف يقضون على عثة القمح بان ينضعوا العنبر ، ويسفلوا فجوات ارضه ، بسائل الملح ، وكيف يطاردون سوس القمح بأن يعلقوا في كل مكان - على الجدران وعلى السطوح ، في الحيطان الفاصلة وفي البيوت - زهرات الاورفيو . وكانت لديه وصفات لتحرير الحقول من وباء دود الحرير ، وسوسة الزرع ، ومن الكرسنة ، وذبل الثعلب ، وجميع النباتات الطفيلية التي تعيش على القمح . ولقد حمى الارانب من

الفئران براحة خنوص \* من خنايص بلاد البربر وضعه هناك ليس غير .

و ذات يوم رأى بعض ابناء المنطقة منهمكين في اقتلاع القُرّاص فنظر الى كومة الثبات المستأصلة ، والتي بدأ الجفاف بصيها وقال : - هذه ميتة . ولكن من الخير ان نعرف كيف نقيدها منها .

فحين يكون القُرّاص صغيراً تكون اوراقه بقلًا ممتازاً . وحين ينمو يصبح ذا خيوط وألياف مثل القنب والكتان . والنسيج المصنوع من القُرّاص لا يقلّ قيمة عن نسيج القنب . والقُرّاص ، مقروماً ، يصلح طعاماً للطيور الداجنة . والقُرّاص ، مسحوقاً ، يصلح طعاماً للماشية ذوات القرون . وبذر القُرّاص ، مزوجاً بعلف الحيوانات ، يخلع على جلودها بريقاً . وجذرها ، مزوجاً بالملح ، يحدث صبغاً اصفر جميلاً . وهو ، الى ذلك ، صائفة ممتازة نستطيع ان نجزّها مرتين في الموسم الواحد . وإلام يحتاج القُرّاص ؟ الى قليل من التربة ، والى لا عناية ، ولا حراثة . بيد ان بذوره تتساقط حالما تنضج ، ومن العسير جمعها . هذا كل ما هنالك . فاذا ما تجشّنا بعض الغناء ، أمسى القُرّاص ذا غناء . واذا ما أهملناه ، أصبح مؤذياً . وعندئذ نقتله . ما اكثر الرجال الذين يشبهون القُرّاص !

وصمت لحظة ثم اضاف :

- « يا اصدقائي ، اذكروا هذا : ليس ثمة اعشاب رديئة ، وليس ثمة رجال اردباء . ليس ثمة غير زرايع اردباء . »  
وتعاطف حب الاطفال له لانه عرف كيف يعمل لعباً صغيرة فاتنة من القش ومن جوز الهند .

وكان اذا ما رأى باب كنيسة مجللاً بالسواد ، دخل . كان يلتبس الجنازة كما يلتبس غيره المعمودية . وكان تكل الآخرين وأرزاؤهم تجذبه

\* الخنوص : الخنزير الصغير .

بسبب من رفته البالغة . وكان يختلط بالاصدقاء الالبسين ثوب الحداد وبالأسر المنشفة بالسواد ، وبالكهنة المنتهجين حول نعش . لقد بدأ سعيداً بأن يتخذ موضوعاً لافكاره من هذه الترانيل المزمورية المأثمة الحافلة برؤيا عالم آخر . وبعينين مرتفعتين الى السماء كان يصيح في ضرب من التوق الى امرار اللانهاية جميعاً ، الى هذه الاصوات الحزينة التي تئن عند حافة هاوية الموت المظلمة .

لقد قام بجسورة من الاعمال الصالحة بثل الكتمان الذي يُصطنع عادة في الاعمال الطالحة . كان يتسلل ، في موهن من الليل ، الى المنازل ، ويرتقي السلام خلسة . فكم من بائس رجع الى عليته فوجد بابها مفتوحاً بل مكسوراً في بعض الاحيان ، أثناء غيابه ، فصاح : « لقد كان ههنا لص ! » حتى اذا دخل العلبة كان أول ما يراه قطعة من الذهب منسبة على طاولة . إن « اللص » الذي كان هناك لم يكن غير الاب مادلين . كان انيساً ومحزوناً . وكان الناس يقولون :

« هو ذا رجل غني لا يشمخ بأنفه . هو ذا رجل سعيد لا تبدو عليه أمارات الرضا . »

وزعم بعضهم أنه شخصية غامضة ، واعلنوا ان أحداً لم يدخل قط غرفته التي كانت حجرة ناسك حقاً - حجرة مؤنثة بالساعات الرملية المجنحة ، مزخرفة بعظام الساق المتصالبة ، وبمجماجم الموتى . واكثر القوم من تكرار هذه المزاعم حتى لقد زارته ذات يوم بعض سيدات مونتروي سور مير الشابات ، الانيفات ، الماكرات وقلن له :

« أيا السيد العمدة ، هل لك ان ترينا غرفتك ؟ لقد سمعنا أنها مغارة . »

فابتسم ، وقادهم في الحال الى هذه « المغارة » . وعوقب عقاباً قاسياً على فضولهم . كانت غرفة مزودة على نحو ملائم جداً بأثاث مصنوع من خشب الماهوغاني ، البشع مثل سائر الاثاث المماثل ، وكانت

جدرانها مغطاة بوق لا يزيد ثمنه على اثني عشر « سو » . ولم يستطعن ان يرين شيئاً غير شمعدانين ذوي شكل عتيق قائمين فوق الموقد ، وقد ظهرا وكأنهما فضيان ، « اذ كانا موسومين بِسِمَةٍ رَسْمِيَّةٍ » ، وهي ملاحظة تنضج بروح هذه المدن الصغيرة .

ومع ذلك فما كفى الناس عن القول إن احداً لم يدخل الى تلك الغرفة ، وإنما كانت كهف فاسك ، وموطن احلام ، وخفرة ، وقبراً . وتهاوس القوم ايضاً بأنه أودع مصرف لافيت مقادير « هائلة » من المال على شرط خاص يجعلها دائماً تحت امرته المباشرة بحيث يكون في ميسور مسيو مادلين - كذلك اضافت هذه الهمسات - ان يشخص صاحباً الى مصرف لافيت ، فيوقع ابصاراً ويحمل مليونيه الاثنين أو ملايينه الثلاثة في عشر دقائق . والحق أن « هذين المليونين الاثنين » أو « هذه الملايين الثلاثة » كانت قد انكسرت ، كما سبق منا القول ، الى ستمئة وثلاثين الف فرنك ، أو ستمئة واربعين الف فرنك .

انتهى الجزء الثاني

وبليه الجزء الثالث

# البؤساء

لشاعر فرنسية العظيم  
فيكتور هيجو

٣

نقله إلى العربية  
مُنِير العَبَّاسِي

دار العالم للملايين  
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

## مسيو مادلين في ثياب الحداد

وحوالى مطلع عام ١٨٢١ نعت الصحف مسيو ميرويل ، اسقف د....  
« الملقب بمونسينيور بينفينو » ، الذي توفي عابق الصيت بعير القداسة  
في الثانية والثمانين من العمر .

وكان اسقف د.... - وهذه حقيقة أغفلت الصحف الاشارة اليها - قد  
فقد حاسة البصر قبل وفاته ، ببضع سنوات ، وقد ارتضى ذلك اذ  
كانت اخته الى جانبه .

ونقل بالمناسبة لأن يكون المرء اعمى ومحجوباً هو من غيبو ريب  
شكل من اطيب اشكال السعادة واعجبها ، في هذه الاوضاع حيث لا  
شيء كامل . لأن تكون الى جانبك على نحو موصول امرأة ، بل  
فتاة ، بل اخت ، بل كاتبة فائنة ، تقم هناك لانك في حاجة اليها  
ولأنها لا تستطيع ان تحيا بدونك ؛ ولأن تعلم انك ضروري لا سبيل  
الى الاستغناء عنك في نظر من تحتاج اليها ؛ ولأن تستطيع في مختلف  
الظروف والاحوال ان تقبس حنانها بمقدار مثلها بين يديك ، وأن  
تقول لنفسك : « انها تقف وقتها كله لخدمتي لاني املك قلبها كله » ؛  
ولأن ترى الفكر بدلاً من الوجه ؛ ولأن تستيقن من ولاء مخلوقة ما  
بعد إظلام الكون ؛ ولأن تتخيل حفيف ثوبها وكأنه حفيف اجنحة ؛  
ولأن تسمعها تتحرك جيئة وذهوباً ، خارجة من الغرفة ، داخلة اليها ،  
متحدثة ، مغنّية ، وان تفكر انك نقطة الدائرة في هذه الخطى ، وهذه  
الكلمات ، وهذه الاغنية ؛ ولأن تظهر في كل دقيقة جاذبيتك الخاصة ؛  
ولأن تشعر انك تزداد سلطاناً كلما ازدادت عجزاً ؛ ولأن تغدو في

الديجور ، وبسبب من الديجور ، النجم الذي يدور حوله هذا الملاك - لأن يتم لك ذلك كله مرتبة في السعادة بئدر ان تدانيها مرتبة . إن اسمى مراتب السعادة في الحياة لإيماننا بأننا محبوبون ؛ محبوبون لذواتنا - وبكلمة افضل - محبوبون برغم ذواتنا . وهذا الايمان يتمتع به الاعمى . إنه يجد في الخدمة التي تسديها اليه ، في محنته ، ضرباً من الملاطفة والتدليل . اهو محروم من اي شيء ؟ لا . ان النور لا يعوز الموطن الذي يدخل اليه الحب . واي حب ؟ حب مؤسس كله على الطهر . ليس ثمة عى حيث يوجد يقين . ان الروح لتتلمس في الظلام بحثاً عن الروح ، وإنما لتجدها . وتلك الروح المكتشفة المثبتة على هذا النحو هي امرأة . ان يدآ لتسندك ، تلك هي يدها . وان شفتين لتمسّان جبينك مأساً رفيقاً ، إنهما شفتاها . انك لتسمع نقأً يتردد قريباً منك ؛ إنها هي . ولأن تنعم بها كاملة ، من تقواها الى شفتها ؛ ولأن لا تنوك وحدك البتة ؛ ولأن تسعد بذلك الضعف العذب الذي هو سنادك ؛ ولأن تتوكأ على تلك القصة التي لا تلتوي ؛ ولأن تمسّ العناية الالهية بيديك وتمسكن من ان تضها بين ذراعيك ؛ ولأن يصح الله جلياً ملوساً - لأن تفوز بهذا كله لهو الخطف اي الخطف ! إن القلب - تلك الزهرة السماوية المظلمة - ليتفتح على نحو عجيب . وخلق بك ان لا تباع هذا الظلام بالنور كله ! إن الروح الملاك هي هناك ، هي هناك الى الابد . واذا ما ابتعدت مرة فلكي ترجع ثانية . انها تسمحي كالحلم ، ثم تعاود الظهور كالحقيقة . انك تستشعر دفأً يقترب ؛ إنها هناك . انك تقيض صفاءً ، وجذلاً ، ونشوة ؛ إنك لتشع وسط الظلمة . وألف من ضروب الالتفات والعناية الصغيرة ! تلك التوافه التي هي هائلة في هذا الفراغ . ونبرات الصوت الانثوي الاكثر امتناعاً على الوصف التي تصطنع لهددتك ، وتعويضك من الكون المتلاشي ! إنك تلاحظ وتدلل من خلال الروح . انت لا ترى شيئاً ، ولكنك



تحسب انك موضع حب عظيم . انها جنة من ظلام .  
من هذه الجنة انتقل مونسينيور بينفينو الى الجنة الاخرى .  
وردت صحف مونتروي سور مير المحلية هذا النعي . وفي صباح  
اليوم التالي برز مسيو مادلين في ثوب الحداد الاسود وطوق قبعتة بعصابة  
حريرية سوداء .

ورأى اهل المدينة الى هذا الحداد وتحذوا عنه في كل مكان . لقد  
بدا وكأنه يلقي بعض الضوء على اصل مسيو مادلين . واستنتج القوم  
أنه كان على صلة ما بالاسقف الجليل . وقال المختلقون الى الصالونات :  
« انه يلبس السواد حداً على اسقف د... » ورفع ذلك من مقام  
مسيو مادلين شيئاً كثيراً ، وأسبغ عليه فجأة ، ودفعة واحدة ، اعتباراً  
ملحوظاً في مجتمعات مونتروي سور مير الراقية . وفكرت « ساف  
جيرمان » ، وهي ضاحية بالغة الصغر من ضواحي المنطقة ، في ان  
ترفع الحجز عن مسيو مادلين ، نسيب الاسقف المختل . وادرك مسيو  
مادلين اي تقدم احرز ، من خلال إجلال السيدات المعجزة له على نحو  
متعاطف ، وابتسام السيدات الشابات في وجهه على نحو متزايد . وذات يوم  
تجرات إحدى السيدات الأكثر إمعاناً في الشيفوخة ، في ذلك الوسط  
الارستقراطي الصغير - وقد غلب عليها الفضول بحق الطعن في السن -  
على ان توجه اليه هذا السؤال :

« ان سيد العمدة هو من غير ريب ابن عم اسقف د... المتوفى ،  
أليس كذلك ؟ »

فقال :

« لا ، يا سيدتي . »

فأصرت المعجزة المومنة :

« ولكنك تلبس ثوب الحداد عليه ؟ »

فاجابها قائلاً :

- « لقد كنت أيام شباني ، خادماً في منزله . »  
 ولاحظ القوم كذلك انه كلما مر بالمدينة غلام صغير من غلمات  
 سافوا يطوف في البلاد باحثاً عن مداخن ينظفها ، كان العمدة يستدعيه  
 ويسأله عن اسمه ، وينفحه بشيء من المال . وتحدثت غلمان سافوا بذلك ،  
 ومرت كثير منهم في تلك الطريق .

## ٥

### بوارق غامضة في الافق

ومع تراخي الايام ، تلاشت المعارضة كلها شيئاً بعد شيء . كان ثمة  
 باديء الامر اقوال خبيثة وافتراءات ضد مسيو مادلين - وهذا ما  
 يحدث دائماً لأولئك الذين يلعبون بجهدهم الخاص . وما هي الا فترة  
 قصيرة حتى تضالت هذه الافتراءات والاقوال الخبيثة فعدت هباءً ، ثم  
 انتهت الى ان تصبح مداعبات ، ثم تلاشت نهائياً . لقد أمسى الاحترام  
 كاملاً ، اجماعياً ، ودياً . ولقد انقضت آونة ، حوالي عام ١٨٢١ ،  
 'لفظت خلافاً هاتان الكلمتان : « السيد العمدة » في مونتروي سور مير  
 بمثل النبرة ، تقريباً ، التي 'لفظت بها هذه الكلمات : « صاحب السيادة  
 الاسقف » في مدينة د ... عام ١٨١٥ . كان الناس يقبلون من مواطن تقع  
 على مسبعة ثلاثين ميلاً ليستشيروا مسيو مادلين . لقد سوى الخلافات ،  
 وحال دون اقامة الدعاوى ، واصلح ما بين الاعداء . واختاره كل امرئ ،  
 بطوعه ، قاضياً . لقد بدا وكأنه يحفظ كتاب القانون الطبيعي عن ظهر  
 قلب . وفي مدى ست سنوات ، انتشرت عدوى من الاجلال ، شيئاً  
 بعد شيء ، في طول الاقليم وعرضه .

ولكن رجلاً واحداً ليس غير ، في المدينة وما حوله ، اجتنب

هذه العدوى اجتناباً كاملاً . كان يعنصم بالامبالاة ، أباً ما كان العمل الذي يأتيه الاب مادلين ، وكأن اعتصامه ذاك كان بضرب من الغريزة ثابتاً رابط الجأش . وكان يلتزم اليقظة والحذر . والذي يبدو ، في الواقع ، ان في بعض الناس غريزة هيبية حقيقية ، خالصة وكاملة مثل جميع الفرائز ، غريزة تخلق النفور والمشاركة الوجدانية ، وتفصل طبيعة عن طبيعة فصلاً سرمدياً ؛ غريزة لا تتردد ابداً ، ولا تتكدر ابداً ، ولا نعصم بالصمت ابداً ، ولا نجيز لنفسها ان تخطيء ابداً ؛ غريزة صافية في غموضها ، منزّهة عن الضلال ، متفطّرة ، متردة على جميع نواصع الفطنة ، وجميع تحليلات العقل ؛ غريزة تحذر سرّاً الرجل الكلب من وجود الرجل المردة ، والرجل الثعلب من وجود الرجل الاسد ، منها تكن مصائرهم ومقاديرهم .

وفي كثير من الاحيان ، فيما يكون مسير مادلين مجتازاً بأحد الشوارع ، هادئاً ، ودوداً ، محوطاً ببركات الجميع ، كان يتفق ان يلتفت خلفه فجأةً رجلٌ طويل القامة مُرتدي قبعة مسطحة وسترة رمادية ضارباً لونها الى لون الحديد وملح بحيزرانة ضخمة ، فيتنبه نظراً حتى ينواري عن البصر ، ويصالب ذراعيه ، هازاً رأسه بعض الشيء ، رافعاً شفته العليا بشفته السفلى حتى تحاذي أنفه ، وهي حركة ذات مغزى يمكن ان تُترجم على هذا النحو : « ولكن من هو هذا الرجل ؟ أفا واثق من اني رأيت في مكان ما . وعلى أية حال ، فلست انا مغفلاً يُخدع به . »

وكانت هذه الشخصية ، الرصينة على نحو يكاد يكون مهدداً ، من اولئك الذين يسيطرون على انتباه المراقب ، حتى حين يلقاهم لقاءً خاطفاً . كان اسمه جافير ، وكان رجلاً من رجال البوليس .

كان يقوم في مونترروي سور مير بمهمة مفتش الشرطة البغيضة ، ولكن النافذة . إنه لم يكن هناك يوم وفد مادلين على المدينة . وكان مدينياً

بمنصبه لحاية مسيو شابويه ، سكرتير وزير الدولة الكونت آنغلير ، وكان آنذاك مديراً للشرطة في باريس . وحين أقبل جافير على مونتروي سور مور كان الصناعي الكبير قد مكث لنفسه في المدينة ، وكانت الاب مادلين قد امسى مسيو مادلين .

إن لبعض رجال الشرطة سبباً فريدة تستطيع ان تلمح فيها الحجة مزوجةً بالسلطان . لقد كانت لجافير تلك السبب ، ولكن من غير حجة . ونحن على مثل اليقين من أنه لو كان في ميسور العيون ان تطلع على النفوس اذن لتجلت لنا في وضوح هذه الواقعة الغريبة : ان كل فرد من الانواع البشرية يطابق واحداً من انواع الخليقة الحيوانية . واذن لادرکنا في سر هذه الحقيقة التي لا تخطر للفكر الا بشق النفس : أنه ابتداءً من المحارة الى النسر ، ومن الخنزير الى النسر ، تجتمع الحيوانات كلها في الانسان ؛ وان كلاً منها مائل في احد الرجال ، بل إن عدداً منها لتلتقي في الشخص عينه في آن معاً .

وليس الحيوانات غير اشكال من فضائلنا وذنابلنا هامة أمام أعيننا . إنها اطراف نفوسنا المنظورة . ان الله يرينا اياها لكي يحملنا على التفكير . ولكن ، لما كانت الحيوانات مجرد ظلال ، فإن الله لم يجعلها قابلة للتربية بمعنى الكلمة الكامل . وما الداعي الى ذلك ؟ على حين أنه منح نفوسنا - بوصفها حقائق ووصفها ذات اهداف خاصة بها - فطنةً وذكاءً ، يعني انه منحها قابلية للتربية . ان في ميسور التربية الاجتماعية السليمة ان تستل من النفس دائماً ، كائنة ما كانت ، الخير الذي تطوي عليه .

بيد ان هذا ينبغي ان يقال من وجهة النظر المحدودة الخاصة بالحياة الارضية الظاهرية ، ومن غير ما افشأت على المسألة العميقة المتصلة بالشخصية السالفة والمستقبل للكائنات غير البشرية . إن الـ أنا ، المنظورة لا تخول الفكر ، بأية حال من الاحوال ، إنكار الـ أنا ، الحفية . وبعد هذا التحفظ نستطيع ان نخفي في سبيلنا .

والآن ، اذا سلم المرء لحظةً معنا بأن في كل رجل نوعاً من انواع  
الحليقة الحيوانية فسوف يكون يسيراً علينا ان نصف ضابط الامن  
بجافير .

ان فلاحى آستوريش \* يعتقدون بأن في كل مجموعة من الجراء التي  
تلدها الذئاب من بطن واحد كلياً تسارع الأم الى قتله ، خشية ان  
يفترس الجراء الصغيرة عندما يكبر .

إخلع على ولد الذئب الكلبى هذا وجهاً بشرياً تحصل على جافير .  
لقد 'ولد' جافير في سجن . كانت امه عرّافة ، وكان ابوه في سجن  
المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وحين ترعرع وقع في روعه أنه خارج  
نطاق المجتمع ؛ ويئس من امكان اجتياز ذلك النطاق في يوم من الايام .  
لقد لاحظ ان المجتمع يوصد ابوابه ، من غير ما رحمة ، في وجه طبقتين  
من الناس : اولئك الذين يمتدون عليه ، واولئك الذين يحرسونه . ولم  
يكن في ميسوره اكثر من ان يختار احدى هاتين الطبقتين ليس غير .  
وفي الوقت نفسه استشعر ان له اسماً لا سبيل الى وصفه من الصرامة  
والنظامية ، والزاهة 'مرذفاً' بكرامية لا سبيل الى وصفها ايضاً لذلك  
المرق العجري الذي ينتسب اليه . والتحق بالشرطة .

ووفق الى النجاح . وفي الاربعين من العمر غدا مفتشاً .  
وكان قد استخدم في صدر شبابه في سجون الجنوب الخاصة  
بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وقبل أن غضي الى ابعد ، يحسن بنا ان نفهم ما الذي نعنيه بسكنتي  
« الوجه البشري » اللتين اصطنعناهما اللحظة في الكلام على جافير .

كان وجه جافير البشري يتألف من انف افطس ، ذي منخرين  
عميقين يحيط بهما شاربان ضخمان كثيفان يغطيان خديه جميعاً . وان المرء

---

\* من مقاطعات الاندلس القديمة ، وهي بلاد جبالية تغطيها البيرينيه ( جبال البرانس )  
الآستوريشية .

ليأخذه شيء من الضيق حين يرى أول مرة الى هاتين الغابتين وهاتين المغارتين . ركاث جافير اذا ما ضحك - وهو شيء نادر وفظيع - تنفجر شفاه الرقيقتان وتنكشفان لا عن اسنانه وحسب ، بل عن لثاته ايضاً . وحول أنه كانت ثنية عريضة ووحشية كنتلك التي تكون حول خطم الايل او الظبي . كان جافير ، اذا ما غلبت عليه الصرامة كلباً من كلاب درواس الثرسة الطباع الغليظة الرأس ، وكانت اذا ما ضحك غمراً . وفي ما عدا ذلك كان ذا رأس صغير ، وفكين ضخين ، وشعر مجففي الجهة وينوس فوق الحاجبين ، وعبسة بين العينين مركزية سرمدية كأنها نجم الغضب ، ونظرة قاتمة ، ولم مطبق روع ، وسيا من السلطة الضاربة .

كان هذا الرجل مزاجاً من عاطفتين هما في ذاتهما بيطتان وصالحتان جداً ، ولكنه كاد يجعلهما شريعتين بغلوّه في توكيدهما : احترام السلطة ، وكره التمرد . وفي عينيه لم تكن السرقة ، والقتل ، وجميع الجرائم غير اشكال من التمرد . لقد احاط كل ذي وظيفة في الدولة ، ابتداء من رئيس الوزراء حتى الناطور ، بضرب من الايمان الاعمى العميق . ولم يكن عنده ما يقدمه الى جميع اولئك الذين تخطّوا مرة حدود القانون غير الازدراء ، والكراهية ، والاشمئزاز . كان جازماً معمماً لا محل عنده لاستثناء ما . فمن ناحية ، كان يقول : « الموظف لا يمكن ان يتجذع ، والقاضي لا يمكن ان يخطيء ! » ومن ناحية ثانية ، كان يقول : « اولئك قد فقدوا نهائياً فليس الى شفاهم من سبيل . ان اياها خير لا يمكن ان يصدر عنهم » . كان يشايع مشايعة كاملة اولئك المتطرفين الذين يعززون الى القانون البشري قدرة ما ادرها على صنع ، او اذا شئت فقل على تحقيق ، الهلكى من البشر ، والذين يضعون نظيراً لـ « ستيكس » \* في ادنى المجتمع . كان رواقياً ، جدياً ، كالح الوجه . كان حالمًا كثيرًا ؛ وكان وضيعاً

\* Styx في الميثولوجيا الاغريقية انه نهر في جهنم يطوقها سبع مرات .

ومتشاعاً مثل جميع المتعصبين . كانت نظره باردة ، وكانت ثاقبة  
 مثل الحرز . كانت حياته كلها مفرغة في هاتين الكلمتين : اليقظة والمراقبة .  
 لقد رسم خطأً مستقيماً عبر أشد الأشياء التواء في العالم . كان ضميره  
 رهن جدواه ، وكان دينه رهن واجباته ، وكان جاسوساً كما يكون  
 غيره من الناس كاهناً . والويل لمن يُقدّر له ان يقع بين يديه ! كان  
 خليقاً به ان يعتقل اباه لو فر من سجن المحكوم عليهم بالاضغاث الشاقة ،  
 ويشي بأمه اذا خالفت الحكم الذي يفرض عليها الإقامة في مكان بعينه  
 بعد الخروج من السجن . وكان خليقاً به ان يفعل هذا بمثل ذلك الضرب  
 من الارتياح الباطني الذي ينبثق من الفضيلة . كانت حياته حياة حرمان ،  
 وعزلة ، وانكار ذات ، وعفة ، حياة لا تعرف اللهو البتة . كانت هي  
 الواجب العنيد ، الحقود ، المستغرق في عمله كشرطي كما استغرق  
 الاسبارطيون في اسبارطة . ترصد لا رحم ، وإخلاص ضار ، وجاسوس  
 بوليسي قاسٍ رخامي القلب . كان هو بروتوس \* متحداً بفيدوك . \*\*  
 كان شخص جافير كله بمثل الجاسوس والخبر . وكان خليقاً بمدرسة  
 جوزيف دو ميستر \*\*\* الصوفية - التي كانت تتعش في ذلك العهد ما  
 كان يدعى الصحف الموالية للنظام القديم موالاة عنيدة بالنظريات المجلجة  
 حول نكوت العالم - ان تزعم ان جافير كان رمزاً . لم يكن في  
 ميسورك ان ترى جبينه المحجوب تحت قبعة ، ولم يكن في ميسورك  
 ان ترى عينيه الضائعتين تحت حاجبيه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى

---

\* لوسيس جونيوس بروتوس الزعيم الروماني الكبير الذي قاد الثورة على الملوك  
 التاركين واقام النظام الجمهوري في رومة . واذا تأمر اولاده لاعادة التاركين لم  
 يتردد في محاكمتهم واصدار حكم الموت عليهم .

\*\* Vidocq مغامر فرنسي ( ١٧٧٥ - ١٨٣٨ ) انتهى ال ان يصبح مديراً  
 للامن العام بعد ان كان تهرباً .

\*\*\* de Maistre فيلسوف ديني كان شديد التعصب لرومة ، شديد المداوة لثورة  
 الفرنسية ( ١٧٥٣ - ١٨٢١ )

ذقه المدفونة في ربطة عنقه ، ولم يكن في مسورك ان ترى بسديه المرتدين الى ردينه ، ولم يكن في مسورك ان ترى خيثرانته التي كان يحملها تحت سترته . ولكن ما ان تأزف الساعة حتى تقع عينك على جبين ضيق ذي زوايا ، ونظرة مشؤومة ، وذقن مهددة ، ويدين هائلتين ، وهراوة ضخمة جداً ، وقد انبثقت كلها ، فجاءة ، من هذا الشبح ، وكأنما تنبثق من كمين .

وفي لحظات فراغه ، التي كانت نادرة ، كان من دأبه ان يطالع على الرغم من كراهيته للكتب . ومن هنا لم يكن أمياً مئة بالمئة . ذلك ما كان يلاحظ ايضاً من بعض التوكيد في حديثه .

كان في نجوة من الرذيلة ، كما قلنا . فاذا ما استشعر الرضا عن نفسه أمتعها بقبضة من السعوط ، وهذا ما اثبت انه كان بشرياً .

ولسوف ندرك ، في غير عسر ، ان جافير كان « بعبعاً » لجميع افراد تلك الطبقة التي تدرجها احصاءات وزير العدل السنوية تحت عنوان : « اناس منشردون » . كان مجرد النطق باسم جافير كافياً لأن يحمل اولئك جميعاً على الفرار ، كأنّ وجه جافير يحجرهم تحجيراً .

كذلك كان هذا الرجل الرهيب .

كان جافير شبه بعين مسددة أبداً الى مسيو مادلين . عين مفعمة بالشك والظنون . ولاحظ مسيو مادلين ذلك ، آخر الامر ، ولكنه بدا وكأنه لم يابه به . إنه لم يوجه أيما سؤال الى جافير ؛ إنه لم يلتصقه ولم يجتنبه . لقد تحمّل هذه النظرة البغيضة ، الموشكة ان تكون ثقيلة الرطاة ، من غير ان يبدو منتبهاً لها . لقد عامل جافير كما عامل أي امريء آخر ، في طمانينة وكرم نفس .

ومن بعض الكلمات التي نذت من جافير كان في مسور المرء ان يحزر أنه استقصى على نحو سرّي - وبذلك الفضول الخاص بالعرق الذي ينسب اليه ، والمنبثق من العريزة اكثر من انبثاقه من الارادة -



جميع الآثار السالفة التي خلفها الاب مادلين في مواطن اخرى . لقد بدا انه يعرف ، ولقد ذكر احياناً على نحو مغلّف ، ان شخصاً قد جمع بعض المعلومات في منطقة ما ، عن اسرة مفقودة ما . وذات يوم اتفق أن قال ، مخاطباً نفسه : « أحسب اني امسكت به ! » وطوال ثلاثة أيام ظل مضطرب البال لم ينطق بكلمة واحدة . لقد بدا وكأن الحيط الذي حسب انه امسك به كان مقطوعاً .

ولكن - وهذا هو التصحيح الضروري لما يمكن لعنى بعض الكلمات ان يثله حين تكون مطلقة اكثر مما ينبغي - ليس يمكن ان يكون ثقة ما هو معصوم عن الضلال ، حقاً ، في الكائن البشري ، وان خاصة الفرزة الرئيسية ، هي على وجه الضبط كونها قابلة لأن تُزعج وأن تُقتفى آثارها وان تُضلل . ولولا ذلك لكانت اسمى من الذكاء ، وعندئذ تكون البهية متمتعة بنور أصفى من ذلك الذي يتمتع به الانسان .

ومع هذا فقد بدا ان مسلكه العجيب ترك انطباعاً ما ، ذات يوم ، في نفس مسيو مادلين . وفيما يلي تفصيل الحادثة .

## ٦

### الاب فوشلوفان

كان مسيو مادلين ينشئ ذات صباح في احد ازقة مونتروي سور مير غير المعتدة . فسمع صراخاً ، ورأى حشداً على مسافة قصيرة . فضى الى هناك . كان رجل عجوز يدعى الاب فوشلوفان قد سقط تحت عربته ، بعد ان خرّ فرسه على الارض .

وكان فوشلوفان هذا واحداً من النفر القلائل الذين ظلوا اعداء لسبو

مادلين في ذلك الحين . فحين وفد مادلين الى تلك المقاطعة ، كانت لفوشوفان هذا ، وهو كاتبٌ عدلٌ وفلاح يكاد يكون امياً ، صناعة آخذة في البوار . لقد رأى هذا العامل البسيط يصبح غنياً ، على حين كان هو - الحبير العالم - يخطو نحو الافلاس . وملاه ذلك حسداً ، فبذل غاية جهده ، في جميع المناسبات ، لكي يؤذي مادلين . ثم كان الافلاس ؛ واذ لم يبق للرجل المعجوز غير عربة وفرس ، واذ لم تكن له امرة وأولاد ، فقد اضطر الى ان يكسب رزقه بوصفه سائق عربة .

لقد 'كسرت' فخذاً للفرس ، فليس في ميسوره ان يتحرك . وعلق الرجل المعجوز بين العجلات . وكانت سقطته ، لسوء الحظ ، على نحو جعل الثقل كله منصّباً على صدره . كانت العربة مثقلة بالأحمال ، وكان الاب فوشوفان 'يطلق' حشرجة موجعة . كانوا قد حاولوا سحبه ، ولكن على غير طائل . ان الجهد الذي يعوزة النظام ، والعون الذي تعوزة البراعة ، والدفقة التي لا يحالفها الصواب قد تجهز عليه . كان من المتعذر إلتقاده إلا برفع العربة من أدنى . وكان جافير ، الذي أقبل في اللحظة التي وقع فيها الحادث ، قد ارسل في طلب رافعة من رافعات الانتقال .

ووصل ميسو مادلين . وارتد الحشد في احترام .

وصاح فوشوفان المعجوز :

- « النجدة ! اليس فيكم فتى صالح ينقذ حياة رجل عجوز ؟ »

والتفت ميسو مادلين الى حشود النظارة :

- « هل عند احد منكم رافعة ؟ »

فأجاب احد الفلاحين :

- « لقد ارسلنا في طلب واحدة . »

- « ومتى سوف تصل الى هنا ؟ »

- « لقد طلبناها من اقرب مكان - من « فلاشو » حيث يوجد حداد

ولكن ان تصل قبل ربع ساعة او اكثر ، على كل حال . ،  
فصاح مادلين :

- « ربع ساعة ! »

كان المطر قد هطل الليلة البارحة ، وكانت التربة دمثة لينة ، فاذا بالعربة تسيخ في الارض ، اكثر فأكثر ، لحظة اثر لحظة ، واذا بها لا تردد إلا ضغطاً على صدر السائق المعجز . كان واضحاً ان اضلاعه سوف تسحق في اقل من خمس دقائق .

فقال مادلين مخاطباً الفلاحين الذين كانوا يشهدون المأساة :

- « ليس في استطاعتنا ان ننتظر ربع ساعة . »

- « يتعين علينا ان نفعل . »

- « ولكن الاوان يكون قد فات ! الا ترون ان العربة تسيخ

اكثر فأكثر ؟ »

- « لا حيلة لنا في ذلك . »

فاستأنف مادلين القول :

- « إسمعوا ! لا يزال ثمة متسع ، تحت العربة ، يمكن رجلاً ما

من ان يزحف الى هناك ويرفعها بظهره . وفي نصف دقيقة يكون في

إمكاننا ان نخرج الرجل البائس . اليس فيكم رجل ذو قوة وشجاعة ؟

خمس ليرات ذهبية لمن يتقدم ! »

ولم يتحرك احد من افراد الحشد .

وقال مادلين :

- « عشر ليرات ذهبية ! »

وخفض القوم ابصارهم . وغضهم اخدام قائلًا :

- « ينبغي ان يكون المرء قوياً الى حد شيطاني . ومع ذلك فقد

يعرض جسده للسحق . »

فقال مادلين :

- « هيا ! عشرون ليرة ذهبية ! »  
وران الصمت ، شأنه في المرة الأولى .  
وقال صوت :  
- « لست الرغبة هي التي تعوزم . »  
والثفت مادلين ، فوقع بصره على جافير . لم يكن قد رآه حين  
أقبل .  
وتابع جافير كلامه :  
- « إنها القوة . ينبغي ان يكون المرء رجلاً فظيماً حتى يتمكن  
من ان يرفع على ظهره عربة مثل هذه .  
ثم انه سدّد نظراته الى مسيو مادلين ، وأضاف مؤكداً كل كلمة  
من كلماته :  
- « مسيو مادلين ، انا لم اعرف قطّ غير رجل واحد قادرٍ على  
ان يفعل ما تدعو اليه . »  
وارتعد مادلين .  
واردف جافير ، في انطباعة لامبالية ، ولكن من غير ان يرفع  
عينيه عن مادلين :  
- « كان واحداً من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »  
فقال مادلين :  
- « آه ! »  
- « في السجن الخاص هؤلاء ، في طولون . »  
وغدا وجه مادلين شاحباً .  
وفي غضون ذلك كانت العربة تسير شيئاً فشيئاً . وهدر الاب  
فوشلوفان وصاح :  
- « لاني أختق ! إن اضلاعي تتعطم ! إبتوني برافعة اثال !  
إبتوني بأي شيء ! اوه ! »

واجال مادلين بصره في ما حوله :  
- « ليس هناك اذن شخص يرغب في ان يكسب عشرين ليرة ذهبية ،  
وينقذ حياة هذا الرجل المعجوز البائس ؟ »  
ولم يتحرك احدٌ من النظارة . واستأنف جافير كلامه :  
- « انا لم اعرف قط غير رجل واحد كان يقدر على ان يحملَ حملَ  
رافعة أثقال . كان هو ذلك المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . »

وصاح الرجل المعجوز :

- « اوه ، إنها تسحقني ! »

ورفع مادلين رأسه ، فألقى عين جافير الصقرية ما تزال مسددة اليه .  
ونظر الى الفلاحين المسمرين في اماكنهم ، وابتسم ابتسامة حزينة . ثم  
إنه ركع ، من غير ان ينبس بكلمة . وحتى قبل ان يجد الحشد متسعاً  
من الوقت لاطلاق صيحة ، أمسى تحت العربة .  
كانت لحظة رهيبة من التوقع والصمت .

لقد شوهد مادلين ، منبطحاً على بطنه تقريباً تحت هذا الثقل الجثيف ،  
يحاول مرتين ان يجمع ما بين مرفقيه وركبتيه ، ولكن على غير  
طائل . وصاح القوم :

- « ايها الاب مادلين ! اخرج من هناك ! »

وقال فوشلوفان المعجوز نفسه :

- « مسيو مادلين ! اذهب من هنا ! لا مفر من الموت ؛ انت  
ترى ذلك . دعني وشأني . اخشى ان تسحقك العربة انت ايضاً ! »  
ولكن مادلين لم يجب .

وحبس النظارة انفسهم . كانت المعجلات لا تزال تسيخ في الارض ،  
وكان قد غدا شبه متمذر على مادلين ان يخرج من تحت العربة .  
وفجأة ، أجفل الحشد الضخم . لقد ارتفعت العربة في بطنه ، وشرعت  
المعجلات تخرج من مغارزها . وسمع صوت مختنق يصيح :

« عجلوا ! ساعدوا ! »

كان صوتَ مادلين الذي بذل في تلك اللحظة جهداً نهائياً .  
واندفعوا كلهم الى العمل . كان في التفاني الذي اظهره رجل فرد  
ما أوقع القوة والشجاعة في نفوس الجميع . وتعاونت عشرون ذراعاً على  
رفع العربة . ونجا فوشلوفان العجوز .

ونفض مادلين . كان شديد الشحوب ، برغم انه كان يتصبب عرقاً .  
وكانت ملابسه ممزقة يعلوها الطين . وبكى القوم جميعاً . وقبل الرجل  
العجوز ركبته ، ودعا « الرب الطيب » . أما هو فكانت تملو وجهه  
انطباعة من الألم المبتهج ، السماوي لا أقدر على وصفها . وستر عينه  
الهادئة على جافير الذي كان لا يفتأ يراقبه .

## ٧

### فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس

كان فوشلوفان قد كسر رُضفته \* اثر سقوطه تحت العربة . فنقله  
الاب مادلين الى دار للمرضى كان قد انشأها لعماله في بناء مصنعه نفسه ،  
وعهد في شؤونها الى اثنتين من راهبات المحبة . وفي صباح اليوم التالي  
وجد الرجل العجوز ، على الطاولة القائمة الى جانب سريره ورقة ، نقدية من  
 فئة الالف فرنك ، وهذه الكلمة مكتوبةً بخط الاب مادلين :

« إني اشتري منك عربتك وحصانك . »

كانت العربة مهشمة ؛ وكان الحصان ميتاً . ونعم فوشلوفان بالشفاء .  
ولكن ركبته ظلت متصلبة . ووفق مادلين - من طريق توصيات  
حصل عليها من راهبات ومن الكاهن - الى ان يمتن الرجل العجوز  
\* الرضفة : عظام الركبة .

بستانياً في دير للراهبات في حيّ سان انطوان بباريس .  
وبعد ذلك بقليل ، عُيّن مسيو مادلين عمدة . واول ما رأى جافير الى مسيو مادلين متقلداً الوشاح الذي يمنحه السلطة المطلقة على المدينة ، استشعر مثل تلك الرعدة التي يجدر بكلب من كلاب درّواس ان يستشعرها حين يستروح ذئباً في ثياب سيده . ومن ذلك الحين انشأ يجتنبه ما استطاع . فاذا ما حتمت ضرورات المصلحة الاتصال بالسيد العمدة ، فليس من سبيل الى التقاضي من ذلك البتة ، تحدث اليه في احترام عميق .

وكانت للازدهار الذي خلقه الاب مادلين في مونتروي سور مير - بالاضافة الى آياته المنظورة التي اشرنا اليها - مظهر آخر غير منظور ، ولكنه ليس اقلّ شأنًا وخطراً . وهذا المظهر لا يخدع المرء عن نفسه ابداً . فعين يتألم السكان ، وحين يطلبون العمل فلا يجدونه ، وحين تصاب التجارة بالكساد ، يقاوم المكلف الضريبة ، بحكم الفاقة ، ويستنفد المهل القانونية ويتخطاها ، وتضطر الدولة الى ان تنفق اموالاً طائلة على جباية الضرائب وعلى تحصيلها عنوةً من المكلفين . اما حين يكون العمل موفوراً ، وحين يكون البلد غنياً سعيداً فغندند 'تدفع الضرائب في سر ، ومن غير ان تنفق الدولة مالاً كثيراً في جبايتها . وفي ميسورنا القول ان للفقير والثروة العامين ميزاناً لا يخطيء ، هو نفقات جباية الضرائب . وخلال سبع سنوات خفّضت نفقات جباية الضرائب في اقليم مونتروي سور مير الى ربع ما كانت عليه من قبل ، مما جعل كثيراً من المسؤولين - وبخاصة مسيو دو فيليل وزير المال آنذاك - يكتفون من الاشارة الى ذلك الاقليم والاستهاد به .

تلك كانت حال المنطقة عندما رجعت فانتين اليها . ان احداً لم يتذكّرها . ومن حسن الطالع ان باب مصنع مسيو مادلين كان شبه بوجه صديق من الاصدقاء . لقد شخصت الى هناك ، فالتقت بالمصنع

الخاص بالنساء . كان العمل جديداً عليها ، تماماً ؛ فلم يكن في مبدورها ان تبرع فيه براعةً كبيرة ، ومن هنا لم توفق الى ان تفوز بأكثر من تعويض ضئيل عن عملها اليومي . ولكن ذلك التعويض الضئيل كان يكفيها . لقد 'حلّت' المشكلة ؛ فهي تكسب رزقها .

## ٨

### مدام فيكتورين

#### تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق

وحين ادركت فانتين انها ضمنت رزقها عرفت 'لحظة' من الابتهاج . أيّ نعمة من السماء ان تكسب قوتها بعرق جبينها ! وعادتها الرغبة في العمل حقاً . لقد اشترت مرآة ، واهجت نفسها بشهد شبابها ، وشعرها الجميل ، وأسنانها الرائعة ، ونسبت اشياء كثيرة ، ولم تفكر الا بانقاذ كوزيت ، والا بأمكانيات المستقبل ، وكانت سعيدة تقريباً . واستأجرت غرفة صغيرة ، واثنتها على ان تدفع نفقات ذلك من دخل عملها في المستقبل . وتلك بقية من بقايا عدم التنظيم الذي تعودته من قبل .

واذ لم يكن في وسعها ان تقول انها كانت متزوجة ، فقد 'عُتبت' اسدّ العناية ، كما ألمعنا سابقاً ، بأن لا تتحدث عن بنتها الصغيرة .

وفي البدء ، كما رأينا ، كانت تبعث الى تيناردويه وزوجته بالمبلغ المتفق عليه تماماً . واذا كانت لا تحسن غير توقيع اسمها فقد اضطرت الى ان تستكتب واحداً من الكتاب العموميين .

كانت تبعث اليها بالرسائل بين الفينة والفينة ؛ ذلك ما لاحظته



الناس . وشرعت العاملات في قسم النساء ينهامن بأن فانتين و تكتب رسائل ، وان « لها ممالك غريبة » .

وليس اقدر على ترصد أعمال الناس من اولئك الذين لا تعنيهم تلك الأعمال . و لماذا لا يرجع هذا الرجل الا بعد الفسق ؟ ، و لماذا لا يستغني عن مفتاحه يوم الخميس ابدأ ؟ ، و لماذا يسلك الطرق الفرعية دائماً ؟ ، و لماذا تغادر هذه السيدة عربتها ، دائماً ، قبل ان تصل الى المنزل ؟ ، و لماذا تبعث من يشتري لها دفترآ من ورق الرسائل على حين غتليء حقيبتها بذلك الورق ؟ ، الخ . الخ . وهناك أناس لا يجسمون - لكي يحلوا هذه الاحاجي التي هي برغم ذلك غير ذات اهمية البتة بالنسبة اليهم - عن ان ينفقوا مالآ اكثر ، ويضيعوا وقتاً اكبر ، ويمحسوا أنفسهم عناية اعظم من ذلك الذي يقتضيه القيام بعشرة اعمال صالحات ، يفعلون ذلك بالجلان ، لمجرد اللذة ، ومن غير ان يقبضوا ثمن فضولهم شيئاً غير الفضول . انهم يتعقبون هذا الرجل او تلك المرأة اياماً بكاملها ، ويقفون موقف الحرس ساعات بطولها في زوايا الشارع ، تحت ابواب الازقة ، في موهن من الليل ، وقد استبدت بهم البرد واصابهم المطر ، ويرشون الرسل ، ويسكرون سائقي العربات والخدم ، ويدفعون الاجور الى احدى الخادمات ، ويشترون احد البوابين . من اجل ماذا ؟ للاشيء . مجرد توقي الى النظر ، الى المعرفة ، الى النفاذ الى الاشياء . مجرد رغبة غاومة في القال والقليل . وكثيراً ما يؤدي الكشف عن هذه الامرار ، ونشر هذه الحقايا ، وبسط هذه الاحاجي في وضع النهاء الى كراوت ، الى مبارزات ، الى افلاسات ، الى خراب أمر ، الى إشفاء نفوس ، ليغتبط اعظم الاغنياء اولئك الذين اكتشفوا كل شيء . ، من غير ان تكون لهم مصلحة ما ، وبدافع من الغريزة ليس غير . شيء محزن !

وبعض الناس تأتيهم النزعة الى الشر من مجرد حاجتهم الى الكلام .

إن حديثهم ، وإن سهرم في الصالونات ، وإن نوثتهم في غرف الانتظار  
هي أشبه ما تكون بتلك المواقف التي تستنفد الحطب على نحو سريع .  
إنهم في حاجة الى مقدار كبير من الوقود . وما ذلك الوقود غير جارم .  
وهكذا أخذت فانتين للرقابة .

والى هذا ، فإن غير واحدة كانت تحدها لشعرها الاشقر واسنانيا  
البيضاء .

ولقد روى بعضهم انها كثيراً ما كانت تشج بوجهها ، في المصنع ،  
وقد تحلقت النسوة من حولها ، لكي تكفكف عبرة من عبراتها .  
تلك كانت اللحظات التي فكرت فيها بابنتها . ومن بدري ، فقد  
تكون فكرت في تلك اللحظات بالرجل الذي سبق لها ان احبته ايضاً .  
إنها لمهمة فاجعة تلك التي تقتضي المرء ان يقطع صلات الماضي القاتكة .  
لقد اقيم الدليل على انها كانت تكتب مرتين في الشهر ، على الأقل ،  
وتوجه تلك الرسالة الى العنوان نفسه دائماً ، وانها كانت تدفع اجرة البريد  
سلفاً . ووقفت النسوة الى معرفة العنوان : « مسيو ، مسيو تيناوديه ،  
صاحب فندق ، في مونفيرماي . » وكان الكاتب العمومي ، وهو رجل  
عجوز ساذج ما كان قادراً على ان يلا معدته بالنيذ من غير ان يُفرغ  
جيبه من الاسرار ، قد أغري بافشاء ذلك في حانة من حانات الحر .  
وبالاختصار ، فقد عُرف ان لفانتين ولدأ . « ينبغي ان تكون من  
ذلك النوع من النساء » . ولقد وُجدت امرأة ثائرة قصت الى  
مونفيرماي ، وتحدثت مع تيناوديه وزوجته ، حتى اذا رجعت قالت :  
- « لقد دفعت خمسة وثلاثين فرنكاً فوقفت على جلبة الامر . لقد  
رأيت الطفلة بعيني ! »

وكانت المرأة الفضولية التي فعلت ذلك عجوزاً تدعى مدام فيكتورينين ،  
الحارسة فضيلة كل انسان ، الموكلة بالمحافظة عليها . كانت مدام  
فيكتورينين في السادسة والخمسين ، وكانت تتردى قناع الشبخوخة فوق

قناع البشاعة . كان صوتها يرتجف ، وكانت اهواؤها متقلبة . والواقع ان هذه المرأة المعجوز كانت في يوم من الايام شابة - شيء عجيب حقاً . وفي صباحها ، وفي قلب عام ٩٣ ، تزوجت راهباً فرّ من الدير بقلنسوة حمراء ، وانتقل من البرنارديين \* الى البعقويين \*\* . كانت مهزولة ، عنيدة ، فظة ، نزقة ، شائكة ، تكاد تكون سامة . انها لم تنس قط راهبها ، التي كانت ارملة ، والذي كان يعاملها في قسوة وغلظة . كانت 'قراصاً' فتنه' ثوب راهب . وبعد سقوط نابوليون ، غدت متطرفة في التقوى ، وكان نظرفها هذا حماسياً الى درجة حلت الكهنة على ان ينفروا لها حكايتها مع الراهب . وكان لها ملك صغير ، اوصت به - في كثير من الطنين والرنين - لاحدى الرهبانيات الدينية . وكانت تتمتع بمكانة مرموقة في قصر الاسقفية في آراس . ان مدام فيكتورين هذه ، اذن ، قصدت الى مونفيرماي ، ثم رجعت قائلة : ولقد رأيت الطفلة بعيني .

واستغرق ذلك كله بعض الوقت . وكانت فانتين قد سلخت ما يزيد على عام في المصنع عندما تقدمت نحوها ناظرة المصنع ودفعت اليها ، باسم العمدة ، خمسين فرنكاً ، قائلة لها ان المصنع لم يعد في حاجة اليها ، داعية اياها - باسم العمدة ايضاً - الى مغادرة المنطقة .

وانما وقع هذا في ذلك الشهر عينه الذي طالب فيه تبنارديه وزوجته بخمسة عشر فرنكاً بدلاً من اثني عشر ، بعد ان سبق لها ان فازا باثني عشر فرنكاً بدلاً من ستة فرنكات .

وُصفت فانتين . لم يكن في استطاعها ان تغادر المنطقة . فقد كان عليها ان تدفع الدين المستحق عليها من أجر الغرفة وثن الاثاث ، وما

\* البرنارديون Bernardines رهبانية دينية نسب الى القديس برنارد ( ١٠٩١ - ١١٥٣ ) .

\*\* البعقويون او البعافة Jacobins حزب ثوري شهير كان يعد اجتماعاته في دير البعافة القديم في باريس . وقد لعب البعافة دوراً كبيراً في الثورة الفرنسية .

كانت المحسوس فرنكاً لتغطي ذلك الدين . ونهتج صوتها بوضع كلمات متوسلة . فأفهمتها الناظرة ان عليها ان تغادر المصنع في الحال . والى هذا فلم تكن فانتين الا عاملة من درجة متوسطة . فما كان منها إلا ان غادرت المصنع ، يغمرها الحجل اكثر مما يغمرها اليأس ، ورجعت الى غرفتها . لقد أصبحت خطيئتها معروفة عند الجميع !

ولم تؤانس في نفسها القدرة على ان تنطق بكلمة . ولقد أشير عليها بأن تقابل العمدة . ولكنها لم تجرؤ . لقد أعطاهها العمدة خمسين فرنكاً ، لأنه كان خيراً ؛ وطردها من المصنع لانه كان مستقيماً . لقد اذعنت لذلك القرار .

## ٩

### نجاح مدام فيكتورينين

واذن فقد صلحت ارملة الراهب لشيء . ولم يعرف مسيو مادلين بشيء من ذلك كله . وتلك مصادفات تحفل بها الحياة . فقد كان من عادة مسيو مادلين ان لا يدخل الجناح النسوي من المصنع الا في النادر النادر .

لقد أقام على رأس هذا الجناح عائناً اقترح الكاهن اسمها عليه ؛ وكان له كامل الثقة في هذه الناظرة المهيبة حقاً ، الرصينة ، المنصفة ، النزينة ، العامر صدرها بالرحمة التي تقوم على اساس من العطاء ، اكثر مما هو عامر بتلك الرحمة التي تقوم على التفهم والصفح . لقد فوّض مسيو مادلين كل شيء اليها . وان خير الناس ليضطرون في بعض الاحيان الى ان يُنيبوا عنهم من يباشر سلطتهم . وهذا السلطان المطلق ، وعلى اساس من الايمان بأنها تأتي عملاً حسناً ، صاغت ناظرة

المصنع الاتهام ، وحاكت فانتين ، وادانتها ، ونفذت حكمها فيها .  
أما المحسون فرنكاً فقد قدمتها اليها من اعتماد كان مسيو مادلين  
اودعها إياه للتصدق على المعوزات ومدّ يد العون الى العاملات ، من  
غير ان يسألها عنه حساباً .

وحاولت فانتين ان تكسب رزقها من طريق الخدمة في بيوت  
المنطقة . . لقد طرقت ابواب المنازل باباً اثر باب . ولكن احداً لم يكن  
راغباً فيها . وما كان في ميسورها ان تغادر البلدة . ذلك بان تاجر  
الامتعة المستعملة الذي كانت مدينة له بشئ أثاثها ، وبأله من اثاث ،  
قال لها : « اذا رحلت فسوف أعمل على القاء القبض عليك بوصفك  
لصّة . » وبأن المالك الذي كانت مدينة له بأجر غرفتها قال لها :  
« انتِ نضرة العود بية الطلعة ، وفي ميسورك ان تدفعي . » وقسمت  
المحسين فرنكاً بين المالك والتاجر ، واعادت الى هذا الأخير ثلاثة ارباع  
بضاعته ، مبقية ما هو ضروريّ ليس غير ، فاذا بها تجد نفسها ممن  
غير عمل ، ومن غير منزلة ، واذا بها تجد نفسها ولم يبق لها ما  
تملكه غير سربرها ، ولا يزال عليها دينٌ يبلغ نحواً من مئة فرنك .

وبدأت تصنع قصصاً خشنّة لجنود الحامية ، كاسبةً بذلك اثني عشر  
« سو » يومياً . كانت ابنتها تكلفها عشرة . وفي هذه الفترة بالذات  
شرعت تقصّر في أداء ما عليها الى تيناوديه وزوجته في ميقاته المحدد .  
وايّا ما كان ، فان المرأة العجوز التي كانت تضيء شمعها لها حين  
ترجع الى غرفتها بعد ان يبط الليل علتها فنّ الحياة في غمرة البؤس .  
فوراء العيش على القليل ، يقوم العيش على لا شيء . انها غرقتان : الاولى  
مظلمة ، والثانية حالكة السواد .

وتعلّمت فانتين كيف تستغني عن نار الشتاء استغناء تاماً ، وكيف  
تتخلّى عن طائر يأكل من الذرة البيضاء ما قيمته ربع « سو » كل  
يومين ، وكيف تصنع من تنورتها الداخلية لحافاً ، وكيف تصنع من

لحافها تنورة داخلية ، وكيف توفر شعنتها بان تتناول طعامها على الضوء المنبعث من النافذة المقابلة . ان افراداً قلائل يعرفون كم يستطيع بعض المخلوقات الضعاف الذين شأبوا على العرمان والامانة ان ينتزعوا من الفلس الواحد . وانما ينتهي ذلك الى ان يصبح مرهبة . ولقد اكتسبت فانتين هذه المرهبة الرفيعة ، واستعادت شجاعتهما بعض الشيء . وفي تلك الفترة قالت لاحدى جارئاتها :

— « عجيب ! اني اقول لنفسي : اذا لم أتم غير خمس ساعات ، واذا استغلت طوال الساعات الباقية في خياطة الثياب ، فعندئذ استطع أن أكسب دائماً ما يقيم أودي ، أو يكاد . وفوق هذا ، فحين يكون الانسان محزوناً يكون استهلاكه من الطعام اقل . وأياً ما كان ، فان الالم والتلق ، وان قليلاً من الحبز في يد ، وقبضة من الاحزان في يد — كل ذلك سوف يبقيني على قيد الحياة . »

وفي عنتها تلك كان خليقاً بابنتها ، لو كانت الى جانبها ، أن تدخل على فؤادها سعادة عجيبة . وفكرت في أن تبث في طلبها . ولكن ماذا ؟ أتريد أن تقاسمها حرمانها ؟ والى هذا ، فهي مدينة لتيناردييه وزوجته . وكيف السبيل الى ان تقيها دينها ؟ والسفر ؟ كيف السبيل الى ان تدفع نفقاته ؟

وكانت العجوز التي اعطتها ما يمكن ان يدعى دروساً في حياة الفقر امرأة تقية ، تدعى مارغريت — امرأة ورعة ورعاً حقيقياً ، فقيرة ، محنة الى الفقراء ، ومحنة الى الاغنياء ايضاً ، عارفة من الكتابة ما يمكنها من ان توقع « مارغريت » ، مؤمنة بالله ، وذلك هو العلم .

إن ثمة كثيراً من هذه الفضائل في المواطن الدنيا . ولسوف تصح ذات يوم في المواطن العليا . فلهذه الحياة غدٌ .

وفي بادئ الامر ، كانت فانتين تستشعر الحجل الى حد جعلها لا تجرؤ على مغادرة غرفتها .

وكانت اذا خرجت الى الشارع تتخيل ان الناس يتلفتون خلفها ويومنون اليها . لقد نظر اليها كل إنسان ، ولكن احداً لم 'يلقَ عليها السلام . لقد نفذ ازدراء عابري السبيل الحاد البارد الى جسدها وروحها وكأنه ربح شمالية .

وفي المدن الصغيرة يبدو وكأن المرأة التعة تقف عارية أمام تمك الجميع ، وفضول الجميع . ففي باريس ، على الاقل ، لا يعرفك أحد ، وهذه الظلمة وقاء لك وستر . أوه ! كم قد تأقت الى الذهب الى باريس ! منحيل !

والحق انه تعين عليها ان تعود الاحتقار كما تعودت الفقر . وشيئاً بعد شيء ، حفظت دورها . وبعد شهرين أو ثلاثة ، نفخت عنها العار وعاودت الخروج من غرفتها وكأن لم يكن شيء . لقد قالت في ذات نفسها : « لست أبالي بعد اليوم . » وطفقت تروح وتجيء ، رافعة رأسها ، مبتسمة ابتسامة مريرة ، شاعرة بأن ماء الحياء عندها قد بدأ يجف .

ورأتها مدام فيكتورينين أحياناً غمرت بنافذتها ، ولاحظت شقاء هذه المخلوقة ، التي أعيدت ، - بفضلها - الى مكانها . وهنأت نفسها بذلك . إن للشريرين سعادة سوداء .

وارهق العمل الموصول صحة فانتين ، وازداد سعالها الجاف الضئيل . ولقد قالت ذات يوم لجارتها مارغريت :

- « انظري ما أشد حرارة يدي . »

ومع ذلك ففي الصباح ، حين كانت تسرح بمشط عتيق مكسور شعرها الجميل الذي ينساب في أمواج حريرية ، كانت فانتين تستمتع بلحظة من لحظات السعادة .

## عاقبة النجاح

كانت قد فصلت من العمل في أواخر الشتاء . وتفضى الصيف . ولكن الشتاء أقبل من جديد . أيام قصار ، وعمل أقل . وفي الشتاء ليس ثمة دفء ، ولا نور ، ولا ظهر . إن الماء ليلاص الصباح ، وإن ثمة ضباباً ، وغسقاً ، ونوافذ مبردة ، فليس في ميسورك أن ترى في وضوح . إن السماء في الشتاء لا تعدو أن تكون باب مغارة ؛ والنهار كله هو المغارة . إن سماء الفقر لتبدو على وجه الشمس . فصلٌ نحيف ! إن الشتاء ليحيل ماء السماء وقلب الإنسان الى حجارة . وأبرمها دائئوها .

كانت فانتين تكسب أقل مما ينبغي . وكانت ديونها قد تضخمت . وامطرها تيناردييه وزوجته بعد أن قصرت عن دفع المال اليهما - برسائل متلاحقة فطّرت محتوياتها فؤادها ، واستنفدت نفقاتها البريدية آخر درهما . وذات يوم ، كتب اليها أن صغيرتها كوزيت ليس عندها شيء من الملابس تستعين به على برد الشتاء ، وأنها في حاجة الى تنورة من الصوف ، وأن على أمها أن تبعث اليهما بعشرة فرنكات على الأقل في هذه السبيل . لقد تلقت الرسالة ، وراحت تحقها بيديها طوال النهار . حتى اذا هبط الليل شخّصت الى دكان حلاق عند زاوية الشارع ، وتزعت مشطها ، فتدلى شعرها الاشقر الرائع حتى خصرها .

وصاح الحلاق :

« يا له من شعر جميل ! »

فقالت :

« كم ندفع اليّ فيه ؟ »



- « عشرة فرنكات . »

- « فصّة . »

واشتوت تنورة مزرودة\* وبعثت بها الى تينارديه وزوجته .  
وانارت هذه التنورة غضب الزوجين . كان المال هو طلبتها .  
وقدّما التنورة الى ابيونين . وظلت القبرة المكيّنة ترتجف .  
وقالت فاتتين في ذات نفسها : « ان ابنتي لم تعد تعاني البرد .  
لقد ألبستها من شعري ثوباً . » واعتمرت قلنسوة صغيرة مستديرة غطّت  
رأسها المجزوز . ويرغم ذلك ، فقد ظلت جميلة .  
واعملت في فؤاد فانتين لواعيج مظلمة .

فحين رأت انه لم يعد في ميسورها ان تسرح شعرها شرعت تنظر  
في كراهية الى كل ما حولها . كانت قد ساطرت القوم ، منذ زمن  
بعيد ، حبههم العظيم للأب مادلين ، ولكنها بحكم تكرارها لنفسها انه  
هو الذي طردها من العمل ، وانه هو سبب شقاءها ، ما لبثت ان  
أبغضته هو ايضاً ، هو بخاصة . كانت اذا ما اجتازت بالمصنع حين يكون  
العمال لدى الباب ' تكره نفسها على ان تضحك وتغني .

وذات يوم رأتها عاملة عجوز تغني وتضحك على هذه الشاكلة فقالت :  
- « وهنا فتاة سوف تنتهي الى نهاية سيئة . »

وانخذت لها خليلاً ؛ كان هو الوافد الاول . إنها لم تحبّه ولكنها  
عاشرته بدافع من التبعج والمباهاة الفارغة ، وقد عصف الحلق بفؤادها .  
كان رجلاً شقيّاً - شبه موسيقي منسول - رجلاً كسولاً ذا أظفار  
بالية ، اوسعها ضرباً ، ثم هجرها ، اذ كانت قد عاشرته في اشتزاز .  
كانت تعبد ابنتها .

وكلما أمعت\* في الانحدار ، وكلما ازداد جميع ما حولها إظلاماً ،  
تعاظم اشراق هذا الملاك الصغير المذب في فؤادها . وقالت : « حين  
أصبح غنية سوف أبقى حبيتي كوزيت الى جانبي . » وضحكت . ان

السعال لم يفارقها ، وان جسدها ليتصبب في الليل عرقاً .  
وذات يوم تلقت من تيناردييه وزوجته رسالة تقول : « كوزيت  
مصابة بمرض من الامراض الوبائية . إنها الحمى العسكرية ، كما يدعونها ،  
والادوية الضرورية غالية جداً . ان ائمانها تكاد تفلنا ، وليس في  
استطاعتنا بعد ان نشترها . وما لم تبقي الينا بأربعين فرنكاً في خلال  
اسبوع فإن الصغيرة سوف تقضي نحبها . »

وانفجرت بالضحك ، وقالت لجارتها المعجوز :  
-- « اوه ، إنها طيبان ! اربعون فرنكاً ! فكثري في هذا !  
يعني ليرنين ذهبتين ! من اين يحسبان اني استطيع الحصول على هاتين  
الليرتين ؟ أهما مجنونان ؟ هذان الفلاحان ؟ »  
ومع ذلك ، فقد مضت الى السلم ، قرب احدى الكوى ، وأعادت  
تلاوة الرسالة من جديد .

ثم انها هبطت السلم ، وغادرت المنزل راكضة واثبة ، وهي لا  
ترال تضحك .

والتقاها بعضهم فقال لها :  
-- « ماذا الذي يملكك على ان تكوني مبتهجة الى هذا الحد ؟ »  
فاجابته قائلة :

-- « نكتة بلهاء بعث بها اليّ بعض اهل الريف منذ لحظة . انهم  
يطالبونني بأربعين فرنكاً ! يا لهم من فلاحين ! »

وفيا هي تجوز بالساحة رأت جمهرة من الناس محتشدة حول عربة  
ذات شكل غريب وقد وقف في اعلاها خطيب يرتدي ملابس حمراء .  
كان مشغوداً يلهي الناس بأعمال الرشاقة وطبيب اسنان متجولاً ، وكان  
يعرض على الجمهور مجموعات كاملة من الاسنان ، وضروب المعاجين ،  
والذرور ، والادوية الكحولية السائلة .

وانضمت فانتين الى الحشد ، وانشأت تضحك مع سائر القوم على

هذا الخطاب الذي اختلطت فيه العامة الموجهة الى الرعاع ، بالبطانة الموجهة الى اصحاب الرجاء . ورأى قالع الاسنان هذه الفتاة الجميلة الضاحكة ، وصاح فجأة :  
- « ان لك اسناناً رائعة ، ايها الفتاة الضاحكة هناك ! اذا يعني

سنيك القاطعتين أعطك ليرة ذهبية مقابل كل منها . »  
فسألته فانتين :

- « ما هذا ؟ ما هما سني القاطعتان ؟ »

فاستطرد استاذ طب الاسنان قائلاً :

- « السنان القاطعتان هما السنان الاماميتان ، السنان الاماميتان

من الفك الأعلى . »

فصاحت فانتين :

- « يا لافظاعة ! »

فدمدمت عجوز لا اسنان لها كانت واقفة هناك :

- « ليرتان ذهبيتان ! ما اسعدها وأعظم حظها ! »

ورلت فانتين فراواً ورضعت بعض اصابعها في أذنيها لكي لا

تسمع صوت الرجل الابح الذي كان يناديها صائحاً :

- « فكّري ، ايها الحناء ! ليرتان ذهبيتان ! ما اعظم الخدمة

التي تستطيعان اداءها اليك ! اذا آنت في نفسك الجرأة على ذلك

فتعالى الليلة الى فندق « تيلاك دارجان » . انك سوف تجدينني هناك . »

ورجعت فانتين الى غرفتها . كانت هاتجة غضبي ، وقد روت القصة

لجارتها الطيبة ماوغريت :

- « هل تفهمين هذا ؟ أليس هو رجلاً فظيماً ؟ لماذا يجيزون لمثل

هؤلاء الناس ان يطوفوا في البلاد ؟ ان اخلع سني الاماميتين !

ولكن ، سوف أبدو مخيفة عندئذ ! ان الشعر ينمو من جديد ، أما

الاسنان ! اوه ، يا له من رجل وحش ! اني افضل ان ألقى بنفسي

من الدور الخامس الى بلاط الشارع ! لقد قال لي انه سوف يكون ،  
الليلة ، في الـ « تيلاك دارجان . »

فألتها مارغريت :

- « وماذا عرضَ مقابل ذلك ؟ »

- « ليرتين ذهبيتين . »

- « يعني اربعين فرنكاً . »

فقلت فانتين :

- « أجل ، انها تساويا اربعين فرنكاً . »

ولازمها القلق ، وانصرفت الى عملها . وبعد ربع ساعة تركت ما  
كانت تخطيه ، ومضت الى السلم لتعاود تلاوة الرسالة التي تلقتها من  
تيناردية وزوجته .

حتى اذا رجعت ، قالت لمارغريت التي كانت تعمل الى جانبها :

- « ما هي هذه الحمى العسكرة ؟ هل تعرفين ؟ »

فأجابتها العانس :

- « نعم . إنها مرض . »

- « واذن ، فهي تحتاج الى كثير من الادوية ؟ »

- « نعم ، الى ادوية فظيعة . »

- « وكيف تصيب الانسان ؟ »

- « إنها مرض يصيب الانسان في لحظة . »

- « هل تصيب الأطفال ؟ »

- « إنها تصيب الاطفال على الخصوص . »

- « وهل يموت الناس فيها ؟ »

فقلت مارغريت :

- « في كثير من الاحيان . »

وانسجت فانتين ، ومضت كرة اخرى لتعيد تلاوة الرسالة ، فوق

السلم .

وفي المساء غادرت الغرفة ، متجهة نحو د شارع باريس ، حيث تقوم الفنادق .

وفي صباح اليوم التالي ، حين شخصت مارغريت الى غرفة فانتين قبل بزوغ الفجر - ذلك بأنها كانتا تعملان دائماً معاً ، وهكذا تضيئان شمعة واحدة بدلاً من شمعتين - وجدت فانتين جالسة على سريرها ، شاحبةً مثلوجة . لم تكن قد آوت الى الفراش . وكانت قلنسوتها قد سقطت على ركبتيها . كانت الشمعة قد اشتعلت طوال الليل ، وكانت على وشك ان تلفظ انقاسها الاخيرة .

ووقفت مارغريت على العتبة ، وقد اذهلتها هذه الفوضى المائلة وصاحت :

- « يا الهي ! لقد فئيت الشمعة . لقد حدث شيء ما . »  
ثم إنها نظرت الى فانتين ، التي ادارت نحوها رأسها العاطل عن الشعر .

كانت فانتين قد كبرت عشر سنوات ، منذ الليلة البارحة .  
وقالت مارغريت :

- « ورحنك ، يا رب ! ماذا دهالكِ ، يا فانتين ؟ »  
فقالت فانتين :

- « لا شيء . على العكس تماماً . إن ابنتي لن تموت بذلك المرض الفظيع نتيجة لانعدام المساعدة . أفا مرتاحة النفس . »  
حتى اذا قالت ذلك أوت العانس الليرنين الذهبتين اللتين التبعنا فوق الطاولة .

فقالت مارغريت :

- « اوه ، يا الهي ! ولكن هذه ثروة ! من اين جئت بهاتين الليرنين الذهبتين ؟ »

فأجابتها فانتين :

- « لقد جئتُ بها . »

قالت هذا ، وابتسمت . واضاءت الشعة بحياتها . كانت ابتسامة  
كلبية ؛ ذلك بأن زاويتي فيها كانتا مضرجتين بالدماء ، وكانت فجوة  
مظلمة تبدى هناك .

كانت السنان قد قلعنا .

وارسلت الاربعين فرنكاً الى مونتيرماي .

ولم تكن هذه غير خدعة من تبناردييه وزوجته . إن كوزيت لم  
تكن مريضة .

وطرحت فانتين مرآتها من النافذة . كانت قد انتقلت ، منذ زمن  
طويل ، من غرفتها الصغيرة القائمة في الدور الثاني الى غرفة في أعلى  
البنية توصد بمزلاج تحت السقف - الى علبة من تلك العلالي التي بشكل  
سقفها زاوية مع أرضها ، والتي يصطدم بها رأسك كل لحظة . إن الفقير  
لا يستطيع ان يمضي الى أقصى غرفته ، او الى أقصى قدره ، إلا بان  
ينحني اكثر فأكثر على محور موصول . إنها ما عادت تملك سريراً . لم  
يبق لديها غير خوخة بالية دعنها لحافاً ، وغير فراش أرضي ، وكرسي  
تقطع قشته . وكانت شجرة الورد التي عندها قد جفت في احدي  
بالزوايا ، وأضر بها النيان . وفي الزاوية الاخرى كان وعاء زبدة  
خصص للماء ، الذي جلد في الشتاء ، وقد ظلت مختلف المستويات  
التي انتهى اليها الماء واضحة المعالم ، فترة طويلاً ، بدوائر من الجليد .  
لقد فقدت حياءها ، وها هي ذي تفقد الرغبة في التزين . وتلك هي  
الأماراة الاخيرة . أمت تغادر مأواها بقلنسوة قدرة . ولم تعد تغسل  
ملابسها إما بسبب من قلة الوقت وإما بسبب من اللامبالاة . وكانت  
كلما تهرأت اعقاب جواربها تخفض هذه الاعقاب وتخفيها في الحذاء . وإنما  
كان يتجلى ذلك ببعض التفضعات العمودية : لقد رقت مشدداً العتيق

المتهريء بمحرق من الحام كانت تنزق عند أزال حركة . وعنفها دائئوها ولم يتركوها ترتاح لحظة واحدة . كانت تلتقيهم في الشارع ، وكانت تلتقيهم كرتة اخرى على سلسها . لقد انققت ليالي بكاملها وهي تبكي وتفكر . كانت عيناها شديدي اللئاع ؛ وكانت نحس بالأم موصول في كنفها ، قرب أعلى عظم الكتف الأيسر . كانت تسعل كثيراً . وكانت تكره الاب مادلين كرهاً عميقاً . ولم تتشك قط . لقد خاطت سبع عشرة ساعة يومياً ، ولكن احد مقاولي السجون - وكان يشغل السجناء بشن نجس - كسر السعر فجأة ، بما اسقط أجرة العامل الحر الى تسعة « سو » في اليوم . سبع عشرة ساعة من العمل ، وتسعة « سو » في اليوم ! وغدا دائئوها اشد قسوة بما كانوا في اياما وقت مضى . وكان تاجر الامتعة المستعملة الذي استرد كل أثاثه تقريباً لا يفتأ يقول لها : « متى ستدفعين الي ، اينها النذلة ! »

يا الهي ! اي شيء كانوا يريدون منها ان تفعله ؟ لقد استشعرت انها مطاردة ؛ وبدأ شيء من الوحش الضاري ينمو في ذات نفسها . وحوالى ذلك الوقت كتب تيناردييه رسالة اليها قال فيها إنه قد انتظر - في ساحة وكرم نفس - اكثر بما ينبغي ، وان عليها ان ترسل اليه مئة فرنك في الحال ، وإلا فإنه سوف يطرد كوزيت الصغيرة ، التي نهت من مرضها الوبيل ، ويقذف بها الى البرد ، الى قارعة الطريق ، وعندئذ تصبح ما تستطيع أن تصبحه ، وعندئذ تموت اذا شئت . وفكرت فانتين : « مئة فرنك ، ولكن ابن المسكين الذي يستطيع الانسان ان يكسب فيه مئة « سو » في اليوم ؟ »

ثم قالت :

« حسن . سوف أبيع ما بقي لي . »  
وأملت الخلوقة البائسة بنناً من بنات الموى .

## المسيح هو مخلصنا

ما هي قصة فانتين هذه ؟ إنها قصة المجتمع يشتري أمةً رقيقة .  
تمن ؟ من الشقاء .

من الجوع ، من البرد ، من الوحدة ، من التخلي ، من الحرمان .  
صفقة موجهة . نفسٌ بشرية مقابل كسرة من الخبز . الشقاء يعرض ،  
والمجتمع يقبل .

إن شريعة يسوع المسيح المقدسة لتيسر على حضارتنا ، ولكنها لما  
تنفَّذَ إليها بعد . يقولون إنَّ الرقَّ قد زال من الحضارة الأوروبية .  
هذا خطأ . إنه لا يزال قائماً ، ولكن المرأة وحدها تروح اليوم تحت  
ثقله . وهو يدعى البغاء .

اجل ، إن ثقله ملقى اليوم على المرأة ، بعني على اللطافة ، على  
الضعف ، على الجمال ، على الامومة . وليس هذا خزيًا من مخازي  
الرجل الثانوية .

وفي المرحلة التي انتهينا إليها من هذه المأساة الفاجعة ، لم يكن قد  
بقي لفانتين شيءٌ مما كان لها من قبل . كانت قد أمست رخاماً بعد  
أن أصبحت وحلاً . فأبما امريءٌ يمسها يشعر بقشعريرة . إنها تمضي في  
سبيلها ؛ إنها تحملك ؛ وإنها تتجاهلك . انها تحمل وجهاً كالحلأ مسربلاً  
بالعار . لقد قالت لها الحياة وقال لها النظام الاجتماعي آخر كلمة من  
كلماتها . لقد أصابها كل ما يمكن ان يصيبها . لقد قاست كل شيء ،  
وصبرت على كل شيء ، وجربت كل شيء ، وكابدت كل شيء ،  
وفقدت كل شيء ، وبكت على كل شيء . إنها لمدعنة لما قدَّرت لها ،  
وإن اذعانها لبشبه اللامبالاة ، مثلما يشبه الموت الرقاد . إنها لا تجتنب



بعدُ شيئاً ، ولا نخشى بعدُ شيئاً . فليُفِط عليها السحاب كله ، وليغيرها  
 الاوقيانوس كله ! ما الذي يضرّها ؟ لقد أُشربت الاسفنجية حتى الاشباع .  
 لقد اعتقدت بذلك على الاقل ، ولكن من الخطأ ان نتخيل ان في  
 استطاعة المرء أن يستنفد قدره ، وان يبلغ قعر اي شيء منها .  
 وأسفاه ! ما هي هذه الاقدار كلها المسوقة هكذا كيفما اتفق ؟  
 الى اين تمضي ؟ لم كانت كذلك ؟  
 ان الذي يعرف ذلك يرى الظلام كله .  
 انه واخذُ أحد . ان اسمه الله .

## ١٢

### بطالة مسيو باماتا بوا

يوجد في جميع المدن الصغيرة ، ولقد كان يوجد في مونتروي سور  
 مير على الخصوص ، طبقة من الشبان الذين يقضون ألفاً وخمسة ليرة  
 من الدخل ، في الريف ، بمثل الانطباع التي يزدرد بها زملاؤهم ألفي  
 فرنك سنوياً ، في باريس . انهم كائنات من النوع المحاييد العظيم . انهم  
 خصيان ، طفيليات ، لا شيء . انهم من اولئك الناس الذين يملكون  
 قليلاً من الارض ، وقليلاً من البلاهة ، وقليلاً من الظرف ، والذين  
 يكونون اجلاً في صالون ثم يحسبون انفسهم اشرافاً في حانة ، والذين  
 يتعدثون عن « حقولي ، وغاباتي ، وفلاحي » ، والذين يصفرون لمثلثات  
 المسرح ازدراءً لكي يثبتوا انهم اصحاب ذوق رفيع ، والذين يتخاضمون  
 مع ضباط الحامية لكي يظهروا انهم رجال حرب ، والذين يتصيدون ،  
 ويدخنون ، ويتشاءمون ، ويحسبون الحجر ، ويستنشقون السعوط ، ويلعبون  
 البليارد ، ويحدثون الى المسافرين وهم ينزلون من العربة العمومية ،

ويعيشون في المقهى ، ويتعشون في الفندق ، والذين عندهم كلب يأكل  
المعظم تحت الطاولة ، وخليفة تضع الاطباق فوقها ، والذين يتشبثون  
بالفلس ، ويغالون في اتباع الازياء ، ويُعجبون بالتراجيديا ، ويزدرون  
النساء ، ويُبَلون احذيتهم العتيقة ، ويقلدون لندن من خلال باريس ،  
وباريس من خلال « بون - آ - موسون » ، والذين يزددون حماقة كلما  
تقدمت بهم السن ، والذين لا يشتغلون ولا يعملون صالحاً ، ولا يؤذون  
كثيراً .

ولو قد اقام مسيو فيلكس تولوميس في مسقط رأسه ولم يرَ باريس  
قط ، اذن لكان واحداً من هؤلاء .

ولو كانوا اكثر غنى لقلنا : انهم مخشون . ولو كانوا اكثر فقراً  
لقلنا : انهم متشردون . والواقع انهم منبطلون ليس غير ، وبين هؤلاء  
المتبطلين نفرٌ مضجرون ، ونفر ضجرون ، وبينهم قوم حائون ،  
وقوم مضحكون .

وفي تلك الايام كان الخنث يتألف من طوق قميص ضخم ، وربطة  
عنق ضخمة ، وساعة مثقلة بالسلاسل ، وثلاث صدقات تُلبس احداها  
فوق الاخرى ، وتكون ذات اللون مختلفة ، فالحمراء والزرقاء منها في  
الداخل ، وسترة زيتونية اللون قصيرة ذات ذيل كذنب السمكة ،  
وصفين من الازرار الفضية ، الممزوز بعضها الى بعض ، والمرتفعة حتى  
الكتف ، وبنطلون زيتوني ازهى لوناً ، مزدان من جهتيه بعدد من  
الاضلاع غير محدود ، ولكنه وتر \* دائماً ، يراوح من واحد الى احد  
عشر وهو حدة لا يتجاوز البتة . اضيف الى ذلك حذاءً طويل الساق  
على عقبيه نعلان حديديتان صغيرتان ، وقبعة عالية الذروة ضيقة الحافة ،  
وشعراً مصففاً خصلاً خصلاً ، وخيزرانة ضخمة ، وحديثاً متفقاً بنكات

---

\* الوتر من الاعداد : الفرد ، كالواحد والثلاثة والخمسة والستة كالاتنين  
والاربعة الخ .

« بوتييه ، الجناسية . ولا نفعل فوق ذلك كله ، عن المهازين والشاربين .  
ففي تلك الايام كان الشاربان شارة المدينين ، وكان المهازات شارة  
المشاة .

وكان الخنث الريفي يصطنع مهازين اكثر طولاً ، وشاربين اشد  
ضراوة .

كان عهد النزاع بين جمهوريات اميركة الجنوبية وملك اسبانية ، عهد  
صراع بوليفار \* ضد موريللو . كانت القبعات ذات الحوافي الضيقة  
ملكية ، وكانت تدعى « موريللو » ، على حين كان الاحرار يعتمرون  
قبعات ذات حوافٍ عريضة يدعونها « بوليفار » .

وبعد ثمانية اشهر او عشرة اشهر انقضت على الاحداث التي روينها  
في الصفحات السابقة ، وفي الايام الاولى من كانون الثاني سنة ١٨٢٣ ،  
وذات ليلة تساقط فيها الثلج ، كان احد هؤلاء الخنثين ، احد هؤلاء  
المعاطلين عن العمل ، وهو رجل « ذو رأي صائب » ، اذ كان يعتمر قبعة  
من قبعات « موريللو » ، ويتلفع في دفء بالغٍ بواحد من تلك المعاطف  
الضخمة التي تكبل زيّ العصر في فصل البرد - كان هذا الرجل يمنع النفس  
بالنعرش بمخلوقة كانت تروح ونجيه ، امام نافذة مقهى الضباط ، مرتدية  
ثوباً للرقص يكشف عن عنقها وكتفها وقد زينت رأسها بالرياحين .  
كان الخنث يدخن ، فقد كانت تلك هي الموضة من غير ريب .

كان كلما مرت أمامه تلك المرأة قدفها ، مع بجة دخان من سيجاره ،  
بملاحظة ظنها ظريفة مرحة : « ما أبشعك ! » - « اتحاولين ان  
تحتبئي ؟ » - « لقد فقدت اسنانك ! » النخ . النخ . وكان هذا السيد  
يدعى مسيو باماتابوا . ولم نجبه المرأة - وكانت شبحاً حزيناً متبرجاً  
يمشي على الثلج جيئةً وذهباً - بل لم تلفت اليه ، ولكنها واصلت

---

\* قائد ورجل دولة شهير حرر فنزويلا من الحكم الاسباني واسس جمهوريتي  
كولومبيا وبوليفيا . ويعرف بواشنطن اميركة الجنوبية .

سيرها في صمت وفي نظامية كالخة كانت تعرضها لسخريته كل خمس دقائق مثل الجندي المُدان الذي يرجع في فترات معينة تحت المحاصر \* واثرت هذه اللامبالاة ، من غير شك ، حتى المتبطل ، فما كان منه الا ان افاد من احدى اللحظات التي استدارت فيها ، مشى خلفها في خطى محتلمة ، وانحنى خائفاً ضحكته ، وتناول حفنة ثلج من جانب الطريق ، وسارع الى اقعاعها في ظهرها بين كتفها العاريين . وصرخت الفتاة في حنى ، واستدارت ، ووثبت مثل النيرة ، وانقضت على الرجل ، منشبة اظافرها في وجهه ، مصطنعة افطع الالفاظ التي يمكن ان تتساقط من اوغاد مركز من مراكز الحرس . وكانت هذه الاهانات المتقيئة في صوت جعلته الحمر أبيض ، تنطلق من فم بشع تعوزه السنان الاماميتان . كانت هي فانتين .

واندفع الضباط من المقهى ، على جلبة الحادث ، واحتشد عبرو السبيل . وتشكلت دائرة ضخمة ، ضاحكة ، ساخرة ، مصفقة ، حول مركز الجذب هذا المؤلف من مخلوقين من العسير ان يُعرف انها رجل وامرأة . فأما الرجل فكان يدافع عن نفسه وقد انطرحت قبعته على الارض ، واما المرأة فكانت ترفس ، وتضرب ، حاسرة ، صاخجة ، من غير اسنان ، ومن غير شعر ، زرقاء ضارباً لونها الى السواد من شدة الغضب ، مخيفة مروعة .

وفجأة اندفع رجل طويل من بين الحشد ، وامسك بالمرأة من النصف الاعلى من فستانها الملوّث بالطين وقال لها :  
- « اتبعيني ! »

ورفعت المرأة رأسها وخمد صوتها الضاري في الحال . كانت عينها زجاجيتين يعوزهما اللعنان ، وكان لونها الازرق الضارب الى السواد قد امسى شاحباً . وارتجفت ارتجافة الذعر . لقد عرفت جافير .

\* جمع عذرة ، وهي شيء اشبه بالسوط ، يضرب به وينتكأ عليه .

واغتتم الخنث الفرصة وانسلّ هارباً .

١٣

### حل - لبعض مشكلات الشرطة البلدية

رصد جافير المتجهرين ، وحطم الطوق الذي كانوا قد ضربوه حول المرأة والرجل ، وانطلق نحو مكتب الشرطة القائم عند أقصى الساحة ، جاوراً الخلوقة البائسة خلفه . ولم تبد اي مقاومة ، تابعة اياه على نحو آلي . بل انها لم تنطق بكلمة . وفي انزها مضى جمهور النظارة ، وهو في ذروة الابهتاج ، يرسل الثكبات المستقبحة . كان البؤس الذي ما بعده بؤس ، مناسبة عندهم للبداءة والفحش .

حتى اذا انتهوا الى مكتب الشرطة ، وكان قاعة خفيفة يدفئها موقد ويصونها حواس وينفتح لها على الشوارع باب مزجج ذو قضبان مشبكة ، فتح جافير الباب ، ودخل مع فانتين ، ثم اغلق الباب ، مخبياً بذلك آمال الحشد الفضولي الذي وقف افراده على رؤوس اصابعهم واتلعوا أعناقهم امام نافذة مركز الحرس القذرة ، تائقين الى ان ينظروا . إن الفضول ضرب من الشراهة . والنظر هر التهام .

وحين دخلا المكتب خرجت فانتين في احدى الزوايا خرساء جامدة ، مثل كلب مذعور .

ورضع رقيب المركز شمع مضاءة على الطاولة . وجلس جافير ، واخرج من جيبه ورقة تحمل طابعاً ، وأنشأ يكتب .

إن هؤلاء النساء ليوضعن وفقاً لقوانيننا ، تحت تصرف الشرطة المطلق . انهم يفعلون بهن ما يشاءون ، ويعاقبونهن كما يحلو لهم ، ويصادرون من تلقاء انفسهم هذين الشينين الحزينين اللذين يسميها صناعتهن

وحريتهن . كان جافير عديم الاحساس ؛ وكان وجهه الصارم لا ينم عن عاطفة ما . كان ، على اية حال ، مستغرقاً في تفكير جدي عميق . كانت احدى تلك اللحظات التي يمارس فيها ، على نحو غير محدود ، ولكن بكامل التردد والتدقيق الجديرين بالضير الصارم ، سلطته الرهيبة المطلقة . وفي تلك اللحظة استشعر ان كرسى رُجل الامن المنخفض منصة قضاء . كان يحاكم . كان يحاكم ويدن . لقد حشد كل ما قدر عليه من أفكار حول الشيء العظيم الذي كان يقوم به . وكلما تعمق درس سلوك هذه الفتاة تعاطفت ثورته . كان واضحاً انه قد بصُر بجرمة تُعترف . لقد رأى ، هناك في الشارع ، الى المجتمع ممثلاً في مالك - ناخب ، يهان ويهاجم من قبل مخلوقة منبوذة . لقد تعدت مومس على مواطن . وهو ، جافير ، قد رأى ذلك بنفسه . لقد كتب في صمت .

وحين انتهى ، وقع الورقة ، وطواها ، ثم سلمها الى رقيب المركز قائلاً :

- « خذ ثلاثة رجال ، وُسُق هذه الفتاة الى السجن . »

ثم التفت الى قائنين وقال :

- « سوف تمكثين هناك ستة اشهر . »

وارتعدت المرأة البائسة .

وصاحت :

- « ستة اشهر ! ستة اشهر في السجن ! ستة اشهر لكي اكسب

سبعة « سو » في اليوم ! ولكن ما الذي سيحل بكوزيت ! ابنتي !

ابنتي ! ولكني لا ازال مدينة باكثر من مئة فرنك لتيناردييه وزوجته ،

يا سيدي المفتش ، هل تعرف ذلك ؟ »

وجرت نفسها على ارض القاعة الملوثة بأحذية جميع هؤلاء الرجال

الموحلة ، من غير ان تنهض ، شابكة يديها ، منطلقة في سرعة على

ركبتها .

وقالت :

- « مسيو جافير ، اسألك الرحمة . اؤكد لك اني لم اكن معتدية . لو شهدت الحادثة من بدايتها لرأيت ذلك ! اقسم لك بالله اني لم اكن معتدية . لقد وضع ذلك السيد ، الذي لا اعرفه ، الثلج في ظهري . هل يملكون الحق في ان يضعوا الثلج في ظهورنا حين نمرّ هكذا في هدوء من غير ان نؤذي أحداً ؟ لقد هاجني ذلك . أنا مريضة بعض الشيء ، كما ترى ! والى هذا ، فقد كان قبل ذلك بوجهي الى ، طوال فترة غير قصيرة ، اشياء مثل هذه : « أنت بشعة ! » ، « انت بلا اسنان ! » ، انا اعرف جيداً اني فقدت إنساني . انا لم اعمل شيئاً . لقد قلت في نفسي : « إنه سيدٌ يعيث ويلهو » . كنت محترمة معه . انا لم اكلمه قط . وفي هذه اللحظة بالذات وضع لي الثلج . مسيو جافير ، ياسيدي المفتش الطيب ! الم يكن هناك شخص رأى الحادث ليقول لك ان هذا صحيح ؟ لعلّي أخطأت باستلامي للغضب . انت تدري ان الانسان لا يستطيع ، في اللحظة الاولى ، ان يسيطر على نفسه . إنه يكون سريع الاحتياج . فما بالك اذا وضع شيء بارد الى هذا الحد في ظهرك حين لا تكون متوقفاً ذلك البتة ! لقد اخطأت في إتلافي قبعة ذلك السيد . لماذا ذهب ؟ سوف ألتس عفوه . اوه يا الهي ، لن يضيرني ان ألتس عفوه . إرحمني هذه المرة ، يا مسيو جافير . على رسلك ، انت لا تعرف هذا : إنهم في السجن لا يكتبون غير سبعة « سو » . هذه ليست خطيئة الحكومة ، ولكنهم يكتبون سبعة « سو » ؛ ونصوّر ان عليّ مئة فرنك ينبغي ان ادفعها وإلا قذفوا بابنتي الصغيرة الى الشارع . آه ، يا الهي ! انا لا استطيع ان أبقيا معي . إن ما أعمله شنيع جداً . اوه ، كوزيت ، اوه يا ملاكاً صغيراً من ملائكة العذراء الطاهرة الطيبة ! ما الذي سوف يحلّ بتلك الطفلة المكيّنة

الجامعة ! اقول لك ان تيناردية وزوجته صاحباً فندق . إنها جلفان ، لا يمكن شيئاً من الروية والتفكير . ينبغي ان يُرسل اليها مالم . لا تُلقني في السجن ! أرأيت ، إنها صغيرة سوف يقدفون بها الى عرض الطريق لتعمل ما تستطيع ان تعمل ، في اسد ايام الشتاء برداً . ينبغي ان تشق على هذه المخلوقة الصغيرة ، يا سيدي الطيب جافير . لو كانت اكبر سناً لاستطاعت ان تكسب رزقها ، ولكنها لا تستطيع في هذه السن . أنا لست امرأة ساقطة بالفطرة . وليس الكسل والشرافة هما اللذان قاداني الى هذا . لقد شربت الخمر . ولكن ذلك كان بدافع من البؤس . أنا لا أحبها ، ولكنها تسلي عن الموم . وحين كنت اكثر سعادة كانت نظرة واحدة يلقيها المرء على خزائني كافية لكي يتأكد اني لم اكن فتاة محبة للزينة ، لا تعرف النظام . كانت عندي ملابس داخلية ، كثير من الملابس الداخلية . ارحمني ، يا مسيو جافير ! ، لقد تحدثت هكذا ، بحنية بالاعياء ، مرعدة بالزفرات ، مكفوفة بالدموع ، عارية الرقبة ، ملوبة الذراعين بالألم ، مرسلة سعالاً جافاً قصيراً ، متجلجلة في ومن بالغ بصوت الحشرة . ان الالم العظيم شعاع إلهي وفظيع ينقل البؤساء من صورة الى صورة . ففي هذه اللحظة بالذات عاود فانتين جمالها المفقود . لقد كفت عن الكلام في بعض الفترات وقبلت ، في رفق ، ادنى معطف الشرطي . لقد كانت خليقة بان تلين قلباً من صوان . ولكن المرء لا يستطيع ان يُلين قلباً من خشب .

وقال جافير :

« والآن ، لقد استمت لك . ألم تنتهي بعد ؟ انطلقني في الحال ! امامك ستة اشهر نقضينها في السجن . إن الأب الازلي نفسه لا يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك . »

حتى اذا سمعت هذه الكلمات المشيبة « ان الأب الازلي نفسه لا



يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك » ادركت ان الحكم عليها قد صدر.  
وخارت قواها وهي تتنهم :

- « الرحمة ! »

وادار جافير ظهره .

وأمسك بها الجند من ذراعيها .

وقبل ذلك يبضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلحظه  
أحد . كان قد اغلق الباب ووقف مولياً اياه ظهره ، وكان قد سمع  
نوسلات فانتين اليانة .

وحين وضع الجند ايديهم على المخلوقة المسكينة التي أبت ان تنهض ،  
تقدمت خطوة الى الامام ، خارجاً من الظلمة ، وقال :

- « دقيقة واحدة ، من فضلكم ! »

ورفع جافير عينيه ، فتبين في ذلك الرجل مسيو مادلين . فما كان منه  
إلا ان نزع قبته ، وانحنى في ضرب من الارتباك المغضب :

- « عفوك ، يا سيدي العمدة .... »

وكان لهاتين الكلمتين « سيدي العمدة » اثر عجيب في نفس فانتين .  
فوثبت على قدميها في الحال ، وكأنها شبح ينبثق من باطن الارض ،  
وردت الجند بذراعيها الى الوراء ، واندفعت اندفاعاً مباشراً الى مسيو  
مادلين قبل ان يستطيعوا وقفها ، وحددت اليه على نحو موصول ،  
بنظرة ضاربة ، وصاحت :

- « آه ، فأنت اذن السيد العمدة ! »

ثم إنها انفجرت بالضحك ، وبصقت في وجهه .

ومسح مسيو مادلين وجهه ، وقال :

-- « ايها المفتش جافير ، أطلق سراح هذه المرأة . »

واستشعر جافير وكأنه على وشك ان يفقد صوابه . لقد اصابته ،  
في تلك اللحظة ، ضربة فوق ضربة ، وأحس في الوقت نفسه تقريباً

بأعنف الانفعالات التي قدّر له ان يعرفها طوال حياته . لقد كان مشهد بنت من بنات الهوى تبصق في وجه عمدة شيئاً شنيعاً خارجاً على الذوق الى حدّ كان خليقاً بأن يجعله يحسب - في اوهامه الاكثر انطلافاً - ان من الحرق للقدسيات الاعتقاد بأنه ممكن . ومن ناحية ثانية ، فقد عقدت في اعماق ضميره ، وعلى نحو مبهم ، مقارنة بشعة بين ما كانته هذه المرأة وما يمكن ان يكونه هذا العمدة . وعندئذ لمح في ذكر شيئاً بسيطاً الى حدّ لا يوصف في هذه الالهانة المدهشة . ولكن ما ان رأى الى هذا العمدة ، الى هذا الحاكم ، بمسح وجهه في هدوء ويقول : « أطلق سراح هذه المرأة . » حتى استبدّ به الذهول والانشداد ؛ وخانته التفكير والنطق جميعاً . كان قد تجاوز مجموع الدهش الممكن . وظلّ معتصماً بالصمت .

ولم تكن الضربة التي ازلتها كلمات العمدة بفانتين اقلّ غرابة . لقد رفعت ذراعها العارية وتشبّثت بلولب الموقد وكأنها تترنّح . وفي الوقت نفسه اجالت طرفها في ما حولها وبدأت تتكلم بصوت خفيض ، وكأنها تخاطب نفسها :

- « إطلاق سراحى ! سوف يسمحون لي ان اذهب ! انا لـن أساق الى السجن لأقضي ستة اشهر فيه ! من الذي قال هذا ؟ ليس من الممكن ان يكون احد قد قال ذلك ! لقد أسأت الفهم . إنه لا يمكن ان يكون هذا العمدة الشبيه بالغول ! اكنت انت ، يا سيدي الطبيب جافير ، الذي اخبرتهم ان يطلقوا سراحى ؟ أوه ، انظر ! سوف اخبرك ، وسوف تعيد اليّ حريتي . ان هذا العمدة الغول ، ان هذا العمدة الجرو العجوز هو السبب في كل شيء . تصور ، يا مسيو جافير ، انه طردني ، بسبب حزمة من الشحاذات اللواتي يروين القصص في المصنع ! ألم يكن مروّعاً ان تفصل فتاة مسكينة تؤدي عملها في اخلاص ! ومنذ ذلك الحين لم يعد في امكاني ان اكسب مقداراً كافياً من المال ، وجاء

الشفاء كله . قبل كل شيء ، ان هناك تغييراً يجب عليكم يا رجال الشرطة ان 'تحدثوه' - وهو ان تحولوا بين مقاولي السجون وبين انزال الظلم بالفقراء . سوف اشرح لك ذلك ؛ اسمع . انت تكسب اثني عشر 'دسو' من صنع القمصان ، فاذا بذلك الرقم يهبط الى تسعة 'دسو' ، وهو مبلغ لا يملك الرمح . ثم يتعين علينا ان نفعل ما نستطيع ان نفعله . أما أنا فكانت عندي صغيرتي كوزيت ، وكنت مجبرة على ان أصبح بنت هوى . انت تدرك الآن ان هذا العمدة الشحاذ قد فعل ذلك كله . وبعد ذلك دُست على قبعة هذا السيد امام مقهى الضباط . ولكنه كان قد ائلف فستاني كله بالثلج . إننا نحن النساء ، ليس عندنا غير فستان حريري واحد للسهرة . انظر . انا لم اقصد في يوم من الایام ان اسمي الى احد قصداً . صدقني ، يا مسيو جافير . وانا ارى في كل مكان نساء اكثر خبثاً مني الى حد بعيد ومع ذلك فهنّ اسعد مني الى حد بعيد . اوه ، يا مسيو جافير ، إنك انت الذي قلت لهم ان يطلقوا سراحي ، اليس كذلك ؟ اذهب واستطلع . تحدثت الى صاحب الغرفة التي أسكنها . أنا ادفع أقساطي ، وسوف يقولون لك انني أمينة . اوه ، يا عزيزي ، انا التمس عفوك . لقد لمست ، من غير ان ادري ، لولب الموقد ، وهذا ما جعل الدخان ينبعث . »

واصفى مسيو مادلين في انبباء عميق . وفيما هي تتحدث ، كان قد بحث في صدرته واخرج محفظته وفتحها . كانت فارغة . وكان قد أعادها الى جيبه . وقال لفانتين :

- « ما المبلغ الذي قلت انك مدينة به ؟ »  
والتفتت فانتين نحوه ، وكانت لا تنظر من قبل إلا إلى جافير ، وقالت :

- « وهل كنت أوجه الحديث اليك ؟ »

ثم خاطبت الجند قائلة :

« قولوا ، انتم أيضاً ، رأيتم كيف بصقت في وجهه ؟ أوه ،  
أيها العمدة الوجد العجوز ، أنت تأتي الى هنا لتروّعني ، ولكنني لست  
خائفة منك . أنا خائفة من مسيو جافير . أنا خائفة ، من سيدي الطبيب  
مسيو جافير ! »

حتى اذا قالت ذلك التفتت كرة اخرى الى المفتش :

« والان ، يا سيدي المفتش ، يجب ان تكون عادلاً . أنا  
أعرف انك عادل ، يا سيدي المفتش . والواقع ان المسألة بسيطة جداً :  
رجل يلهو بوضع قليل من الثلج في ظهر امرأة ؛ ذلك ما جعلهم - اولئك  
الضباط - يضحكون ، فالإنسان ينبغي ان يتلهى بشيء ، ونحن الكائنات  
الشقية لم نخلق إلا لأمتاع الناس ! ثم تأتي أنت ، أجل انت ، فتضطر  
الى حفظ النظام ، فتعتقل المرأة التي أذنبت ، ولكنك ما تكاد تفكر  
في الامر - وانت الرجل الطبيب - حتى تأمرهم باطلاق سراحه ، وما  
ذلك إلا من أجل بنيتي الصغيرة ، لأن ستة اشهر في السجن سوف تحول  
بيني وبين إعالة طفلي . على شرط ان لا تعودني الى مثلها مرة أخرى ،  
أبنتها الوجدة ! أوه ، انا لن اعود الى مثلها مرة ثانية ، يا مسيو جافير ! في  
استطاعتهم ان يفعلوا ما يشاؤون الآن ، فلن أحرك ساكناً على الاطلاق .  
اليوم فقط - كما نرى - صرختُ لأن ذلك آذاني . انا لم اتوقع البتة  
ان يضع ذلك السيد الثلج في ظهري . وفوق هذا ، فقد سبق ان قلت  
لاني مريضة بمض الشيء . انا اسعل . إن في صدري شيئاً مثل الكرة  
يحرقني ، ولقد قال لي الطبيب : « إعتني بنفسك . » والان ، جُسي .  
اعطني يدك . لا تخف . ها هي ذي . »

وكفت عن البكاء ، وغدا صوتها ملاطفاً . لقد وضعت يد جافير  
الضخمة الغليظة على صدرها الابيض الرقيق ، ونظرت اليه وهي تبسم .  
وفجأة سارعت الى تسوية ما اضطرب من ملابسها ، وملست ثنيات

فستانها ، وكان قد ارتفع فيما هي تجرّ نفسها على الارض حتى بلغ ركبتيها تقريباً . ومشت نحو الباب ، وخطبت الجند في صوت خافت ، هازة رأسها هزة ودية :

— « ايها الغلمان ، إن السيد المفتش قال يجب ان تطلقوا سراحي . أنا ذاهبة . »

ووضعت يدها على مزلاج الباب . خطوة واحدة وتصبح في الشارع . وكان جافير قد ظل واقفاً ، حتى تلك اللحظة ، جامداً ، مسروراً عينية على الارض ، بادياً وسط ذلك المشهد وكأنه تمثال ينتظر ان يوضع في مكان ما .

وأيقظه صوت الزلاّج . فرفع رأسه وعلى وجهه انطباعة السلطة المطلقة ، وهي انطباعة تكون اكثر ترويعاً حين تُسند الى كائنات من الدرجة الدنيا . إنها وحشية عند الأطباء البرية ، شرسة عند العقّاشة \* من الناس .

وصاح :

— « أيها الرقيب ، الا ترى هذه المتشردة تضي ليلها ؟ من قال لك ان تدعها تذهب ؟ »

فقال مادلين :

— « أنا . »

وكانت فانتين قد ارتجفت لدن سماعها كلمات جافير وأفلتت مزلاج الباب كما يُفْلَت اللص المقبوض عليه ما كان قد سرقه . حتى اذا تكلم مادلين استدارت . ومنذ تلك اللحظة ، ومن غير ان تبس بكلمة ، ومن غير ان تجرّو حتى على التنفس في حرية ، نقلت طرفها من مادلين الى جافير ومن جافير الى مادلين مصغية الى من يتفق ان يكون هو المتحدث منها .

---

\* العقّاشة : من لا خير فيه .

كان واضحاً ان جافير قد استثير غضبه كما يقولون والا لما اجاز  
لنفسه ان يخاطب الرقيب كما قد فعل بعد ان دعا العمدة الى اطلاق  
سراح فانتين . أنسي ان العمدة هناك ؟ أقرر آخر الامر بينه وبين  
نفسه ان من المستحيل على « سلطة » ما ان تصدر أمراً كهذا ، وان  
العمدة من غير شك قد قال شيئاً وهو يعني نقيضه ؟ أم انه قال في  
ذات نفسه ، نظراً للأعمال الفاحشة التي شهدا منذ ساعتين ، إن من  
الضروري ان يلجأ الى الاجراءات القصوى ، وان من واجب الصغير  
ان يكتب نفسه ، ومن واجب البوليس ان يصيح قاضياً ، وان النظام ، والقانون ،  
والاخلاق ، والحكومة ، والمجتمع كله كانت تتمثل - في هذه الحالة  
الاستثنائية المروعة - في شخصه هو ، جافير ؟

وأياً ما كان ، فحين قال مسيو مادلين تلك الـ « أنا » التي سمعناها  
منذ لحظة استدار مفتش الشرطة ، جافير ، نحو العمدة ، صاحب  
الوجه ، بارداً ، ازرق الشفتين ، بالأس النظرة ، مضطرب الجسم كله  
بارتجاف غير ملحوظة ، وقال له - وذلك ما لم يُسمع به من قبل -  
مطرق العين ، ولكن في صوت كُتبت :

- « سيدي العمدة ، هذا لا يمكن أن يُعمل . »

فقال مسيو مادلين :

- « لماذا ؟ »

- « هذه المرأة الشريرة قد اهانت احد المواطنين . »

فأجابه مسيو مادلين في نبرة مصالحة هادئة :

- « ايها المفتش جافير ، اسمع . انت رجل نزيه ، وليس عندي  
ما يحول دون شرح وجهة نظري لك . تلك هي الحقيقة : كنت  
ماراً بالساحة العامة حين اعتقلت هذه المرأة . كان لا يزال هناك حشد  
من الناس . فعرفت ظروف الحادث . لقد علمت كل شيء . إن

المواطن هو الذي أذنب ، وهو الذي كان ينبغي - لو كان ثمة شرطة  
صالحة - ان يُعتقل . ،

فتابع جافير :

- و إن هذه الساقطة قد أهانت السيد العمة ، منذ لحظة . ،

فقال مسيو مادلين :

- و هذه مسألة تتصل بي شخصياً . إن الاهانة الموجهة الي مرهونة

بحكمي أنا ، في ما أظن . في استطاعتي ان افعل بشأنها ما اشاء . ،

- و استطيع السيد العمة عفواً . إن الاهانة ليست مرهونة بحكمه ،

ولكنها مرهونة بحكم العدالة . ،

فقال مسيو مادلين :

- و ايها المفتش جافير . العدالة العليا هي الضير . لقد سمعتُ هذه

المرأة . أنا اعرف ما الذي أصنعه . ،

- و وانا ، يا سيدي العمة ، أعرف ما الذي اراه . ،

- و اذن ، فاكثف بالطاعة . ،

- و انا اطيع واجبي . إن واجبي يقضي بأن تسجن هذه المرأة

سنة اشهر . ،

فاجابه مسيو مادلين في دماعة :

- و اسمع هذا جيداً . إنها لن تقضي هناك يوماً واحداً . ،

ولم يكذب مسيو مادلين ينطق بهذه الكلمات الحاسمة حتى جرو جافير

على ان يحدق النظر الى العمة ، وان يقول له ولكن في نبذة ما تزال

ترشح بالاحترام العميق :

- و انا آسف جداً أن اعارض السيد العمة . انا افعل ذلك لاول

مرة في حياتي ، ولكنه سوف يتفضل ويحيز لي ان الاحظ اني اتصرف

ضمن نطاق سلطتي . ولسوف انحدث عن مسألة المواطن ، ما دام السيد

العمة واثقاً في ذلك . لقد كنتُ هناك . إن هذه الفتاة هي التي انقضت

على مسيو بارماتابوا ، الذي هو ناخب ، ومالك ، لذلك البيت الجميل  
ذي الشرفة ، القائم عند زاوية الساحة ، والمؤلف من ثلاثة ادوار ،  
والشيد كله من حجر منحوت . والواقع ان في هذا العالم اشياء ينبغي  
ان تؤخذ بعين الاعتبار . وعلى اية حال ، يا سيدي العمدة ، فهذه  
المسألة من خصائص شرطة الشارع . انها تتصل بي ، واني أحتجز هذه  
المرأة .

وهنا صالب مسيو مادلين ذراعيه وقال في صوت قاسٍ لم يسمعه قط  
احدٌ في المدينة من قبل :

— « إن المسألة التي نتحدث عنها من خصائص الشرطة البلدية . وانا  
الذي أنفي فيها وفقاً لأحكام المادة التاسعة ، والحادية عشرة ، والحامسة  
عشرة ، والسادسة والستين من قانون العقوبات . انا آمر بإطلاق سراح  
هذه المرأة . »

واراد جافير ان يقوم بمحاولة اخيرة .

— « ولكن ، يا سيدي العمدة ... »

— « اني اذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ كانون الاول  
١٧٩٩ في ما يتصل بالسجن غير المشروع . »

— « سيدي العمدة ، اسمع لي ... »

— « لا تقل اي كلمة اخرى . »

— « ومع ذلك ... »

فقال مسيو مادلين :

— « اخرج من هنا ! »

وتلقى جافير الضربة ، وهو واقف على قدميه يواجهها ب صدره كله ،  
مثل جندي روسي . لقد انحى حتى الأرض ، امام العمدة وخرج .  
ووقفت فانتين الى جانب الباب ، ونظرت اليه في ذهول بينما هو  
يمرّ امامها .



ولكنها كانت هي أيضاً قريبة اضطراب عجيب . لقد رأت الى قوتين متعارضتين تتنازعانها بطريقة ما . رأت رجلين يصطراعان امام عينيها ، رجلين يملكان في ايديهما حريتها ، وحياتها ، ونفسها ، وابنتها . فأما احدهما فكان بشدة يهاجم الظلام ، واما الآخر فكان يقودها نحو النور . وفي هذا الصراع المنظور اليه من خلال تضخيات الذعر ، تراءى لها هذان الرجلان مثل عملاقين . كان احدهما يتكلم وكأنه شيطانها ، وكان الآخر يتكلم وكأنه ملاكها الكريم . لقد قهر الملاك الشيطان ، ولقد كان في مجرد التفكير بذلك ما جعلها ترتعد من قمة رأسها الى اخمص قدميها . وكان هذا الملاك ، هذا المحلّص ، هو على وجه الضبط ذلك الرجل الذي ابغضته ، ذلك العمدة الذي اعتبرته منذ عهد طويل صانع بلاياها كلها ، مادلين هذا ! وفي تلك اللحظة عينا التي امسائه فيها على نحو بشع ، عمداً الى انفاذها ! هل كانت مخدوعة اذن ؟ هل يتبعن عليها ان تغير قلبها كله اذن ؟ لم تكن تدري . لقد ارتعدت اوصالها ؛ لقد اصغت في انفعال ، واجالت طرفها حولها في هلع . ومع كل كلمة نطق بها مسيو مادلين احست بظلمات يفضها المروعة تذوب في إهابها وتجري منفصلة عنها ، على حين ولد في فؤادها دفء بعجز البيان عن وصفه ، دفء البهجة ، دفء الثقة ، دفء الحب .

حتى اذا خرج جافير التفت مسيو مادلين اليها ، وقال لها في نودة وفي عسر مثل رجل يناضل حتى لا تسيل عبراته :

— « لقد سمعت كلامك . لم اكن اعرف شيئاً بما قلته . انا اعتقد انه صحيح ، وانا اشعر انه صحيح . بل اني كنت اجهل أنك تركت العمل في مصنعي . لماذا لم تراجعيني في ذلك ؟ ولكن اسمعي : سوف ادفع ديونك ؛ سوف آتيك بابنتك ، او اذهب بك اليها . سوف تعيشين هنا ، او في باريس ، او في اي مكان تختارين . سوف اتولى امر العناية

بك وبطفلك . إنك لن تشتغي بعد اليوم ، اذا شئت . سوف اقدم اليك كل ما تحتاجين اليه من مال . وسوف تصبحين امرأة فاضلة ككرة اخرى بأن تنعمي بالسعادة من جديد . وفوق هذا ، فأني اصرح امامك منذ هذه اللحظة قائلًا : اذا كان كل شيء كما وصفت ، ولست امك في هذا ، فأنتك ما زلتِ فاضلة طاهرة امام الله . اوه ! ايها المرأة الشقية ! ،

وكان ذلك أكثر مما استطاعت فانتين المسكينات ان تحمّل . ان تغوز بكوزيت ! ان تطلق هذه الحياة الشائنة ! ان تعيش حرة ، غنية ، سعيدة ، فاضلة مع كوزيت ! ان ترى الى حقائق الجنة هذه كلها تنبثق فجأة وسط شقاها ! لقد نظرت وكأنها بلهاء ، الى هذا الرجل الذي يخاطبها ، ولم تستطع ان ترسل غير زفرتين او ثلاث زفرات : « اوه ! اوه ! اوه ! » وخذلتها ساقاها ، فارقت على ركبتيها امام ميو مادلين . وقبل ان يتمكن من منعها استشعر انها امسكت بيده ورفعتها الى شفتيها . ثم غابت عن الوعي .

## الكتاب السادس

# جاقيِر

١

### بداية الراحة

ونقل مسيو مادلين فانتين الى المستشفى القائم في منزله نفسه . لقد عهد الى الراهبتين في أمر العناية بها ، فوضعتها في السرير . لقد عصفت بها حمى عنيفة ، فسلخت شطراً من الليل وهي تمـثـذي وتكلم بصوت عال . وأخيراً استسلمت للرقاد .

وحوالى الظهر من اليوم التالي استيقظت فانتين . لقد سمعت تنفساً قرب سريرها ، فأزاحت الستارة ، فرأت مسيو مادلين واقفاً يتحدث الى شيء فوق رأسه . كانت نظراته مفعمة بالالم النفسي الشفوق المتوسل . وتابعت

اتجاه نظره هذه فوجدت انها كانت مدّدة الى شمال المصلوب المسّر على الجدار .

ومن تلك اللحظة 'خلق' مسيو مادلين خلقاً آخر في عيني فانتين . لقد تراءى لها مكسوّاً بالضياء . كان مستغرقاً في ضرب من الصلاة . وحدّقت اليه فترة طويلة من غير أن تجرّز على مقاطعته . وأخيراً قالت في خوف :

« ما الذي تفعله ؟ »

كان مسيو مادلين قد سلخ ساعة في ذلك المكان . كان ينتظر فانتين حتى تفتق من سباتها . فأمسك بيدها ، وجسّ نبضها ، وقال :

« كيف حالك ؟ »

فقال :

« حسنة جداً . لقد نمت . أظن أنني أتحمّن . لن يكون هذا شيئاً . »

ثم إنه قال ، مجيباً عن سؤالها الذي وجهته اليه في البدء ، وكأنما سمعهُ اللحظة :

« أنا أصلي للشهيد الذي في الاعالي . »

ثم أضاف بين وبين نفسه :

« للشهيدة التي في هذا العالم . »

وقضى مسيو مادلين الليل والصباح مستظلاً . لقد غدا عارفاً كل شيء . لقد غدا عارفاً قصة فانتين بكامل تفاصيلها المرجعة . وتابع كلامه :

« لقد كابدت كثيراً ، ابنتا الام المسكينة . أوه ، لا تنتحي .

لقد فزت الآن بنصيب المختارين من الناس . وإنما بهذه الطريقة يصبح البشر ملائكة . إنها ليست خطيبتهم على الاطلاق . إنهم لا يعرفون كيف يبدأون على نحو آخر . إن هذا الجحيم الذي خرجت منه هو

الخطوة الأولى نحو الجنة . ينبغي ان نبدأ من هناك .  
وأطلق زفرة عميقة . أما هي فابذمت تلك الابتسامة الرفيعة التي  
تعوزها سنان .

وفي الليلة نفسها كتب جافير رسالة . وفي صباح اليوم التالي حمل  
هذه الرسالة بنفسه الى مركز بريد مونتروي سور مير . كانت موجهة  
الى باريس ، حاملة هذا العنوان : « الى مسيو شابوييه ، سكرتير  
السيد مدير الشرطة . »

واذ كانت حادثة مكتب الشرطة قد شاعت بين الناس فقد ظنت  
مديرة مكتب البريد وغيرها ممن رأوا الرسالة قبل ان تُحمل الى وجهتها ،  
ومن عرفوا في العنوان خط جافير ، أن مفتش الشرطة قد قدم بذلك  
استقالته .

وسارع مسيو مادلين الى الكتابة الى تيناردييه . كانت فانتين مدينة  
له بثمة وعشرين فرنكاً . ولقد ارسل اليه ثلاثة فرنك طالباً منه أن  
يقطع ديونه منها ، وينقل الطفلة في الحال الى مونتروي سور مير لأن  
أما المريضة تريد ان تراها .

وأوقعت هذه الرسالة الدهش في نفس تيناردييه .  
وقال لزوجته :

« يا للشيطان ! نحن لن نتخلي عن الطفلة . ان هذه الفتاة المهزولة  
سوف تصبح بقرة حلباً . واحسب ان رجلاً أحق قد فُتن بالألم . »  
وأجاب بأن أرسل فاتورة بمحسنة وبضعة فرنكات كتبت كتابة  
حسن . وقد غفل في هذه الفاتورة بيانان لاريب في صحتها بما يزيد على  
ثلاثة فرنك ، أحدهما من طبيب والآخر من صيدلي عالجا لإيونسين  
وآزبلما وقدّما الادوية اليها خلال مرضين طويلي الأجل . ذلك بأن  
كوزيت لم تكن مريضة كما رأينا . ولم يكن ذلك غير تبديل طفيف في  
الاسماء . وكتب تيناردييه في أدنى الفاتورة : « وصلنا ثلاثة فرنك

على الحساب . »

وفي الحال أرسل مسيو مادلين ثلاثئة فرنك اخرى وكتب قائلاً :  
« عجل بأعادة كوزيت . »

فقال تيناردييه :

« يا للمسيح ! نحن ان نتخلى عن الطفلة . »

ولم تشف فانتبن في غضون ذلك . كانت لا تزال في المستشفى .  
ولم يكن استقبال الراهبتين ، لـ « هذه الفتاة » وعنايتها بها خلواً ،  
أول الأمر ، من شيء من الاشتزاز . وكل من رأى نقش « ريس »  
ذا الصورة المبهمة البارزة بروزاً خفيفاً يذكر انتفاخ شفاه العذارى  
الحكيما لدى رؤية العذارى المحقاوات . والحق ان هذا الازدراء القديم  
الذي تبديه الفتيات الطاهرات نحو الفتيات الاقل حظاً غريزة من أحق  
غرائز الكرامة الانثوية . ولقد عرفت الراهبتان ذلك الاشتزاز قوياً  
ضاعفه الدين . ولكن ما إن انقضت بضعة أيام حتى جردتها فانتين من  
سلاحها . فقد حرّكت قلبها كلماتها الرقيقة المؤثرة ، وعاطفة الامومة  
التي انطوت عليها . وذات يوم سمعتها الراهبتان تقول وهي محمومة  
تهذي : « كنت خاطئة ، ولكن حين افوز بابنتي فدوف يكون معنى  
ذلك ان الله قد غفر لي . ويوم كنت منغمسة في الائم لم اكن اريد ان  
ارى صغيرتي كوزيت الى جانبي . أنا ما كنت قادرة على ان أحتمل  
نظراتها المتعجبة المحزونة . ومع ذلك فمن أجلها هي أثمت ، وهذا هو  
السبب الذي من أجله يغفر الله لي . سوف أحسن ببركة الله حين تأتي  
كوزيت . سوف أنعم النظر فيها . إن مشهد براءتها سوف يعود عليّ  
بالخير . إنها لا تعرف شيئاً من ذلك كله . انها ملاك ابنتها الراهبتان .  
ففي سنّها تلك تكون الاجنحة لما تسقط بعد . »

ووفد مسيو مادلين لرويتها مرتين يومياً ، وكلّ مرة كانت تسأله :

« هل سارى كوزيت قريباً ؟ »

فيجيها :

« ربما تربنها غداً . أنا أتوقع بجيئها كل لحظة . »  
وعندئذ يشرق وجه الام الشاحب .

وتقول :

« آه ، كم سأكون سعيدة ! »

لقد قلنا منذ لحظة انها لم تشف . على العكس لقد بدا أن صحتها  
اخذت تتقهر أسبوعاً بعد أسبوع . ذلك بأن تلك الحفنة من الثلج التي  
وضعت على جلدها العاري بين عظمي الكتف كانت قد سببت انقطاع  
المرق على نحو فجائي ، فاذا بالداء الذي كان كامناً فيها منذ عدة سنوات  
يهاجمها آخر الأمر في غف . وكانوا قد شرعوا في ذلك العهد باتبعاع  
نظرية لاينيك\* الرائعة في دراسة امراض الصدر ومعالجتها . وفحص الطبيب  
رنتيها وهز رأسه .

وسأله مسيو مادلين :

« وبعد ؟ »

فقال الطبيب :

« أليس لها طفلة ترغب في أن تراها ؟ »

« نعم . »

« حسن . اذن عجلوا في الاتيان بها . »

وارتعد مسيو مادلين .

وسأله فانتين :

« ماذا قال الطبيب ؟ »

وحاول مسيو مادلين ان يتنم :

« لقد قال لنا ان نأتي بابنتك في الحال . إن ذلك سوف يعيد

---

\* Leënnec طبيب فرنسي ( ١٧٨١ - ١٨٢٦ ) كانت له خدمات جليلة في مكافحة امراض  
الصدر وتصنيفها .

إليك صحتك . ،

فصاحت :

- « اوه . إنه على صواب . ولكن ما الذي يحمل تيناردييه وزوجته هذين على إبقاء صغيرتي كوزيت بعيدة عني ؟ اوه ، إنها سوف تأتي ! وهكذا سأرى السعادة ، آخر الامر ، قريبة مني ! ،

بيد ان تيناردييه « لم يتخلّ عن الطفلة » ، وقدّم مئة من الاعذار القبيحة . كانت كوزيت متوجعة بعض الشيء فليس في امكانها أن ترحل السفر في الشتاء ، ثم كانت هناك بضعة ديون صغيرة يعمل على جمع فرائدها الخ . الخ .

وقال ميسو مادلين :

- « سوف أرسل شخصاً يجيشني بكوزيت . راذا اقتضى الامر فسوف أذهب أنا نفسي . ،

رأملت عليه فانتين هذه الرسالة ثم وقعتها :

« ميسو تيناردييه ،

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .

« إنه سوف يدفع إليك جميع الديون الصغيرة .

« لي الشرف ان أحبك في احترام .

« فانتين ،

وفي غضون ذلك اعترضت مسألة خطيرة . فمهما 'نجد' نحت الكتلة التي تتألف منها حياتنا فإن عرق القضاء الاسود يبرز فيها دائماً .



## كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح «شان»

وذات صباح كان مسيو مادلين في مكتبه يسوّي مقدّمات بعض شؤن  
وظيفته الملحة مخافة ان يضطرّ للسفر الى مونفيرماي بنفسه عندما أبلغ  
أن جافير ، مفتش الشرطة ، يريد أن يتحدث اليه . حتى اذا سمع مسيو  
مادلين هذا الاسم لم يستطع ان يكبت انطباعة كريمة . فنذ حادثه  
مكتب الشرطة وجافير يجتنبه اكثر من ذي قبل ، فلم يره مسيو  
مادلين قط .

وقال :

- « دعه يدخل . »

ودخل جافير .

وظل مسيو مادلين قاعداً قرب الموقد ، وفي يده قلم ، فهو يمين  
النظر في ملفّ يعلّب صفحاته ويعلّق عليها ؛ وكان ذلك الملفّ يحتوي  
محاضر مخالفات دوتنها دوريات الشرطة . ولم يزعم نفسه قطّ من أجل  
جافير . إنه لم يتالك عن التفكير بفانتين المسكينة ، وكان من الملائم  
ان يستقبله في برود كثير .

وفي احترام ، حتى جافير العمدة الذي كان يوليه ظهره . ولم يرفع  
العمدة بصره ، بل واصل تدوين الملاحظات على اوراقه .

وتقدّم جافير خطوتين او ثلاث خطوات ، ثم وقف من غير ان يقطع  
حبل الصمت .

ولو ان خيراً في الفراسة قدّر له أن يألف وجه جافير وان يدرس  
طوال سنوات عديدة هذا الوحش العامل في خدمة الحضارة ، هذا  
المركّب العجيب من الروماني والاسباطي ، من الراهب والجندي

العزيز ، هذا الجاسوس العاجز عن ان يكذب كذبة ، هذا الشرطي السري البتول - لو ان خيرآ في الفراسة اطلع على كراهيته السرية القديعة لمسيو مادلين ، وعلى خلافه مع العمدة حول مسألة فانتين ، ورأى الى جافير في تلك اللحظة اذن لكان جديراً بان يقول : « ما الذي دهاء ؟ »

كان واضحاً لكل امرئ عرف هذا الضير المستقيم ، الصريح ، الجدي ، النزيب ، الكالح ، الضاري أن جافير قد عانى اضطراباً داخلياً كبيراً . لم يكن في ذهنه شيء غير مرسم على محياه . كان مثل اهل العنف جميعاً عرضةً لتغيرات مفاجئة . ولم يكن وجهه في أبداً وقت مضى أغرب ولا أدعى الى الدهش منه في تلك اللحظة . كان قد انحنى ، لدن دخوله ، لمسيو مادلين في نظرة لم يكن فيها لا حقد ، ولا غضب ، ولا تحدٍ . ولقد وقف على بضع خطوات خلف الكرسي ، وها هو ذا الآن منتصب هناك على نحو يكاد يكون عكسياً بالشراسة الطبيعية الباردة التي يتكشف عنها رجل لم يكن قط كريماً ، ولكنه كان دائماً صبوراً . لقد انتظر من غير ان ينطق بكلمة ، أو يأتي بحركة ، في ضراعة حقيقية وإذعان ساكن ، حتى يحل للسيد العمدة ان يلتفت نحوه - انتظر هادئاً ، جاداً ، مسكاً قبضته بيده ، مطرق العينين في انطباعة هي وسط بين سيا الجندي المائل بين يدي ضابطه ، والمتهم المائل بين يدي قاضيه . لقد اختفت جميع المشاعر وجميع الذكريات التي يمكن للمرء ان يتوقع ظهورها في حاله تلك . ولم يبق على هذا الوجه المغلّق البسيط كالصوتان غير حزن كالح . كان شخصه كله ينطق بالضعف والصلابة ، وبضرب غريب من الكتابة الباسلة .

واخيراً اطرّح العمدة قلعه واستدار على نحو جزئي .

- « حسن . ماذا تريد ؟ ما المسألة ، يا جافير . »

وظل جافير صامتاً ، لحظةً ، وكأنه يستجمع نفسه . ثم رفع صوته في خشوع حزين لم تموزه البساطة ، برغم ذلك :

- « لقد اُقتَرِفَ عمل إجرامي » ، يا سيدي العمدة .  
 - « وما هو ؟ »  
 - « لقد أظهر احد عمال الحكومة الثانويين قلة احترام ، على نحو خطير ، لحاكم من الحكام . ولقد جثت ، بجذوني واجبي ، لكي احبطك بذلك علماً . »

فسأله ميسو مادلين :

« ومن هو ذلك العامل ؟ »

فقال جافير :

- « أنا . »

- « انت ؟ »

- « أنا . »

- « ومن هو الحاكم الذي ينبغي أن يشكو هذا العامل ؟ »

- « انت ، يا سيدي العمدة . »

وتصدّر ميسو مادلين في كرسيه . وتابع جافير كلامه في انطباعة صارمة ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض :

- « سيدي العمدة . لقد جثت لكي ارجوك ان تتلطّف غاية

التلطّف وتغري السلطة بصرفي من الخدمة . »

وفي ذهول ، فتح ميسو مادلين فمه . فقاطعه جافير :

- « ستقول إن في استطاعتي ان اقدم استقالتي . ولكن هذا غير

كافي . الاستقالة مشرّقة . ولكني قد أذنبت . ويجب ان أعاقب .

يجب ان امرّح من الخدمة . »

وبعد ان تمهل لحظة ، أضاف :

- « سيدي العمدة ، لقد كنت قاسياً عليّ ، ذلك اليوم ، في غير

حق . فكُن قاسياً عليّ اليوم ، في حقّ . »

- « آه ، هكذا ! ولماذا ؟ ما هذا الهراء كله ؟ ما معنى هذا ؟ »

واي عمل إجرامي ارتكبته ضدي؟ ما الذي عملته لي؟ كيف اذنبت في حقّي؟ انت تتهم نفسك . اتريد ان نسند منصبك الى رجل آخر؟ ، فقال جافير :

- « اريد ان أسرح من الخدمة . »
- « فلتُسرح ، اذن . هذا غريب جداً . أنا لا أفهم . »
- « سوف تفهم ، يا سيدي العمدة . »
- وزفر جافير من اعماق صدره ، ثم اضاف في حزن وورود :
- « يا سيدي العمدة ، منذ ستة اشهر ، عقب المشادة حول تلك الفتاة ، استبدت بي الغضب ، فشكوتك . »
- « شكوتني ! »
- « الى مديرية الشرطة في باريس . »
- وشرع مسيو مادلين يضحك ، وهو الذي كان مثل جافير لا يضحك الا نادراً :

- « بوصفي عمدةً اعتدى على صلاحيات الشرطة ؟ »
- « بوصفك رجلاً حُكم عليه في ما مضى بالاشغال الشاقة . »
- وغدا وجه العمدة أزرق ضارباً الى السواد .
- وتابع جافير - ولم يكن قد رفع عينيه - قائلاً :
- « لقد اعتقدت ذلك . فمنذ عهد بعيد والظنون تساورني . فهناك الشبه ، والمعلومات التي جمعتها في فايفرول ، وقوتك الهائلة ، ومسألة فوشلوفان العجوز ، وبراعتك في الرماية ، ورجلك المتناقلة بعض الشيء ، وما لا ادريه من الحقائق الاخرى . ولكنني حسبتك ، في آخر الأمر ، رجلاً يدعى جان فالجان . »

- « يدعى ماذا ؟ كيف تلفظ ذلك الاسم ؟ »
- « جان فالجان . كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة وأبته منذ عشرين سنة عندما كنت نائب ضابط الحرس الخاص بسجن المحكومين »

عليهم بتلك الاشغال في طولون . وبعد ان غادر فالجان هذا ، السجن سرق في ما يبدو قصر احد الاساقفة ، ثم قام بسرقة اخرى ، والسلاح في يده ، في طريق عام ، وكان المسروق غلاماً من غلمات سافوا . ومنذ ثماني سنوات وهو متوارٍ ، والسلطة تبحث عنه . لقد توهمت . - وبالاختصار ، قمت بهذا العمل . وإنما حملني الغضب على ان اقرر . لقد شكوتك الى مدير الشرطة .

واستأنف مسيو مادلين الكلام - وكان قد عاود الامساك بالملف قبل بضع ثوان - فقال في نبوة من الالمبالاة الكاملة :

- « وماذا اجابوك ؟ »

- « بأنني معتوه . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « انهم على صواب . »

- « من حن الحظ ان نعتقد ذلك ! »

- « يجب أن أعتقد . لأن جان فالجان الحقيقي قد وُجد . »

وسقطت الورقة ، التي كان مسيو مادلين ممكاً بها ، من يده . ورفع رأسه ، ونظر الى جافير على نحو موصول ، وقال في نبوة لا سبيل الى وصفها :

- « آه ! »

وتابع جافير حديثه :

- « سوف اخبرك كيف كان ذلك ، يا سيدي العمدة . يبدو أنه

كان ثمة في المنطقة ، قرب « آتي - لو - هو - كلوشيه » رجل بسيط يدعونه الأب شافاتيو . كان فقيراً جداً . ولم يكن احد يلتفت اليه . إن المرء يكاد لا يفهم كيف يعيش هؤلاء الناس . واخيراً ، في هذا الحريف ، اعتقل الاب شافاتيو لسرقته شيئاً من التفاح الذي تصنع منه الخمر ، في ... ؛ ولكن هذا لا يهم . لقد وقعت مرقعة ، وتسوّر

شخص" ما جداراً ، وكسر أغصاناً . واعتقل صاحبنا سائغاتييو . كاث  
بجمل حتى في ذلك الحين غصناً من اغصان التفاح بيده . والقي الرجل  
الحقير في السجن . والى هنا لم تكن الحادثة غير مجرد جنحة . ولكن  
العناية الالهية ما لبثت ان تدخلت . ذلك بأن السجن كاث في حال  
سيئة فرأى رجال الشرطة ان من الخير ان ينقلوه الى آراس حيث سجن  
المدبرية . وفي ذلك السجن كان محكوم سابق بالاشغال الشاقة يدعي  
بروفيه أدخل السجن لذنوب طفيف لا أدريه ثم جعل لحسن سلوكه  
سجناً . ولم يكده المقام يستقر بسائغاتييو حتى صاح بروفيه : « ها ، ها !  
انا اعرف هذا الرجل . إنه واحد من 'قدّر لهم ان يدخلوا سجن  
الاشغال الشاقة . انظر اليّ جيداً ، ايها الرجل الطيب . انت جات  
فالجان ! » فقال له الرجل : « جان فالجان ؟ ومن هو جان فالجان  
هذا ؟ » وتظاهر سائغاتييو بالدهش . فقال له بروفيه : « لا تتجاهل .  
انت جان فالجان . لقد كنت في سجن الاشغال الشاقة في طولوت .  
كان ذلك منذ عشرين عاماً . وكنا هناك معاً . » وانصكر سائغاتييو .  
يا الهي ! أفهيت ؟ وتعمقوا المسألة . وبحشوا ونقبوا ، فاكشفوا  
ما يلي . لقد كان سائغاتييو هذا قبل ثلاثين عاماً ، مشدّب اغصان في  
اماكن متعددة ، وخاصة في فافيرول . وهناك نفتقد أثره . وبعد فترة  
طويلة نجده في أوفيري ، ثم في باريس ، حيث يقال انه كان صانع  
عربات ، وانه كانت له بنت عملت غسالة ، ولكن ذلك شيء لم يقم  
عليه دليل ، واخيراً وجدناه في هذه المنطقة . والآن ، قبل ان يساق  
الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لارتكابه سرقة موصوفة ماذا  
كان جان فالجان ؟ مشدّب اغصان . أين ؟ في فافيرول . ونبي آخر .  
كان امم المعودية عند فالجان هو جان ، وكان امم امرة امه ماتيو .  
وطبيعي جداً ان يكون عند خروجه من السجن . قد اتخذ امم امه  
إخفاء هويته ، وعندئذ يكون قد اصبح معروفاً بـ « جان ماتيو » .

ويذهب الى اوفيري وهناك يتحول « جان » بحكم طريقة النطق الخاصة بتلك الديار الى « شان » فاذا به يدعى شان ماتيو . ويتبنى صاحبنا هذه التسمية ، فيصبح شانماتيو . انت تتابعني ، اليس كذلك ؟ ثم أجريت مباحث في فايرول . ان امرة جان فالجان لم تعد هناك . وليس ثمة من يعرف اين هي . وانت تدري ان اختفاء الأسر على هذا النحو كثيراً ما يقع عند امثال هذه الطبقات . ويستمر البحث ، ولكن على غير طائل . فعين لا يكون هؤلاء القوم وحلاً يكونون غباراً . واذا كانت بداية هذه القصة ترجع الى ثلاثين سنة خلت فليس في فايرول الآن من يعرف جان فالجان . ولكن تحقيقات قد أجريت في طولون . فباستثناء بروفه لم يكن ثمة غير محكومين اثنين بالاشغال الشاقة يعرفان جان فالجان . إنها من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، ويدعيان « كوشباي » و « شونيلدو » . وجهي بهذين الرجلين من سجن الاشغال الشاقة ، ودعي شانماتيو المزعوم لمواجهتهما . فلم يترددا قط . لقد قالا ، كما قال بروفه ، إنه جان فالجان . فالعمر واحد - اربع وخمسون سنة - والطول واحد ، والشكل واحد ، والاثنان في الواقع رجل واحد . إنه هو . وفي هذا الوقت بالذات ارسلت شكواي الى مديرية الشرطة في باريس ، فجاءني الجواب يقول اني فقدت صوابي ، وان جان فالجان بين يدي العدالة في آراس . وفي استطاعتك ان تتخيل كم ادهشني ذلك ، انا الذي اعتقدت اني امسكت هنا بجان فالجان نفسه . فكتبت الى قاضي التحقيق . فاستدعاني ، وجاء بشانماتيو ليمثل امامي .

فقاطعه مسيو مادلين :

« ثم ماذا ؟ »

فأجابه جافير ، بوجه غفيف محزون :

« سيدي العمدة ، الحق هو الحق . انا آسف جداً ، ولكن

ذلك الرجل هو جان فالجان . لقد عرفته انا ايضاً . ،

فقال مسيو مادلين في صوت منخفض جداً :

- « اوانتي انت من ذلك ؟ »

- وبدأ جافير يضحك تلك الضحكة المكبوتة التي تؤذن بالايامات

العميق :

- « انا واثق . »

وظلّ شارد الذهن لحظةً ، رافعاً على نحو آلي قبضات من 'نشارة

الحشب التي 'تصطنع لتجفيف الخبر كانت في صندوق على الطاولة ،

ثم أضاف :

- « والآن اذ ارى جان فالجان الحقيقي لا استطيع أن افهم كيف

جاز لي ان اعتقد غير ذلك . انا ألتبس عقوك يا سيدي العمدة . »

وفيا هو بوجه هذه الكلمات المتوسلة الرصينة الى ذلك الذي اهانه ،

قبل ستة اسابيع ، امام الحرس كلهم وقال له : « اخرج ! » كان جافير

- هذا الرجل المتكبر - مفعماً على غير وعي منه بالبساطة والوقار .

واجابه مسيو مادلين عن التماسه بهذا السؤال المفاجيء :

- « وماذا قال الرجل ؟ »

- « اوه ، عجباً ! المسألة قبيحة ، يا سيدي العمدة . اذا كانت هو

جان فالجان ، فمعنى ذلك عودة الى الجريمة . إن تسوّر جدار ما ،

وكسر غصن من الاغصان ، وسرقة بعض التفاح لا تعدوا ان

تكون - بالنسبة الى الطفل - ذنباً . وهي - بالنسبة الى الرجل -

جنتة . ولكنها - بالنسبة الى المحكوم عليه بالاستغال الشاقة - جريمة .

إن التسور والسرقة يشلان كل شيء . لأنها ليست قضية من قضايا

شرطة الجنجح ، ولكنها قضية تنظر فيها محكمة الجنابات .

ان عقوبتها ليست السجن بضعة ايام ، ولكنها الاستغال الشاقة مدى

الحياة . والى هذا ، فهناك قضية ذلك الغلام السافواني الصغير



الذي ارجو ان يُعثر عليه . بالشيطان ! هناك شيء ينبغي ان يُناضَلَ ضده ، اليس كذلك ؟ نعم ، من اجل ايّ امرى باستثناء جان فالجان . ان جان فالجان رجل ذو وجهين . وتلك عندي علامته الفارقة . لقد كان خليقاً بايّ انسان آخر ان يدرك أنه في وضع حرج حام فيضطرب . ويصرخ كما يصفر الاناء المعدني فوق النار . كان خليقاً به ان يقول إنه ليس جان فالجان ، الخ . ولكن هذا الرجل يتظاهر بأنه لا يفهم ان يقول : « انا شغافيو ، ليس عندي ما اقوله غير ذلك . » إنه يتظاهر بالدهش . إنه يمثل دور البهيمية . اوه ، إن الوغد داهية ! ولكن ، سيان . فهناك الدليل . لقد عرفه اربعة اشخاص ؛ وان النذل العجوز سوف يُدان . لقد رُفعت القضية الى محكمة الجنايات في آراس . وسوف امضي الى هناك لأدلي بشهادتي . لقد دُعيت من اجل ذلك . »

كان ميسو مادلين قد ارتدت الى منضدته ، وانشأ يقلب اوراقه في هدوء ، فهو يقرأ حيناً وهو يكتب حيناً ، مثل رجل متغل بالأعمال . ثم التفت الى جافير كره اخرى وقال :

— « كفى ، يا جافير . الواقع ان هذه التفاصيل كلها لا تهمني إلا قليلاً . نحن نضيع وقتنا ، ولدينا مهام ملحة ، يا جافير . اذهب في الحال الى منزل المرأة الطيبة بوزوبيه التي تباع الاعشاب في زاوية شارع سان سولف . وقلْ لها ان ترفع شكواها على سائق العربات بيير شينلون . إنه وحشيّ كاد ان يسحق هذه المرأة وطفلها . يجب ان يعاقب . ثم اذهب بعد ذلك الى ميسو شارسييلي ، في شارع مونتر دو شابيني . انه يشكو من ان ثمة ميزاباً في احد البيوت المجاورة يقذف بيته بماء المطر ، على نحوٍ يقوّض أساس البناء . وبعد ذلك ينبغي ان تحقق في المخالفات التي رُفّع امرها اليّ ، والتي وقعت عند الارملة دوريس في شارع غيورغ ، وعند مدام رينيه لو بوسيه في شارع غارو — بلان ، وان

نضع تقريرك عنهما . ولكنني أثقل عليك بالعمل . ألم تقل لي انك ذاعب الى آراس ، خلال غانية ايام او عشرة ايام ، لأمر يتصل بهذه المسألة؟

- « أبكر من ذلك ، يا سيدي العمدة . »

- « في ايّ يوم اذن ؟ »

- « أحسب اني انبأت سيدي العمدة ان تلك القضية سوف تُنظر

غداً ، وان عليّ ان أسافر بالعربة العمومية الليلة . »

وأني مسيو مادلين بجرعة لا تكاد تُلاحظ .

- « وكـم ستستغرق هذه المسألة ؟ »

- « يوماً واحداً على الاكثر . وسوف يُلفظ الحكم غداً مساءً على

الأبعد . ولكنني لن أنتظر صدور الحكم فهو راهن لا شك فيه . فها

إن ادلي بشهادتي حتى أرجع الى هنا . »

فقال مسيو مادلين :

- « حسن . »

واذن له بالانصراف بجرعة من يده .

ولكن جافير لم ينصرف . وقال :

- « عفواً ، يا سيدي العمدة . »

فسأله مادلين :

- « وماذا بعد ؟ »

- « سيدي العمدة ، هناك شيء آخر ارجب في أن ألفت نظرك

اليه . »

- « وما هو ؟ »

- « هو أنني يجب ان أصرّح . »

ونفض مسيو مادلين .

- « جافير ، انت رجل شرف ، وأنا أقدرك . انك تبالغ في

تضخيم غلطتك . والى ذلك ، فهذه مخالفة تعينني انا . انت جدير بالتوقيع

لا بالاسقاط . انا اريد منك ان تحتفظ بمنصبك .  
ونظر جافير الى مسيو مادلين ، بعينين هادئتين 'يُخَيِّل الى الناظر انه  
يرى في اعماقها هذا الضمير ، غير المستنير ، وإن يكن صارماً طاهراً .  
وقال في صوت هادي :

- « سيدي العمدة ، انا لا استطيع ان اوافق على ذلك . »  
فقال مسيو مادلين :

- « أكرر ان هذه مسألة تتعلق بي شخصياً . »  
ولكن جافير ، المستغرق في فكرته الوحيدة ، تابع الكلام :  
- « أما المبالغة ، فأني لا ابالغ على الاطلاق . هذه هي الطريقة  
التي افكر بها : لقد ارتبتُ بك في غير حق . وليس هذا شيئاً . إن  
وظيفتنا قوامها الارتياب ، على الرغم من اننا قد نسيء استعمال حقنا  
اذا ارتبنا في رؤسائنا . ولكن من غير بينات ، وفي سورة من  
الغضب ، وبدافع من الانتقام الشخصي ، شكوتك بوصفك محكوماً سابقاً  
بالاشغال الشاقة - انت ، الرجل المحترم ، العمدة ، الحاكم . هذه مسألة  
خطيرة ، خطيرة جداً . لقد أهنتُ السلطة في شخصك ، انا العامل في  
خدمة السلطة . ولو قد فعل احد رؤوسمي ما فعلته اذن لاعتبرته غير  
جدير بالعمل ، ولطرده من منصبه . ثم ماذا ؟ كلمة أخرى ،  
يا سيدي العمدة . لقد كنت في معظم أيامي قاسياً على الناس ، وكان  
ذلك عدلاً . لقد أحسنت في ذلك . والان ، اذا لم أكن قاسياً على  
نفسي فان كل ما فعلته بعدل سوف يتقلب الى ظلم . هل يحسن بي  
أن أترقى بنفسي اكثر من الآخرين ؟ لا . ماذا أقول ؟ اذا لم أحسن  
إلا معاقبة الناس من دون نفسي فعندئذ اكون ذنباً حقاً ! وعندئذ  
يصبح أولئك الذين يقولون « هذا الوغد جافير » على حق . سيدي  
العمدة ، انا لا اريد منك ان تعاملني في رفق . لقد كان اصطناعك  
الرفق في معاملة الآخرين يهيج غضبي ، فأنا لا أبغيه لنفسي . ذلك الرفق

الذي قوامه الانتصار لبنت من بنات الهوى على مواطن من المواطنين ،  
ولشرطي على عمدة ، ولرؤوس على رئيس - إنه ما أدعوه ، و الرفق  
الموضوع في غير حله . مثل هذا الرفق يشيع القوضى في المجتمع .  
يا الهي ، من اليسير ان يكون المرء وقيفاً ، ولكن من العسير ان  
يكون عادلاً . ولو أنك كنت كما توهمتكَ ، لما كنت خليفاً بأن أرفق  
بك . لا ، غيري الذي يرفق . ولقد كنتَ جديراً بأن ترى ، يا سيدي  
العمدة . يتمعن عليّ أن أعامل نفسي كما أعامل أي إنسان آخر . كثيراً  
ما أقول لنفسي حين أزجر الاشرار ، وحين أعاقب المخالفين : « حذار  
ان تربي ، حذار أن أقبض عليك متلبساً بخطيئة ! » ، لقد زلتُ . لقد  
قبضت على نفسي متلبساً بخطيئة . لأمي المبل ! يجب ان أقص ، أن  
أحطّم ، أن أسرح . هذا حسن . إن لي ذراعين . أنا لا أزال قادراً  
على أن أفلح الارض ؛ ولست أجد في ذلك غضاة . إن المصلحة العامة  
في حاجة الى مثل . وانا لا أطلب غير تسريح المفتش جافير .  
وانما قيل ذلك كله في نبرة متضعة ، فخور ، يائسة ، جازمة خلعت  
عظمة غريبة لا سبيل الى وصفها على هذا الرجل النزيه الى حدّ عجيب .

فقال مسير مادلين :

- « سنرى . »

وبسط يده نحوه .

وارتدت جافير الى الوراء ، وقال في جرس خائر :

- « عفواً ، يا سيدي العمدة . هذا شيء لا ينبغي ان يكون .

ان العمدة لا يبسط يده الى الجاسوس . »

وأضاف من بين أسنانه :

- « جاسوس ؛ أجل . فند اللحظة التي أسأت فيها استعمال سلطتي ،

لم أكن أكثر من جاسوس ! »

ثم المنحنى انخاضة مغالى فيها ، ومضى نحو الباب .

وهناك استدار ، وعينه ما تزالان مطرقتين الى الارض .  
- « سيدي العمدة ، سوف استمرّ في الوظيفة حتى أسرح . »  
قال ذلك وخرج . واستغرق مسيو مادلين في تأملاته ، مصغياً الى  
خطواته الثبّنة الراسخة فيما هي تبتعد متلاشية على ارض الرواق .

## الكتاب السابع

# قضية شانماتيو

١

### الاخت سيمبليس

إن الاحداث التي سنقرأها لم 'تعرف كلها قط' في مونتروي سور مير .  
ولكن القليل الذي تسرّب منها قد ترك في تلك المدينة ذكريات 'يحدث  
إغفالها ، بتفاصيلها الدقيقة ، ثغرة في هذا الكتاب .

وبين تلك التفاصيل يلقى القارىء حادثتين او ثلاث حوادث غـيـر  
ممكنة الوقوع 'نثبتها احتراماً للحقيقة .

ففي الاصل الذي تلا زيارة جافير ، ذهب ميسو مادلين لـيـرى  
فانتين كالعادة .

وقبل ان ينتهي الى غرفة فانتين استدعى الاخت سيمبليلس .  
كانت الراهبتان القائمان بعبد الخدمة في المستشفى ، وهما لعازاريتان  
مثل جميع راهبات المحبة هؤلاء ، تدعيان الاخت ييريتو ، والاخت  
سيمبليلس .

وكانت الاخت ييريتو فتاة ريفية عادية انتمت الى راهبات المحبة  
في غير إبطاء - فتاة فظة دخلت في خدمة الله وكأنها تلتحق  
بأبنا عمل من الاعمال . كانت راهبة كما تكون غيرها طاهية . وليس هذا  
الطراز نادراً . فالرهبانيات ترحب بهذا الفشار الريفي الثقيل الذي يسهل  
نحويلة الى « كبوشي » او « ارسوليني » . \* ومثل هذه الكائنات  
الجلقة تُصطنع عادةً في مهامّ العبادة الأكثر خشونة . وليس ثمة صدمة  
في انتقال المرء من راعي بقر الى راهب كرملي . ان احد هذين  
يستطيع ان يحلّ محل الآخر من غير كبير عناء . فالجهل ، وهو  
الاساس المشترك الذي تقوم عليه القرية والدير ، هو في ذاته لإعداد  
مُنَجَّر ، وهو يضع الريفي ، في الحال ، على مستوى واحد مع الراهب .  
وسّع القمص قايلاً ، تحصل على ثوب الرهبانية . وكانت الاخت  
ييريتو راهبة شديدة البأس ، من مارين ، قرب بونتواز ، تكثر  
من استعمال التعابير الاقليمية ، وتتلو المزامير على نحو رتيب . وكانت  
تؤاخذ الى التذمر ، تضع السكر في الدواء ، وفقاً لتطرف المريض في  
التنوى أو في الرباء ، جلقةً مع المرضى ، خشنة مع الموتى تكاد ان  
تقذف بهم في وجه الرب قذفاً ، راحة حشرجاتهم بصلوات مغضبة ، وقد  
شاع الدم في وجهها وبدت عليها أمارات الجسارة والطهارة .

اما الاخت سيمبليلس فكانت بيضاء شمعية اللون . وكانت اذا ما  
قورنت بالاخت ييريتو اشبه ما تكون بشمعة طويلة عسيلة المادة الى  
جانب شمعة مُصنعت من شحم . ولقد سبق للقديس فنان دو بول ان

\* الكبوشية والارمولينية رهبانان معروفتان .

رسم أكمل ما يكون الرسم صورة لراهبة المحبة في هذه الكلمات الرائعة التي يمزج فيها كثيراً من الحرية بكثير من العبودية : « إن ديرها الأوحده سوف يكون بيت المرضى ، وقليتها \* الوحيدة غرفة متأجرة . ولن يكون لها معبد غير كنيسة الابوشية ، ولا محبس غير شوارع المدينة أو غرف المستشفى . ولن يكون سياجها غير الخضوع ، وحاجزها المقضب غير خوف الله ، وخمارها غير الحياء . » وإنما تجتهد هذا المثل الاعلى حياً في الاخت سيمبليس . إن احداً ما كان قادراً على ان يحزر عمر الاخت سيمبليس . انها لم تكن شابة في يوم من الايام ، ولقد بدا وكأنها لن تشيخ في يوم من الايام . كانت شخصاً - فنحن لا نجروء على ان نقول امرأة - هادئاً ، عاباً ، حسن العشرة ، بارداً لم تكذب طوال عمرها مرة واحدة . كانت من اللطف البالغ بحيث تبدو قصفة مريعة الانكسار ، ولكنها في ما عدا ذلك أشد صلابة من الصوان . كانت تمسّ البائسين بأصابع فائنة ، رفيقة ، طاهرة . كان ثمة - اذا جاز التعبير - صمت في كلامها . كانت تقول ما هو ضروري لبس غير ، وكان لها جرس قادر على ان ينبير كرمي اعتراف ، وعلى ان يفتن صالوناً من الصالونات ، في وقت معاً . وكانت هذه الرقة تكيف نفسها مع الثوب الصوفي الاسمر الحشن واجدة في لمسة الجافية مذكراً دائماً بالجنة وبالله . ولتؤكد مسألة واحدة : ان كونها لم تكذب قط ، ولم تقل قط - لأي غرض مهما يكن ، بل ولغير ما غرض - كلمة واحدة ليست هي الحقيقة ، الحقيقة المقدسة - إن هذه الواقعة كانت هي شبة الاخت سيمبليس الميزة . كانت آية فضيلتها . وقد كادت تكون شهيرة في الرهبانية بسبب من هذا الصدق الثابت الجنان . وإنما تحدث الراهب سيكارد عن الاخت سيمبليس في رسالة بعث بها الى « ماسيو » الاصح الأبكم . إننا مهما نكن مخلصين ، امناء ، طاهرين نحمل كلنا طابع كذبة صغيرة بريئة . اما هي فلا . كذبة صغيرة ، كذبة

• القاية : شبه الصومعة .



بريئة ، هل يوجد شيء مثل هذا ؟ الكذب هو الشر المطلق . والكذب قليلاً ليس شيئاً ممكناً . إن ذلك الذي يكذب ، يكذب كذبة كاملة . الكذب هو وجه الشيطان نفسه . إن لابلis إسمين ، فهو يدعى إبلis ، وهو يدعى الكذاب . تلك كانت افكارها . وكلما كانت تفكر ، كانت تعمل . ومن هنا هذا البياض الذي تحدثنا عنه ، البياض الذي يغطي بأشعاعه حتى شفيتها وعينها . كانت ابتسامتها بياض ، وكانت نظرتها بياض . لم يكن غم نسيج عنكبوت ، او ذرة من الغبار على زجاج ذلك الضمير . وحين نذرت نفسها للعمل تحت لواء القديس فنان دو بول اتخذت اسم سيمبلis باختيار خاص . وسيمبلis الصقلية هي ، كما هو مشهور ، تلك القديسة التي آثرت ان يُقتلع ثدياها الاثنان على ان نجيب - وهي التي ولدت في سيراكيوس - بقولها انها ولدت في سيجيسا ، وتلك كذبة كان جديراً بها ان تنفذها . كانت هذه القديسة الشفيعة ، تلاثم هذه النفس .

وكانت للاخت سيمبلis ، حين دخلت الرهبانية ، علتان تحررت منهما شيئاً بعد شيء . كانت تحب الحلويات ، وتحب ان تتلقى الرسائل . اما الان فلم تعد تقرأ غير كتاب صلاة ضخيم الحروف لاتيني اللغة . لم تكن تفهم اللاتينية ، ولكنها فهمت الكتاب .

وانعطف قلب المرأة التقية على فانتين ، ولعلها ان تكون قد لمست فيها فضيلة كامة ما ، ووقفت نفسها وقفاً كاملاً تقريباً على العناية بها . وانتحى مسيو مادلين بالاخت سيمبلis مكاناً ، وأوصاها بفانتين في نبرة غريبة تذكرتها الاخت في يوم ثال .

حتى اذا فارق الاخت ، اقرب من فانتين .

كانت فانتين تنتظر كل يوم ظهور مسيو مادلين كما ينتظر المرء شعاعاً من الدفء ومن البهجة . وكانت تقول للراهبتين :

- « أنا لا أحيا إلا حين يكون السيد العمدة هنا . »

وفي ذلك اليوم اشتدت عليها وطأة الحمى . فلم تكـ تـرى مسيو  
مادلين حتى سأله :

— « كوزيت ؟ »

فأجابها في ابتسامة :

— « قريباً جداً . »

وبدا مسيو مادلين ، وهو الى جانب فانتين ، في حالة المعتادة .  
بيد أنه أقام عندها هذه المرة ساعة بدلاً من نصف ساعة ، موقفاً بذلك  
اعظم الرضا في نفس فانتين . ولقد ألح ألف مرة على كل امرئ بأن  
تلبس مطالب المريضة كلها . ولقد لوحظ أن محياه بدا ، في لحظة من  
الاحظات ، قائماً جداً . ولكن تفسير ذلك ما لبث ان انضح عندما عُرف  
ان الطبيب قال له بعد ان انحنى فوق اذنها :

— « إن قواها تتلاشى في سرعة . »

ثم انه رجع الى مكتب العدة ، فرآه الخادم يدرس في دقة خريطة  
من خرائط الطرق في فرنسة تتدلى على جدار غرفته . ولقد صور بعض  
الارقام بقلم رصاصي على قصاصة من الورق .

## ٢

### ذكاء المعلم سكوفليز

ومن مكتب العدة مضى الى ضواحي المدينة قاصداً الى رجل  
فلمنكي \* يدعي المعلم سكاوفلر — وقد فُرِئستْ فأمنت سكوفليز —  
وكان يؤجر الحبل ويؤجر « العربات الخفيفة لمن يشاء » .  
وكانت اقصر الطرق للذهاب الى سكوفليز هذا تقضي بسلوك شارع

\* الفلمنكيون : ابناء بلاد الفلاندر .

نادراً ما نظأه الأقدام ، حيث كان بيت كاهن الابرشية التي يعيش فيها  
 ميو مادلين . وكانت الكاهن ، كما قيل ، رجلاً جليلاً محترماً ، ذا  
 رأي ونصيحة . وفي اللحظة التي انتهى فيها ميو مادلين الى بيت  
 الكاهن لم يكن في الشارع غير عابر سبيل واحد . ولقد لاحظ عابر  
 السبيل هذا ما يلي : أن العمدة ، بعد ان تحطى منزل الكاهن ، وقف  
 لحظة ، ثم ارتد على آتاره حتى باب ذلك المنزل ، وكان باباً ضخماً ذا  
 قارعة حديدية . وأمسك بتلك القارعة بقوة ، ورفعها ، ثم وقف من جديد ،  
 متبهِلاً لحظة وكأنه يفكر ؛ وبعد بضع ثوانٍ اعاد القارعة في تَلَطُّفٍ  
 الى مكانها بدلاً من ان يقرع الباب بها في صخب ، واستأنف سيره بضرب  
 من العجلة لم يصطنعه من قبل .

ووجد ميو مادلين المعلم سكوفليز في بيته منهكاً في إصلاح جهاز  
 من أجهزة الخيل .  
 وسأله :

- « ايها المعلم سكوفليز ، هل عندك جواد أصيل ؟ »  
 فقال الرجل الفلمنكي :

- « سيدي العمدة ، إن جميع جيادي اصائل . ماذا تعني بالجواد  
 الأصيل ؟ »

- « اعني جواداً يستطيع ان يقطع عشرين فرسخاً في اليوم . »  
 فقال الفلمنكي :

- « يا للشيطان ! عشرين فرسخاً ! »

- « نعم . »

- « مقروناً الى عربة ؟ »

- « نعم . »

- « وكم سوف يستريح بعد الرحلة ؟ »

- « يجب ان يكون قادراً على ان يعود في اليوم التالي اذا

اقتضت الحال . »

« ليقطع المسافة نفسها مرة أخرى ؟ »

« نعم . »

« يا للشيطان ! يا للشيطان ! وهي عشرون فرسخاً ايضاً ؟ »

واخرج مسيو مادلين الورقة التي سبق له ان دوّن عليها بعض الارقام بقلم رصاصي . وأطلع الرجل الفلمنكي على تلك الارقام . فاذا هي ٥ و ٦ و ١/٢ و ٨ .

وقال :

« ترى ، المجموع تسعة عشر ونصف ، وبكلمة ثانية عشرون فرسخاً . »

فاستأنف الفلمنكي كلامه :

« سيدي العبد ، عندي ما تطلبه غاماً . إنه جوادي الابيض الصغير . ولا ريب انك رأيت في بعض الطريق احياناً . إنه هيمة صغيرة من «بولونية الدنيا» . إنه مفعم بالنار . لقد حاولوا اول الامر ان يتخذوا منه حصاناً للركوب ، ولكنه اخذ في الرفس ، وأزلّ عن صهوته كل من حاول امتطائه . وظنوا انه حرون ، ولم يدروا ما الذي ينبغي ان يفعلوه . واشتوبته وقرنته الى عربة خفيفة . ذلك ما كانت يريده ، يا سيدي . إنه رفيق الحاشية ، مثل فتاة من الفتيات . إنه ينطلق كالريح . آه ، مثلاً ، ينبغي ان لا ينطوي المرء صهوته . ليس من رأيه ان يكون فرس ركوب . إن لكل فرد طموحه الخاص . اريد ان اجرّ ، لا أن أحمل : ينبغي ان نؤمن بأنه قال ذلك لنفسه . »

« وسوف يقوم بالرحلة ؟ »

« اجل سوف يقطع العشرين فرسخاً التي تتحدث عنها ، وسوف يقطعها خجّياً ، وفي أقلّ من ثماني ساعات . ولكن ثمة بعض الشروط . »

« ما هي ؟ »

- « أولاً ، يجب ان تدعه يتنفس ساعة حين تبلغ منتصف الطريق .  
وعندئذ يأكل ؛ وينبغي ان يقف الى جانبه بينما هو يأكل شخصاً ما  
لكي يمنع صبي الحان من مرقه شوفانه . لاني لاحظت ان الشوفان  
يشربه صبية الحانات اكثر مما تأكله الحيل . »

- « ان شخصاً ما ، يجب ان يكون هناك . »

- « ثانياً ... اريد سيدي العمدة العربية لنفسه ؟ »

- « نعم . »

- « هل يعرف سيدي العمدة كيف يسوقها ؟ »

- « نعم . »

- « حسن . اذن فيدي العمدة سوف يرتحل وحده من غير ائمة .

لكي لا يرهق الجواد . »

- « موافق . »

- « ولكن لما كان سيدي العمدة سيسافر وحده ، فسوف يضطر

الى أن يتجشم غناء حراسة الشوفان بنفسه . »

- « لا بأس . »

- « اريد ثلاثين فرنكاً يومياً . على ان تدفع ايام الراحة ايضاً .

ولست أرضى اقل من ذلك بربع « سو » . وعلى سيدي العمدة ان

يتحمل نفقة العليق . »

واخرج مسيو مادلين من كبس نقوده ثلاث ليرات ذهبية نابوليونية

ووضعها على الطاولة قائلاً :

- « هذه اجرة يومين ، مقدماً . »

- « رابعاً ، إن العربية قد تكون ثقيلة جداً بالنسبة الى رحلة

كهذه ، وقد ترهق الجواد . لذلك ينبغي ان يوافق سيدي العمدة على

السفر في عربية صغيرة ذات دولابين موجودة عندي . »

- « اوافق على ذلك . »

- « إنها خفيفة ، ولكنها مكشوفة . »
- « كل ذلك سواء عندي . »
- « هل فكر سيدي العمدة أننا في فصل الشتاء ؟ »
- ولم يجب مسيو مادلين . وتابع الفلنكي كلامه :
- « وأن الجو بارد جداً ؟ »
- وظلّ مسيو مادلين معتصماً بالصمت .
- وتابع المعلم سكوفليير :
- « وأنها قد تمطر ؟ »
- فرفع مسيو مادلين رأسه وقال :
- « إن الجواد والعربة المكشوفة سوف يكونان أمام بابي غداً في الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »
- فأجاب سكوفليير :
- « اتقنا . »
- قال ذلك ، وأنشأ يחדش بظفر إبهامه لطخة كانت على خشب الطاولة ليستأنف بعد حديثه بتلك الانطباعة اللامبالية التي يحسن أبناء الفلاندر مزجها بدهائهم :
- « ولكن يا عجباً ! أنا لم افكر بذلك إلا الآن . ان سيدي العمدة لم يخبرني الى اين يعتزم أن يذهب . الى اين سيذهب سيدي العمدة ؟ »
- ولم يكن قد فكر بشيء آخر منذ بدء المحادثة ، ولكنه لم يجروء - من غير ان يدري لماذا - على أن يطرح هذا السؤال .
- فقال مسيو مادلين :
- « هل لجوادك قائمتان اماميتان قويتان ؟ »
- « نعم ، يا سيدي العمدة . يجب ان تكبح جماحه قليلاً حين نهبط الكتيب . هل ثمة منجدرات كثيرة من هنا الى المكان الذي تعتزم

الذهاب إليه ؟ ،

فأجابه مسيو مادلين :

- « لا ننسَ ان تكون عند باب دارى فى تمام الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »  
وخرج .

وغودر الرجل الفلنكى « مصعوقاً » ، كما عبّر هو نفسه فى ما بعد .  
ولم تكده نغضى على ذهاب العمدة دقيقتان او ثلاث دقائق حتى فُتح الباب من جديد . كان القادم هو السيد العمدة .  
كانت نعلو وجهه سياه المعتادة الممتعة على التأثر ، الشاردة الذاهلة .  
وقال :

- « مسيو سكوفليز ، بكم نقيّم الجواد والعربة المكشوفة اللذين ستزودنى بهما ، حاملاً أحدهما الآخر ؟ »

فقال الفلنكى فى ضحكة عالية :

- « جازاً أحدهما الآخر . »

- « كما تحبّ . بكم ؟ »

- « اريد سيدي العمدة ان يشتريهما ؟ »

- « لا ، ولكنى اريد ان اضمنها لك على أية حال . حتى اذا

رجعت كان فى إمكانك ان 'تعيد الى' المبلغ . بكم نقيّم الجواد والعربة المكشوفة ؟ »

- « بمئتين فرنك ، يا سيدي العمدة ! »

- « ها هي ذى . »

ووضع مسيو مادلين ورقة نقدية على الطاولة ، ثم خرج ، ولكن من غير ان يعود هذه المرة .

وندم مسيو سكوفليز اعظم الندم لأنه لم يقل ألف فرنك . والواقع ان الجواد والعربة المكشوفة لم يكن غنمها ليزيد - معاً - على مئة

ريال .

ونادي الرجل الفلنكي زوجته وروى لها المسألة . يا للشيطان ! ولكن الى أين يمكن للعمدة ان يذهب ؟ وتحدثا في ذلك . فقالت الزوجة : « انه ذاهب الى باريس . » فقال الزوج : « لست اعتقد ذلك ، وكان مسيو مادلين قد نسي الورقة التي دون عليها الارقام ، تاركاً ايهاا على الموقد . فتناولها الفلنكي وراح يدرسها . » « خمسة ، ستة ، ثمانية ونصف ؟ لا شك في ان هذه الارقام تشير الى محطات البريد . » والتفت الى زوجته قائلاً : « لقد اكتشفتها . » - « كيف ؟ » - « هناك خمسة فراسخ تفصل بيننا وبين هسدين ؛ وستة من هسدين الى سان بول ؛ وثمانية ونصف من سان بول الى آراس . إنه ذاهب الى آراس . »

وفي غضون ذلك كان مسيو مادلين قد انتهى الى منزله . ولقد اتخذ عند عودته من منزل المعلم سكوفليز ، الطريق الطويلة ، لكأنّ باب دار الكاهن كان ضرباً من الاغراء ، فهو يريد ان يجتنبه . وصعد الى غرفته ، واوصد من دونه الباب ، وهو امرٌ لم يكن ليلفت النظر ، إذ كان من عادته ان يأوي الى الفراش باكراً . واياً ما كان فأن حارسه المصنع ، التي كانت في الوقت نفسه خادمة مسيو مادلين الوحيدة ، لاحظت ان ضوءه قد انطفأ في الساعة الثامنة والنصف ، فذكرت ذلك لامين الصندوق الذي رجع ادراجه ، مضيئة :

- « هل السيد العمدة مريض ؟ أحسب ان هيئته كانت غريبة بعض الشيء . »

وكان امين الصندوق يجتلي غرفة تقع تحت غرفة مسيو مادلين تماماً فلم يلق بالآ الى كلام البوابة ، وآوى الى فراشه ، ونام . وحوالى منتصف الليل استيقظ من رقاده فجأة . كان قد سمع ، فيها هو نائم ، ضجة فوق رأسه . واصفى . فاذا خطى تروح ونجوى ، وكان شخصاً



ما، يثبي في الغرفة التي فوقه . واضنى في انتباه أشد ، فتبين وقع خطى مسير مادلين . وبدا ذلك غريباً في نظره . فما كانت لتسمع ، عادةً ، أي صجة في غرفة مسير مادلين قبل نهوضه من النوم . وبعد لحظة ، سمع امين الصندوق شيئاً كأنه صوت خزانة 'تفتح وتغلق' . ثم ان قطعة من الاثاث 'حركت' ، وتبع ذلك فترة صمت اخرى ، وانشأت الخطى تروح وتجي . واستوى امين الصندوق قاعداً في فراشه ، ونفض عنه النعاس ، ونظر . ومن خلال زجاج نافذته رأى على الجدار المقابل انعكاس النور من نافذة مضادة انعكاساً ضارباً الى الحمرة . ومن اتجاه الأشعة لم يكن في الامكان أن تكون تلك النافذة غير نافذة غرفة مسير مادلين . وارتعش الانعكاس وكأنه صادر من نار ساطعة لا من نور من الانوار . ولم يكن في الامكان ان يُرى ظلّ اطار النافذة المتزجج ، وذلك ما دل على ان النافذة كانت مفتوحة على مصراعها . واذا كان البرد قارساً ، فقد كانت هذه النافذة المشرقة مدعاة الى العجب . واستلم امين الصندوق للرقاد ، كرة اخرى . وبعد ساعة او ساعتين استيقظ من جديد . كانت الخطى نفسها ، بطيئةً ونظاميةً ، تروح وتجي . على نحو موصول فوق رأسه . وظلّ الانعكاس مرئياً على الجدار ، ولكنه غدا الآن شاحباً ثباتاً مثل ضوء مصباح او شمعة . كانت النافذة ما تزال مفتوحة . فلنر ما الذي كان يجري في غرفة مسير مادلين .

### ٣

## عاصفة في دماغ

لا ريب في ان القاري قد حزر ان مسير مادلين لم يكن غير جان فالجان .

ولقد سبق لنا ان نظرنا الى اعماق ذلك الضمير . وها قد أوف  
الوقت لتعاود النظر اليها من جديد . ولسنا نفعل ذلك من غير انفعال ،  
ومن غير ارتجاف ، فليس ثمة ما هو ادعى الى الرعب من هذا الضرب  
من التأمل . فالعين العقلية لا تستطيع ان تجد في ايما مكان شيئاً اعظم  
إذهالاً وأحلك ظلاماً ، ما تجده في الانسان . إنها لا تستطيع ان تحدق  
الى شيء أرهب ، او أعقد ، او أدهش ، أو أكثر لانهائية . هناك  
مشهد واحد اعظم من البحر ؛ ذلك هو مشهد السماء . وهناك مشهد واحد  
اعظم من السماء ؛ ذلك هو باطن النفس البشرية .

إن نظم قصيدة الضمير الانساني ، ولو كان ضمير رجل فرد ، بل  
ولو كان ضمير اسفل الناس وأحطهم ، يقتضينا اذابة جميع الملاحم في  
ملحمة عليا ونهاية . الضمير هو هوى الاوهام ، والشهوات ،  
والاغراءات ؛ هو بوتقة الاحلام ؛ هو مغارة الافكار التي نستحي بها . إنه  
وكر المغالطات ، وساحة الحرب التي تصطرع فيها الاهواء . إخترق في  
بعض الساعات حجاب الوجه الازرق المسود الذي يحمله كائن بشري مستغرق  
في التفكير ، وانظر الى ما وراه . انظر الى تلك النفس . انظر الى تلك  
الظلمة . ان هناك ، تحت الصمت الخارجي ، صراعاً بين العماقة كالذي نجده  
عند هوميروس ، ومعارك بين التناين والهدريات \* وحشوداً من الاشباح  
كالتي تقع عليها عند ميلتون ، ومناهات مخيفة كالتي نلقاها عند دانتي .  
اي شيء مظلم هي تلك اللانهائية التي يحملها كل امرئ في ذات نفسه ،  
والتي يقيس بها في بأسر رغبات دماغه ، وافعال حياته !

لقد انتهى آليغيري \*\* ذات يوم الى باب مشؤوم وقف أمامه متردداً ،  
وها نحن اولاء امام باب آخر نقف على عتبة متردين . ومع ذلك  
فلندخل .

---

\* bydre وهي في البيولوجيا اضى ذات سبعة رؤوس .  
\*\* يقصد الشاعر دانتي آليغيري صاحب « الكوميديا الالهية » .

وليس عندنا غير القليل نضيفه الى ما سبق للقاري. ان عرفه عما وقع لجان فالجان منذ حادث جيفيه الصغير . كان منذ تلك اللحظة - كما رأينا - رجلاً آخر . وكان قد حقق ما أرادته الاسقف له . كان ذلك اكثر من تحول ؛ كان خلقاً جديداً .

لقد وُفق الى الغياب عن الميكان ، وباع آنية الاسقف الفضية ، محتفظاً بالشعدانين فقط للذكرى ، مناباً في هدوء من مدينة الى مدينة ، عبر فرنسة ؛ وافداً على مونتروي سور مير ، حيث التفت في ذهنه الفكرة التي وصفنا ، وحقق ما سبق ان رويناه ، وبلغ غاية من الرفعة جعلته أمنع ما يكون ، وأعز ما يكون ؛ ومن ذلك الحين استقر في مونتروي سور مير ، سعيداً بأن يحس بأن ضميره المحزون بماضيه ، وبالنصف الاول من حياته ، قد نعيم بالارتياح الى ما حقق في النصف الاخير . لقد عاش في أمن ، وطأينة ، وأمل ، وليس يشغل باله غير امرين اثنين : ان يخفي اسمه ، وأن يظهر حياته . أن يجتنب الناس ، وان يرجع الى الله .

وكانت هاتان الفكرتان تترجان في ذهنه امتزاجاً قوياً جعل منها كلاً واحداً . كانتا كلتاهما على مقدار واحد من القدرة على شغل البال ، وعلى فرض الارادة ، وكانتا تتحكمان بأضال اعماله واقلها بشأناً . وكانتا في الاحوال العادية متناهتين في تنسيق سلوكه في الحياة . لقد وجهناه نحو الجانب المظلم من الحياة . لقد جعلناه عطوفاً بسيط الفؤاد . لقد ارشدناه الى الاشياء نفسها . بيد ان تعارضاً كان ينشأ بينها في بعض الاحيان . وفي مثل هذه الأحوال ، كما نذكر ، كان الرجل الذي عرفته المنطقة كلها المحيطة بمونتروي سور مير باسم ميو مادلين لا يتردد عن التضحية بالاولى في سبيل الثانية ، عن تضحية سلامته من اجل فضيلته . وهكذا احتفظ ، برغم كل احتواس وتبصر ، بشعداني الاسقف ، ولبس ثوب الحداد عليه ، واستدعى جميع غلمان سافوا

الصغار ووجه اليهم الاسئلة ، وجمع المعلومات عن أسر فاغيرول ،  
وانقذ حياة فوشلوفان العجوز ، برغم ضروب التلصيح المقلق التي قدفه بها  
جافير . لقد بدا ، كما لاحظنا من قبل ، وكأنه كان يعتقد - أسرة -  
جميع اولئك الذين تحققوا بالحكمة ، والقداة ، والعدل - ان واجبه  
الاسمى لم يكن نحو نفسه هو .

ولكنّ اباً من هذه المناسبات - وهو أمرٌ ينبغي ان ننصّ عليه -  
لم تكن لتشبه هذه التي عرّضت الآن .

إن الفكرتين اللتين هيمتا على هذا الرجل البائس الذي نروي آلامه  
لم يُقدّر لها ان تخوضا مثل هذا الصراع الخطير من قبل . لقد ادرك  
ذلك على نحو غامض ، ولكنه صيق ، من أولى الكلمات التي نطق بها  
جافير عند دخوله مكتبه . فلم يكد ذلك الاسم الذي دفعه تحت تلك  
الظلمات كلها يُلفظ على ذلك النحو العجيب حتى استبدّ به الدهول ،  
وكأنما أسكرته غرابة قدره المشؤمة . ومن خلال ذلك الدهول  
استشر الرعدة التي تسبق الصدمات الكبرى . لقد انحنى مثل سندبانة  
عند اقتراب العاصفة ، مثل جندي عند اقتراب الغارة المعادية . لقد  
استشر ان ثمة سحائب مفعمة بالرعد والبرق تجتمع فوق رأسه . وحتى  
وهو يضفي الى جافير كان اول ما خطر له أن يمضي ، ان يركض ،  
ان يعلن عن هويته ، ان يسحب شأغانيو هذا من السجن ، أن يضع  
نفسه محله . كان ذلك أليماً ممضاً مثل طعنة في اللحم الحي ، ولكنه  
ما لبث ان تقطّى ، وعندئذ قال في ذات نفسه : « دعني ارى !  
دعني ارى ! » وكبت ذلك الحافز الاول الكريم ، وتراجع أمام مثل  
هذه البطولة .

ولا ريب في أنه كان يكون من الجميل - بعد كالمات الاسقف  
القدسية ، وبعد سنوات متعددة من التوبة وإنكار الذات ، وفي غمرة  
من ندامة استهلت استهلاً رائماً - ان لا يتمر هذا الرجل لحظة حتى

أمام حدرس فظيع الى هذا الحد ، وان يواصل سيره بخطى مطردة نحو تلك الهاوية الفاغرة فاعا ، والتي تقوم الجنة في قعرها . اجل ، كانت ذلك يكون جيلاً ، ولكن الامور لم تجر على هذا النسق . ويتعين علينا ان نتحدث في تفصيل عما اعتزل في تلك النفس ، وليس في استطاعتنا ان نقول غير ما كان هناك . لقد غلبت عليه اول الأمر غريزة حفظ الذات فسارع الى جمع شتات افكاره ، وكبت انفعالاته ، واخذ بعين الاعتبار وجود جافير ، ذلك الخطر الكبير ، وارجأ اتخاذ اي قرار بمثل رموخ الذعر ، ونفى من ذهنه كل تفكير بالسبيل التي يتبعين عليه سلوكها ، واستعاد هدوءه كما يستود المقاتل ترسه .

وسلخ بقية اليوم على هذه الحال : عاصفة في باطنه ، وهدوء كامل في ظاهره . إنه لم يتخذ غير ما يمكن أن يُدعى إجراءات احتياطية . كان كل شيء لا يزال مختلطاً متلطحاً في دماغه . وكان من الاضطراب بحيث تعذر عليه ان يتبين شكل أيما فكرة على نحو واضح ، وبحيث تعذر عليه ان يقول شيئاً عن نفسه ما خلا انه تلقى اللحظة ضرباً قوية . ومضى وفقاً لعادته الى سرير فانتين المرّضي ، وأطال زيارته هذه ، بفرزة الطيبة ، قائلاً لنفسه إن عليه ان يفعل ذلك ، وأن يوصي الراهبتين بضرورة العناية الفائقة بها ، في حال اضطرابه الى الغيبة . لقد أحسّ احساساً غامضاً بأنه قد يتعين عليه ان يذهب الى آراس . ومن غير ان يعقد النية بحال من الاحوال على القيام بهذه الرحلة قال لنفسه ان في استطاعته ، ما دام في نجوة كاملة من الارتباب ، ان يشهد ما سوف يحدث ، فمحجز عربة سكوفليز المكشوفة ، استعداداً لايما طاريء . بطراً .

وتناول طعام العشاء في شية حنة .

حتى اذا انقلب الى غرفته جمع شتات افكاره .

لقد درس الوضع فوجد أنه شيء لم يُسمع بمثله من قبل . كانت

شيئاً لم يُسمع بئله الى درجة دفعته - في غمرة هواجسه ، وبدافع غريب من قلق يكاد يمنع على التفسير - الى ان ينهض عن كرسيه ، ويفلق باب غرفته بالحديد . لقد خشي ان يدخل عليه شيء آخر . لقد تحصنت دون الاحتمالات جميعاً .

وبعد لحظة أطفأ ضوء مصباحه . كان ذلك الضوء يزعجه .

لقد بدا له ان في ميسور المرء ان يراه .

من ؟ المرء ؟

والأسفاه ! إن ما أراد أن يوصد الباب دونه قد دخل . إن ما

أراد ان يُعصيه كان ينظر اليه . ذلك هو ضميمه .

ضميره ، يعني الله .

ومع ذلك ، فقد خدع نفسه في اللحظة الاخيرة . لقد استشعر

الآمن والعزلة . واعتقد - إذ اوصد الباب بالحديد - أنه في حرز

حريز . وملك نفسه . لقد اسند مرفقيه الى الطاولة ، وأراح رأسه

على يده ، وانشأ يتأمل في الظلام :

- هـ أين أنا ؟ - أأنت في حلم ! - ما الذي سمعته ؟ أصبح

حقاً اني رأيت جافير هذا وانه تحدث إليّ هكذا ؟ - من يمكن ان

يكون شافيتور هذا ؟ - هو يشبهني اذن ؟ - هل هذا ممكن ؟ -

حين افكر اني كنت أمس على مثل ذلك الهدوء ، وكنت ابعد ما

اكون عن الارتياح بشيء ! - اي شيء كنت أعمله أمس في مثل

هذا الوقت ؟ - ما الذي تتطوي عليه هذه المسألة ؟ - إلام سوف

تؤدي ؟ - ما الذي يجب ان يُعمل ؟ ،

ذلك كان الاعصار الذي عصف به . كان عقله قد فقد القدرة على

أن يكبح جماح افكاره . كانت تندفع كالأمواج ، وكان يمسك رأسه

بيديه الاثنتين لكي يوقظها .

ومن هذه الجلبة التي اقلقت إرادته وعقله ، والتي حاول ان ينتزع

منها يقيناً وعزماً لم ينبعث شيء غير الألم النفسي المبرح .  
كان دماغه يغلي . لقد مضى الى النافذة ، ففتحها على مصراعها ، لم  
يكن ثمة نجم واحد في السماء . فرجع ، وجلس قريباً من الطاولة .  
وهكذا تقضت الساعة الاولى .

وشيثاً بعد شيء ، بدأت بعض الخطوط العامة تتشكل ، برغم ذلك ،  
وتركز نفسها في تأملاته . وامسى في ميسوره ان يلح ، بدقة الحقيقة ،  
لا الوضع كله ، ولكن بعض تفاصيله .

لقد شرخ يدرك أنه كان سيداً مطلقاً على ذلك الوضع ، مهما يكن  
حرجاً ، ومهما يكن فائقاً للعادة .  
ولم يزد دمهولاً إلا عمقاً .

فبصرف النظر عن الغاية الزهيدة والدينية التي استهدفتها اعماله لم يكن  
كل ما فعله حتى ذلك اليوم غير قبر كان يحفره ليدفن فيه اسمه . وكان  
أنخوف ما خافه دائماً ، كلما خلا الى نفسه ، في لياليه الأرقه ، هو أن  
يسمع احداً يتلفظ بذلك الاسم في يوم من الايام . لقد استشعر ان  
ذلك خليق بأن يكون ، بالنسبة اليه ، نهاية كل شيء ؛ وأن اليوم الذي  
يعود فيه ذلك الاسم الى الظهور سوف يشهد زوال حياته الجديدة من  
حوله . ومن يدري ، فلعله ان يشهد زوال روحه الجديدة من ذات  
نفسه . وارتعد الجرد التفكير بأن ذلك ممكن . ولو ان امرأاً قال له في  
مثل تلك اللحظات ان ساعة قد تأتي فتراجع ذلك الاسم في أذنه ؛ وأن  
هاتين الكلمتين البشتين ، جان فالجان ، سوف تثبتان فجأة من قلب  
الظلام وتقفان أمامه ؛ وان هذا الضياء الخفيف المقدّر له ان يبدد السر  
الذي أحاط به نفسه سوف يلتسع فجأة فوق رأسه ؛ وان هذا الاسم  
لن يتوعدده ؛ وأن هذا الضياء لن يزيد الظلام الذي يكتنفه الا حلكة ؛  
وأن تمزيق ذلك الحجاب سوف يزيد اللغز إلهاماً ؛ وأن هذا الزلزال  
سوف يثبت صرحه ؛ وأن هذه الحادثة العجيبة لن يكون من نتائجها ،

بالنسبة اليه ، وقد بدت له جيدة جداً ، غير جعل وجوده اكثر اشراقاً ، في الحال ، وأبعد مثلاً ؛ وأن المواطن الطيب الجليل ، مسيو مادلين ، سوف يخرج من لقائه مع شبح جان فالجان ، وهو ينعم بتشريف اكبر وأمن أوفر ، واحترام أعظم بما تمتع به في أي وقت مضى .. لو ان امرءاً قال له ذلك إذن لمزّ رأسه ، واعتبر هذه الكلمات هراء . حسناً ! لقد وقع ذلك على وجه الضبط . كان تجمع المستحيل هذا كله قد أمسى حقيقة ، الآن ، وكان الله قد اجاز لهذه الحفقات كلها ان تصبح أشياء واقعية .

وازداد تفكيره وضوحاً ، على نحو موصول . لقد صار أقدر على ان يلقي نظرة أرحب على وضعه .

لقد بدا له وكأنه استفاق اللحظة من سبات عجيب ، وأنه وجد نفسه ينزلق فوق منحدر ، في جوف الليل ، واقفاً ، مرتجفاً ، مرتدأً الى الوراء على غير طائل ، وعلى قيد شعرة من هابوة . ولمح على نحو واضح ، في غمرة الظلام ، رجلاً مجهولاً ، رجلاً غريباً ، ظنه القدر إياه ، فهو يدفعه الى الهوة بدلاً منه . كان ضرورياً ، لكي تنطلق تلك الهوة ، ان يقع فيها شخص ما ، هو او الرجل الغريب . ولم يكن عليه الا ان يتوك المسألة وشأنها .

وغدا الضياء كاملاً . وادرك هذا : - أن مكانه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة كان شاغراً ، وانه مهما يفعل فإن مكانه ذلك ينتظره دائماً ، وان مرقته مال جرفيه الصغير قد أعادته الى هناك ، وان هذا المكان الشاغر سيظل ينتظره ويجذبه حتى يزوب اليه ، وان هذا امر محتوم لا مفر منه . ثم قال لنفسه : إن له في هذه اللحظة بالذات بديلاً ، وان رجلاً يدعى شانتيو 'قدّر عليه ان يتحمل هذا الطالع السيء ، أما هو - هو الذي سيدخل سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في شخص شانتيو هذا ، والذي يحيا في المجتمع تحت



امم مسير مادلين - فليس له ما يحشاه بعد ، شرط ان لا يحول بين الناس وبين ان يُثقلوا رأس شأغاتيرو هذا بجهر العار الذي يوضع مرة ، مثل حجر القبر ، ثم لا يُرفع ابداً .

وكان ذلك كله من العنف والفرابة بحيث استشعر فجأة ذلك الضرب من الحركة التي لا سبيل الى وصفها والتي لا يعرفها المرء اكثر من مرتين او ثلاث مرات طوال حياته - استشعر ضرباً من اختلاج الضمير الذي يثير كل ما يرتاب فيه القلب ، وهو يتألف من التهكم والبهجة واليأس ، والذي نستطيع ان ندعوه انفجار الضحك الباطني .

وسارع الى إثارة شمعة من جديد .

وقال :

- و حسناً ، ماذا ! ممّ أنا خائف ؟ لماذا افكر في هذه الاشياء ؟  
ها أنا ذا قد سلمت . لقد انتهى كل شيء . لم يكن ثمة غير باب مفرد نصف مفتوح يمكن للاضي ان يعترض من خلاله سبيل حياتي ، وها قد أوصد ذلك الباب الآن ! أوصد الى الأبد ! ان جافير هذا الذي ازعجني منذ عهد بعيد - تلك الغريزة الخفية التي يبدو وكأنها اكتشفت الحقيقة ، بل التي اكتشفت الحقيقة فعلاً - جافير الذي تعقّبني في كل مكان ، وطاردني مثل كلب من كلاب القنص ، جافير هذا قد ضلّ ، وسُفل في مكان آخر ، وُخنل خنلاً كاملاً . لقد داخله الرضا منذ اليوم ؛ انه سوف يتركني وشأني ؛ لقد ألقى القبض على جان فالجانة ! ومن يدري ؟ بل ان من المحتمل ان يرغب ، في غدٍ ، في مغادرة المدينة ! وكل ذلك إنما يتم من غير مساعدتي ! وليس لي به ايما علاقة ! آه ، نعم ، ولكن ابن العنصر المحزن في هذا كله ؟ ان من يراني ليحسب - وأقسم بشرفي - أن كارثة قد حلت بي ! وعلى اية حال فاذا كان احد قد أصيب بأذى ما فليست تلك غلطتي . إن العناية الالهية هي التي فعلت ذلك كله . تلك هي رغبتها في ما يبدو . وهل أملك انا الحق في نقض ما تدبره ؟

ما الذي اطلبه الآن ؟ لماذا احاول ان اندخل ؟ ذلك شيء لا علاقة لي به . كيف ! انا لست قانعاً ! ولكن ما الذي يعوزني اذن ؟ لقد فزت' بالغاية التي طمعت اليها منذ سنوات عديدة ، فزت' بحلم ليالي' ، بهدف صلواتي الى السماء ، بالامن والسلامة . إنها مشيئة الله . وبتعبتي علي' ان لا اعمل شيئاً يتعارض ومشية الله . ولماذا شاء الله ذلك ؟ لكي أستطيع ان اتابع ما بدأت به ؛ لكي افكّن من ان اعمل صالحاً ؛ لكي اكون ذات يوم مثلاً عظيماً ومشجعاً ؛ لكي يسي في الامكان ان يقال إنه نشأ آخر الامر بعض' السعادة عن هذا العذاب الذي احتملته وهذه الفضيلة التي عدت' الى حظيرتها ! والواقع اني لا افهم لماذا خفت ذلك الخوف كله من ان اقصد الى هذا الكاهن الصالح وأعتوف له بالقصة كلها ، وأسأله نصيحته ؛ ذلك من غير ريب ما كان يجدر به ان يقوله لي . لقد قضى الامر ؛ دع المسألة وشأنها ! حذار ان تتدخل في شأن من شؤون الله !

هكذا تحدثت في أعماق ضميره ، وهو متدلّ فوق ما يمكن ان ندعوه هاويته الخاصة . ونهض عن كرسيه ، وشرع بذرع الفرقة وقال : « هيا ، فلأطلع عن التفكير في ذلك بعد الآن . لقد تمّ اتخاذ القرار . » ولكنه لم يستشعر بهجةً ما .  
على العكس غامماً .

إن المرء لا يستطيع بعد' ان يمنع العقل من العودة الى فكرة ما إلا بقدر ما يستطيع منع البحر من العودة الى شاطئه ما . إن ذلك يدعى في مثل الملاحة مدّاً ؛ وإن ذلك يدعى في مثل المذنب تبكيت الضمير . إن الله ليثير' النفس كما يثير الاوقيانوس ، سواء بسواء .

وبعد بضع لحظات - ولم يكن في ميسوره ان يفعل شيئاً غير ذلك - استأنف هذا الحوار الكالحي ، الذي كانت نفسه هي التي تحدث

فيه ، وهي التي تصفي ، فائلاً ما كان يريد أن 'يخرسه' ، مصغياً لما كان غير راغب في سماعه ، مستنداً الى تلك القوة الخفية التي قالت له : « فكَرْ ! » ، كما قالت لرجل آخر لفظ القضاء حكمه فيه ، منذ الفتي عام : « سِرْ ! »

وقبل ان نذهب الى أبعد ، ولكي يفهمنا القاري فهماً وافياً ، يتعين علينا أن نبدي ، مع شيء من التوكيد ، ملاحظة واحدة .

من الثابت اننا نتحدث الى أنفسنا ؛ وليس ثمة كائن مفكر لم يمارس ذلك . بل ان في ميسورنا أن نقول إن الكلمة لا تكون ذلك اللفظ الرائع إلا حين تمضي ، في باطن الانسان ، من فكره الى ضميره ، وتعود بعد من ضميره الى فكره . وهذا المعنى وحده ينبغي ان تفهم هذه الكلمات التي نكثر اصطناعها في هذا الفصل : قال ؛ صاح . نحن نقول لانفسنا ؛ نحن نخطب انفسنا ؛ نحن نصيح في داخل انفسنا ، من غير ان يُقطع السكوت الخارجي . إن ثمة جلبة قوية في داخلنا . كل شيء في باطننا يتكلم ، ما عدا اللسان . واذا كانت حقائق النفس غير منظورة وغير ملموسة فليس ينقص ذلك من قيمتها كحقائق . لقد سأل نفسه اذن ابن هو . واستجوب نفسه حول هذا « القرار الذي اتخذ » . ولقد اعترف لنفسه بأن كل ما كان يعيشه في ذهنه بغيض شنيع ؛ وان « ترك المسألة وشأنها » وعدم التدخل في شؤون الله ، شيء فطبيع حقاً ؛ وان السماح لقلطة القدر هذه وغلطة الناس بأن تتم ، وعدم الحؤول دون ذلك ، ومساعدته على اتمامها بالاعتصام بالصمت ، والاحجام عن القيام بعمل ما آخر الامر لا تعدو ان تكون في الواقع إقداماً على عمل كل شيء . كانت ذلك هو غاية الغايات في الحسة المراتية ! كان جريمة بشعة ، ذنبة ، 'مداجية' ، جبانة ، وضيمة . ولأول مرة ، طوال ثمانين سنوات ، ذاق الرجل النفس ذلك الطعم المرير الذي يكون لفكرة شريرة ، وعمل شرير .

ولفظ ما ذاق في الشتمزاز .

وواصل استنطاقه الذاتي . لقد سأل نفسه ، في صرامة ، ما الذي فيه من هذا الكلام : « لقد حققتُ هدي . » ؟ فأعلن انه كانت حياته ، في الواقع ، غاية . ولكنْ ما تلك الغاية ؟ ان يجني اسمه ؟ ان يخدع الشرطة ؟ أمن أجل شيء ضئيل كهذا فعل كل ما فعله ؟ ألم تكن له غاية أخرى ، كانت هي الغاية العظمى ، وكانت هي الغاية الحقيقية ؟ أن ينقذ ، لا جده ، ولكنْ نفسه . أن يصبح حالاً وخيراً ككرة ثانية . ان يكون رجلاً متقبلاً ! ألم يكن ذلك ، فوق كل شيء ، ذلك وحده ، هو الذي رغب فيه دائماً ، والذي أمره الأسقف به ؟ - ان يفتح الباب على ماضيه ؟ ولكنه لم يكن ليفلحه بحال من الاحوال . كان يعاود فتحه بارتكابه عملاً سائئاً ! ذلك بأنه عاد لصاً من جديد ، بل لقد أمسى أشنع اللصوص وادعاهم الى الشتمزاز . لقد سرقَ من رجل آخر وجوده ، وحياته ، وأمنه ، ومكانه تحت الشمس ! لقد أمسى سفاكاً ! لقد قَتَلَ ، لقد قتل معنوباً رجلاً بائساً ! لقد انزل به ذلك الموتَ الحيّ المروع ، ذلك الدفن في الحياة ، الذي يدعى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ! على العكس ، فلأن ينقذ نفسه ، ولأن ينقذ هذا الرجل المبتلى بمثل هذه الغلظة الرابعة ، ولأن يحمل اسمه من جديد ، ولأن يصبح ككرةٍ أخرى بدافع من الواجب جان فاجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة فذلك في الواقع هو أنبعائه الحق ، وهو الاغلاق الابدي لباب الجحيم الذي خرج منه ! إن العودة اليه ، في الظاهر ، هي النجاة منه ، في الحقيقة ! يجب ان يفعل ذلك ! إن كل ما عمله حتى الآن ليس شيئاً اذا لم يفعل ذلك ! إن حياته كلها كانت غير ذات غناء ، وان آلامه كلها ذهبت ادراج الرياح ، ولم يكن عليه غير ان يسأل هذا السؤال : « ما الفائدة ؟ » واستشعر أن الاسقف كان هناك ، ان الاسقف كان حاضراً اكثر مما كان ميباً ،

ان الاسقف كان يمدق اليه تحديقاً موصولاً ، وان مادلين العبد ،  
بفضائله جميعاً ، سوف يكون منذ اليوم بغيضاً اليه ، وان جان فالجان  
العبد الرقيق المحكوم عليه بالاستغلال الشاقة سوف يكون باهراً وطاهراً  
في عينيه . واستشعر أن الناس كانوا يرون قناعه ، اما الاسقف فكان يرى  
وجهه ؛ ان الناس كانوا يرون حياته ، اما الاسقف فكان يرى ضميره .  
واذن فيجب ان يذهب الى آراس ، وان ينقذ جان فالجان الزائف ،  
ويتمهم جان فالجان الحقيقي . وأسفاه ! تلك كانت اعظم التضحيات  
شأناً ، وأشد الانتصارات إبلاماً ، والخطوة النهائية التي ينبغي ان  
تخطى ؛ ولكن عليه ان يفعل ذلك . يا له من قدر فاجع ! إنه لا  
يستطيع ان يبلج باب القداسة في عيني الله ، إلا بالعودة الى العار في  
أعين الناس !

وقال :

— « حسن . فلنسلك هذه السبيل ! فلنقم بواجبنا ! فلننقذ هذا الرجل ! »  
ونطق بهذه الكلمات في صوت عال ، من غير ان يلحظ أنه كان  
يتكلم جهاراً .

وتناول كتبه ، وتحقق منها ، ونظمها . ثم القى في النار رزمة  
من السندات المالية كانت له على بعض المعوزين من صفار التجار . وكتب  
رسالة ، وختمها ؛ وكان في ميسور المرء ان يقرأ على ظاهر ظرفها —  
لو كان في الفرقة أحد آنذاك : الى ميسو لافيت ، مصري ، شارع  
أوتوا ، باريس .

وسحب من احد المكاتب محفظة تحتوي على بعض الاوراق المالية  
وعلى الجواز الذي استعمله في ذلك العام نفسه للاشتراك في الانتخابات .  
ولو ان امرأاً رآه فيما كان يقوم بهذه الاعمال المختلفة بمثل ذلك التأمل  
الوفور اذن لما ارتاب في ما كان يعتل في ذات نفسه . ومع ذلك فقد  
كانت شفتاه ترتعشان بين الفينة والفينة . وكانت يرفع رأسه في بعض

الاحيان وبسّر نظره على نقطة ما من الجدار ، وكأنا وجد هناك بالضبط شيئاً يريد ان يجلوه او ان يستنطقه .

واتمّ الرسالة الى مسيو لافيت ، فوضعها هي والمحافظة في جيبه ، وشرع يذرع الغرفة من جديد .

ولم يكن مجرى تفكيره قد تغير . كان لا يزال يرى واجبه مكتوباً على نحو واضح باحرف ساطعة كانت توهج امام عينيه ، وتحرك مع نظره : « اذهب ! اعترف باصمك ! إتهم نفسك ! »

ورأى كذلك ، وكأنا انتصبنا أمامه عاريتين وفي شكلين محوسين ، الفكرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين دستور حياته المزدوج : ان يخفي اسمه ، وان يطهر نفسه . ولأول مرة بدا له مستقلتين ، إحداهما عن الاخرى ، تمام الاستقلال ، ورأى الفرق الذي يفصل ما بينهما . لقد ادرك ان احدى هاتين الفكرتين خيرة بالضرورة ، على حين ان الاخرى قد تصبح شريرة ؛ أن الاولى عبادة والاخرى اناية ؛ أن إحداهما تقول : « الجار » وثانيتهما تقول « انا » ؛ ان واحدة تنبثق من النور وواحدة تنبعث من الظلام .

كانتا تتقاتلان . لقد رأهما تتقاتلان . وفيما هو ينظر ، تضخمتا امام عينه العقلية . لقد اصبحنا الآن هائلتين جداً . ولقد بدا انه رأى الى إلهة وماردة تصطرعان في ذات نفسه ، في تلك اللانهاية التي تحدثنا الآن عنها ، وسط الظلمات والبوارق .

كان مفعماً بالذعر ، ولكن بدا له ان التفكير الحثيث في سبيله الى الانتصار .

لقد استشر انه بلغ حركة ضميره وقدره الثانية الحاسمة . واث الاسقف كان قد طبع الوجه الاول من حياته الجديدة ، وان شائغنايو هذا طبع الوجه الثاني . وبعد الازمة الكبرى ، تأتي الحقنة الكبرى . وفي غصون ذلك عاودته الحمى ، شيئاً بعد شيء ، وكانت قد خمدت

لحظة . والتمتع في ذهنه ألف خاطر ، ولكنها لم ترد عزمه الا رسوخاً .  
وكان قد قال لحظة : لعلني انظر الى القضية ، باكثر مما تستحق من  
الحماة . وان شأغاتي لم يكن على اية حال جديراً بالاهتمام ، وانه قد  
سرق ، فعلاً .

واجاب نفسه بقوله : « اذا كان هذا الرجل قد سرق ، فعلاً ، يضع  
تفاحات فمعنى ذلك انه سوف 'يسجن' شهراً . وثمة شقة واسعة بين هذا وبين  
سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ولكن من يدري ؟ هل سرق ؟  
هل قام الدليل على ذلك ؟ ان اسم جان فالجان 'يُثقل' كاهله . ويبدو  
وكأنه في غير حاجة الى الدلائل والبيّنات . اليس من عادة النواب  
العامة ان يتصرفوا على هذا النحو ؟ انهم يحسبون لئلا ، لانهم يعرفون  
انه كان ذات يوم في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وفي لحظة اخرى خطر له انه اذا ما اتهم نفسه فمن الجائز أن تشفع  
به بطولة موقفه هذا ، والحياة الصالحة التي عاشها منذ سبع سنوات ،  
والخدمات التي اداها الى المنطقة ، فيُغْفى عنه .

ولكن هذا الفرض ما لبث ان تلاشى . وابتسم في مرارة حين  
فكر ان ورقة الاربعين « سو » من جيوفيه الصغير قد جعلته ذا  
سابقة ، وان هذه المسألة سوف تظهر ثانية ، من غير شك ، وانه  
سوف يُحكّم عليه ، وفقاً لنصوص القانون الحرفية ، بالاشغال الشاقة  
مدى الحياة .

واساح بوجهه عن الاوهام كلها ، فاصلاً نفسه اكثر فاكثر عن هذه  
الارض ، ملتصقاً العزاء والقوة في مكان آخر . لقد قال لنفسه إن عليه  
ان يقوم بواجبه ، بل انه من الجائز ان لا يكون اكثر تعاسة بعد  
قيامه بواجبه منه بعد التهرب من القيام بهذا الواجب ؛ وانه اذا ترك  
المسألة وشأنها ، اذا ظلّ في مونتروي سور مير ، فان وجاهته ،  
وشهرته الحميدة ، وأعماله الحيرة ، والاحترام والاجلال اللذين يتمتع بهما ،

وإحسانه الى الفقراء ، وثروته ، وشعبيته ، وفضيلته - كل هذه سوف  
تُلوّن بجميعة . وايّ متعة سوف تكون في جميع هذه الاشياء المقدسة  
حين 'توثق' بذلك الشيء البشع ! على حين انه اذا اقدم على التضحية  
المطلوبة منه فعندئذ تمازجه فكرة سماوية برغم وجوده في سجن المحكوم  
عليهم بالاشغال الشاقة ، وبرغم قيده ، و'غلة' ، وقلنسوته الخضراء ، وعمله  
الذي لا يعرف الانقطاع ، وعاره الذي لا يعرف الرحمة !

واخيراً قال لنفسه إن تلك ضرورة ، وان قدّره قد صيغ على هذا  
الشكل ، وانه لا يستطيع أن ينقض تدير الله ، وان عليه ان يختار ،  
مهما تكن الاحوال ، احدى خطتين : إما الفضيلة الظاهرية والحجّانة  
الباطنية ، وإما الطهارة الباطنية والعار الخارجي .

ولم تضعف شجاعته فيما هو يُدير في ذهنه هذه الأفكار القائمة كلها ،  
ولكن دماغه تعب . وعلى الرغم منه شرع يفكر في اشياء اخرى ، في  
اشياء قليلة الفناء .

واندفع الدم عنيفاً الى صدغيه . وذرع الغرفة جيئة وذهوباً على  
نحو موصول . واعلنت ساعة كنيسة الرعية انتصاف الليل ، اولاً ، ثم  
اعلنته بعدها ساعة دار البلدية . وعدّ الضربات الاثنتي عشرة التي أطلقتها  
كل من الساعتين ، وقارن ما بين صوت الجرسين . ولقد ذكره ذلك  
بأنه كان قد رأى ، قبل بضعة ايام ، عند احد تجار الحداث العتيقة ،  
جرساً قديماً معروضاً للبيع ، وقد كتب عليه هذا الاسم : انطوان  
آلبين دو رومينفيل .

وسرى البرد في اوصاله . وأوقد ناراً . ولم يخطر بباله ان يوصد  
النافذة .

وفي غضون ذلك استغرق في ذهوله ، كرةً اخرى . ولم يكن  
الجد الذي احتاج اليه لكي يذكر ايّ شيء كان يفكر فيه قبل ان  
تدقّ الساعتان ، جهداً يسيراً . ووفق الى ذلك ، آخر الامر .



وقال :

- و آه ! اجل . لقد اتخذت قراراً يقضي بأن أنهم نفسي .  
ثم إنه فكر ، فجأة ، بفائتين .

وقال :

- و قف ! وهذه المرأة المسكينة !  
ونشأت هنا ازمة جديدة .

كانت فائتين ، وقد برزت فجأة في هواجسه ، شبه شيء بشعاع من  
ضياء مجهول . لقد بدا له وكأن كل شيء من حوله قد تغير مظهره .  
وصاح :

- و آه ! نعم ، حقاً ! أنا لم أفكر حتى الآن إلا بنفسي ! أنا لم  
أنظر إلا الى ما يوافقني ! لقد درست ما اذا كان ينبغي عليّ ان أعتمد  
بالصمت أم اشكو نفسي الى السلطة ، أن أوارى جسدي أم أنقذ  
روحي ، أن اكون حاكماً حقيراً ومحترماً أم ان اكون سجيناً مرفوئلاً  
وموقراً . وكلها اسئلة تدور حول نفسي . نفسي دائماً . ونفسي ليس  
غير . ولكن ، يا الهي ، هذا كله اثنائية ! اشكال مختلفة من الاثنائية ،  
ولكنها اثنائية على كل حال ! هلا فكرت قليلاً في غيري ؟ فلننظر ،  
فلندرس ! لنفرض اني وُلِيتُ ، أني مُحييتُ ، أني تُسَميتُ ، فما الذي  
ينشأ عن ذلك كله ؟ - اذا انتهت نفسي واستسلمت للقضاء ؟ إنهم سوف  
يعتقلوني ؟ إنهم سوف يطلقون مراح سائقيهم هذا ؟ إنهم سوف يعيدوني  
الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . حسن جداً . ثم ماذا ؟ ما  
الذي سوف يحصل هنا ؟ آه ، هنا ، حيث توجد منطقة ، ومدينة ،  
وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء ، وأجساد عجايز ، واطفال ،  
وأناس مساكين ! لقد خلقت هذا كله ؛ لقد أعلت هذا كله . فحينئذ  
ينطلق الدخان من مدخنة كنتُ انا الذي وضع الحطب في النار ،  
واللحم في القِدْر . لقد أحدثتُ الرخاء ، والنشاط ، والثقة . قبلي لم

يكن شيء . لقد رفعت ، وأمرت ، وأنعت ، وأخصبت ، وأنهت ،  
وأغنت البلاد كلها . اذا ذهبت انا فقدت روح البلاد . واذا زلت  
انا مات كل شيء . وهذه المرأة التي قاست كثيراً ، الفاضلة في سقوطها ،  
والتي سببت على غير وعي مسني بلاءها كله ! وتلك الطفلة التي كنت  
ذاهباً اليها ، والتي وعدت الأم بأعادتها اليها ! ألسنتي مديناً ايضاً لهذه  
المرأة بشيء ، تعويضاً عن الاذى الذي أنزلته بها ؟ فاذا تواريت عن  
مسرحة الاحداث ، فما الذي يحدث ؟ ان الأم سوف تموت . وإن  
الطفلة سوف تصبح ما تستطيع ان تصبحه . ذلك ما سوف يجري اذا  
ما شكوت نفسي الى القضاء . واذا لم أشك نفسي ؟ فلأدرس هذا الوضع -  
اذا لم أشك نفسي ؟

ونعم بعد ان طرح هذا السؤال . لقد تردّد لحظةً وارتجف .  
ولكن تلك اللحظة كانت وجيزة ، ولقد أجاب في هدوء :

- « حسن ، إن هذا الرجل سوف يُساق الى سجن المحكوم عليهم  
بالاشغال الشاقة . هذا صحيح . ولكن ايتي بأش في ذلك ؟ لقد سرق !  
ومن العبث الذي لا طائل تحته ان ازعّم انه لم يسرق ؛ لقد سرق !  
اما أنا فأبقى هنا ؛ سوف أتابع سبيلي . وما هي الا عشر سنوات حتى  
أوفق الى ان اكسب عشرة ملايين . ولسوف انثر هذه الملايين في  
البلاد . انا لن أبقى شيئاً لنفسي . وماذا يضيرني ذلك ؟ إن ما أعمله  
ليس لنفسي ! إن رفاهية الجميع سوف تزداد تعاضداً ؛ وإن الصناعات  
سوف تنهض وتتسابق ؛ وإن المصانع والمعامل سوف تتضاعف ؛ وإن  
الأسر ، مئات الأسر ، آلاف الأسر ، سوف تستمد . إن المنطقة  
ستصبح آهلة بالسكان ؛ وإن القرى ستنبثق حيث لم يكن يوجد غير  
المزارع ؛ وإن المزارع سوف تنبت حيث لم يكن يوجد شيء . ان  
الفقر سيزول ؛ وبزوال الفقر ستزول الدعارة ، والبغاء ، والسرقة ،  
والقتل ؛ ستزول جميع الرذائل ، وجميع الجرائم ! ولسوف يكون في

ميسور هذه المرأة المسكينة ان تربي طفلتها ! وتصبح المنطقة كلها غنية  
وفاضلة ! آه ، اجل ! ما كان اشد بلاهتي ، وما كان اعظم حماقتي !  
ما هذا الكلام الذي كنت اقله حول اتهام نفسي ؟ يجب ان اصطنع  
الروية ، وأن لا أنهور . ماذا ؟ أقدم على هذا لأن ، ما يوقع الرضا  
في نفسي أن اعمل العمل العظيم السخي ! - إن ذلك شيء مثير على اية  
حال ! - لأنني لم أفكر إلا في ذاتي ، في ذاتي وحدها ! ماذا ؟  
ألبي أنفذ من عقوبة قد تكون مغالى فيها بعض الشيء ، ولكنها في  
الاساس عادلة - ألبي أنفذ من هذه العقوبة رجلاً لا يعرفه احد ، لصاً  
من اللصوص ، وغداً من الاوغاد ، على كل حال ، أدفع ببلاد بكاملها  
الى الحراب ! ويتعين على امرأة مسكينة أن تموت في المستشفى !  
ويُفرض على بُنيّة بائسة ان تلاقى حتفها في الشارع ! مثل الكلاب ! آه ،  
ذلك خليق بأن يكون مقيتاً ! بل ومن غير ان يكون في ميسور  
الأم ان ترى ابنتها من جديد ؟ ومن غير ان تعرف الطفلة أمها او  
نكاد ! وكل ذلك من اجل سارق التفاح الجرو المعوز هذا ، الذي  
يستحق من غير ريب ان يساق الى سجن الاشغال الشاقة لجرية اخرى ،  
إن لم يستحق ذلك من اجل هذه الجريمة ! إنها لوساوس جميلة هذه التي  
تفند مجرمات وتضحي بأبرياء ، والتي تنفذ متشرداً عجوزاً لم يبق له على  
كل حال غير بضع سنوات يعيشها ولن يكون أتمس حالاً في سجن  
الاشغال الشاقة منه في مسكنه الفقير ، والتي تضحي بأهل منطقة  
بكاملها ، وبالامهات ، والزوجات ، والاطفال ! وكوزيت الصغيرة  
المسكينة التي ليس لها في هذا العالم احد غيري ، والتي يزرقت وجهها في  
هذه اللحظة ، من غير شك ، بسبب ما تقاسيه من البرد في كوخ  
تبناردييه وزوجته ! وهذان وغدان بائسان أيضاً ! ومع ذلك اقتصر في  
القيام بواجباتي تجاه هذه الكائنات البائسة كلها ! ومع ذلك يتعين عليّ  
ان اذهب واشكو نفسي الى القضاء ! ومع ذلك يجب ان ارتكب هذه

الحاققة البلاء ! ولنفرض اسوأ الاحتمالات . لنفرض اني اقترفت ، من طريق الصمت ، سيئة ما وان ضميري سوف يجزني في يوم من الايام . فأن قبولي - لمصلحة الآخرين - بهذا الوخر الذي لا يُنفل كاهل احد غيري ، وبهذه السيئة التي لا تصدع غير روحي ، هو التفاني عنه ، وهو الفضيلة عينها .

ونفض واستأنف سيره . وهذه المرة ، بدا له انه اقتنع .  
إن الماس لا يكون إلا في المواطن المظلمة من الارض ؛ وكذلك الحقائق لا تكون إلا في أعماق الفكر . لقد بدا له أنه بعد أن غاص الى تلك الاعماق ، وبعد ان بحث طويلاً في اشدة هذه الظلمات حلكت ، غر آخر الأمر على قطعة من ذلك الماس ، على واحدة من تلك الحقائق ، وأنه يمسك بها بيده . ولقد أعشاه النظر اليها .

وفكّر : « أجل ، تلك هي ! إني اسلك الطريق الصحيحة . لقد وجدت الحل . يجب ان انهي بالتشبت بشيء . لقد اخترت سبيلي . دع المسألة وشأنها ! كفى ترددآ . كفى تراجعاً ! هذا في مصلحة الجميع ، لا في مصلحتي الشخصية . أنا مادلين ؛ ولوف ابقى مادلين . والويل لمن هو جان فالجان ! انا وهو لم نعد شيئاً واحداً . انا لا اعرف هذا الرجل ؛ انا لم أعد اعرف ما هو . واذا وجدت السلطة ان شخصاً ما هو جان فالجان في هذه الساعة فليدير أمره بنفسه . هذا شيء لا علاقة لي به . إنه امم مشؤوم يطفو في الظلام ، فاذا ما وقف واستقر على رأس رجل ما فلأمّ ذلك الرجل المبّل ! »

ونظر الى نفسه في المرآة المعلقة فوق موقده وقال :  
- « اجل ! إن الوصول الى قرار قد ازال عني الغم . أنا الآن شخص آخر بالكلية ! »

وخطا بضع خطوات اخرى ، ثم وقف فجأة .  
وقال :

- د هيا ! يجب ان لا أتردد امام ايّ من نتائج القرار الذي اتخذته . إنه لا تزال ثمة بعض الحيلوط التي تشدني الى جان فالجان هذا . هذه الحيلوط يجب ان 'تقطع' . إن ثمة ، في هذه الغرفة بالذات ، اشياء يمكن ان تهمني ، اشياء خرساء يمكن ان تشهد عليّ . لقد 'سوّيت' هذه المسألة ، وينبغي ان تختفي تلك الاشياء كلها . ،  
وبحث في جيبه ، وسحب كيس نقوده ، ففتحه ، واخرج منه مفتاحاً صغيراً .

وادخل هذا المفتاح في قفل كاد ثقبه ان يكون غير منظور ، بعد ان غاب في الظلال القاتمة الى حدّ بعيد والتي ألقتها التصاویر المرسومة على الورق الذي يغطي الجدار . وفتح باب سرّي ، فاذا خلفه ضرب من الحزانة الزائفة المقامة بين زاوية الجدار ويوقع المدخنة . ولم يكن في ذلك التحبّأ غير بعض الحرق البالية : قميص من نسيج أزرق خشن ، وينطلون عتيق ، وجراب قديم ، وعصاً زعرورية ضخمة طوق طرفاها بالحديد . إن اولئك الذين شهدوا جان فالجان يوم اجتاز بمدينة د .... في تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، كان خليقاً بهم أن يتبينوا ، في سر ، بقايا هذا الزي البائس المضحك .

كان قد احتفظ بها ، كما احتفظ بالشعدانين الفضيّن ، لتذكره دائماً بنقطة انطلاقه . ولكنه أخفى ما حمله من سجن الاشغال الشاقة ، وأظهر الشعدانين اللذين حملها من لدن الاسقف .

وألقى نظرة خفية على الباب ، وكأنما كان يخشى ان يفتح بوعم الحديد الذي بوصده . وبجركة نشيطة مفاجئة طوق هذه البقايا كلها بذراعيه ، دفعة واحدة ، من غير ان يلقي ولو نظرة عليها - وهو الذي احتفظ بها بكثير من التقديس معرّضاً نفسه للمخاطر طوال عدة سنوات - وقذف بها جميعاً ، الأسمال والعصا ، والجراب ، الى النار .

وأغلق الحزانة الزائفة ، وضاعف احتياطاته ، التي أمست منذ ذلك

الحين غير ذات غناء بعد أن أفرغها من محتوياتها ، وخبأ الباب خلف قطعة ضخمة من الاثاث دفعها نحوه .

وفي ثوان قليلة ، أضيئت الغرفة والجدار المقابل بانعكاس نور قوي أحمر مرتعش . كان كل شيء يشتعل . وفرقت العصا الزعرورية ، وقذفت بالشرر حتى وسط الغرفة .

واذ احترق الجراب بما انطوى عليه من الحرق الراجعة فقد خلف شيئاً غريباً التمع في الرماد . ولو قد انحنى أحدٌ فوق ذلك الشيء إذت لتبتن ، في يسر ، قطعة فضية . كانت هي من غير شك قطعة الاربعين « سو » التي سلبت من الغلام السافواني الصغير .

ولكنه لم ينظر الى النار . لقد واصل ذرُوع الغرفة جيئة وذهاباً ، محافظاً دائماً على السرعة نفسها .

وفجأة وقفت عيناه على الشمعدانين الفضيّين اللذين التمعا ، على نحو باهت ، فوق الموقد ، بسبب من انعكاس الوهج عليها .  
وفكر :

— « قف ! إن جان فالجان لا يزال ضمن هذين أيضاً . ينبغي ان يتلفا مثل غيرهما . »  
وتناول الشمعدانين .

كان قمة نار كافية لاذابتها الى ضرب من السيكة لا تُعرَف إلا بشقّ النفس .  
وانحنى فوق النار ، وتدفأ لحظة . واستشمر الهنااة حقاً .  
وقال :

— « يا للدفء العذب ! »

وأثار الجمرات بأحد الشمعدانين .

وما هي إلا دقيقة حتى يكرّنا في اللهب .

وفي تلك اللحظة ، بدا له أنه سمع صوتاً يصيح في داخله :

- « جان فالجان ! جان فالجان ! »  
وقف شعر رأسه . كان أشبه برجل يسمع شيئاً فظيماً .  
وقال الصوت :

- « أجل . هكذا . أتمّ ، أكمل » ما أنت فاعله ! أتلّف هذين الشعدانين !  
أمعّ هذا التذكار ! إنس الأسقف ! إنس كل شيء ! إفضِ على سافانوي  
هذا ! حسن جداً . صفتق لنفسك ! وهكذا 'سوي الأمر ، وانخذ  
فيه قرار ، وانتهى كل شيء . هوذا رجل ، هوذا رجل عجوز لا يدرى  
ما الذي يهتمونه به ، ولعله ان لا يكون قد فعل شيئاً ؛ هوذا يرى  
انزل اسمك به ذلك الشقاء كله ، وأنقض اسمك ظهره مثل جربة من  
الجرائم ؛ هوذا يرى . سوف يؤخذ بدلاً منك ، سوف يُدان ، سوف  
يقضي أيامه في الذلّ والذعر ! حسن جداً . كن أنت رجلاً مبعلاً .  
إبقَ السيد العمدة ؛ إبقَ شريفاً ومُشرقاً ؛ أغنِ المدينة ؛ أطعم الفقراء ؛  
نشِ . الإيتام ؛ عِشْ - سعيداً ، فاضلاً ، محوطةً بآيات الإعجاب . وطوال  
هذه الفترة التي ستتعلم فيها هنا بالبهجة والنور سوف يكون هناك رجل  
يرتدي قميص الأحمر ، ويحمل اسمك في الحزى والعار ، ويجوّ أغلاك  
في سجن المحكوم عليهم بالاستغلال الشاقة ! أجل ! لقد سويت المسألة  
نسوية حسنة ! آه ! مسكين ! »

وتحدّر العرق من جبينه . ونظر الى الشعدانين بعين شاردة . ولم  
يكن الصوت الذي تكلم في باطنه قد انتهى ، فهو يتابع حديثه :  
- « جان فالجان ! سوف تحيط بك اصوات كثيرة 'تحدث ضجة  
كبيرة ، وتشكلم بنبرة عالية جداً ، وتطربك وتباركك ، وصوت  
واحد لن يسمعه احد ، صوت مفرد سوف يلعنك في الظلام . حسن ،  
إسمع ، ايها الرجل المرذول ! إن هذه البركات كلها سوف تسقط قبل  
ان تبلغ باب السماء . وان اللعنة وحدها هي التي ستصعد حتى تنتهي  
الى الله ! »

وما لبث هذا الصوت الذي كان واهناً جداً اول الامر ، والذي انبعث من أعماق اعماق ضميره - ما لبث ان غدا عالياً نجفاً ، شبيهاً بعد شيء ، فهو يضج الآن في اذنيه . لقد بدا له ان ذلك الصوت قد فارقه ، وانه كان يتكلم اللحظة من الخارج . ولقد خيل اليه انه سمع الكلمات الاخيرة في كثير من الوضوح جعله يجيل بصره في الغرفة بضرب من الذعر .

وتساءل في صوت مرتفع ، وفي شرود :

- « هل يوجد احد هنا ؟ »

ثم استطرد في ضحكة كانت اشبه بضحكة رجل أبله :

- « يا لي من مجنون ! لا يمكن ان يكون أحد هنا . »

كان ثمة واحد . ولكن ذلك الذي كان هناك لم يكن من اولئك الذين تستطيع العين البشرية ان تراه .

ووضع الشمعدانين على الموقد .

ثم استأنف سيره ذاك الرتيب الكثيب ، الذي ازعج الرجل النائم تحت غرفته ، المستغرق في احلامه ، فاستيقظ راجعاً .

وروح هذا السير عنه وأثاره في آن معاً . والذي يبدو أننا في المناسبات الخطيرة نأخذ انفسنا بالحركة لكي نلتصق النصح من ايما شيء . قد نلتقيه نتيجة لتغيير المكان . وبعد بضع لحظات ، لم يعد يدري ابن هو .

وتراجع الآن ، في دعر متكافئ ، أمام كل من القرارين اللذين اتخذهما واحداً إثر واحد . لقد بدت الفكرتان اللتان قدمتا النصيحة اليه وخيمتي العاقبة على حد سواء . يا له من قدر ! يا لها من مصادفة تلك التي جعلت السلطة تتوهم ان شانغاي هو جان فالجان ! أبتدئ في الماوية بدافع من الوسيلة نفسها التي بدا ، في اول الامر ، وكأن العناية الالهية قد سخرتها لتوطيده ؟!



وغيرت لحظة تأمل خلالها المستقبل. أن يتهم نفسه ! يا الهي ! أن يستلم ! لقد نجلى له في يأس هائل ، كل ما يتعين عليه ان يعمره ، وكل ما يتعين عليه ان يستأنفه . يجب عليه اذن ان يودع هذا الوجود الجيد الى ابعد حد ، الطاهر الى ابعد حد ، المشرق الى ابعد حد ؛ وان يودع احترام الجميع ، ويودع الشرف ، ويودع الحرية ! انه لن يخرج للزخمة في الحقول منذ اليوم ! انه لن يسمع الطير تغني في شهر نوار منذ اليوم ! انه لن يوزع الصدقات على الاطفال الصغار منذ اليوم ! انه لن يستشر حلاوة نظرات الحب والاعتراف بالجميل المدة اليه ، منذ اليوم ! ولسوف يضطر الى ان يغادر هذا البيت الذي بناه ، هذه الغرفة الصغيرة ! لقد بدا كل شيء فاتتاً في عينه الآن . انه لن يطالع بعد اليوم في هذه الكتب . انه لن يكتب بعد اليوم على هذه الطاولة الصغيرة ذات الحشب الابيض ! إن حاجبته العجوز ، وهي الخادم الوحيدة التي كانت عنده ، لن تحمل اليه قهوته ، بعد اليوم ، في الصباح . يا الهي ! وبدلاً من هذا كله سيكون ثمة جمهور السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وطوق العنق الحديدية ، والرداء الاحمر ، والاصفاد التي تكبل القدم ، والاعياء ، والحبيوة المظلمة ، والسريير النقال ، وكل هذه الاهوال التي يعرفها جيداً ! ومتى ؟ في مثل سنة هذه ، وبعد ان صار الى ما صار اليه ! لو كان لا يزال شاباً ! ولكن أن يكون شيخاً ، وأن يات من قبل أول وافد ، وبخاطب بضير المفرد من جانب حرس السجن ، ويضرب بهراوة السجن ! ان توضع قدماء عاريتين في حذاء موثق بالحديد ! ان يسلم رجله صباحاً ومساء الى مطرقة كبير رجال الحرس ليفحص الاغلال ! ان يحمل فضول الغرباء الذين سوف يقال لهم : « هذا هو جان فالجان الشهير الذي كان عمدة مونتروي سور مير ! » أن يرتقي من جديد في موهن من الليل ، وتحت سوط الرقيب ، درجات سلم السجن العائم ، اثنتين اثنتين ، وقد سال منه العرق ، وهذه

التعب ، والمحرف قلدسوته فوق عينيه ! اوه ، ايّ سقاء هذا !  
هل في ميسور القدر اذن أن يكون خبيثاً مثل وجل ذكي ، وان  
يصبح راعباً كالقلب البشري ؟

كان مها عمل يعود الى السقوط دائماً في هذه الورطة الحادة التي كانت  
في اعماق تفكيره والتي تفرض عليه ان يختار احدى خطتين كلاتهما بغيضة  
الى نفسه : ان يبقى في الجنة ليصبح هناك شيطاناً ، وان يعاود  
الدخول الى جهنم ليصبح هناك ملاكاً !

ما الذي ينبغي ان يُعمل ، يا السّهي ! ما الذي ينبغي ان يُعمل ؟  
كان العذاب العاصف الذي تغلب عليه في كثير من العسر قد آذنه  
بهجوم باطنيّ جديد . واختلطت فكراته ككرةً أخرى . لقد اتخذت  
ذلك الشكل الذاهل الميكانيكي الذي يمتنع على الوصف ، والذي هو من  
خصائص اليأس . وتمثّل له اسم رومينفيل على غير انقطاع ، مع بيتين  
من انشودة سمعها من قبل . وقال في ما بينه وبين نفسه ان رومينفيل  
غابة صغيرة قرب باريس حيث يذهب العشاق الشباب ليجمعوا زهرات  
الليلنج في شهر نيسان .

وترنح ظاهرياً ، كما ترنح باطنياً . لقد مشى مثل طفل صغير  
أجيز له ، أول مرة ، ان يسير وحده .

وبين الفينة والفينة ، وفي غمرة من كفاحه ضد الاعياء ، بذل جهداً  
جديداً لكي يوقظ فكره . لقد حاول ان يجدد ، نهائياً وعلى نحو  
قاطع ، المشكلة التي سقط أمامها ، بمعنى من المعاني ، 'مجهداً خاتراً  
القوى . أيتعين عليه ان يشكو نفسه ؟ أيتعين عليه ان يعتصم بالصمت ؟  
لقد عبّز عن ان يرى أيّما شيء في وضوح . لقد ارتفعت الاشكال  
الغامضة لجميع الجميع التي رسمها عقله ، وتبدّدت واحدة اثر اخرى في  
دخان . بيد انه استشر ان شيئاً من نفسه - مهما يكن قراره -  
سوف يموت ، وسوف يكون موته بالضرورة ،

ومن غير ان يكون ثمة سبيل الى النجاة منه ؛ وانه سوف يدخل قبراً  
سواء جُنعَ الى اليمين او جُنعَ الى الشمال ؛ وانه كان يعاني حشرة  
موت ، حشرة موت سعادته ، او حشرة موت فضيلته .  
والأسف ! لقد عاوده تردده كله . إنه لا يزال حيث بدأ ، لم يتقدم  
خطوة واحدة .

كذلك ناضت هذه النفس التعبة الراحة تحت وطأة الغم . وقبل  
هذا الرجل البائس بألف وثمئة عام كان الكائن المجلبب بالاسرار ، الذي  
'تختصر فيه قداسات الانسانية كلها وعذابات الانسانية كلها ، قد اطرح  
هو ايضاً منذ عهد بعيد ، وفيما كانت شجرات الزيتون ترتجف أمام  
إعصار الانهاية الضاري ، كأسَ العشاء الرباني الخفيفة التي ترامت له سائلةً  
بالظلال ، فائضة بالظلمات ، في الأعماق الحافلة بالنجوم .

## ٤

### اشكال يتخذها العذاب

#### خلال النوم

وأعلنت الساعة الثالثة . كان قد سلخ خمس ساعات وهو يثني على  
هذا النحو ، ومن غير انقطاع تقريباً ، عندما انطرح على كرسيه .  
واستسلم للرقاد ، وانشأ يحلم .

ولم يكن ثمة صلة بين هذا الحلم - شأن معظم الاحلام - وبين  
وَضْع صاحبه غير طابعه الفاجع المروع . ولكنه كان ذا وقع في  
نفسه . والحق ان هذا الكابوس أثار فيه تأثيراً قوياً حله في ما بعد  
على ان يدوّنه . وهذه احدي الاوراق التي كتبها بخط يده ، وخلّقها

من بعده . ونحن نعتبر ان من واجبتنا ان نذهبها ههنا بالحرف الواحد .  
وأياً ما كان هذا الحلم ، فإن قصة تلك الليلة تكون ناقصة اذا ما  
أغفلناه . إنه المغامرة المظلمة تقوم بها روح مريضة .  
وما هو ذا . إنا نجد مكتوباً على الظرف هذا السطر : « الحلم  
الذي رأيت تلك الليلة . »

« كنت في حفل . حفل واسع محزون ليس فيه عشب . ولم يبدُ  
أن ذلك كان نهاراً ، أو أنه كان ليلاً .  
« كنت أمشي مع اخي ، اخي صباي . هذا الاخ الذي يتعين  
عليّ ان اقول اني لا افكر فيه ابداً ، واني لا اتذكره إلا نادراً .  
« كنا نتحدث ، ولقد التقينا غيرنا ماشياً أيضاً . كنا نتحدث عن  
جارية كانت لنا في ما مضى ، وكانت منذ ان سكنت في ذلك الشارع  
تعمل ونافذتها مفتوحة ابداً . وحتى فيما نحن نتكلم ، استشعرنا البرد  
بسبب من تلك النافذة المفتوحة .  
« ولم يكن في الحفل أشجار .  
« لقد رأينا رجلاً يمر بقربنا . كان عارياً عرياً كاملاً ، وكان بلون  
الرماد ، وكان يمتطياً جواداً بلون التراب . ولم يكن لذلك الرجل شعر .  
لقد رأينا جميعته وأوردة في جميعته . ويده كان يمسك عصاً لدنة مثل  
غصن من اغصان الكرمة ، ثقيلة كالحديد . واجتاز بنا هذا الفارس ،  
ولم يقل شيئاً .

« وقال لي اخي : فلنسلك الطريق المهجورة .  
« كان ثمة طريق مهجورة لم نرَ فيها لا عُشقة ولا علوج طحلب .  
كان كل شيء بلون التراب . حتى السماء كان لونها هكذا . وبعد بضع  
خطوات لم ييجني احد حين تكلمت . لقد شعرت ان اخي لم يعد معي .  
« ودخلت قرية رأيتها . لقد ظننت أنها ينبغي ان تكون

رومينفيل ( لماذا رومينفيل ؟ ) \*

و كان اول شارع اجتزته مهجوراً . ومنه انتقلت الى شارع آخر .  
وخلف الزاوية التي شكلتها التقاء الشارعين كان رجلٌ واقفاً بجذاه الجدار .  
وقلت لهذا الرجل : ما هذا الاقليم ؟ اين انا ؟ فلم يجيب الرجل بشيء .  
ورأيت باب بيتٍ ينفتح . فدخلته .

و كانت الغرفة الاولى مهله . فدخلت الثانية . وخلف باب هذه  
الغرفة وجدتُ رجلاً واقفاً بجذاه الجدار . فسألت هذا الرجل : لمن  
هذا البيت ؟ اين انا ؟ فلم يجيب الرجل بشيء . كانت للبيت حديقة .  
و غادرت البيت الى تلك الحديقة . كانت الحديقة مهجورة .  
وخلف اول شجرة رأيت رجلاً واقفاً . فقلت لهذا الرجل : ما هذه  
الحديقة ؟ اين انا ؟ فلم يجيب الرجل بشيء .

و وطوّفتُ في القرية ، وادركت انها كانت مدينة . كانت  
الشوارع كلها مهجورة ، وكانت الابواب كلها مفتوحة . لم يكن ثمة  
كائن حيٍّ يمرّ بالشوارع ، أو يمشي في الغرف ، أو يتنزه في الحدائق .  
ولكن خلف كل زاوية جدارٍ ، خلف كل باب ، خلف كل شجرة ،  
كان يقف رجل معتصم بالصمت . ولكن لم يكن في مبدوري ان  
أرى هؤلاء الرجال الا منفردين : واحداً في كل مرة . ونظروا اليّ  
فما كنت أجتازهم .

و غادرت المدينة ، وشرعت أمشي في الحقول .  
و وبعد فترة قصيرة ، التفتُ فرأيت جمهرة كبيرة من الناس تلحق  
بي . لقد عرفتُ جميع الرجال الذين رأيتهم في المدينة . كانت رؤوسهم  
غريبة . لقد بدا وكأنهم لا يسرعون ، ومع ذلك فقد ساروا بأمرع  
بما سرت . ولم يُجدّوا في سيرهم صوتاً ما . وما هي الا لحظة حتى  
أدركتني هذه الجمهرة وأحاطت بي . كانت وجوه هؤلاء الرجال بلون  
\* هذه الملاحظة القليلة بهلايين هي بخط جان فالجان .

الغراب .

« ثم إن الرجل الأول الذي سبق أن رأيته وسألته لدن دخولي المدينة قال لي : الى اين انت ذاهب ؟ ألا تدري انك مَينْت مِنْهُ عهد طويل ؟

« وفتحت في لأجيب ، وأدركت انه لم يكن ثمة أحد من حوذي . »

واستيقظ . كان مثولجاً . وكانت ربيع باردة كريح الصباح قد جعلت أطرُ النافذة ، التي ما تزال مفتوحة ، تدور على رزاتها . كانت النار قد خمدت ، وكانت الشمعة قد اوشكت ان تلفظ آخر انفاسها وكان الليل لا يزال حالكماً .

ونض ، ومضى الى النافذة . كانت السماء لا تزال عاطلة عن النجوم . ومن نافذته ، كان في ميسور المرء ان يطلّ على فناء البيت وعلى الشارع . وانبعثت من جانب الارض ضجة مجلبة تؤذي الاذن ، فخفض بصره .

لقد رأى نخته كوكبين احمرين كانت اشعثهما تتراقص جيئة وذهوباً ، على نحو عجيب ، في الظلام . كان عقله ما يزال نصف مغيب في ضباب هواجسه . وقال في ذات نفسه :

« اجل ! ليس ثمة شيء منها في السماء . إنها على الارض الآن . »  
بيد أن هذا الاختلاط ما لست ان تبدّد . وابقظته ضجة أخرى شبيهة بالأولى إيقاظاً كاملاً . ونظر ، فرأى ان هذين الكوكبين كانا مصباحي عربة . وعلى هدي الضوء الذي انبعث منها كان في ميسوره ان يتبين شكل عربة . كانت عربة مكشوفة يجرها جواد صغير أبيض . وكانت الضجة التي سمعها هي وقع حوافر الجواد على حصاء الطريق .

- وقال في ذات نفسه :
- « ايّ عربية هذه ؟ ومن الذي وفد فيها في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ »
- وفي تلك اللحظة قُرع باب غرفته قرعاً خفيفاً .
- وارتعد من قمة رأسه الى الخصر قدميه . وصاح في صوت فظيع :
- « مَنْ هناك ؟ »
- واجابه شخص ما :
- « انا يا سيدي العمدة . »
- وتبيّن صوت المرأة العجوز ، صوت بوابته .
- وقال :
- « حسن ، وماذا تريدن ؟ »
- « سيدي العمدة ، إنها الساعة الخامسة على وجه الضبط . »
- « وماذا يعني ذلك ؟ »
- « سيدي العمدة ، إنها العربية . »
- « أية عربية ؟ »
- « العربية المكشوفة . »
- « أية عربية مكشوفة ؟ »
- « ألم يطلب سيدي العمدة ان توافيه الى هنا عربية مكشوفة ؟ »
- فقال :
- « لا . »
- « يقول السائق إنه جاء نزولاً عند إرادتك . »
- « ايّ سائق هذا ؟ »
- « إنه سائق ميسو سكوفليز . »
- « سائق ميسو سكوفليز ؟ »
- وأجفله هذا الاسم ، فكان يرقاً أرمض أمام وجهه .

وقال :

- « آه ، نعم ! مسيو سكوفليز . »

ولو قد كان في امكان المرأة العجوز ان تراه في تلك اللحظة اذت لعصف بها الذعر .

وران صمت طويل . وتأمل لهبَ الشعلة ، في انطباعة بلهاء ، واخذ بعض الشمع المحرق من حول القنيل وأداره بين اصابعه . وانتظرت المرأة العجوز ، ومع ذلك فقد غامرت فرفعت الصوت مرةً اخرى :

- « سيدي العمدة ، بمَ ينبغي ان أجيب ؟ »

- « قولي ان ذلك حسن ، وإني أهبط السلم . »

## ٥

### عصيّ في الدواليب

كان البريد من آراس الى مونترروي سور مير لا يزال يجري ، في ذلك العصر ، بمركبات بريدية ترقى الى عهد الامبراطورية . وكانت هذه المركبات البريدية عربات خفيفة ذات درلايين ، 'فروش' داخلها بجلد أصهب ، وزودت بنوابض ذات مفاصل ، وليس فيها غير مقعدين اثنين احدهما للسائق ، والآخر للمسافر . وكانت الدواليب ملحة بتلك المحاوو الطويلة المشاكسة التي تختلف العربات الاخرى وراءها ، والتي لا تزال تُرى على طرق ألمانيا . وكانت الرسائل 'تُحمل في صندوق مستطيل ضخم قائم خلف العربة الخفيفة ، فهو يؤلف جزءاً منها . وكانت هذا الصندوق مدهوناً باللون الاسود ، على حين كانت العربة مدهونة باللون الاصفر .

وكانت هذه العربات ، التي لا يشبهها اليوم شيء ، شائعة جداً ،



فاذا ما رآها المرء من مسافة بعيدة زاحفة فوق طريق ما عند الافق خالها تلك الحشرات التي يدعونها الأرضة ، في ما اظن ، والتي تسحب بأجسادها الهزيلة قطاراً طويلاً يمتد خلفها . يبدو انها كانت تنطلق في سرعة بالغة . كانت مركبة البريد التي تغادر آراس كل ليلة ، في الساعة الواحدة ، بعد تسليم البريد الوارد من باريس ، تبلغ مونتروي سور مير قبل الساعة الخامسة صباحاً بقليل .

ونلك الليلة اصطدمت مركبة البريد الهابطة الى مونتروي سور مير ، من طريق هدين ، لحظة دخولها الى المدينة ، عند احد المنعطفات ، بعربة مكشوفة صغيرة تُشدّ اليها جواد ايض . كانت تلك العربة تنطلق في اتجاه معاكس ، ولم يكن فيها غير شخص واحد ، رجل متلفع برداء فضفاض . واصيبت عجلنا العربة المكشوفة بصدمة قاسية . وصاح سائق مركبة البريد طالباً من الرجل ان يقف ، ولكن المسافر لم يصغ لكلامه ، وواصل انطلاقه في سرعة عظيمة . وقال سائق مركبة البريد :

- « هوذا رجل مستعجل الى حد شيطاني ! »

وكان الرجل المنطلق هكذا على عجل هو ذلك الذي شهدناه يناضل في غمرة من القلق العنيف المثير للشفقة .

الى اين كان ذاهباً ؟ إنه ما كان قادراً على ان يجيب . لماذا كان ينطلق في سرعة ؟ لم يكن يدري . كان يندفع الى امام ، كيفما اتفق . الى اين ؟ الى آراس ، من غير ريب . ولكن لعله كان ذاهباً الى مكان آخر ايضاً . وفي بعض اللحظات ، استشعر ذلك ، فارتعدت اوصاله . لقد غاص في تلك الظلمة وكأنه يفوص في لجة فاغرة فاهما . كان شيء يستعجه ، كان شيء يجذبه . ما الذي كان يعتمل في ذات نفسه ؟ ذلك ما لا يستطيع احد ان يصفه ، وذلك ما يفهمه كل انسان . فمن ذا الذي لم يدخل ، ولو مرة واحدة في حياته ، في كهف الجهول المظلم هذا ؟ ولكنه لم يعتزم شيئاً ، لم يقرر شيئاً ، لم يُبزم شيئاً ، لم يفعل

شيئاً . إن ايأ من أفعال ضيمره لم يكن نهائياً . كان ، اكثر من ايأ وقت مضى ، عند نقطة الابتداء .  
لم كان ذاهباً الى آراس ؟

وكرر ما سبق ان قاله لنفسه حين حجز عربة سكوفليز ذات المجلتين من انه - مهما تكن النتيجة - فليس ثمة بأس في ان يرى بعينه ؛ وان يحاكم الاشياء بنفسه ؛ وان ذلك نفسه عملٌ حفيف ؛ وأن عليه ان يعرف ما الذي يجري ؛ وانه ليس في ميسوره ان يقرر شيئاً من غير ان يلاحظ ويبعث ؛ وان الامر للضئيل يبدو ، على البعد ، شبه بالجبل الكبير ؛ وان ضيمره قد يطمئن على كل حال ، اذا ما رأى الى شائغتيه هذا ، وهو بانس من البائسين ، اطمئناناً كبيراً فيرتضي ان يترك هذا الرجل يمضي الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال للشاقة مكانه ؛ وان بما لا ريب فيه ان جافير سوف يكون هناك ؛ وان بروفيه هذا ، وشونيلدو هذا وكوشباي هذا ، وهم من نزلاء سجن الاشغال الشاقة القدماء ، سوف يكونون هناك ايضاً ؛ ولكنهم لن يتعرفوه من غير شك . هراء ! يا لها من فكرة ! وأن جافير كان على بعد مئة فرسخ عن الحقيقة ؛ وان جميع الظنون والافتراضات منصبة على شائغتيه هذا ؛ وانه لم يكن ثمة ، اذن ، خطرٌ على الاطلاق .

واضاف قائلاً لنفسه انها ساعة قائمة من غير ريب ، ولكنه يجب أن يجتازها ؛ وانه على أية حال يملك قدره - مهما يكن شيئاً - بيده ؛ وأنه هو سيد هذا القدر . وتثبتت هذه الفكرة .  
ولكي نقول كل شيء ، ننصّ هنا على أنه كان ، في أعمن اعماقه ، يؤثّر ان لا يذهب الى آراس .

ومع ذلك ، فقد كان في طريقه اليها .  
وعلى الرغم من استغراقه في التفكير ، فقد ألهمَ بسوطة الجواد ، الذي كان ينهب الارض في ذلك الحجب النظامي ، التثبت ، الكامل ، الذي يجتاز فرسخين ونصف في الساعة الواحدة .

وكلما اندفعت العربية المكشوفة الى أمام ، استشعر في ذات نفسه شيئاً يرتد الى وراء .

وعند الفجر بلغ الارضَ الفضاء . كانت مدينة مونتروي سور مير قد خلقت وراءه على مسافة بعيدة . ورأى الى الافق يشرق . وبصر - ولكن من غير ان يراها - بجميع صور الضحى الشتوي الباردة غمر أمام عينيه . إن للصباح أشباحه ، مثل الليل . انه لم يرها . ولكن على غير وعي منه ، وفي ضرب من النفاذ يكاد يكون مادياً ، أضاف ظلال الاشجار والتلال السوداء تلك الى وضعه النفسي المضطرب شيئاً لست أدريه ، شيئاً كالحلم مشؤماً .

وكلما اجتاز بواحد من تلك المنازل المنعزلة القاطنة هنا وهناك على جانب الطريق ، قال في ذات نفسه :

« ولكن في داخل هذا المنزل اناساً نائمين ! »

وكان خبب الجواد ، وجلبة جهازه ، ودوران العجلتين على حياء الطريق تحدث صوتاً رقيقاً رتيباً . إن هذه الاشياء لتكون فاتنة حين يكون المرء مبتهجاً ، وفاجعة حين يكون محزوناً .

كان النور غامراً حين انتهى الى هسدين . ووقف أمام احد الحانات لكي يدع جواده يتنفس ، ولكي يعمل على تزويده بشيء من الشوفان . وكان هذا الجواد ، كما ذكر سكوفلير من قبل ، من سلالة جياد « بولونية » الصغيرة ، فهو ذو رأس كبير اكثر مما ينبغي ، وبطن ضخم اكثر مما ينبغي ، وعنق قصيرة ، ولكنه ذو صدو عريض ، وكفيل ضخم ، وقائمة مهزولة وقيمة ، وقدم ثابتة . سلالة بشعة ولكنها قوية سليمة . كان الجواد الممتاز قد اجتاز خمسة فراسخ في ساعتين ولم تعمل مؤخرته قطرة واحدة من العرق .

ولم يغادر العربية المكشوفة . وفجأة انحنى خادماً الحان الذي حمل الشوفان ، وأنشأ يفحص الدولاب الأيسر .

وقال هذا الرجل :

« هل اجتزت مرحلة واسعة على هذا النحو ؟ »

فأجاب ، وهو ما يكاد يقطع حبل تفكيره :

« لماذا ؟ »

فقال الخادم :

« هل أقبلت من مكان بعيد ؟ »

« من نقطة تبعد خمسة فراسخ عن هذا المكان . »

« وآه ! »

« لماذا تقول : آه ؟ »

وانحنى الخادم كرة أخرى . واعتصم بالصمت لحظةً ، مسرّاً بصره

على الدولار ، ثم انتصب قائلاً :

« من الممكن ان يفكر المرء ان هذا الدولار قد فرغ اللحظة

من اجتياز خمسة فراسخ . ولكن من الثابت انه لن يستطيع اجتياز

ربع فرسخ بعد الآن . »

ووثب من العربة الى الارض .

« ماذا تقول ، يا صديقي ؟ »

-- « اقول إنها لمعجزة ان تكون قد اجتزت خمسة فراسخ من غير

ان تسقط أنت وجوادك في حفرة ما ، على الطريق . من الخير لك

ان تلزم الحذر . »

كان اذى بالغ قد اصاب الدولار حقاً . ذلك بأن الاصطدام

بمركبة البريد كان قد كسر اثنين من انصاف محاوره ، وحلّ وثاق

المركز ، فليس في وسع ثقب اللولب ان يُمسكه بعد .

وقال مخاطباً خادم الاصطبل :

« ايها الصديق ، الا يوجد صانع عجلات هنا ؟ »

« من غير شك ، يا سيدي . »

- « تكررتم عليّ باستدعائه . »  
- « وإنه هنا ، عليّ بُعد خطوتين . هاي ! ايها المعلم بورغايار ! »  
وكان المعلم بورغايار ، صانع العجلات ، واقفاً عليّ عتبة دكانه . فأقبل  
وفحص العجلة ، وغضض وجهه كما يغضض الجراح وجهه عند رؤيته رجلاً  
مكسورة .

- « هل تستطيع ان تصلح هذه العجلة ، في الحال ؟ »  
- « نعم يا سيدي . »  
- « متى تستطيع ان استأنف الانطلاق ؟ »  
- « غداً . »  
- « غداً ! »  
- « ان إصلاحها يقتضي عمل يوم بكامله . هل أنت مستعجل جداً يا سيدي ؟ »  
- « أجل ، أنا مستعجل جداً . يجب ان انطلق بعد ساعة ،  
عليّ الاكثر . »

- « متعجل ، يا سيدي . »  
- « سوف ادفع لك ما تشاء . »  
- « متعجل . »  
- « حسن . بعد ساعتين . »  
- « ذلك متعجل ، اليوم . يجب ان أصلح اثنين من انصاف  
المحاور ، ومركز الدولاب . إن سيدي لا يستطيع ان يستأنف المير  
قبل غد . »

- « إن مهمتي لا تستطيع ان تنتظر حتى الغد . اليس في إمكاننا  
ان نستعيز عن هذا الدولاب بغيره ، بدلاً من ان نصلحه ؟ »  
- « كيف ذلك ؟ »  
- « أنت صانع عجلات ؟ »  
- « من غير شك ، يا سيدي . »

- « ليس عندك دولاب تيمني اياه ؟ عندئذ يكون في ميسوري  
أن انطلق في الحال . »

- « دولاب للاستبدال ؟ »

- « نعم . »

- « ليس عندي دولاب يلائم عربتك تماماً . إن كل دولابين  
يشكلان زوجاً . وإن الدولابين لا ينسجم احدهما مع الآخر كيفما  
اتفق . »

- « إذا كان الامر كذلك فبمعي زوجاً من الدوليب . »

- « يا سيدي ، ليس كل الدوليب تلائم كل المخاور . »

- « ولكن جرّب . »

- « لا فائدة ، يا سيدي . ليس عندي ما ابيعه غير دوليب

عربات ائقال . نحن نعيش هنا في منطقة صغيرة . »

- « هل عندك عربية ذات دولابين تعبرني اياها ؟ »

وكان صانع العجلات قد ادرك ، من اللعة الاولى ، ان العربية  
المكشوفة كانت عربية مستأجرة . فبرز كتفيه .

- « انت ثمنى غاية حنة بالعربات التي تستأجرها ا وافي خليق بان

احتفظ باحداها فترة طويلة قبل ان أعيرك اياها . »

- « حسن ، يعني اياها . »

- « ليس عندي واحدة . »

- « ماذا ؟ حتى ولا عجيبة ذات غطاء ؟ أنا لست متعنتاً ،

كما ترى . »

- « نحن هنا نعيش في بلد صغير . » قال صانع العجلات ذلك ، ثم

اضاف : « ولكن عندي ، تحت السقفة العتيقة هناك ، عربية قديمة

مكشوفة ذات اربع عجلات هي ملك لمواطن من مواطني المدينة

عهد الي في حفظها ، مواطن يستعملها في التاسع والعشرين من شباط

دائماً . سوف اعيرك اياها . لأنها ليست لي طبعاً . ويجب ان لا يراها  
المواطن تجري . والى هذا ، فهي عربة مكشوفة ذات اربع عجلات ،  
وهي تحتاج الى جوادين .

- « سوف آخذ جوادين من جياد البريد . »

- « الى اين يقصد سيدي ؟ »

- « الى آراس . »

- « ويريد سيدي ان يصل الى هناك البرم ؟ »

- « أجل . »

- « بأن تأخذ جياد البريد ؟ »

- « ولم لا ؟ »

- « هل يرضى سيدي بأن يصل هذه الليلة في الساعة الرابعة  
صباحاً ؟ »

- « لا ، طبعاً . »

- « اعني ، كما ترى ، ان هناك شيئاً ينبغي ان يقال في ما يتعلق  
بأخذ جياد البريد ... هل يحمل سيدي جوازه ؟ »

- « نعم . »

.. « حسن . اذا اخذ سيدي جياد البريد فإنه لن يصل الى آراس  
قبل غد . نحن هنا مفرق طرق . إن المحطات لا تُخدم الا خدمة رديئة ،  
والحيل في الحقل . لقد بدأ موسم الحوانة منذ ايام ، والحاجة ماسة  
الى كثير من الدواب المقرونة . والجياد تؤخذ من كل مكان ، ومن  
مراكز البريد ايضاً . وسوف يتعين على سيدي ان ينتظر ثلاث ساعات  
او اربع ساعات ، على الاقل ، في كل محطة . وفوق هذا ، فأنت  
على المرء ان يثني على قدميه . ان هناك كثيراً من الهضاب يجب ان  
تُرتقى . »

- « حسن ، سوف أنطلق على صهوة الجواد . مُحلّ وثاق الفرس

وأفضل ما بينه وبين العربية . في استطاعة شخص ما في هذا المكان ان  
بيعه مرسجاً ، من غير شك . ،

- « طبعاً . ولكن هل يحتمل هذا الجواد السرج ؟ »

- « صحيح . لقد نسيته ذلك . انه لن يحتمله . »

- « واذن ... »

- « ولكنني سوف اجد في القرية ، من غير شك ، جواداً

أستأجره . »

- « جواداً يذهب الى آراس في انطلاقة واحدة ؟ »

- « نعم . »

- « ينبغي ان يكون ذلك جواداً ليس في منطقتنا نظيره . ويجب ان

تشتريه قبل كل شيء ، لأن احداً لا يعرفك هنا . ولعكسك لن تجد

مثل هذا الجواد ، سواء للشراء ام للاستهارة ، وسواء أدفعت فيه

خمسة فرنك او دفعت فيه الف فرنك . »

- « ماذا يجب أن أعمل ؟ »

- « خير ما تعمله ، كرجل ذي ادراك ، هو ان أصلح الدولا ب ،

وان تستأنف رحلتك غداً . »

- « غداً يفوت الاوان . »

- « لعننا الله ! »

- « أليس ثمة مركبة بريـد قاصدة الى آراس ؟ متى تصل

الى هنا ؟ »

- « الليلة . كلنا المركبتين نقوم بالرحلة ليلاً . مركبة البريد الصاعدة

ومركبة البريد الهابطة . »

- « كيف ! أو نحتاج الى يوم كامل لاصلاح هذا الدولا ب ؟ »

- « يوم كامل ، بل يوم طويل ! »

- « ولو جرّدت عاملين لاصلاحه ؟ »



- « ولو جرّدت عشرة عمال . »
- « واذا شددت انصاف المحاور بالحبال ؟ »
- « انصاف المحاور يستطيع ان اشدها بالحبال . أما مركز الدولاب فلا . ثم إن إطار الدولاب الحديدي في حال غير حسنة ، ايضاً . »
- « أليس في المدينة مؤجتر عربات ؟ »
- « لا . »
- « ألا يوجد فيها صانع عجلات آخر ؟ »
- وأجاب خادم الاصطبل وصانع العجلات في آن معاً ، وبهزة من رأسها :
- « لا . »
- واستشعر بهجة غامرة .

كان واضحاً ان العناية الالهية تدخلت في الامر . إنها هي التي كسرت دولاب العربة المكشوفة ، وصدته عن سبيله . وهو لم يستلم لذلك لأول وهلة ؛ بل بذل كل جهد ممكن لاكمال رحلته . لقد استنفد ، في اخلاص وتدفق ، جميع الوسائل . وهو لم يتراجع لا في وجه الشتاء ، ولا في وجه التعب ، ولا في وجه التفقات ؛ وليس ثمة ما يؤنب نفسه من اجله . واذا لم يستطع ان يذهب الى أبعد من هذا فليس ذلك من شأنه . الذنب لم يعد ذنبه . إن ذلك لم يكن من عمل ضميره . ولكن من عمل العناية الالهية .

وتنفس . تنفس في حرية وبلاء الصدر للمرة الاولى منذ زيارة جافير . لقد بدا له ان اليد الحديدية التي اعتصرت فؤاده طوال عشرين ساعة قد تراخت .

لقد تراءى له ان الله كان في جانبه الآن ؛ كان في جانبه على نحو جلي .

وقال في ذات نفسه إنه فعل كل ما في وسعه ان يفعله ، وأنه لم

يبقى عليه الآن الا ان يرتدّ على آثاره ، في هدوء .

ولو ان حديثه مع صانع العجلات جرى في احدى غرف الخان اذن  
لا شهده احد ، ولما سمعه امرؤ على الاطلاق ، واذن اظلم هناك ،  
ولكان من المحتمل ان لا تُضطرب الى رواية اية من الاحداث التي سوف  
نقرأ نأها بعد . ولكن ذلك الحديث جرى في الشارع . وخلق بكل  
معاورة في الشارع ان تنشيء حثاً حلقة من الناس . فهناك دائماً  
قوم لا يطلبون اكثر من ان يكونوا نظارة . ففيما كان يجاور صانع  
العجلات تَحَلَّقَ حولها نفر من الغادين والرائحين . وبعد ان استمع احد  
الغلمان الصغار الى الحديث الدائر بضع دقائق - ولم يكن احد قد انتبه  
اليه - انفصل عن الحشد واطلق ساقه للريح .

وفي اللحظة التي وطن فيها المسافر عزمه - بعد المذاكرة الباطنية  
التي اشرنا اليها - على ان يرجع من حيث اتى ، عاد هذا الغلام الصغير ،  
تصبجه امرأة عجوز .  
وقالت المرأة :

- « سيدي ، يقول لي ولدي انك راغب في استئجار عربية ذات  
دولابين . »

وكان في هذا الكلام البسيط ، تنطق به امرأة عجوز قادها الى هناك  
غلام صغير ، ما جعل العرق يتصبب من ظهره . لقد خَيَّل اليه انه  
رأى اليد التي تحرّر منها اللحظة تعاود الظهور ، خلفه في الظلّ ، وهي  
على اتم الاستعداد لأن تقبض عليه من جديد .  
واجاب :

- « أجل ، ايها المرأة الطيبة ، أنا أنجث عن عربية ذات دولابين  
استأجرها . »

ثم سارع الى القول مُضِيفاً :

- « ولكن ليس ثمة واحدة في هذه المنطقة . »

فقلت العجوز :

- « أجل . هناك واحدة . »

فتدخل صانع العجلات قائلاً :

- « أين هي إذن ؟ »

فأجابت العجوز :

- « في بيتي . »

وارتعدت اوصاله . كانت اليد المشؤومة قد أطبقت عليه كرة اخرى . وكان لتلك المرأة العجوز ، في الواقع ، ضربٌ من عُجْبِيَّة ذات غطاء مصنوعة من خيزران ، وكانت قائمة تحت سقفة ما . وتدخل الحداد وخادم الحان ، وقد اغضبها ان يفلت المسافر من بين ايديها :

- « انها عربية رديئة غيفة . - إنها خالية من النوايض . - صحيح

ان المقعد قد 'علّق في الداخل بسيور جلدية . - إن المطر ينفذ

اليها . - إن دواليبها صدئة ثلثتها الرطوبة . - انها لا تستطيع ان

تذهب الى أبعد بكثير من العربية المكشوفة . - إنها عربية سخيفة حقاً -

وان هذا السيد ليخطيء اعظم الخطأ اذا امتطّاها . » النخ . النخ .

كل ذلك كان صحيحاً . ولكن هذه العربية الرديئة ، هذه العربية

السخيفة ، هذا الشيء ، كائناً ما كان ، كانت تجري على دولابين ، وكان

في استطاعتها ان تذهب الى آراس .

ودفع ما سُئل ان يدفعه ، وعهد الى صانع العجلات في إصلاح

العربية المكشوفة على ان يستلها حين يعود ، وقرن الجواد الابيض الى

المُعْبِيَّة ذات الغطاء ، وامطى متنها ، واستأنف السير في الطريق التي

سلكها منذ الصباح .

ولم تكذ العجيبة تنطلق به حتى اعترف بأنه استشعر ، قبل لحظة ،

ابتهاجاً ما لدن خطر له انه لن يذهب بعد الى حيث كانت ذاهباً .

وفحص ذلك الابتهاج في ضرب من الغضب ، فوجد أنه احمق . ولماذا

يستشعر الفرح اذا ارتدّ على عقبه ؟ وعلى اية حال ، فهو يقوم بهذه  
الرحلة بطوّعه . إن احداً لم يُكرمه عليها .

ولا ريب في ان شيئاً ما لن يقع إلا اذا اراد هو ان يقع .  
وفيا هو يغادر همدن ، سمع صوتاً يصيح :  
- « قف ! قف ! »

واوقف العُجيلة بحركة عجيلى كان لا يزال فيها شيء لا أدريه من الحمى  
والتشنج هو اقرب ما يكون الى الأمل .  
وكان الصائح غلام المرأة المعجوز .  
وقال :

- « سيدي ، اني أنا الذي جئتكَ بالعجيلة . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « إنك لم تعطيني شيئاً . »

واستشعر - وهو الذي كان يعطي الجميع ، ويعطيهم في كثير من  
السخاء - أن هذا المطلب مغالى فيه ، وانه يكاد يكون بغيضاً .  
وقال :

- « آه ، أنت الذي جئت بها ، أيها الشحاذ ! انك لن تنال

شيئاً ! »

وأهّب الجواد بالسوط ، واستأنف انطلاقه في خبيبٍ خاطف .  
كان قد أضع كثيراً من الوقت في همدن ، وكان يريد ان يعوّض  
ما أضعه . وكان هذا الجواد الصغير بأسلاً ، وكان يمر العجيلة بقوة  
فرسين اثنين . ولكنّ الناس كانوا في شهر شباط ، وكان المطر قد  
هطل ، وكانت الطرق وديئة . وفوق هذا فلم يعدّ هو على متن عربته  
الأولى . كانت العجيلة تنضي في عمر ، وكانت ثقيلة جداً . وإلى هذا  
فقد كانت ثمة مرتفعات شديدة الانحدار .

واقتضاه الانتقال من همدن الى سان بول أربع ساعات . أربع

ساعات لكي يجتاز حمة فراسخ .  
وفي سان بول تقدّم الى أول خان ، وقاد الجواد الى الاصطبل ،  
بعد ان فصله عن العُجيلة . وكما وعد سكوفلير ، وقف قرب الملف  
بينما كان الجواد يتناول طعامه . كان يفكر في أشياء محزنة مشوشة .  
ووفدت زوجة صاحب الحان الى الاصطبل .

- « الا يريد سيدي أن يتناول طعام الصباح ؟ »  
فقال :

- « ولكن ، هذا صحيح . إن لي شبيهة حنة ايضاً . »  
وتبع هذه المرأة ، وكانت ذات وجه كثر طروب . وقادته الى  
قاعة منخفضة حيث كانت بضع طاولات مغطاة بقماش مشمع .  
وقال :

- « عجلي . يجب أن استأنف السير . أنا ، استعجل . »  
وسارعت خادم فلتكنية ضخمة الى إعداد المائدة له . ونظر الى هذه  
الفتاة وقد داخلته الارتياح .  
وفكر فيما بينه وبين نفسه :

- « ذلك ما أوجعني . أنا لم اتناول طعام الصباح . »  
كان فطوره قد أعدّ . فانقضّ على الرغيف ، ونهش قطعة منه ، ثم  
أعاده في تريدة الى الطاولة ، ولم يمسه بعد ذلك قط .

وكان سائق عربات يتناول الطعام على طاولة اخرى . فقال لهذا الرجل :

- « ما الذي يجعل خبزكم مريراً الى هذا الحد ؟ »  
وكان سائق العربات ألمانياً ، فلم يفهم كلامه .

ورجع الى الاصطبل لكي يكون الى جانب جواده .

وبعد ساعة ، كان قد غادر سان بول ، واتجه نحو « نالوك » التي لا  
تبعد عن آواس غير خمسة فراسخ .

ما الذي كان يعمله اثناء هذه الرحلة ؟ لم كان يفكر ؟ لقد رأى

الى الاشجار تمرّ به ، شأنه في الصباح ، والى السطوح المبنية من طين وقش ، والى الحقول المروثة ، والى مشاهد الريف الذائب بعضها في بعض ، والمتغيرة عند كل منعطف من منعطفات الطريق . ومثل هذه المشاهد تشبع النفس في بعض الاحيان ، وتكاد ان تطرد التفكير . واي شيء يمكن ان يكون اشدّ كآبة وأمق حسرة من رؤية الف شيء للمرة الاولى وللمرة الاخيرة ؟ وغير بعيد ان يكون قد عقد ، في أحلك جزء من عقله ، مقارنة بين هذه الآفاق المتغيرة وبين الوجود الانساني . إن حقائق الحياة كلها لا تقفأ تفرّ من وجهنا على نحو موصول . وإن الظلمات والنور لتتداخل وتتمازج . فبعد الجهر \* الكسوف . إننا ننظر ، إننا نستعمل ؛ اننا نعدّ ايدينا لنسك بالذي يحدث ؛ إن كل حادثة هي منعطف من منعطفات الطريق ؛ وفجأة ننهي الى الشيخوخة . نحن نستشعر صدمة طفيفة ، فاذا كل شيء اسرد ، واذا بنا تقيّنا بآباً مظلماً . ويقف جواد الحياة القاتم هذا الذي كان يُقلّتنا ، ونرى شخصاً عجيباً مجهولاً يُطلقه في الظلمات .

وهبط الفسق لحظة شاهد الاطفال المنصرفون من المدرسة هذا المسافر يدخل الى ثالك . صحيح أن النهار كان ما يزال قصيراً . ولم يقف في ثالك . وفيما هو ينطلق خارجاً من القرية رفع ريفي كان يصلح الطريق رأسه وقال :

- « ان جوادك متعب جداً . »

كانت البهية ، في الواقع ، تعدو عدواً هو الى المشي أقرب .  
واضاف الريفى :

- « أذهب انت الى آراس ؟ »

- « نعم . »

\* تجرّت البين : لم نمر في الشمس .

« اذا ذهبت بهذا البطء فلن تصل باكراً . »  
ووقف فرسة' وسأل الريفي :

« ما المسافة التي تفصل آراس عن هذا المكان ؟ »

« سبعة فراسخ طويلة ، تقريباً . »

« كيف ذاك ؟ إن كتاب البريد لا يشير الى اكثر من خمسة

فراسخ وربع . »

فأجابه الريفي :

« آه ! اذن ، فانت لا تعرف ان الطريق قيد الاصلاح ؟

سوف تجدوها منقطعة بعد مسيرة ربع ساعة من هنا . وليس ثمة وسيلة

للذهاب الى ابعد من ذلك . »

« حقا ؟ »

« سوف تعطف نحو الشمال ، وتلك الطريق التي تقود الى

كارانسي ، ثم تعبر النهر . وبعد أن تصل الى كامبلين تعطف نحو

اليمين ؛ تلك هي طريق مون - سان - إيلوا التي تقود الى آراس . »

« ولكن الليل قد هبط . ولسوف اضلّ سبيلي . »

« ألت من ابناء هذه المنطقة ؟ »

« لا . »

« والى ذلك ، فهذه كلها طرق ضيقة اكثر مباشرة من الطريق

العامة . »

قال الريفي هذا ثم اضاف :

« إسمع ، يا سيدي . اريد ان اقدم اليك نصيحة ؟ إن جوادك

متعب ؛ فارجع الى ثالك . إن فيها 'نزلاً' حسناً . ثم هناك . ولسوف

يكون في إمكانك ان تذهب الى آراس غداً . »

« ولكن يجب ان اكون هناك الليلة . »

- « هذه مسألة أخرى . اذن فارجع على اية حال الى الحان وخذ جواداً إضافياً . وفي ميسور الغلام الذي سينطلق مع الجواد ان يهديك سبيلك عبر الطرق الضيقة . »

وحل بنصيحة الريفيّ ، فارندّ على آثاره ، وبعد نصف ساعة كان يجتاز بالمكان نفسه ، ولكن في خبب تامّ ، ومع جواد إضافي جيد . وكان غلام من غلمان الاصطبلات ، دعا نفسه سائق عربات ، قد جلس على ساق العربة .

ومع ذلك ، فقد استشر أنه يضع كثيراً من الوقت .  
كان الظلام قد امسى حالكاً .

وانتهيا الى احدى السبل الضيقة . وغدت الطريق مروعة . وسقطت العُجبة في ثلم لائر ثلم . وقال للسائق :  
- « لآزم الحُجب اضعف لك العطاء . »

واثر احدى الرجّات ، انكسرت قطعة الحُشب الامامية المعلق بها سَيْرُ الجرّ .

وقال سائق العربة :

- « سيدي ، لقد انكسرت قطعة الحُشب الامامية ، ولست ادري كيف أقرن جوادي الآن . وهذه الطريق رديئة جداً في الليل ، فاذا رغبت في ان ترجع الى ثالك وتبيت فيها فعندئذ يكون في إمكاننا أن نصل الى آراس في ساعة مبكرة من صباح غد . »  
فأجابه قائلاً :

- « هل عندك قطعة من حبل وسكين ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

وقطع غصن شجرة واستعاض به عن الاداة الخشبية المكسورة . وهكذا ضاعت عشرون دقيقة أيضاً . ولكنها ما لبثا ان انطلقا



خبياً .

كان السهل مظلماً . وكان ضباب منخفض ، أسود كثيف ، يوحف فوق المضاب ، ويطفو متلاشياً كالدخان . وانبتق من السحاب وميض ضئيل . وملاّت ربيعٌ غنيقة مقبلةٌ من جانب البحر أوجاءَ الاقنق كلّه بصوت شبه ما يكون بذلك الذي يحدنه شخصٌ يجرّك بعض الاثاث . ورائت سبّا الذعر على كل ما لحته عيناه . عجباً ، كيف ترتعد جميع الاشياء تحت انقاس الليل القظيعة !

وعصف به البود . إنه لم يأكل شيئاً منذ الليلة البارحة . واسترجع ، على نحو غامض ، ذكرى مسيره الليلي الآخر في ذلك السهل الواسع المنبسط قرب د ... كان ذلك منذ ثمانية أعوام ، ولقد بدا له وكأنه لم يكن إلا أمس .

ودق جرس ساعة بعيدة . فسأل الغلام :

— « كم الساعة الآن ؟ »

— « الساعة ، يا سيدي . وسوف تبلغ آراس في الساعة الثامنة .

لم يبق أمامنا غير ثلاثة فراسخ . »

وفي تلك اللحظة خطر له لأول مرة — ولقد بدا عجبياً في نظره أن لا يفكر في ذلك من قبل — أن كل العناء الذي يتجشّبه قد يكون غير ذي غناء ، وأنه ما كان يعرف حتى موعدَ الهاكمة ، وأنه كان من واجبه ان يستعلم عن ذلك على الاقل ، وان من البلاهة ان ينطلق في مثل هذه السرعة من غير ان يعرف ما اذا كان لذلك فائدة ما . ثم تمثّل في ذهنه بعض الاعتبارات : ان جلسات محاكم الجنايات تستهل عادةً في الساعة التاسعة صباحاً ، وان هذه الدعوى لن تستغرق وقتاً طويلاً ، وان سرقة التفاح هذه سوف تكون موجزة جداً ، وان المسألة كلها سوف تكون مسألة تحقيق الهوية ، وأنه لن يكون ثمة غير اربعة

شهود أو خمسة وشيء من الكلام قليل يقوله المحامون ؛ وانه قد يصل  
الى هناك بعد ان ينتهي كل شيء !  
والهب السائق الجوادين بسوطه . كانا قد عبرا النهر ، وخلقنا مون  
- سان - ايلي وراءهما .  
واحلوك اقل اكثر فاكتر .

انتهى الجزء الثالث  
ويليه الجزء الرابع وبه يتم المجلد الاول  
من البؤساء



# البؤساء

لشاعر فرنسية العظيم  
فيكتور هيجو

٤

نقله إلى العربية  
مُنير العسلي

دار العالم للملايين  
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

## الاخت سيمبلِس تجرّب

وفي غضون ذلك ، في تلك اللحظة بالذات ، كانت فانتين في جدل . كانت قد قضت ليلة سيئة جداً . سعالٌ مروع ، وحمى متضاعفة ، واحلام مزعجة . وفي الصباح ، حين أقبل الطبيب ، كانت تهذي . كان قليلاً ، وكان قد طلب ان يحاط علماً بجميع ميو مادلين حالماً يتم ذلك . كانت طوال الصباح مغتمة كئيبة . انها لم تتكلم إلا قليلاً ، ولقد راحت تنثني غطاء سريرها منتمة ، في صوت منخفض ، ببعض الحسابات التي بدت اشبه ما تكون بحساب المسافات . كانت عينها غائرتين مستمرتين . ولقد تراءتا كأن النور كاد يفارقهما ، ولكنها كانتا تلتصقان ، في بعض اللحظات ، وتوهجان ، وكأنهما كوكبان . لكأنّ ضياء السماء يملأ - عند اقتراب ساعة مظلمة ما - اولئك الذين يغادرون ضياء الارض .

وكلما سألتها الاخت سيمبلِس عن حالها كانت تجيبها جواباً لا يتغير .

- و بخير . اريد ان ارى ميو مادلين .

قبل بضعة اشهر ، حين فقدت البقية الباقية من حشمتها ، البقية الباقية من حياتها ، البقية الباقية من سعادتها ، كانت خيال نفسها . اما الآن فقد أمت شبح نفسها . كان الألم الجسدي قد أتم عمل الألم المعنوي . فاذا بهذه المخلوقة البالغ عمرها خمسة وعشرين ربيعاً ذات جبين متجدد ، وخدين مترهلين ، ومنخرين مقروصين ، ولثة متقلصة ، وبشرة

رصاصية ، وعنق عظيمة ، وترقوتان \* فانتتان ، واوصال هزولة ،  
وجلد ترابي شاحب ، وشعر وخطه المشيب . وأسفاه ! كيف يوجع  
المرضُ الشيخوخة !

وعند الظهيرة ، اقبل الطبيب كرة اخرى ، وترك بعض الوصفات ،  
وسأل عن العدة أوفدَ على المستشفى ام لا ، وهزّ رأسه .  
كان من عادة مسيو مادلين ان يفد في الساعة الثالثة لسيوى المرأة  
المريضة . وإذا كانت الدقة من الرفق ، فقد كان دقيقاً في المواعيد .  
وحوالى الساعة الثانية والنصف نبا الفراش بفانتين . وفي مدى عشرين  
دقيقة سألت الراهبة اكثر من عشر مرات :

- كم الساعة ، اينها الاخوت ؟

وأعلنت الساعة الثالثة . ولم تكدر تستكمل دقائقها حتى انتصبت فانتين  
في فراشها ، وهي التي كانت لا تستطيع في العادة ان تنقلب على جنبها  
إلا في عسر ، وشابكت يدها العجافون الصراوين في ضمة تشنجية ،  
وسمعتها الراهبة تطلق من صدرها احدى تلك الزفرات العميقة التي تبدو  
وكأنها ترفع ثقلاً ثقيلاً . ثم إن فانتين التفت ونظرت الى الباب .

إن أحداً لم يدخل . إن الباب لم يفتح قط .

وقعدت هكذا طوال ربع ساعة ، مسرّة عينها على الباب ، غير  
مبدية حراكاً ، وكأنها كانت تحبس أنفاسها . ولم تجرؤ الراهبة على  
الكلام . واعلنت ساعة الكنيسة الثالثة والربع . وانطرحت فانتين على  
وسادتها .

ولم تقل شيئاً ، وشرعت تشي غطاء فراشها من جديد .

وانقضى نصف الساعة ، ثم انقضت الساعة ، ولكن أحداً لم يأت .  
وكلما دقت الساعة ، كانت فانتين تنهض ، وتنظر الى الباب ، ثم تنطرح  
على فراشها كرة اخرى .

\* الترغوة : العظم الذي بين ثفرة النحر والمناق . وجها تراف .



كان في ميسور المرء ان يطلع على افكارها في وضوح ، ولكنها لم تلفظ اسماً ما . انها لم تتشك . إنها لم تلتئم . لقد سمعت على نحو فاجع ، ليس غير . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يزعم ان شيئاً مظلماً كان 'يسف' فوقها . كان لونها أزرق ضارباً الى السواد ، وكانت شفتاها زرقاوين . وابتسمت بين الفينة والفينة .

واعلنت الساعة الخامسة . وعندئذ سمعتها الراهبة تقول في صوت منخفض جداً ، وفي وفق :

- « ولكن ما دمت انا ذاهبة غداً ، فإن من الخطأ ان لا يأتي اليوم ! »

واستولى العجب على الاخوت سيمبليلس لتأخر ميسو هادلين . وفي غضون ذلك حدثت فانتين الى مظلة سريرها . لقد بدت وكأنها تحاول ان تتذكر شيئاً . وفجأة انشأت تغني في صوت واهن اشبه بالهمس . وأصفت الراهبة . كانت هذه هي الاغنية التي أنشدتها فانتين :

سوف نشترى أشياء جملة جداً ،  
ونحن ننتزه في الضواحي .  
ان البنفسج أزرق ، وإن الورد حمراء ،  
إن البنفسج أزرق ، وأنا أحب أحبي .

أمس وفدت مريم المذراء ،  
الى فراشي في رداء موشى ،  
وقالت لي : « هنا تحت حجابي ،  
يختمه الطفل الذي سألتي ليابه يوماً . »  
أسرعي الى المدينة ، واشترى نسيجاً قطنياً ،  
اشترى خبوطاً ، واشترى كتباً .

سوف نشترى أشياء جملة جداً ،  
ونحن ننتزه في الضواحي .

أيها المذراء القدسة الطيبة ، لقد وضعت

ال جانب فراشي مهداً مزيناً بالصائب .  
ولو ان الله اعطاني اجل كوكب من كواكبه  
اذن لاحت الطفل الذي اعطيتي اياه اكثر .  
- « سيدي ، ما الذي أصنّه هذا النسيج القطني ؟ »  
- « اصنّي جهازاً لمولودتي الجديدة . »

إن البنفسج ازرق ، وإن الورود حمراء .  
إن البنفسج ازرق ، وأنا أحب احبتي .

- « اغسلي هذا القماش القطني . » - « اين ؟ » - « في النهر . »  
اجعلي منه ، من غير ان تلتقيه او تلويحه ،  
تنورة جملة ، تنورة طويلة جداً  
اريد ان اوسياها واملاها بالازهار .  
- « إن الطفل لم يمد هناك ، يا سيدي ، فاعمل ؟ »  
- « اجعلي منه كفتاً أدسن به . »

سوف نشترى اشياء جملة جداً ،  
ونحن نتنزه في الضواحي .  
إن البنفسج ازرق ، وإن الورود حمراء ،  
إن البنفسج ازرق ، وأنا أحب احبتي .

كانت تلك اغنية قديمة من اغاني مهددة الاطفال تعودت في ما مضى  
ان تنشدها لصغيرتها كوزيت قبيل النوم ، ولم تخطر لها ببال منذ ان  
فارقت طفلتها لخمس سنوات خلت . لقد غشّتها في صوت جدّة محزون ،  
وفي لحن جدّة عذب بحيث لم يكن في ميسورها الا ان تستدر الدموع  
حتى من عيني راهبة واستشعرت الأخت ، برغم تعودها الصرامة ، ان  
غبرة تنحدر على خديها .

واعلنت الساعة السادسة . وبدت فانتين وكأنها لم تسمع . لقد بدت  
وكانها لا تلقي بعدُ بالآ لآبما شيء حولها .

ووجهت الاخت سيمبليس فتاة لتسأل بوابة المصنع هل عاد ميسو

مادلين ، وما اذا كان يعترزم المجيء الى المستشفى وشيكاً ، ام لا ؟  
ورجعت الفتاة بعد بضع دقائق .

كانت فانتين لا تزال جامدة لا تتحرك ؛ ولقد بدت مستغرقة في  
أفكارها الخاصة .

وفي خمس ، روت الفتاة للاخت سيبيليس ان العدة ارتحل ذلك  
الصباح نفسه ، قبل الساعة السادسة ، على متن عربة صغيرة مكشوفة  
يقودها جواد ابيض ، على الرغم من شدة البرد ؛ وانه ارتحل وحده  
من غير ان يصطحب حتى سائقاً ؛ وان احداً لم يعرف الطريق التي  
سلكها ؛ وان بعضهم قال انه شوهد ينعطف متخذاً طريق آراس ؛  
وان آخرين كانوا واثقين من انهم التقوا به في الطريق المؤدية الى باريس ؛  
وانه حين ارتحل بدا ، كمادته ، لطيفاً جداً ، وانه اكتفى بأن قال  
للبوابة ان لا ينتظروا عودته تلك الليلة .

وفيا المرأتان اتهامان ، موليتين ظهرهما سرير فانتين - الراحبة  
تستجوب ، والحادمة تخمن - نهضت فانتين في سريرها على  
الركبتين ، بذلك النشاط الحثوي المرافق بعض الامراض العضوية  
والذي تختلط فيه حركة 'الصحة' الطلقة بهزال الموت المروع ، واستندت  
قبضتها المنشجبتين على الوسادة ، 'مطلعة' رأسها من فتحة الستارة ،  
وانشأت تصفي . وضجأة صاحت :

- « اننا نتحدثان هناك عن مسيو مادلين ! لماذا تتكلمات بصوت  
منخفض جداً ؟ ما الذي فعله ؟ لماذا لا يجيء ؟ »

كان صوتها أجشّ خشناً الى حد خيل للمرأتين انهما سمعتا صوت  
رجل . والتفتنا نحوها مذعورتين .

وصاحت فانتين :

- « لماذا لا نجيان ؟ »

فتلجلجت الحادمة :

— « لقد قالت لي البوابة انه ان يستطيع المجيء اليوم . »  
وقالت الراهبة :

— « إلزمي الهدوء ، يا ابنتي . اضطجعي من جديد . »  
ومن غير ان تغير فانتين وضعها ، استأثفت الكلام في صوت مرتفع ، وفي نبوة ثاقبة وآمرة في آن معاً :  
— « إنه لا يستطيع المجيء ؟ ولم لا ؟ انما تعرفان السبب . كننا تنهماسان به فيما بينكما . اريد ان اعرف السبب . »  
واسرعت الخادمة الى الممس في اذن الراهبة :

— « أجيئها بقولك إن اعمال المجلس البلدي تشغله . »  
واحرمت الاخت سبيليس احمراراً طفيفاً . كان ما اقترحته عليها الخادمة كذبة . ومن ناحية ثانية ، فقد بدا لها ان إعلام المريضة بالحقيقة جدريه به أن يكون ، من غير شك ، ضربة فظيمة ، وأنه كان خطيراً في مثل حال فانتين . ولم يستمر هذا الاحمرار طويلاً . اسعد رفت الاخت عنها الهادئة المحزونة نحو فانتين ، وقالت :

— « إن السيد العمدة قد ذهب . »  
ووثبت فانتين وقعدت على قدميها . والتمعت عيناها . لقد أثرق فوق ذلك الوجه الموجه المزعج ابتهاج خارق .  
وصاحت :

— « ذهب ! لقد ذهب لبأبني بكوزيت ! »  
ثم انها بسطت يديها نحو السماء ، وغدا محيّاها كله بمتنماً على الوصف .  
وتحركت شفتاها . كانت تعطي في صوت خفيض .  
حتى اذا انتهت صلاتها قالت :

— « ايها الاخت ، انا شديدة الرغبة في ان اضطجع من جديد ،  
ولسوف أفعل كل ما تطلبين مني . لقد كنتُ شكية في هذه اللحظة ،  
وانا ألتس عفوك لأنني تكلمت بمثل ذلك الصوت العالي . إن من الفصح

جداً ان يتحدث المرء بصوت عالٍ . انا اعرف ذلك جيداً ، ابنتها  
الاخت الصالحة ، ولكن انظري كم انا سعيدة . انت الرب لطيف .  
وان ميو مادلين طيب . تصوّري انه ذهب الى مونفيرماي لكي  
يجيئي بصغيرتي كوزيت .

واضطجعت من جديد ، وساعدت الراهبة على تسوية الوسادة ،  
وقبلت الصليب الفضي الصغير الذي بطوّق جِدها ، والذي كانت  
الاخت سيبيليس قد منحتها إياه .  
وقالت الراهبة :

— « حاولي ، يا ابنتي ، ان تسترخي الآن ، ولا تتطقي بعدُ بكلمة . »  
وأمسكت فانتين بيديها النديتين يد الراهبة التي آلمها ان تستشعر  
هذا العرق .

— « لقد ذهب هذا الصباح قاصداً الى باريس . الواقع انه ليس في  
حاجة حتى الى المرور بباريس . ان مونفيرماي تقع الى اليسار بعض  
الشيء ، في طريق المسافرين القادم الى هنا . انت تذكرين ما قاله لي ،  
امس ، عندما حدثته عن كوزيت : قوياً جداً ، قوياً جداً ! تلك  
مفاجأة يريد ان يقدمها اليّ . هل تعرفين ؟ لقد طلب اليّ ان اوقع  
على رسالة لاسترجاعها من تيناردييه وزوجته . ان يكون عندهما  
ما يقولانه ، اليس كذلك ؟ سوف يرجعان كوزيت اليّ . لأنها نالا  
اجورهما . إن السلطات ان تسمح لهما بأن يحجزا طفلة بعد ان تدفع  
اليها اجورهما . ابنتها الأخت ، لا تؤمني اليّ بضرورة الامتناع عن  
الكلام . انا سعيدة جداً ، انا في صحة حسنة جداً . لم اعد احس  
بألم على الاطلاق ، ولسوف ارى كوزيت من جديد . بل انني جائعة  
جداً . لقد انقضت خمس سنوات لم أرها خلافاً . إنك لا تتصورين ،  
إنك لا تستطيعين ان تتصورتي ، أي سلطان يفرضه الاطفال عليك . والى  
هذا ، فسوف تكون جميلة جداً ، سوف ترين ! وإن لها ، لو عرفت ،

اصابع وردية صغيرة فاتنة جداً ! أولاً ، سوف يكون لها يدان جميلتان جداً . يومَ كان عمرها سنة كانت لها يدان مضحكتان . - هكذا ! يجب ان تكون قد كبرت الآن . إنها في السابعة من عمرها . انها سيدة صغيرة . انا ادعوها كوزيت ، ولكن اسمها أوفرازي . اسمي . هذا الصباح كنت انظر الى الغبار الذي كان يعلو الموقد ، فخطر لي انني لا بدّ سأرى كوزيت كرةً اخرى في وقت قريب جداً ! يا الهي ! ما أفدحه من خطأ ان يسلمخ الانسان سنوات عديدة من غير ان يرى اولاده ! يجب علينا ان نذكر ان الحياة ليست أبدية . اوه ! كم كان جميلاً من السيد العبد ان يذهب ! هل صحيح ان الجو بارد جداً ؟ هل ارتدى معطفه على الاقل ؟ سوف يكون هنا غداً ، اليس كذلك ؟ هذا ما سيجعل يوم غدٍ عيداً . وغداً صباحاً ، ايتها الاخت ، سوف نذكريني بأن أعتمر قلنسوتي الصغيرة المصنوعة من الوشي . ان مونفيرماي بلدة ريفية . لقد اجتزت هذه الطريق ، مرةً ، على قدمي . كانت الرحلة طويلة جداً بالنسبة اليّ . ولكن العربات العمومية تنطلق في سرعة بالغة ! إنه سوف يكون هنا ، غداً ، مع كوزيت . كم تبعد مونفيرماي عن هذا البلد ؟

فأجابت الراهبة ، ولم تكن لديها أيما فكرة عن المسافات :  
- و اوه ! أعتقد اعتقاداً قوياً بأنه سيستطيع ان يكون هنا غداً .

فقلت فاتين :

- و غداً ! غداً ! سوف ارى كوزيت غداً ! انظري ، يا راهبة الرب الصالحة ، أنا لم اعد مريضة . انا مرحة . واني جديرة بأن أرقص اذا سألتني امرؤ ان افعل .

وما كان في ميسور من 'قدر له ان يراها قبل ربع ساعة ان يفهم هذا . كان لونها كلها وردياً الآن ، وكانت تتكلم في نبوة طبيعية تمور

بالنشاط . ولم يكن وجهها غير بسة . وبين الفينة والفينة كانت  
تضحك فيها هي مخاطب نفسها في صوت خفيض . إن ابتهاج الأم يكاد  
يكون مثل ابتهاج الطفل .  
وأستأنفت الراهبة كلامها :

— « حسن ، انتِ سعيدة الآن ، فأطيعيني . لا تتكلمي أكثر بما  
فعلتِ . »

وألقت فانتين رأسها على الوسادة وقالت في صوت كالهمس :  
— « أجل . اضطجعي كرة أخرى . كوني حكيمة ما دمت  
ستفوزين بابتنك . إن الاخت سيمبليس على صواب . كل من في هذا المكان  
على صواب . »

ثم انها شرعت تنظر بعد ذلك — من غير أن تتحرك او تدبر  
رأسها — الى ما حولها ، بعينين مفتوحتين الى اقصى مدى ، وبانطباع  
بهيجة . ولم تنطق بكلمة اضافية .

وأغلقت الراهبة الستارة ، وجاءة ان تستلم المريضة للرقاد .  
وبين الساعة السابعة والساعة الثامنة اقبل الطبيب . واذا لم يسمع  
صوتاً ، فقد حسب ان فانتين نائمة . فدخل الغرفة في تؤدة ، واقترب  
من سريرها على رؤوس أصابعه . وفتح الستارة ، وعلى ضوء الفئيديل  
الباهت رأى عيني فانتين الواحنتين المادنتين تنظران اليه .  
وقالت له :

— « سيدي ، سوف تسمح لما بأن ترقد الى جانبي في سرير صغير ،  
أليس كذلك ؟ »

وظنّ الطبيب انها تهذي . وأضافت :

— « انظر . إن هنا مكاناً يتسع لما قاماً . »

وانتهى الطبيب بالاخت سيمبليس جانباً ، فأعلمته ان مسيو مادلين  
غادر البلدة في رحلة تستغرق يوماً أو يومين ، وأنها رأت من الخير —

وقد أعوزها اليقين - ان لا تتحدع المريضة التي اعتقدت ان العمدة قصد الى مونفيرماي ، وان من الجائر ، على اية حال ، ان يصدق ظنها . وأقر الطيب ذلك .

وانقلب الى سرير فانتين كرة أخرى . فأضافت :  
- « وفي الصباح ، عندما تستيقظ ، سوف يكون في إمكاني أن أقول صباح الخير لهذه المرأة الصغيرة المسكينة . وفي المساء سوف يكون في إمكاني ، انا التي لا تنام ، ان أسمعها وهي نائمة . ان انقاسها الصغيرة هي من العذوبة بحيث تردّ الى العافية . »  
وقال الطيب :

- « أعطيني يدك . »  
وبسطت ذراعها ، وصاحت ضاحكة :  
- « آه ! رويدك ! في الواقع ، هذا صحيح ، إنك لا تدري . ولكنني قد شفيت . كوزيت سوف تأتي غداً . »  
ودّش الطيب . كانت في حال خير من ذي قبل . كانت عُسر التنفس قد خفت ، وكان نبضها قد قوي . إن ضرباً من الحياة الجديدة قد دبّ فجأةً في جسد هذه المخلوقة المسكينة المنهكة القوى .  
وتابعت :

- « ايها الطيب ، هل اخبرتك الراهبة ان ميسو مادلين ذهب ليجيء بالطفلة الصغيرة ؟ »

واوصاها الطيب بالصمت ، وباجتناب كل انفعال أليم . ووصف لها نقيع الكينا الحار ، ناصعاً ، اذا عاودتها الحمى ليلاً ، بأن 'تسقى دواءً مسكناً' . وفيما هو يمضي لسبيله ، قال للراهبة :

- « انها احسن حالاً . واذا شاء حسن الطالع ان يرجع العمدة بالطفلة الصغيرة في غدٍ فعلاً ، فمن يدري ؟ إن ثمة كَوْنَاتٍ تدعو الى الدهش . وكثيراً ما رأينا الجذل العظيم يشفي من الامراض في الحال .



انا اعلم جيداً ان هذا مرض عضوي ، وانه قد انتهى الى مراحله  
الخطيرة ، ولكن هذا كله لفر عجيب ! إننا قد نوفق الى انقاذها . ،

## ٧

### المسافر يصل ويعد العدة للرجوع

كانت الساعة الثامنة مساء ، تقريباً ، عندما بلغت العُجيلة التي تركناها  
على الطريق قناء دار البريد في آراس . وتوجّل الرجل الذي تبعناه حتى  
هذه اللحظة ، وردّ على مجاملات المشرفين على الفندق في ذهول ، وأعاد  
الجواد الاضافي ، وقاد الجواد الصغير الابيض بنفسه الى الاصطبل ؛ ثم  
دفع باب غرفة البليارد القائمة في الدور الاول ، وجلس على كرسي ،  
وأسد مرفقيه الى الطاولة . كان قد أنفق اربع عشرة ساعة في هذه  
الرحلة ، التي توقع أن يقوم بها بستّ لبس غير . وأقرّ نفسه على ان  
الغلطة ليست غلطته ؛ أما في أعماقه فلم يكن غاضباً لذلك .  
ودخلت ربة الفندق .

- « اريد سيدي ان ينام ، أريد سيدي ان يتعشى ؟ »  
وهز رأسه .

- « يقول صبيّ الاصطبل ان جواد سيدي متعب جداً ! »  
وهنا قطعَ جيلّ الصمت :

- « ألن يكون الجواد قادراً على العودة صباح غد ؟ »

- « اوه ، يا سيدي ؟ إنه في حاجة الى يومٍ راحة على الأقل . »  
وسأل :

- « البس مكتب البريد هنا ؟ »

- « نعم يا سيدي . »

وقادته صاحبة الفندق الى المكتب . وبرز جواز سفره وسأل ما اذا كان في إمكانه ان يعود تلك الليلة الى مونتروي سور مير على متن مركبة البريد . ولم يكن قد بقي غير مقعد واحد ، هو المقعد المحاذي للسائق . فاحتجزه ودفع أجر السفر .

وقال رئيس المكتب :

- « لا تنسَ ان تكون على أهبة السفر ، هنا ، في تمام الساعة الواحدة صباحاً . »

حتى اذا تمّ ذلك غادر الفندق وشرع يتمشى في المدينة . كان لا يعرف آراس ، وكانت الشوارع مظلمة ، فراح يذرعها كيفما اتفق . ومع ذلك فقد بدا وكأنه يُججم في عناد عن اب يسأل عابري السبيل ان يدلوه على الطريق . وعبر نهر كرينشوت الصغير ، فوجد نفسه في تيه من الشوارع الضيقة ما لبث ان ضلّ فيها السبيل . وأقبل مواطن يحمل فانوساً . وبعد شيء من التردد وطّن العزم على ان يتحدث الى هذا الرجل ، ولكن بعد أن نظر الى امام والى وراءه وكأنما كان يخشى ان يسمع احد السؤال الذي كان على وشك ان يطرحه . وقال :

- « سيدي ، أين يقع قصر العدل من فضلك ؟ »

فأجاب المواطن ، وكان رجلاً عجوزاً :

- « انت لست من أبناء هذه المدينة ، يا سيدي ؟ حسن ، إتبعني . انا ذاهب الى قصر العدل على وجه الضبط ، يعني الى دار البلدية ، ذلك لأنهم يصلحون القصر في هذه اللحظة ، فالحاكم تعقد جلساتها في دار البلدية مؤقتاً . »  
فأله :

- « وهل تعتقد محكمة الجنايات هناك ؟ »

- « من غير شك ، يا سيدي . ان دار البلدية ، كما ترى ، كانت قصر

الاسقف قبل الثورة . فقد شيد مسير دو كورتزيه ، الذي كان اسقفاً عام اثنين وثلاثين ، قاعة رحبة . وهناك في هذه القاعة تجري المحاكمات . ، وفيما كانا يتخذان سبيلهما نحو تلك الدار قال له المواطن :  
- « اذا كان ما يرغب فيه سيدي هو ان يشهد محاكمة فأحسب انه قد جاء متأخراً بعض الشيء . ان الجلسات 'تُختم' عادة في الساعة السادسة . »

ومع ذلك ، فحين بلغا الساحة العامة اراه المواطن اربع نوافذ طويلة مضاة ، عند واجهة بناية واسعة مظلمة  
- « قسماً ، يا سيدي ، لقد وصلت في الوقت المناسب ؛ انك ذو حظ سعيد . أترى هذه النوافذ الاربع ؟ تلك هي محكمة الجنابات . إن ثمة نوراً . وإذن فهم لمّا ينتهوا . لا بد ان القضية قد تطاولت ، فهم يعقدون جلسة مساءية . هل تهيك هذه القضية ؟ أهى قضية جنائية ؟ هل انت شاهد من شهودها ؟ »  
فأجابه :

- « انا لم أقبل لغرض ما . انا اريد ان اتحدث الى احد المحامين ليس غير . »  
فقال المواطن :

- « هذه مسألة اخرى . قف يا سيدي ! هوذا الباب . وهوذا الحاجب هناك . وليس عليك إلا ان ترتقي السلم الكبيرة . »  
واتبع ارسادات المواطن . وما هي الا بضع دقائق حتى وجد نفسه في قاعة احتشد فيها خلق كثير ، وتناثرت جماعات من المحامين في ارواجهم يتهايمون ههنا وهناك .

ان بما يقبض النفس دائماً ان يرى المرء الى هذه الجموع من الرجال المتشحين بالسواد يتجادلون اطراف الحديث في ما بينهم ، بصوت خفيض ، على عتبة قاعة المحكمة . ومن النادر ان تنطلق المحبة والشفقة من

تلك الاقوال كلها . ان ما ينطلق منها في الاغلب أحكام تُلَفِّظ سلفاً . وكل هذه الجُمُوع تبدو في عين الملاحظ الذي يمرّ ويفكّر أشبه بجمهرة من الحلّايا القائمة حيث تنصرف صنوف من الارواح المصادرة الآزّة الى انشاء مختلف ضروب الابنية المظلمة ، على نحو مشترك .

وكانت هذه القاعة المضاءة ، على رجليها ، بمصباح مفرد ، قاعة قديمة من قاعات القصر الاسقي ، وكانت بمثابة غرفة انتظار . كان باب ذو مصراعين - وكان مغلقاً في تلك اللحظة - يفصلها عن القاعة الكبرى حيث عُقدت محكمة الجنابات .

وكانت الظلمة من الشدة بحيث لم يستشعر ايّ خوف من مخاطبة أول عامر التقاه ، قائلاً :

- « سيدي ، الى اين صارت المحاكمة ؟ »

فأجابه المحامي :

- « انتهت . »

- « انتهت ! »

ورُدّت هذه الكلمة في نبرة جعلت المحامي يستدير .

- « عفواً يا سيدي ، لعلك احد انباء المتهم ؟ »

- « لا . انا لا اعرف احداً هنا . وهل 'حكم على المتهم ؟ »

- « طبعاً . إن شيئاً غير ذلك لم يكن ممكناً . »

- « بالاشغال الشاقة ؟ »

- « مدى الحياة . »

وتابع في صوت واهن الى درجة جعلته لا يكاد يُسمع :

- « لقد اثبتوا هُويته ، اذن ؟ »

فأجابه المحامي :

- « أية هوية ؟ لم يكن ثمة هوية ينبغي ان تُثبت . كانت المسألة

بسيطة . كانت هذه المرأة قد قُلت طفلها ؛ ولقد اقيم الدليل على انها

ارتكبت هذه الجريمة ، ولم يقتنع المحكمون بأنه كان ثمة سابق تصور  
وتصميم ؛ فعُكِّم عليها بالسجن مدى الحياة .  
فقال :

- « هي امرأة اذن ؟ »
- « طبعاً . انها الفتاة اليموسينية . عمن كنت تحدثني اذن ؟ »
- « عن لا شيء . ولكن ما دامت الجلسة قد انتهت فعلام لا تزال  
القاعة مضاءة ؟ »
- « تلك قضية اخرى بدىء النظر فيها منذ ساعتين تقريباً . »
- « اية قضية اخرى ؟ »
- « اوه ! وهذه قضية واضحة ايضاً . إنه لص من نوع ما ؛ ذو  
سوابق ؛ عبدٌ من عبيد الاشغال الشاقة الارقاء . إنها دعوى سرقة .  
لقد نسبت الاسم . إنه يبدو اشبه بقاطع طريق . ولو لم يكن له  
من ذنب غير حملهِ مثل هذا الوجه لبعثت به الى سجن المحكوم عليهم  
بالاشغال الشاقة . »
- وسأله :

- « سيدي ، هل ثمة وسيلة ما للدخول الى القاعة ؟ »
- « اظن ذلك غير ممكن ، حقاً . إن ثمة حشداً كبيراً . وعلى  
اية حال ، فقد رُفعت الجلسة الآن للاستراحة . ولقد غادر بعض النظارة  
المكان ، وفي إمكانك ان تحاول عندما يُستأنف النظر في القضية . »
- « من اين يُدخل الى القاعة ! »
- « من ذلك الباب الكبير . »
- وفارقه المحامي . وفي بضع ثوانٍ اجتاحته ، في وقت واحد تقريباً ،  
وعلى نحو متنازع تقريباً ، جميع الانفعالات الممكنة . كانت كلمات  
هذا الرجل اللامبالي قد ثقت قلبه ، بالتناوب ، مثل إبر من جليد ،  
او مثل نصال من نار . وحين علم ان الامر لم ينقصر بعدُ اخذ نفساً .

ولكنه لم يكن قادراً على ان يجزر أكان شعوره ذاك ارتياحاً أم كان ألماً .

واقترَب من بعض الجماعات واصفى الى ما يقولون . واذ كان جدول الدعاوى مثلاً فقد رأى القاضي ان ينظر في دعوتين بسيطتين قصيرتين في يوم واحد . كانوا قد بدأوا بمحاكمة قائلة ابنها ، وهما هم الآن ينظرون في دعوى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، دعوى المجرم ذي السوابق ، دعوى « المنرس الحبير » . هذا الرجل سرق شيئاً من التفاح ، ولكن يبدو ان الدليل لم ينهض على ذلك . ان الذي نهض عليه الدليل هو انه كان من قبل من نزلاء سجن الاشغال الشاقة في طولون ، وهذا ما أفسد قضيته . لقد أنجز استنطاق الرجل ، وأخذت إفادات الشهود ، ولكن بقيت ثمة مرافعة الحماسي ، ومطالبة النيابة العامة ، ومن المثير ان يتم ذلك قبل منتصف الليل . واغلب الظن ان الرجل سوف يُدان ؛ فقد كان النائب العام طيباً جداً ، وما كان ليخطيء احداً من متهميه . كان وجلاً ذا موهبة ، وكان ينظم الشعر . ووقف حاجب قرب الباب المؤدي الى قاعة المحكمة . وسأل هذا الحاجب :

« سيدي ، هل سيفتح الباب قريباً ؟ »

فقال الحاجب :

« الباب لن يُفتح . »

« كيف ! اني يفتح عند استئناف الجلسة ؟ ألم ترفع الجلسة

للاستراحة ؟ »

فاجابه الحاجب :

« لقد استؤنفت المحاكمة ، ولكن الباب لن يُفتح مرة أخرى . »

« لم لا ؟ »

« لأن القاعة مملأى . »

- « ماذا ؟ ألم يبق ثمة مقعد ؟ »  
- « لم يبق مقعد واحد . الباب مقفل . وليس في استطاعة أحد أن يدخل . »

وبعد صمت ، أضاف الحاجب :  
- « الواقع انه لا يزال ثمة مقعدان او ثلاثة خلف السيد رئيس المحكمة ، ولكن السيد رئيس المحكمة لا يجيز لغير موظفي الحكومة ان يجلسوا عليها . »

قال الحاجب ذلك ، وولاة ظهره .  
وانسحب مطأطئ الرأس ، واجتاز الغرفة المحاذية ، وهبط السلم في ببطء ، وقد بدا متردداً عند كل خطوة . ولعله كان يشاور نفسه ، فالصراع العنيف الذي كان دائراً في ذات نفسه منذ الليلة البارحة لم يكن قد انتهى . وفي كل لحظة كان يشهد تحولاً جديداً ؛ حتى اذا بلغ منبسط السلم انحنى على الدرايزون ، وطوى ذراعيه . وفجأة ، فتح ستورته ، واخرج محفظته ، وتناول قلماً ، ونزع ورقة ، وكتب عليها في عجل - على ضوء باهت منبثق من مصباح ذي مرآة عاكسة - هذا السطر : مسيو مادلين ، عمدة مونتيوي سور مير . ثم ارتقى السلم من جديد في خطوات واسعة ، واخترق الجروع ، وتقدم نحو الحاجب مباشرة ، وقال له في نبرة ذي السلطان :

- « إحمل هذه الى السيد رئيس المحكمة . »  
وتناول الحاجب الورقة ، وألقى نظرة عليها ، وامتلأ الامر .

## دخول بامتياز

ومن غير ان يجتنب هو ذلك ، كان لعبد مؤتوي سور مير ضرب من الشهرة . فطوال سبع سنوات طبقت شهرة فضيلته آفاق « بولونية الدنيا » كلها ، لتنتهي بعد ذلك الى ان تتخطى حدود الاقليم الصغير وتذيع في مديرتين او ثلاث من المديريات المجاورة . فالى جانب الخدمات الجليلة التي أسداها الى البلدة الرئيسية من طريق إحياء صناعة الحرز الاسود ، لم يكن ثمة قضاء من أفضية اقليم مؤتوي سور مير البالغ عددها مئة وواحد وأربعين ليس مديناً له بنعمة ما . بل لقد سبق له ان عمل ، عند الاقتضاء ، على إنعاش الصناعة في المناطق الاخرى ومد يد العون اليها . وهكذا عاود باعتباره ورأسماله ، حين مست الضرورة الى ذلك ، مصنع النسيج الرقيق في بولوني ، ومصنع غزل الصوف في فريفان ، والمصنع المائي للمسوجات القنبية في « بور سور كانش » . وفي كل مكان كان اسم مسيو مادلين يُلفظ في إجلال . ولقد حسدت « آراس » و « دوويه » مدينة مؤتوي سور مير الصغيرة المحظوظة على عمدتها .

وكان مستشار محكمة دوويه الملكية الذي رئس جلسة محكمة الجنايات هذه في آراس يألف - شأن كل امريء - هذا الاسم الذي ينعم بأعظم التبجيل وأكثره شهولاً . فما إن فتح الحاجب ، في هدوء ، ذلك الباب الموصل ما بين غرفة المذاكرة وقاعة المحكمة ، وانحنى خلف كرسي الرئيس مقدماً الى الورقة التي «خط» عليها السطر الذي قرأناه اللحظة ، مضيفاً : « هذا السيد يرغب في ان يشهد الجلسة » حتى



انى بجرمة عجلنى تنضح بالاحترام ، وتناول قلماً ، وخطّ بضع كلمات في  
ادنى الورقة ، واعادها الى الحاجب قائلاً :  
- « دعه يدخل . »

كان الرجل التمس الذي نزوي قصته قد ظل واقفاً قرب باب القاعة ،  
في المكان نفسه ، حيث تركه الحاجب من قبل ، وبالوضع نفسه الذي  
غادره عليه . لقد سمع ، من خلال هواجسه ، شخصاً يقول له : « هل  
يرغب سيدي في ان يشرفني بالحقاق بي ؟ » . كان هو ذلك الحاجب عينه  
الذي ولاته ظهره منذ لحظة ، والذي انحنى له ، الآن ، حتى الارض .  
وفي الوقت نفسه قدّم اليه الحاجب قصاصة الورق فنشرها . واذا اتفق ان  
كان مرفقه قرب المصباح ، فقد استطاع ان يقرأ :

« إن رئيس محكمة الجنايات يقدم احترامه الى مسيو مادلين . »  
وسحق الورقة بين يديه وكان هذه الكلمات القليلة خلّفت في ذات  
نفسه طعناً غريباً مريراً .  
وتبع الحاجب .

وبعد بضع دقائق وجد نفسه منفرداً في شبه ردهة مطوّقة بالخشب ،  
ذات مظهر صارم ، مضادةً بشمعتين اثنتين وضعتا على طاولة مغطاة  
بقماش اخضر . كانت الكلمات الاخيرة التي قالها الحاجب وهو يفارقه  
لا تزال ترن في أذنه : سيدي ، انت الآن في غرفة المذاكرة وليس  
عليك إلا ان تدبر نفسك هذا الباب النحاسي لتجد نفسك في قاعة المحكمة  
خلف كرسيّ الرئيس . « وفي ذهنه اختلطت هذه الكلمات بذكرى  
غامضة للاروقة الضيقة واللام التي اجتازها منذ لحظة .

وكان الحاجب قد تركه وحيداً ، وكانت اللحظة الحاسمة قد أزفت .  
وحاول ان يتجمع افكاره ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . ففي تلك  
الساعات ، بخاصة ، حين نكون في أمسّ الحاجة الى ان نُلمّ بحقائق  
الحياة الموجعة نتقطّع خيوط الفكر في الدماغ . كان في قلب تلك

الغرفة التي يتشاور فيها القضاة ويصدرون أحكامهم . لقد رأى في سكبنة بلهاء الى تلك الغرفة الصامتة الراحبة التي أزهدت فيها ارواح كثيرة ، والتي سيدوي اسمه فيها في الحال ، والتي كان قد رآه يجتازها في هذه اللحظة . لقد نظر الى الجدران ، ثم نظر الى نفسه وقد اذهله ان تكون هذه هي تلك الغرفة ، وان يكون هذا هو إياه .

وكان قد سلخ ما يزيد على اربع وعشرين ساعة لم يذق خلالها طعاماً ما . كانت رجات العُجيلة قد رخت جسده ، ولكنه لم يستشعر ذلك . لقد بدا له انه لا يحس بشيء .

واقرب نحو إطار اسود معلق على الجدار كانت يشتمل خلف لوح زجاجي على رسالة قديمة خطتها يد جان نقولا باش ، عمدة باريس ، الذي تولى منصب الوزارة ايضاً ، وكانت مؤرخة ، نتيجة خطأ من غير شك ، هكذا : « ٩ حزيران السنة الثانية » \* وقد وجهها « باش » الى رجال البلدية مضمناً إياها ثبناً بالوزراء والنواب الذين اعتقلوا ضمن حدود منطقتهم . ولو ان امرأ شاهده وراقبه آنذاك إذن لجعل اليه من غير ريب ان تلك الرسالة بدت غريبة جداً في نظره ، إذ لم يرفع عينيه عنها ، وإذا قرأها مرتين أو ثلاث مرات . لقد قرأها من غير ان يلقي اليها بالاً ، ومن غير ان يدري ما الذي كان يفعله . كان يفكر بفانتين وكوزيت .

وحتى فيما هو يفكر استدار على غير وعي منه ف وقعت عيناه على المسك النحاسي الخاص بالباب الذي يفصل ما بينه وبين قاعة محكمة الجنايات . كان قد نسي ذلك الباب تقريباً . واضطرب بحياه ، وكانت

---

\* أي السنة الثانية من الجمهورية ، ويتجلى الخطأ في كلمة « حزيران » على اعتبار ان الدورة الفرنسية ألفت هذه الشهور وأحلت محلها تقوياً خاصاً . والشهر الذي يوافق حزيران في تقويم الثورة هو شهر بريال Prairial ( من ٢٠ نوار الى ١٨ حزيران ) وشهر ميسيدور Messidor ( من ٢٠ حزيران الى ١٩ تموز ) .

من قبل ساكناً . وتُسمرت عيناه على ذلك المسك النعاسي ، ثم غدتا  
منشدتين محدقتين ، وامتلتا بالذعر شيناً بعد شيء . وتصببت من رأسه  
قطرات العرق ، وتحدّرت على صدغيه .

وفي إحدى اللحظات أوماً ، في ضرب من السلطان مزوج بالتمرد ،  
تلك الأيماة التي لا سبيل إلى وصفها والتي تعني وتقول بأفصح لسان :  
حسن ! ومن ذا الذي يُكوهني على ذلك ؟ ثم إنه استدار في سرعة ،  
فرأى امامه الباب الذي دخل منه ، فتقدم نحوه ، وفتحه ، وخرج .  
إنه لم يعد في تلك الغرفة . لقد أمسى خارجها ، في أحد الأروقة -  
في رواقٍ طويل ضيقٍ تجزّته الدرجات والأبواب الفرعية التي تشكل  
مختلف ضروب الزوايا ، كانت تسيّره ههنا وههناك مصابيح معلقة على  
الجدران هي أشبه بقنديلات المرضى . كان الرواق الذي دخل منه .  
وأخذ نفساً ، واصل . لم يكن ثمة صوت ما خلفه ، ولم يكن ثمة  
صوت ما امامه . وركض وكأنّ أحداً كان يطارده .

حتى إذا اجتاز عدداً من منعطفات هذا الجاز ، اصفى كرة ثانية .  
كان لا يزال محوطاً بالصمت نفسه ، والظلّ نفسه . وضاق نفسه ،  
وترنح ، واستند إلى الجدار . كان الحجر بارداً ، وكان العرق مثلوجاً  
على جبينه . وتصدّر وهو يرتعد .

وهناك ، في غمرة من الوحدة ، وقد وقف وسط هذه الظلمة ،  
وارتجف من البرد وربما من شيء آخر أيضاً ، أنشأ يفكر .

كان قد فكر طوال الليل . وكان قد فكر طوال النهار . ولم  
يسمع الآن ، في ذات نفسه ، غير صوت واحد يقول : « وأسفاه ! »  
وانقضت ربع ساعة على هذا النحو . وأخيراً حتى رأسه ، وزفر في  
كرب ، وأرخص ذراعيه ، وارتد على آثاره . لقد مشى في بطنه ،  
وكانه يحمل ثقلاً ثقيلاً . لقد تراءى وكأنما ألقي القبض عليه فيما هو يفرّ  
وأعيد ادراجه .

ودخل غرفة المذاكرة من جديد . كان مقبض الباب هو اول ما وقعت عليه عيناه . والتمع ذلك المقبض ، المستدير المصنوع من نحاس مصقول ، أمامه مثل نجم مشؤوم . ونظر اليه كما ينظر حَمَلٌ الى عين نمر .

ولم تتمكن عيناه من مفارقة ذلك المقبض .  
وبين آونة واخرى ، كان يخطو خطوة نحو الباب .  
ولو قد ألقى اذن لسمع ، كضربٍ من الدمدمة المختلطة ، الضجة المنبعثة من القاعة المجاورة ، ولكنه لم يُسمع ولم يسمع .  
وفجأة ، ومن غير ان يدري كيف ، وجد نفسه قرب الباب .  
وأمسك بالمقبض في تشجج ؛ وفتح الباب .  
كان في قاعة المحكمة .

## ٩

### موطن تتكون فيه البيئات

وخطا خطوة ، واغلق الباب خلفه على نحو ميكانيكي . وظل واقفاً متأملاً ما يراه .

كانت قاعة فسيحة ، مضادة اضاءة باهتة جداً ، يغررها الضجيج حيناً ويرين عليها الصمت حيناً ، حيث كانت آلية الدعوى الجنائية كلها معروضة ، برزانتها الحقيبة الحديدية ، على انظار الجمهور .

ففي احد اطراف القاعة ، ذلك الذي وجد نفسه فيه ، كان قضاة غافلون مرتدون أرواباً متهرئة يقضون اظافرهم ، أو يطبقون اجفانهم . وفي الطرف الاخر كانت جمهرة في أسمال بالية ؛ ومحامون في مختلف الاوضاع ؛ وجنود أولو وجوه محتشمة وصارمة ، والواح خشبية عتيقة ملوثة تطوق الجدران ،

وسقف قذر ؛ وطاولات مغطاة بنسيج صوفي غليظ هو الى الصخرة اقرب  
منه الى الحفرة ؛ وأبواب مسودة من أثر الايدي ؛ ومصاييح حافات  
ترسل الدخان اكثر مما ترسل النور معلقة الى مسامير دقت في خشب  
الجدران ؛ وشموع في شمعدانات نحاسية موضوعة على الطاولات ؛ وظلمة  
وبشاعة ، وكآبة ، ومن ذلك كله انبعث انطباعة كالحة وجليقة . ذلك  
ان الناس استشعروا انهم في حضرة ذلك الشيء الانساني العظيم الذي  
ندعوه القانون ، وذلك الشيء الالهي العظيم الذي ندعوه العدالة .

ولم يلتفت احد من افراد ذلك الحشد اليه . كانت الأعين كلها  
مصوبة الى نقطة واحدة : مقعد خشبي مسند الى باب صغير في محاذة  
الجدار القائم الى يسار الرئيس . وعلى هذا المقعد الذي أضاعته عادة  
شموع ، كان رجل يجبط به اثنان من رجال الدرك .  
كان ذلك الرجل هو المتهم .

إنه لم يبحث عنه ؛ لقد رآه . لقد مضت عيناه نحوه على نحو طبيعي  
وكانما كانتا تعلمان سلفاً أين هو .

وخيل اليه أنه يرى نفسه ، وقد تقدمت به السن ، وعلى شيء من  
النبأين في الحبس من غير شك ، ولكن في شبه كامل من حيث الهيئة  
والمظهر . رأى نفسه بهذا الشعر المنفوش ، وبهاتين الحدقتين الذهباوين  
المحزونتين ، وبهذا القميص الذي يشبه ذلك الذي كان يرتديه يوم دخل  
مدينة د ... ، بلاء الحقد ، حاجباً في ذات نفسه تلك الذخيرة البشعة  
من الافكار المروعة التي سلخ تسعة عشر عاماً في جمعها فوق ارض  
السجن .

وقال لنفسه وهو يرتعد :

« يا الهي ! هل سأصبح هكذا مرة ثانية ؟ »

لقد بدا هذا المخلوق في الستين من عمره ، على الأقل . كان ثمة في  
مظهره شيء جاف ، أبله ، مروّع على نحو لا حيل الى وصفه .

وعلى صوت الباب ، كان الناس قد اصطفوا ليفسحوا له في مجال الدخول ، وكان الرئيس قد التفت . وإذا افترض ان الداخل هو عمدة مونتروي سور مير فقد حتى رأسه تحية له . وكان النائب العام قد رأى ميو مادلين في مونتروي سور حيث استدعي غير مرة بحكم وظيفته ، فعرفه وحتى رأسه تحية له ايضاً . أما هو فكاد ان لا يلاحظها . كان فريسة لضرب من الملوسة . وتأمل في ما حوله .

قضاة ، كاتب محكمة ، درك ، حشد من الرؤوس الفضولية الى حد وحشي - لقد شهد ذلك مرة في ما مضى ، منذ سبع وعشرين سنة . هذه الاشياء المروعة - لقد وقع عليها كرة اخرى . لقد كانت هناك ؛ لقد كانت تتحرك ؛ لقد كانت كائنات ذات حياة . إن ذلك لم يعد جهداً من جهود ذاكرته أو وهماً من اوهام خياله ، ولكنهم درك حقيقيون ، وقضاة حقيقيون ؛ وحشد حقيقي ، واناس حقيقيون من لحم ودم . لقد قضى الأمر . لقد رأى مشاهد ماضيه المنيعة ، بكل ما في الحقيقة من فظاعة ، تعاود الظهور وتحيا من حوله كرة اخرى .

كان ذلك كله فاعراً فيه امامه .

واستبد به الذعر ، وانحس عينيه ، وصاح من اعماق روحه :  
« ابدأ ! »

وبلعبة فاجعة من امب القدر التي كانت تثير افكاره كلها وتكاد ان تذهب بعقله كانت نسخة اخرى عن نفسه تجلس هناك ! لقد كان القوم كلهم يدعون هذا الرجل الذي يحاكمونه جان فالجان !  
كان امام عينيه رؤيا لم يُسمع بها من قبل . ضرب من التمثيل لأرعب لحظة في حياته يقوم به طيفه .

كان كل شيء هناك : الاداة نفسها ، والساعة نفسها من الهيل ، ووجوه القضاة والجنود والنظارة نفسها تقريباً . الفرق الوحيد انه كان

يرقع فوق هامة الرئيس نثال المصلوب ، وهو شيء لم يكن يُرى في قاعات المحاكم يومَ صدر الحكم عليه . فحين حاكموه ، لم يكن الربَ هناك .

كان خلفه كرميٌّ ، فألقى بجسده عليه وقد عصف به الذعر إذ خطر له ان القوم قد يرونه . حتى اذا جلس أفاد من وكام من الاوراق كان على منصة القضاة لكي يخفي وجهه عن القاعة كلها . أمسى في ميسوره ان يرى من غير ان يُرى . وشيئاً بعد شيء استعاد سكينته . لقد انتعس في روح الواقع . لقد بلغ من الهدوء ذلك المبلغ الذي يمكن المرء من الاصغاء .

كان ميو باماتابوا محلفاً بين المحلفين .

وبحث عن جافير ، ولكنه لم يره . كان مقعد الشهود مجرباً عنه بطاولة كاتب المحكمة . والى هذا فقد كانت قاعة المحكمة مضاعة اضاءة جدّاً باهتة ، كما قلنا منذ لحظة .

وحين دخل كان محامي المتهم يختم مرافعته . واستثير انتباه القوم كلهم الى اقصى درجات الاستتارة . كانت المحاكمة قد استغرقت ثلاث ساعات ؛ وطوال هذه الساعات الثلاث كان النظارة قد شاهدوا رجلاً - كائناً مجهولاً ، مخلوقاً بانساً ، ابله الى ابعد الحدود او داهية الى ابعد الحدود - يزرع شيئاً بعد شيء تحت ثقل احتمالٍ رهيب . وكان هذا الرجل ، كما سبق منا القول ، متشرداً عُثر عليه في احد الحقول حاملاً غصناً مثقلاً بالتفاح الناضج ، كان قد انتزعه من شجرة في مزرعة مسيجة تدعى مزرعة بييرثون . من كان هذا الرجل ؟ لقد أُجري تحقيق ؛ ومُسمع الى شهود ؛ ولقد أجمعوا كلهم على رأي واحد ؛ وانبثقت اضاء من المناقشة كلها . وقال الانهام : « ليس بين ايدينا هنا مجرد لص من لصوص الفاكهة ، مجرد سارق من مُسرقِ الغلات قبل ان تمحص . إن بين ايدينا هنا قاطع طريق ، مجرمٌ ذا سوابق لم يلتزم المكان الذي

فُرضت عليه الإقامة فيه بعد خروجه من السجن ؛ زبلاً قديماً من نزلاء  
سجن الاشغال الشاقة ؛ فاتكماً من اخطر الفُتاك ؛ شريراً يدعى جان  
فالجان تطارده العدالة منذ دهر طويل ، وكان قد ارتكب لثاني سنوات  
خلت ، لدنْ خروجه من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في  
طولون ، سرقةً في الطريق العام ، والسلاح في يده ، ضد غلام  
من سافوا يدعى جيرفيه الصغير ، وهي الجريمة المنصوص عليها في  
المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، والتي نحتفظ من اجلها بحق المطالبة  
بإزال أقصى العقوبة عندما تُثبت الهوية قضائياً . لقد ارتكب الان  
سرقة جديدة . إنها قضية من قضايا العودة الى الجريمة . أحكموا عليه  
لسرقة الجديدة . أما جريمته السابقة فسوف يقاضى من اجلها في ما بعد .  
وأمام هذا الاتهام ، وأمام لإجماع الشهود ، كان الانفعال الذي غلب على  
المتهم هو الانشداء . كان يقوم بحركات وإشارات تقيد الانكار ، أو  
يحذق الى السقف . لقد تكلم في عسر ، وأجاب في ارتباك ، ولكن  
شخصه كله - من قمة رأسه الى اخص قدميه - انكر التهمة . لقد بدا  
امبه بأبله في حضرة هؤلاء الرجال الاذكياء المتألمين لمقاتلته ، واشبه  
بغريب وسط هذه الجماعة التي أمكت به . ومع ذلك فقد كان ينتظره  
غدٌ منذر بأعظم الشر ، وكانت الاحتمالات تتزايد كل لحظة ؛ وكانت  
كل فرد من افراد النظارة ينتظر في قلق أشد من قلقه هو ، ذلك  
الحكم الفاجع الذي بدا متأرجحاً فوق رأسه اكثر فأكثر . وكانت  
احتمال يومي ، وراء سجن الاشغال الشاقة ، الى عقوبة الموت اذا ما  
أثبتت هويته . وانتهت قضية جيرفيه الصغير الى إدانته . من كان هذا  
الرجل ؟ من اي نوع كانت غفلته ؟ أكانت بلاهة أم مكرراً ؟ أكان  
يعرف اكثر مما ينبغي أم كان لا يعرف شيئاً على الإطلاق ؟ تلك كانت  
اسئلة اختلفت فيها آراء القوم وبدت وكأنها تقسم المخلّفين الى شيّع .  
كان ثمة شيء مخيف وشيء خفي في المحاكمة . إن الفاجعة لم تكن قائمة



وحسب ؛ لقد كانت غامضة .

وكان محامي الدفاع قد رافع مرافعة جيدة بتلك اللغة الاقلية التي طالما كانت قوام بلاغة المحاماة ، والتي اصطنعها من قبل جميع المحامين سواء في باريس أو في رومورانتين أو مونبريزون ، والتي لم يعد يتكلم بها اليوم - بعد ان اصبحت كلاسيكية - غير خطباء النيابة العامة الرسميين الذين تلائمهم تلك اللغة ، بطنطنتها الوقور وجملها المهيبة . لغة يدعى فيها الزوج بعل ، والزوجة بعلة ، وباريس مركز الفنون والحضارة ، والملك العاهل ، وصاحب السيادة الاسقف المطير المقدس ، والنائب العام الشارح البليغ لانتقام القانون ، والمرافعة النبرات التي سمعناها المحظية ، وعصر لويس الرابع عشر العصر العظيم ، واحد المسارح هيكلي ملبومين ، \* والاسرة المالكة دم ملوكنا الفخيم ، واحدى الحفلات الموسيقية عيداً احتفالياً موسيقياً ، والجنرال الذي يقود قوات المديرية المحارب اللامع الذي ، الخ ؛ وتلاميذ اللاهوت هؤلاء الاكليركيين الناضري العود ، والاختطاء المنسوبة الى الصحف الكذبة التي تقطو سبها في أعدة هذه النواطق بألسنة الاحزاب . الخ . الخ . وكان محامي الدفاع قد أسهب في الكلام على سرقة التفاح - وهو شيء لا يتلاءم والاسلوب الفخيم ، ولكن بينني بوسوويه \* نفسه اضطر ذات مرة الى ان يشير الى دجاجة ما في صميم موعظة تأيينية له ، فتصرف في أبهة وجلال . وكان المحامي قد قرّر ان سرقة التفاح لم يتم عليها دليل مادي . ذلك بأن موكله ، الذي يصرّ هو بوصفه حامياً على دعوته شافانوي ، لم يشاهد قط متسوّر الجدار أو قاصفاً الغصن . لقد قبض عليه وفي حوزته هذا الغصن ( الذي آثر

---

\* Melpomène وهي في الميثولوجيا ربة التراجيديا .

\*\* Bossuet الخطيب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به في هامش ماض .

( ص ٨٠ ) .

المحامي ان يدعوه قَتْنًا ) ، ولكنه قال إنه وجد على الارض فالنقطة .  
 أين الدليل على العكس ؟ لا ريب في ان هذا الغصن كان قد كسِر  
 وسُرق بعد تسوُّر الجدار ، ثم اطرَحته على الارض يد السارق المهذد  
 بالخطر . لا ريب في انه كان ثقة لصّ ، ولكن ما الذي يُثبت ان  
 هذا اللص كان شاتانيو ؟ شيء واحد ليس غير . هو انه كان في ما  
 مضى من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . والمحامي لا ينكر ان هذه  
 الصفة تبدو مع الاسف مُثبتة إثباتاً يقينياً . فقد سكن المتهم في فافيول ،  
 ولقد كان المتهم مشذب اغصان ، ومن الجائز ان يكون امم شاتانيو  
 محرّقاً عن جان ماتيو ؛ كل ذلك كان صحيحاً ؛ واخيراً فانت اربعة  
 شهود قد أجمعوا على نحو اكيد ، ومن غير ما تردد ، ان شاتانيو هو  
 جان فالجان نفسه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ؛ وليس عند المحامي ما  
 يعارض به هذه الادلة وهذه الشهادات غير إنكار موكله ، وهو انكار  
 تقتضيه مصلحته . ولكن حتى اذا افترضنا أنه جان فالجان المحكوم عليه  
 بالاشغال الشاقة فهل ينهض هذا دليلاً على انه سارق التفاح ؟ ذلك لا  
 يعدو ان يكون محدثاً على الاكثر ، ولكنه ليس برهاناً . صحيح ان  
 المتهم - وعلى المحامي ان يقرّ بذلك - بسلامة نية - قد اصطنع  
 و اسلوباً رديئاً في الدفاع . ، لقد أصرّ على انكار كل شيء ، انكار  
 السرقة ، وانكار انه كان قد حُكِمَ قبلُ بالاشغال الشاقة . ولو قد اعترف  
 بالنقطة الاخيرة اذن لكان ذلك خيراً له من غير شك ، واذن لضنّ  
 له ذلك تساهل قضاة . ولقد نصحه المحامي بأن يسلك هذه السبيل ،  
 ولكن المتهم رفض في عناد ، معتقداً من غير شك ان عدم الاعتراف  
 بشيء يكفل له النجاة من العقوبة كلها . كان ذلك خطأ منه ، ولكن  
 ألا ينبغي لنا ان نأخذ قصور عقله بعين الاعتبار ؟ ان هذا الرجل  
 معتوه ، بلا خلاف . فالعذاب الطويل الذي قاساه في سجن الاشغال  
 الشاقة ، والبؤس الموصول الذي عاناه خارج سجن الاشغال الشاقة قد

أصابه بالحبل ، الخ . الخ . انه لم يحسن الدفاع عن نفسه ، ولكن  
 أياكون هذا سبباً لأداته ؟ اما مسألة جبره الصغير فلم يكن عند المحامي  
 ما يقوله فيها . إنها غير واردة في الدعوى على الإطلاق . ونظم المحامي  
 دفاعه بأن توصل الى المهلين والى المحكمة ، اذا ما بدت هوية جان  
 فالجان واضحة لديهم ، ان يُنزلوا به العقوبات البوليسية التي تُنزل عادة  
 باولئك الذين لا يلتزمون المواطن المعينة لهم بعد الخروج من السجن ،  
 لا العقوبة الخفيفة التي تُنزل بالمحكوم عليه بالاستغال للشاة حين يرتكب  
 جريمة جديدة .

ورد النائب العام على محامي الدفاع . كان عنيفاً منفتح الاسلوب ،  
 مثل معظم النواب العامين .

لقد هنا محامي الدفاع على صراحته ، وأفاد من هذه الصراحة  
 في براعة . لقد هاجم المتهم من خلال جميع النقاط التي سلّم بها محاميه .  
 فقد بدا المحامي وكأنه يسلم بأن المتهم كان جان فالجان فارتضى هذا  
 التسليم . واذن ، فقد كان هذا الرجل هو جان فالجان . واعتبر  
 الانتهام هذه النقطة حقيقة مقروءة ، فلا سبيل بعد الى الجادلة فيها .  
 وهنا - وبالسبب مجازي بارع ، رقي الى منابع الجريمة وأسبابها - أورد  
 النائب العام ضد لا أخلاقية المدرسة الرومانتيكية ، وكانت آنذاك في  
 ضمرها ، مشيراً اليها بوصفها المدرسة الشيطانية ، وهو الاسم الذي خلعه  
 عليها نقاد صحفيي « كوتيديين » وال « اوريغلام » . وعزا - ولم  
 يكن ذلك خلوّاً من عنصر الاحتمال - الى هذا الادب الداعر جريمة  
 شانتيو ، أو على الاصح جان فالجان . حتى اذا استنفذ هذه التأملات  
 انتقل الى جان فالجان نفسه . من كان جان فالجان ؟ تلك هي صفة  
 جان فالجان : غولٌ مُتغيّبٌ ، الخ . إنا نجد نموذجاً لهذه الضروب من

الاصاف في حكاية تيرامين\* التي لا غناء فيها ، من وجهة النظر المسرحية التراجيدية ، ولكنها تسدي خدمات جليلة ، كل يوم ، الى البلاغة القضائية . و « ارتعد » للظارة والمحلفون . حتى اذا تمّ هذا الوصف استأنف النائب العام كلامه في اندفاع خطابي قصيد به الى أن ينير حماسة « جريدة الولاية » الى اقصى غاياتها في صباح غد . و « وانه لرجل بمائل الخ . الخ . الخ . متشرد ، متسول ، لا يملك من اسباب العيش شيئاً ، الخ . الخ . - تعود طوال حياته الماضية الاعمال الاجرامية ، ولم يُفد غير قليل من أيامه التي قضاها في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كما تثبت الجريمة التي ارتكبها ضد جيفريه الصغير ، الخ . الخ . إن مثل هذا الرجل الذي أمسك به على الطريق العام في جرم السرقة المشهود ، على بضع خطوات من جدار كان قد تسوّره ، وهو لا يزال يحمل بيده الشيء الذي سرقه - مثل هذا الرجل يُنكر الجرم المشهود ، يُنكر السرقة ، ينكر تسوّر الجدار ، ينكر كل شيء ، ينكر حتى اسمه ، ينكر حتى هويته ! وبالإضافة الى مئة اخرى من الادلة التي لن نرجع اليها عرفة اربعة شهود : جافير - جافير ، مفتش الشرطة العفّ التزيه ، وثلاثة من رفاقه القدماء في العار ، هم بروفيه ، وشونيلديو ، وكوشباي المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وبمّ يردّ على هذا الاجماع الصاعق ؟ بالانكار . يا له من تصلب ! انتم سوف تقيمون العدل ، ايها السادة المحلفون ، الخ . الخ . وفيما النائب العام يتكلم ، اصغى المتهم فاغراً فاه بضرب من الذهول الذي لا يخلو من بعض الاعجاب . كان واضحاً انه ما كان قادراً على ان يصدق ان في إمكان رجل ما ان يتكلم هكذا . وبين الفينة والفينة ، عند المقاطع الاكثر

\* Théramène رجل دولة اثيني وخطيب بليغ ، ولكنه كان ذا خلق متقلب متلون . وقد أسهم سنة ٤١١ ق.م في قلب النظام الديموقراطي في اثينا ، ثم اتهم بالخيانة فحكم عليه بنزب الشوكران السامّ عام ٤٠٣ . وتيرامين ايضاً أحد شخوص راسين في تراجيديته

« فيدر » Phèdre

« قوة » ، من مطالعة النيابة ، وفي تلك اللحظات التي كانت الفصاحة فيها تعجز عن ان تملك نفسها فتفيض في سيل من النعوت الفاضحة ونحيط بالمتهم وكأنهم عاصفة - كان يحرك رأسه في تودة من اليقين الى الشك ، ومن الشك الى اليقين ، ضرب من الاحتجاج الكتيب الاخرس قنع به منذ بدء المناقشة . ومرتين أو ثلاث مرات سمع النظارة الاشد قرباً منه يقول في صوت كالمس : « كل ذلك ناشيء عن انه لم يسألوا مسبو بالو ! » ولفت النائب العام نظر المحلفين الى هذا الوضع الابله - وهو مدبر من غير شك - الذي لا يدل على الغباء ولكن على البراعة ، والمكر ، وتعود مخادعة العدالة ، والذي يظهر في ضوئه الاقوى « فساد هذا الرجل الخلقي العميق الجذور . » وختم مطالعته بأن أدلى بتحفظاته حول مسألة جبرفيه الصغير ، طالباً لئزال اقصى العقوبة بالمتهم

وكان اقصى العقوبة بالنسبة الى هذه الجريمة ، كما نذكر ، الاشغال الشاقة مدى الحياة .

ونقض محامي الدفاع ، فبدأ بتهنئة « السيد النائب العام » على « مطالعته الرائعة » ، ثم ردة عليه على قدر ما استطاع ، ولكن في نبرة اضعف . كان واضحاً ان الارض مادت تحت قدميه .

## ١٠

### طراز الانكار

وأزفت لحظة اختتام المحاكمة . فأصدر الرئيس امره الى المتهم بأن ينهض ، ووجه اليه السؤال المألوف :  
- « هل عندك ما تضيفه الى دفاعك ؟ »

ونفض الرجل وهو يطوي بين يديه قلنسوة وهيبة كانت معه . وبدأ وكأنه لم يسمع .

وكرر رئيس المحكمة السؤال .

وهذه المرة سمع الرجل ، وبدأ أنه فهم . لقد أجفل مثل امرئ يفيق من الرقاد ، وأجال عينيه في ما حوله ، ونظر الى الجمهور ، وإلى الدرك ، وإلى محاميه ، وإلى المحلفين ، وإلى هيئة المحكمة ، ووضع قبضتي يديه الضخمتين على الحاجز القائم أمامه . ونظر كرة أخرى . وفجأة ستمر عينيه على النائب العام وبدأ يتكلم . كان ذلك أشبه بشوكة بركان . ولقد بدا من الطريقة التي نددت فيها الكلمات من بين شفثيه متقطعة ، عاصفة ، متصادمة ، مختلطة ، أنها كانت كلها تريد ان تنطلق في آن معاً . قال :

« احب ان اقول هذا : أني كنت صانع عجلات في باريس ؛ وأن ذلك كان في محلّ ميو بالو ايضاً . كانت حياة قاسية حياة صانعي العجلات تلك . فانت مضطر دائماً الى ان تعمل في الهواء الطلق ، في أفنية الدور ، تحت السقائف حين يكون معلّمك رجلاً طيباً ، ولكن ليس داخل جدران المحلّ ، لأن العمل يقتضي سعة من الارض ، كما ترى . وفي الشتاء كان البود من القسوة بحيث يتعبن على المرء ان يضرب كفّاً بكفّ لكي يستشعر الدفء ، ولكن معلّمينا ما كانوا يجيزون لنا ذلك ، قائلين انه مضيعة للوقت . إنه لمن اصعب الاشياء ان تمسك بالحديد حين يكون الجليد مغطياً حصاء الطريق . إنه يهزّي الانسان في سرعة . وهكذا تشيخ وانت بعد فتى في هذه الصناعة ، وما تكاد تبلغ الاربعين حتى تكون قد انتهيت . اما انا فكنت في الثالثة والخمسين . كنت مريضاً مرضاً شديداً ، وفوق هذا فقد كانت العمال خبثاء جداً ! إنهم حين يتجاوز الرجل الساذج مرحلة الشباب يسمونه « الطائر المعجوز » ، و « البهيمة المعجوز » ! ولم اكن أكب

غير ثلاثين « سو » في اليوم ؛ فقد كانوا يدفعون اليّ اقلّ ما يستطيعون من أجر ، وكان اصحاب العمل يُفيدون من شيخوختي . والى هذا فقد كانت عندي ابنتي التي عملت غسالةً على ضفة النهر . وكان ما تكسبه قليلاً ، ولكن دخلي ودخلها كانا يَمَكِّتَاننا من العيش . وكان عملها مرهقاً ايضاً . كانت تَسْلُخُ النهار كله غائصةً حتى خصرها في طبق الغسيل الخشبي ، تحت المطر ، تحت الثلج ، وفي قلب الريح التي تقصّ الوجه ، وفي غمرة الصقيع . لا فرق ، فالغسل ينبغي ان يتم . إن ثمة أناساً ليس عندهم كثير من الملابس الداخلية ، فهم ينتظرون هذه الملابس . واذا لم تغسلِ نخسر زبائنك . وألواح الطبق غير متماكة جيداً ، فقطرات الماء تنصبّ عليك من كل مكان . وتبلّل المياه ثيابك وتغور فيها أبعد فأبعد . إنها تنفذ . ولقد استغلت ايضاً في مصبغة و الاطفال الحمر ، حيث تصل المياه بالانابيب . وهناك لا يتعمّم عليك ان تعمل في قلب الطبق الخشبي . إنك تغسل الثياب قدّامك تحت الانبوب ، وتنظفها بعد الغسل خلفك في الحوض . واذا كانت تقوم بهذا العمل ضمن اربعة جدران فلم تكن تبرّد كثيراً . ولكن كان ثمة بخار ماء حارّ الى حد فظيع ، وكان ذلك يُتلف العينين . كانت ترجع الى بيتها في الساعة السابعة ليلاً ، فتأوي الى فراشها سريعاً . كانت الأعياء بهذا قواها . وكان زوجها يضرّها . لقد ماتت . إنها لم تكن سعيدة جداً . كانت فتاةً فاضلة لا تذهب الى المرافص ابداً ، فتاة هادئة جداً . واذكر أنها آوت الى فراشها في « ثلاثاء المرفع » من احد الاعوام في الساعة الثامنة . إنقبه . انا اقول الحقيقة . وليس عليك إلا ان تسأل . آه ، أجل ، إسأل ! ما أشدّ بلاهتي ! إن باريس واسعة جداً . ومن ذا الذي يعرف الاب شافغايو فيها ؟ ولكن هناك مسيو بالو . إذْهَبْ الى محل مسيو بالو . ولست ادري ما الذي تريدونه مني بعد هذا ؟

وكفّ الرجل عن الكلام ، ولكنه لم يجلس . كان قد نطق بهذه الكلمات في صوت مرتفع ، سريع ، خشن ، قاسٍ ، أبحٍ ، وبضرب من السداجة الغاضبة الضاربة . ومرة واحدة قطع كلامه لكي ينحني تحيةً لأحد افراد النظارة . وكانت ضروب التوكيدات التي كان يلقاها أمامه كيفما اتفق تنطلق منه وكأنها شهقات ، وكان يضيف الى كل منها ايماءة حطّاب يقطع الحشب . حتى اذا انتهى انفجر النظارة بالضحك . فنظر اليهم ؛ واذا رآهم يضحكون ، ومن غير ان يعرف لماذا ، شرع هو نفسه يضحك .

وكان ذلك نذيراً بشراً .

ورفع الرئيس صوته ، وكان رجلاً يقطاً رقيقاً .

لقد ذكر « السادة المحلفين » بأن « السيد بالو » صانع العجلات القديم الذي قال المتهم إنه كان يعمل في خدمته ، قد استدعي ولكنه لم يحضر . كان قد أفلس ، ولم يكن في الامكان العثور عليه . « إنه التفت الى المتهم وحشّه على الاصغاء الى ما سيقوله ، وأضاف :

« انت في وضع يتطلّب التفكير . إن اتقل الفرائئ لستحق كاهلك ، وقد تقودك الى عواقب مشؤومة . ايها المتهم ، إني امالك - لمصلحتك الشخصية - مرة أخيرة ان تجيبني في وضوح عن هذين السؤالين : اولاً ، هل تسوّرت ، حائط مزرعة بيرون ، وكسرت الغصن وسرفت التفاح ، يعني هل ارتكبت جريمة السرقة بالاضافة الى التسوّر ام لم تفعل ؟ ثانياً ، هل انت جان فاجان المحكوم بالاغتيال الشاقة والمطلق سراحه ، ام لا ؟ »

وهزّ المتهم رأسه في انطباعة ذكية ، مثل رجل فهم ما قيل جيداً وعرف بأي شيء يعتزم ان يجيب . وفتح فمه ، والتفت نحو الرئيس ، وقال :

« قبل كل شيء ... »

ثم نظر الى قلنسوته ، ورفع بصره الى السقف ، واعتصم بالصمت .



وقال النائب العام في صوت فظّ :

- « ايها المتهم ، إنتبه ! انت لا تجيب عن شيء مما سئلت انت نجيب عنه . ان اضطرابك يدنك . من الواضح ان اسمك ليس مانغاتيو ، وانك جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقّة المنتشرة بادي الامر تحت اسم جان مانتيو ، الذي كان اسم أمه ؛ وانك عشت في أوفيري ، وأنك ولدت في فاغبول ، حيث كنت مشذب اغصان . ومن الواضح انك سرقت تفاحاً ناضجاً من مزرعة بيبوتون بالاضافة الى تسوّر كالجدار . إن السادة المحلفين سوف ينظرون في هذا . »

كان المتهم قد عاود الجلوس آخر الأمر . ولكنه ما لبث ان نهض فجأة ، حين أتمّ النائب العام كلامه ، وصاح :

- « انت رجل ردي جداً ، أنت ! ذلك ما كنت أريد أن أقوله . أنا لم اعثر على هذه الكلمة بادي الامر . إني لم اسرق شيئاً قط . إني رجل لا اجد ما آكله كل يوم . كنت قادمأ من آبي ، وكنت امشي إثر وابل من المطر جعل الارض كلها صفراء بالوحل ، حتى لقد فاضت المستنقعات ، فكنت لا ارى غير طلائع الاعشاب منبثقة من الرمل على حافة الطريق . ووجدت على الارض غصناً يحمل بعض التفاح ، فالتقطت الغصن من غير ان ادري انه سوف يورثني أمأ . فمذ ثلاثة اشهر وأنا طريح السجى ، أنقل من مكان الى مكان . أنا لا استطيع ان اقول اكثر من ذلك . انهم يتكلمون ضدي ، ويقولون لي : « اجب ! » وإن الدركي ، الذي هو رجل طبيب ، يدفع مرفقي ويهس : « اجب الآن ! » أنا لا احسن التعبير عن نفسي ؛ أنا لم أتلق العلم قط ؛ أنا رجل فقير . انكم جميعاً تخطئون لعدم رؤيتكم ذلك . أنا لم اسرق ، لقد رفعت عن الارض أشياء كانت موجودة هناك . انت تتحدث عن جان فالجان ، جات مانتيو ! أنا لا أعرف هذين الشخصين . لا ريب انها رجلان قرويان . لقد استغلت عند

مسيو بالو في « جادة المستشفى » . انا ادعى شائغاتي . ينبغي ان تكون ذكياً حتى تخبرني ان « ولدت » . انا نفسي لا ادري . فليس لكل الناس بيوت يولدون فيها . ولو كان لكل الناس مثل هذه البيوت اذن لكان ذلك مريحاً باكثر مما ينبغي . انا اعتقد ان ابي وأمي كانا يمان على وجهيهما في الشوارع ؛ ولكنني لست واثقاً . حين كنت طفلاً كانوا يدعونني « الصغير » ، أما الآن فأنا ادعى « المعجوز » . هذان هما اسما معبودتي . خذ ذلك كما تشاء . لقد كنتُ في اوفيرني ، وكنت في فافيرول . عجباً ! الا يستطيع الانسان ان يكون في اوفيرني وفافيرول من غير ان يكون من نزلاء سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ اقول لك اني لم امرق ، واني الاب شائغاتي . كنت اعمل عند مسيو بالو ؛ لقد عشتُ في منزله . لقد تعبتُ من هرائك الذي لا نهاية له ! لماذا يطاردني الناس كلهم كالكلاب الملعونة ؟

كان النائب العام لا يزال واقفاً . فوجه الخطاب الى الرئيس :

« سيدي الرئيس ، امام الانكارات المشوشة ، ولكن الخادقة جداً ، التي يعتصم بها المتهم الذي يحاول ان يوقع في روع المحكمة انه معتوه ، والذي لن ينجح في ذلك - فنحن سوف نحول بينه وبين النجاح - نلتس ان تستدعوا الى هذه القاعة كرتة اخرى ، اذا شئتم وشاءت هيئة المحكمة ، كلاً من المحكوم عليهم بروفه ، وكوشباي ، وشونيلدبو ، ومفتش الشرطة جافير ، وتستجوبوهم للمرة الاخيرة حول هوية المتهم وانه هو وجان فاجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شخص واحد . »

فقال الرئيس :

« احب ان اذكر السيد النائب العام ان مفتش الشرطة جافير الذي دعت واجباته الى التوجه الى حاضرة احدى المديريات المجاورة ، قد غادر هذه القاعة ، بل غادر المدينة ، بعد ان ادلى بشهادته مباشرة .

لقد منحناه هذا الاذن بموافقة السيد النائب العام ومحامي المتهم .  
فاجاب النائب العام :

- « هذا صحيح . وفي غيبة ميسو جافير ارى من الواجب ان اذكر السادة المحلفين بالذي قاله هنا منذ ساعات قليلة . إن جافير رجل محترم يشرف ، بنزاهته القاسية الصارمة ، المهام الدنيا ولكن الهامة في وقت معاً . وهذه هي التعابير التي انطوت عليها شهادته : « لست في حاجة حتى الى حذر معنوي وأدلة مادية لكي أنقض إنكارات المتهم . انا اعرفه معرفة تامة . إن اسم هذا الرجل ليس شائتو . انه مجرم قديم حكم عليه بالاشغال الشاقة ، شرير جداً وخيف جداً ، يدعى جان فالجان : إن سراحه لم يُطلق عند انتهاء اجل عقوبته إلا في أسف بالغ . لقد قضى تسعة عشر عاماً في سجن الاشغال الشاقة بسبب من سرقة موصوفة . وخمس مرات او ست مرات حاول ان يفر من السجن . وبالإضافة الى سرقة جيوفيه الصغير ومزرعة بيرون يجتّل اليّ ايضاً انه هو الذي قام بسرقة منزل صاحب العظيمة اسقف د ... المتوفى . لقد رأيته كثيراً يوم كنت نائباً لضابط حرس سجن الاشغال الشاقة في طولون . اعود فأقول إلي اعرفه معرفة تامة . »

وبدا هذا التصريح ، المصوغ في عبارات بالغة الاليجاز والدقة ، وكلما ترك اثرأ قوياً في نفوس النظارة والمحلفين . وختم النائب العام كلامه بأن اصر ، ما دام جافير غائباً ، على ضرورة الاستماع مرة ثانية للشهود الثلاثة بروفيه ، شونيلدير ، وكوشاي ، واستجوابهم في مهابة .

واصدر الرئيس أمره الى احد الحجاب . وبعد لحظة فُتح باب حجرة الشهود ، وقاد الحاجب - يصحبه دركي على اتم الاستعداد لأداء العون - بروفيه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وجلس النظارة أنفاسهم ، وخفت القلوب جميعاً وكأنما كانت لها نفس واحدة ليس غير .

وكان بروفيه هذا يرتدي السترة السوداء والرماية الخاصة بالسجون .

المركزية . كان في نحو الستين ، وكان له وجه رجل من رجال الاعمال وسما وغد من الاوغاد . إنها في بعض الاحيان يسيران جنباً الى جنب . وكان قد اصبح شيئاً أشبه بسجان في ذلك المحبس الذي أعادته اليه آثام جديدة . كان واحداً من اولئك الرجال الذين يقول فيهم رؤساؤهم : « إنه يحاول ان يجعل من نفسه عنصراً مفيداً . » وشهد كهنة السجن شهادة طيبة في ما يتصل بعبادته الدينية . ويجب ان لا ننسى ان ذلك لما جرى في العهد الذي شهد عودة آل بوربون الى العرش .

وقال الرئيس :

« بروفيه ، لقد أزلت بك عقوبة سائنة ، وليس في استطاعتك

ان تقسم السجن . »

وخفض بروفيه عينيه .

وتابع الرئيس كلامه :

« ومع ذلك ، فقد يظلّ - حتى في الرجل الذي أذله القانون -

اذا سمحت العدالة الالهية بذلك ، إحساسٌ بالشرف والانصاف . الى

هذا الاحساس أتوجّه ، مناشداً ، في هذه اللحظة الحاسمة . فاذا كان لا

يزال حياً فيك ، وهو ما ارجوه ، ففكّر قبل أن تجيبني . فكّر ،

من ناحية ، بهذا الرجل الذي قد تقضي عليه كلمة منك ، ومن ناحية

ثانية ، بالعدالة التي قد تنير سبيلها كلمة منك ايضاً . إن اللحظة هيبية ،

ولا يزال امامك منسع للتراجع اذا اعتقدت انك كنتَ مخطئاً . ايها

المتهم ، قف ! بروفيه ، انظر جيداً الى المتهم ؟ اجمع شتات ذكرياتك

وقل لنا ، بذمتك وضميرك ، ما اذا كنت نصرّ على ان هذا الرجل

هو جان فالجان رفيقك القديم في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

ونظر بروفيه الى المتهم ثم التفت كرهة ثانية نحو هيئة المحكمة :

« نعم ، يا سيدي الرئيس . لقد كنت أول من عرفه ، وانا

أصرّ على ذلك . هذا الرجل هو جان فالجان . دخل سجن طولوث

سنة ١٧٩٦ وخرج منه سنة ١٨١٥ . لقد خرجت انا في العام الذي تلا .  
إن سيا الحبلى تبدو على وجهه الآن ، ولكن لا ريب في ان الشيخوخة  
هي التي خبلته . أما في سجن الاشغال الشاقة فقد كان مرانياً ذا وجهين .  
أنا أعرفه ، على وجه التأكيد .

فقال الرئيس :

« إجلس ! ايها المتهم ، إبتئ واقفاً . »

وجيء بشونيلديو ، وهو محكوم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، كما  
بدا من رداؤه الاحمر وقلنسوته الخضراء . كان يتحمل عقوبته في سجن  
طولون الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ولقد اقتيد من هناك  
لهذه المناسبة . كان رجلاً ضئيل الجسم ، في نحو الخمسين من العمر ،  
نشطاً ، متجمعد البشرة ، مهزولاً ، أصفر ، وقحاً ، قلقاً . وكان في  
اوصاله كلها وفي شخصه كله ضرب من الضعف المرضي ، وفي نظراته  
قوة هائلة . كان رفاقه في سجن الاشغال الشاقة قد لقبوه بـ « جو - في  
- ديو » \* .

ووجه الرئيس اليه الكلمات نفسها التي وجهها الى بروفيه تقريباً .  
وجيء ذكرته بأن عاره قد حرمه الحق في ان يُقسم مبنياً ، رفع شونيلديو  
رأسه ونظر الى الجمهور في وجوهم . ودعاه الرئيس الى ان يجمع شتات  
أفكاره ، وسأله ، كما سأل بروفيه من قبل ، ما اذا كان لا يزال يصبر  
على انه يعرف المتهم .

وانفجر شونيلديو ضاحكاً :

« يا الهي ! ما اذا كنت أعرفه ! لقد سلخنا خمس سنوات  
مشدودين الى السلسلة الحديدية نفسها . انت مستاء مني ، اليس كذلك ،  
ايها الغلام العجوز ؟ »

فقال الرئيس :

---

\* Je - nie - Dieu وترجمتها : « أنا أنكر وجود الله . »

- « إجلس . »

واقفاد الحاجب كوشباي . وكان هذا المحكوم عليه أيضاً بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، والسوق من سجن الاشغال الشاقة ، واللابس رداء احمر مثل شونيلدبو ، فلاحاً من لورد ، ونصف دبّ من البيرينيه . كان يرعى الماشية في الجبال . ولقد انزلت به قدمه من راعٍ الى قاطع طريق . وما كان كوشباي اقل فظاظه من المتهم ، ولقد بدا اكثر بلاهة منه . كان واحداً من اولئك الرجال التمسين الذين ترميهم الطبيعة رسماً خفيفاً وحوشاً كامرة ، ثم يأتي المجتمع فيتم عمله فيهم جاعلاً منهم عبيداً أرقاء في سجن الاشغال الشاقة .

وحاول رئيس المحكمة ان يحرّك عواطفه بوضع كلمات جديّة مؤثرة ، وسأله كما سأله زميليه الآخرين ، ألا يزال يصرّ ، من غير ما تردد أو عسر ، على انه يعرف الرجل الواقف أمامه .

فقال كوشباي :

- « إنه جان فالجان . انه هو نفسه الذي كانوا يدعونوه « جاف رافعة الانتقال » بسبب قوته الهائلة . »

وكان كل من التوكيدات التي أرسلها هؤلاء الرجال الثلاثة ، في إخلاص ونية حسنة من غير شك ، قد أثار في صفوف النظارة مهمة من التنبؤ الغاضب ضدّ المتهم ، مهمة كانت تزداد قوة وتطاولاً كلما أضيف الى التوكيد السابق توكيد جديد . وأصغى إلتهم نفسه اليها في تلك السيا المشددة التي كانت ، في زعم الاتهام ، وسيلة دفاعه الرئيسية . ولقد سمعه رجال الدرك المجاورون له يغمغم من بين أسنانه عقب التوكيد الاول : « آه ، حسناً ! هذا واحد منهم ! » وإثر التوكيد الثاني قال في صوت أعلى وفي سبأ من الارتياح تقريباً : « حسن ! » . حتى اذا جمع التوكيد الثالث صاح : « عظيم ! » وخاطبه الرئيس قائلاً :

- « ايها المتهم ، لقد سمعت . هل عندك ما تقوله ؟ »  
فأجاب :

- « أقول : عظيم ! »  
ومرت في صفوف النظارة ضجة اوشكت ان تغزو المحلفين . كانت  
واضحاً أن الرجل قد هلك .  
وقال الرئيس :

- « ايها الحجاب ، أقرتوا النظام . اريد أن أختم القضية . »  
وفي هذه اللحظة أتى بعضهم بحركة على مقربة من رئيس المحكمة .  
وسمع صوت بصيح :

- « بروفيه ، شونيلدير ، كوشباي ! انظروا الى هذه الجهة ! »  
كان ذلك الصوت فاجعاً وفظيئاً الى حد جعل جميع الذين سمعوه  
يحسّون وكأن الدم قد جمد في عروقهم . وصوّبت الأعين كلها نحو  
النقطة التي انبعث منها الصوت . كان رجل من أولئك الذين احتلوا  
مقاعد الشرف خلف هيئة المحكمة قد نهض ، ودفع الباب المنخفض الذي  
يفصل المحكمة عن مجلس القضاة ، ففتحه ، ووقف في وسط القاعة . وعرفه  
الرئيس ، والنائب العام ، ومسيو باماتابوا ، وعشرون شخصاً آخرون ،  
وصاحوا في آنٍ معاً :  
- « مسيو مادلين ! »

## ١١

### شانماتيو يزداد دهشاً على دهش

كان هو في الواقع . لقد اضاء مصباح كاتب المحكمة وجهه . كان  
يمك قبعته بيده . ولم يكن ثمة اي اضطراب في ملابسه ؛ فقد كانت

سوته الطويلة المشقوقة الذيل ( الريدنفوت ) مزروعة في غاية . كانت شاحباً جداً ، وكان يرتعد ارتعاداً طفيفاً . اما شعره الذي كان اشيب عند وصوله الى آراس فقد امسى الآن أبيض تماماً . كان قد ابيض خلال الساعة التي قضاها هناك .

وأثقلت نحوه الاعناق كلها . كان الاثر الذي تركه هذا الموقف في نفوس الناس بمتعة على الوصف . وعبرت بالنظارة لحظة تردد . كانت الصوت موجعاً جداً ، وكان الرجل الواقف هناك يبدو هادئاً جداً الى حد جعل الناس لا يفهمون شيئاً أول الامر . وتساءلوا من الذي صاح . إنهم لم يستطيعوا ان يصدقوا ان هذا الرجل الهادي قد اطلق تلك الصيحة المروعة .

ولم تستمر هذه الحيرة غير بضع ثوانٍ . وحتى قبل ان يستطيع الرئيس والنائب العام ان يقولوا كلمة ، وقبل ان يستطيع رجال الدرك والحجاب ان يأتوا بايماة ، كان الرجل الذي دعاه القوم كلهم حتى تلك اللحظة مسيو ماداين قد تقدم نحو الشهود كوشباي ، وبروفيه ، وشونيلديو .

وقال :

— « ألا تعرفوني ؟ »

وظل الثلاثة ذاهلين ، ولم يشيروا بحركة من الرأس الى انهم لم يعرفوه . وأدى كوشباي ، وقد استبد به الرعب ، النجدة العسكرية . واستدار مسيو ماداين نحو المحلفين وهيئة المحكمة ، وقال في صوت رخم :

— « ايها السادة المحلفون ، أطلقوا سراح المتهم . سيدي الرئيس ، اصدروا امرك باعتقالي . انه ليس الرجل الذي تبحثون عنه . انا ذلك الرجل . انا جان فالجان . »

ولم يتنفس ايماناً . كان صمت اشبه بصمت القبور قد عقب الانشداد



الأول . كان في ملبور المرء ان يستشعر في القاعة ذلك الضرب من الهول الديني الذي يعصف بالجمهور حتى يُنجَز عملٌ عظيم .  
ومع ذلك فقد كان وجه الرئيس موسوماً بالحزن والمشاركة الوجدانية .  
لقد تبادل نظرة خاطفة مع النائب العام ، وبضع كلمات مهمومة مع مساعديه من القضاة . ثم التفت الى النظارة وسأل في نبوة فهمها الجميع :  
- « هل يوجد طيب هنا ؟ »

وانبرى النائب العام للقول :

-- « سادتي المحلفين ، إن الحادثة الغريبة غير المرتقبة التي تقلق النظارة لتوقع في نفوسنا ، كما توقع في نفوسكم ، شعوراً لا حاجة بنا الى التعبير عنه . فأنتم جميعاً تعرفون ، من طريق الشهرة على الأقل ، مسيو مادلين الميجل ، عمدة مونتروي سور مير . فاذا كانت بين النظارة طيب فتحن نضمّ صوتنا الى صوت السيد الرئيس فنرجوه ان يتلطف ويمد يد العون الى مسيو مادلين ، ويقوده الى مقره . »

ولم يدع مسيو مادلين النائب العام يتم كلامه ، بل اعترضه في جرس مفعم بالدعاة والسلطان . وهذه هي الكلمات التي لفظها . هذه هي بالحرف الواحد كما دوتها حال اختتام الجلسة واحد من الذين شهدوا هذا الموقف ، وكما لا تزال ترنّ في آذان أولئك الذين سمعوها قبل اربعين سنة من هذا التاريخ تقريباً .

- « اشكرك ، يا سيدي النائب العام ، ولكنني لست مجنوناً . سوف ترى . لقد كنت على وشك ان ترتكب غلظة كبيرة . أطلق سراح هذا الرجل . إني اقوم بواجب . انا ذلك المحكوم التمس . انا الشخص الوحيد الذي يرى بوضوح في هذا المكان ، وإني لاقول لك الحقيقة . إن ما أعمله في هذه اللحظة يراه الله الذي في الاعالي ، وهذا يكفي . في استطاعتك ان تلقي القبض عليّ ، ما دمت موجوداً هنا . ومع ذلك ، فقد بذلت غاية جهدي . لقد استوترت تحت اسم

آخر ؛ لقد غدوتُ غنياً ؛ لقد غدوت عمدةً ؛ لقد أودت ان اعاود  
الدخول الى دنيا الرجال الفاضلين . يبدو ان هذا غير ممكن .  
وبالاختصار ، فهناك اشياء كثيرة لا يستطيع ان اقولها ؛ انا لن اروي  
لك قصة حياتي ، ولسوف تعرفها في يوم من الايام . لقد سرقت صاحب  
السيادة الاسقف ؛ هذا صحيح . لقد سرقت جيرفيه الصغير ؛ هذا صحيح .  
لقد كانوا على صواب حين قالوا لك ان جان فالجان كانت وجللاً نعماً  
خيئاً جداً . ولكن الغلطة كلها قد لا تكون غلطته . اسمعوا ، ايها  
السادة القضاة ، ان وجللاً يسر به الذلّ بقدر ما يسرلني ليس لديه احتياج  
يوجهه الى العناية الالهية ، او نصيحة يقدمها الى المجتمع . ولكن  
انتبهوا . ان العار الذي حاولت ان اخرج من حضيتيه مفسدٌ للرجال .  
ان سجنون الاشغال الشاقة تصنع المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . خذوا  
هذا مثلاً ، اذا شئتم . فقبل ان ادخل سجن الاشغال الشاقة كنت فلاحاً  
بسيطاً ، قليل الحظ من الذكاء ، شبه معتوه . ولكن سجن الاشغال  
الشاقة غيّرني . كنت ابلاً ، فاصبحت شريراً . كنتُ حطبةً ،  
فأصبحت جذوة نار . وفي ما بعد انقذتني الحكمة والطيبة كما سبق  
للقسوة ان اخضعني . ولكن ، عفواً ، انتم لا تستطيعون ان تفهموا ما  
أقوله . سوف تجدون في منزلي ، بين رماد الموقد ، قطعة الاربعين  
« -و » التي سرقتها لسبع سنوات خلت من جيرفيه الصغير . ليس  
عندي ما اقله غير هذا . ألقوا القبض عليّ ! يا الهي ! ان النائب  
العام يزن رأسه . أنت تقول : « مسيو مادلين قد اصيب بالجنون . »  
أنت لا تصدقي ! هذا شيء محزن . لا تدنوا هذا الرجل ، على  
الاقل ! ماذا ؟ هؤلاء الرجال لا يعرفونني ! ليت جافير ذاك كانت  
هنا . لقد كان خليقاً به هو ان يعرفني !

وليس في ميسور شيء ان يعبر عن الكآبة الرفيعة الكالحة التي انطوت  
عليها النبرة المصاحبة لهذه الكلمات .

والتفت الى الثلاثة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة :  
- « حسنأ ، أنا أعرفك ، يا بروفيه ! هل تذكر ... ؟ »

وتَهَلَّ ؛ وتردَّد لحظةً ، ثم قال :  
- « هل تذكر حِالة البَطلون تلك ، المزروعة ، ذات الرقع ،  
التي كانت لك في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

وأَجَلَّ بروفيه إِجفالة دهش ، وحدَّق اليه من قمة رأسه الى اخص  
قدميه بنظرات مروَّعة . أما هو فتابع كلامه :

- « وانت يا شونيلديو الذي لَقِيتَ نفسك بـ « جو-ني-ديو » ،  
لقد احتوت كتفك اليسرى احتواءً عِيفاً لانك القيتها ذات يوم على  
كانون مليء بالجر لكي نحمو هذه الاحرف الثلاثة T.F.P. التي لا تزال  
تُرى على تلك الكتف برغم ذلك . أُجِبي ، هل هذا صحيح ؟ »

فقال شونيلديو :

- « هذا صحيح ! »

ثم انه التفت الى كوشباي :

- « كوشباي ، ان لك قربَ مَعْطِفِ ذراعك اليسرى تاريخاً  
نُقشَ بأحرف زرقاء بواسطة الذور المحترق . انه تاريخ هبوط الامبراطور  
الى البرّ ، عند مدينة « كان » ، ١ آذار ١٨١٥ . ارفع رُذْنك .  
ورفع كوشباي رُذنه . وُصِّبَت جميع الاعين المحيطة به الى ذراعه  
العارية . وجاء دركي بمصباح . كان التاريخ هناك .

والتفت الرجل الثمن الى النظارة والى هيئة المحكمة وعلى شفتيه  
ابتسامة لا تزال ذكرهاها غرَّق قلوب الذين شاهدوها . كانت ابتسامة  
النصر ؛ وكانت كذلك ابتسامة اليأس .

وقال :

- « انتم ترون جيداً أني أنا جان فالجان . »

ولم يبقَ في تلك القاعة لا قضاة ، ولا متهمون ، ولا رجال درك ؛

لم يبقَ فيها غير عيون مسددة ، وقلوب خافقة . ولم يعد احدٌ يذكر الدور الذي كان يتعين عليه القيام به . لقد نسي النائب العام أنه إنما 'وجد هناك ليدعي' ، ونسي الرئيس انه إنما 'وجد هناك ليؤنس الجلسة' ، ونسي محامي الدفاع انه إنما 'وجد هناك ليدافع' . ومن عجب ان سؤالا ما ، لم يُسأل ؛ وان سلطة ما ، لم تتدخل . إن من خصائص المشاهد الرفيعة الذرى أن تستولي على كل نفس ، وان تجعل من كل شاهد 'مشاهداً' . ولعل احداً من القوم لم يكن يعي ، بجلاء ، تلك الخبرة التي تمت له . وليس من ريب في ان احداً منهم لم يقل في ذات نفسه إنه رأى ، ثقة ، تألق ضياء عظيم . ومع ذلك فقد احسوا جميعاً ، احساساً باطنياً ، أنهم قد بهروا .

كان واضحاً ان جان فالجان مائلٌ أمام أعينهم . لقد أطلقت تلك الواقعة شعاعها . ولقد كان بروز ذلك الرجل كافياً لكي يغمر بالضياء تلك القضية التي كان الغموض يكتنفها من افطارها ، قبل لحظة . ومن غير ما حاجة الى تفسير اضافي فهم الحشد في الحال ومن اللحظة الاولى ، وكأنما كان ذلك بضرب من الكشف الكهربائي ، هذه القصة البسيطة الرائعة ، قصة الرجل الذي استسلم الى العدالة لكي لا يُحكَم على رجل آخر مكانه . اما التفاصيل ، أما ضروب التردد ، أما صنوف المقاومة الصغيرة الممكنة فقد ضاعت في هذه الحقيقة الضخمة الساطعة .

كانت انطباعةٌ ما لبثت ان تلاشت ، ولكنها كانت في تلك اللحظة أقوى من أن تقاوم .

وتابع جان فالجان كلامه :

— « انا لا اريد ان أعطل الجلسة اكثر مما فعلت . انا ذاهب ، ما دمت لم أعقل . أن عندي اشياء كثيرة يجب ان أقوم بها . والسيد النائب العام يعرف من أنا ، ويعرف الى أين سأذهب ، وسوف يصدر أمره باعتقالي حين يشاء . »

ومشى نحو الباب الخارجى . ان صوتاً ما ، لم يرتفع . وان ذراعاً ما ، لم تمتد لتلمعه . لقد تنحّوا كلهم عن سبيله . كان يعمر نفسه في تلك اللحظة شيء السّهي لا يوصف يجعل الحشود تنكص على أعقابها وتغلي الطريق لرجل ما . واتخذ سبيله من خلال الجمع في خطى وثيدة . ولم يُعرَف قط من الذي فتح الباب . ولكن الثابت أنه كان مفتوحاً حين انتهى اليه . وعندئذ استدار وقال :

« سيدي النائب العام ، انا دائماً تحت تصرفك . »

ثم وجه الخطاب الى النظارة قائلاً :

« انتم جميعاً ، انتم الذين تضمّكم هذه القاعة جميعاً ، تعتبرون اني جدير بالرحمة ، اليس كذلك ؟ يا السّهي ، حين أفكر بالذي كنت على وشك ان أفعله بخيل اليّ اني جدير بالحمد . ومع ذلك ، فقد كنت اتمنى لو ان هذا كله لم يحدث . »

وخرج . وأغلق الباب كما قد فُتح من قبل ، لأن اولئك الذين يقومون بأعمال عظيمة سامية هم ابدأ على ثقة من ان شخصاً ما من افراد الحشد سيخدمهم .

وبعد اقلّ من ساعة صدر حكم المحلفين مبرئاً المدعوّ شافاتيو من ايّ تهمة . وأطلق سراح شافاتيو في الحال فاتخذ سبيله مشدوهاً ، معتقداً ان الناس جميعاً قد أصيبوا بالجنون ، غير فاهم شيئاً من هذه الرؤيا .

الكتاب الثامن

## ضربة معاكسة

١

بأية امرأة ينظر مسيو مادلين

الى شعره

وآذن الصبح بالانبلاج . لقد قضت فانتين ليلةً محومة ، أرقية ، مليئة - مع ذلك - بالرؤى السعيدة . ومع الفجر استسلمت للرقاد . واغتنمت الأخت سيبلبس التي سهرت على راحتها هذه الفرصة لتذهب وتعدّ مقداراً جديداً من سائل الكينا . ولم تكفد الراهبة الطيبة تمضي بضع لحظات في مختبر المستشفى ، منكبّة على عقايرها وزجاجاتها ، محدّقة اليها عن كتب بسبب الضباب الذي يلقيه الضمى على الأشياء كلها ، حتى ادارت رأسها فجأة ، وأطلقت صيحة واهنة . كان مسيو مادلين

واقفاً امامها . كان قد دخل عليها ، اللحظة ، في صمت .  
وصاحت :

« هذا انت ، يا سيدي العمدة ! »

فأجابها في صوت خفيض :

« كيف حال المرأة المسكينة ؟ »

« إنها احسن ، الآن . ولكن القلق كان قد استولى علينا حقاً . »

وقصّت عليه ما جرى ، وأن فانتين كانت مريضة جداً الليلة البارحة

ولكنها الآن أحسن حالاً لأنها اعتقدت أن السيد العمدة ذهب الى

مونفيرماي ليجيئها بابنتها . ولم تجرؤ الراهبة على ان تسأل السيد العمدة ،

ولكن سياف أنباتها ، في وضوح ، انه ليس قادماً من هناك على الاطلاق .

وقال :

« هذا كله حسن . لقد أحسنت صنعاً حين احجبت عن خداعها . »

فقال الراهبة :

« اجل ، ولكن الآن ، يا سيدي العمدة ، حين تراك ولا ترى

ابنتها معك ، ما الذي سنقوله لها ؟ »

وفكر لحظة ثم قال :

« ان الله سوف يلهنا ما نقول . »

فغمغت الأخت في صوت كالمس :

« ولكننا لا نستطيع أن نكذب عليها . »

وتدفقت اشعة النهار على الغرفة ، فأضاءت وجه مسيو مادلين .

واققق أن رفعت الأخت عينها ، فصاحت :

« يا الهبي ! ايها السيد ! ما الذي اصابك ؟ إن شعرك أبيض كله ! »

فقال :

« أبيض ! »

ولم تكن عند الاخت سيمبليس مرآة . فبحثت في صندوق يحتوي

على بعض الادوات واخرجت منه سراً كان طيب المنشأ يتنبت بواسطتها من ان مريضاً ما قد مات فهو لا يتنفس البتة .  
وتناول مسيو مادلين المرأة ، ونظر الى شعره وقال :  
- « حقاً ! »

ونطق بهذه الكلمة في لا مبالاة وكأنها كان يفكر في شيء آخر .  
واستشعرت الاخت قسرية اوقعها في اوصالها شيء مجهول لحنه في هذا كله .

وسألها :

- « هل أستطيع أن أراها ؟ »

فقلت الاخت وهي ما تكاد تجرؤ على أن تناسر بطرح السؤال :

- « ألن بعيد اليها سيدي العمدة ابنتها ؟ »

- « طبعاً . ولكن ذلك يحتاج الى يومين او ثلاثة ، على الاقل . »

فاستطردت الاخت في خشية :

- « اذا لم ترَ سيدي العمدة هنا فلن تعلم أنه قد رجع . وعندئذ

يكون من اليسير عليها ان تتصبر . حتى اذا جاءت الطفلة اعتفت

بصورة طبيعية ، ان السيد العمدة قد جاء بها اللحظة . وهكذا لا

نضطر الى ان نكذب عليها . »

وبدا مسيو مادلين وكأنه يفكر بضع لحظات ، ثم قال في رصانه

المادة :

- « لا ؛ اينها الاخت ، يجب ان اراها . لعله أن لا يبقى لديّ

منسح من الوقت . »

ولم يبدُ ان الراهبة قد لاحظت « لعل » هذه التي خلعت مغزى

غامضاً وفريداً على كلمات السيد العمدة . فأجابت خافضة رأسها

وصوتها في احترام :

- « اذا كان الامر كذلك فهي نائمة . ولكن في استطاعة سيدي



أن يدخل . »

وأبدى بعض الملاحظات عن باب لا يُغلق في بُسر فهو يطلق ضجة  
قد توقظ المريضة .

ثم دخل غرفة فانتين ، واقترب من سريرها ، وفتح الستارة . كانت  
نائمة . وكان نَفْسُها يخرج من صدرها بذلك الصوت الفاجع المميز لهذه  
الامراض ، والذي يمزق قلوب الامهات التعمسات وهن يشهدن رقاد  
اولادهن المشرفين على الموت . ولكن هذا التنفس المرهق قليلاً ما  
عكّر ذلك الضرب من الصفاء الذي يعزّ على الوصف والذي شاع في  
حياتها ، وغير هيتها اثناء الرقاد . كان شعوبها قد غدا بياضاً ، وكان  
خداها فرمزيين . واختلجت اجفانها الطويلة الشقراء - الجمال الوحيد  
الذي بقي لها من بُتوليتها وصباها - فيما هي ما تزال مُغمضة مُسدلة .  
وارتعد شخصها كله ، وكأنها كان ذلك الارتعاد برفرة الجناحين السلدين  
كان يُشعر بها ولكنها لا يُريان ، والذين كانا على وشك ان ينتشرا  
ويحملاها . ولو قد رآها المرء على هذه الحال اذن لما كاث في ميسوره  
ان يظنّ مطلقاً أنها كانت مريضة شبة ميسوس منها . لقد بدت وكأنها  
على اهبة الطيران لا على اهبة الموت .

إن الفصن ليرتجف حين تمتد يده اليه لتقطف الزهرة ، وانه ليبدو وكأنه  
يرتدّ الى الوراء ويقدم نفسه في آن معاً . والجسم البشري ينكشف  
عن شيء من هذا الاختلاج في اللحظة التي تمتدّ فيها اصابع الموت  
الحقيرة لاختطاف الروح .

وظل مسيو مادلين فترة من الوقت جامداً لا يتحرك امام هذا  
السرير ، ناظراً الى المريضة حيناً والى نثال المصوب حيناً ، كما قد فعل  
منذ شهرين يوم وفد للمرة الاولى لكي يراها في هذا المأوى . كانا لا  
يزالان كلاماً هناك في الوضع نفسه ، هي نائمة وهو مصلياً . كل ما  
في الأمر ان شعرها الآن ، بعد ان تقضى هذان الشهران ، أمسى أشيب

وان شعره أبيض .  
ولم تكن الراهبة قد دخلت معه . لقد وقف الى جانب السرير ،  
واصبه على شفتيه وكأنما كان في الغرفة شخص ما ، يريد ان يُسكنه .  
وفتحت عينها ، ورأته ، وقالت في سكونة ، وبابتسامة :  
- « وكوزيت ؟ »

## ٢

### فانتين سعيدة

إنما لم تجمل بالدهش ولا بالابتهاج . لقد كانت هي الابتهاج عينه .  
وكان هذا السؤال البسيط : « وكوزيت ؟ » قد طرح بإيماء عميق  
جداً ، وثقة مكينة جداً ، ونجوة كاملة من القلق والشك بحيث لم  
يستطع أن يجد كلمة يجيب بها عنه .  
وتابعت :

- « لقد عرفتُ انك كنتَ هناك . كنتُ نائمة ، ولكني رأيتك .  
لقد رأيتك فترة طويلة من الزمن . لقد تنبعتك بعيني طوال الليل .  
كانت تحيط بك هالة من المجد ، وكانت ترفرف حولك مختلف الوجوه  
الساوية ! »

ورفع عينيه نحو تمثال المصلوب .  
واستطردت :

- « ولكن قل لي ، ابن كوزيت ؟ لماذا لا تضعها في سريري  
لكي يكون في إماكني ان اراها لحظة أستيقظ ؟ »  
واجابها على نحو آلي بشيء ما ، لم يوفق بعد الى تذكره فقط .  
وكان الطيب قد اقبل لحسن الحظ ، وكان قد احبط علماً بذلك ،

وتقدم لجدّة مسيو مادلين ، قائلاً :

« إلزمي الهدوء يا ابنتي ، إن طفلتك هنا . »

وسعت عينا فانتين بالجدل ، وأضاءتا محبتاهما كله . وشبكت ذراعيها في سباً  
مفعمة بكل ما يمكن ان تنطوي عليه الصلاة من أعنف العنف وألطف اللطف .

وصاحت :

« اوده ، إحملوها اليّ ! »

وممّ مؤثر من اوهام الأمّ . كانت كوزيت لا تزال ، في نظرها ،  
تلك الطفلة الصغيرة التي تحمل بين الذراعين .

وتابع الطيب كلامه :

« ليس الآن . ليس في هذه اللحظة . انت لا تزالين محومة

بعض الشيء . وان رؤية ابنتك قد تشيرك وتسيء الى صحتك . ينبغي  
ان نشفيك أولاً . »

فقاطعت في حدة :

« ولكنني مُشفيت ! اقول لك إنني مُشفيت ! هل هذا الطيب

مجنون ؟ انا اريد ان ارى ابنتي ، انا ! »

فقال الطيب :

« أرايت كيف عصف بك الانفعال ؟ ما دمت في هذه الحال

فلن استطيع ان اسمح لك برؤية ابنتك . ليس يكفي ان تريها ؛ يجب  
أن تعيشي من أجلها . ونحن نعلمين العقل اجيئك بها أنا بنفسي . »

وحنت الأم المسكينة رأسها :

« سيدي الطيب ، ألتبس عفوك . ألتبس عفوك باخلاص . في

الماضي ما كنت لأنكلم كما تكلمت الان ولكنني ابتليت بعدد كبير  
من المصائب جعلني لا ادري ، في بعض الاحيان ، ما أقول . انا

افهم ، انت تخشى الانفعال . سوف أنتظر ما شئت لي ان أنتظر . ولكنني  
اقسم لك ان رؤية ابنتي لن تؤذي . أنا اراها الآن ؛ انا لم أرفع عيني عنها منذ

الليلة البارحة . دعهم يحملونها الي الآن ، فلن آكلهما إلا في رفق .  
هذا كل شيء . أليس طبعياً جداً ان ارغب في رؤية ابنتي التي قصدوا  
الى مونفيرماي خصيصاً لكي يأتوني بها ؟ انا لست غاضبة . انا ادري  
اني سوف اكون سعيدة جداً . فطوال الليل ، رأيت اشياء بيضاء  
ووجوهاً تبسم لي . وحين يجلو للسيد الطبيب ، سوف يحمل الي صغيرتي  
كوزيت . لقد فارقتني الحمى ، لأنني قد شفيت . انا احسن جيداً أني  
لم اعد اشكو شيئاً على الاطلاق ، ولكنني سوف أعمل وكأنني مريضة  
ولن اتحرك لكي أدخل السرور على ائمة السيدات في هذا المستشفى .  
وعندما يرين أني مخلدة الى السكينة يقلن : يجب ان نعطيها ابنتها . «  
كان مسيو مادلين جالساً في كرسي الى جانب السرير . والتفتت  
نحوه ، وبذلت جهداً واضحاً لكي تبدر هادئة و « عاقلة جداً » كما  
قد قالت في وِهن الداء ذاك الذي يشبه الطفولة ، لكي يروها لبنة  
الجانب الى حد بعيد ، فلا يكون ثمة عقبة تحول دون رؤيتها كوزيت .  
بيد انها ، على الرغم من كبحها جماح نفسها ، لم تتمالك عن ان توجه الى  
مسيو مادلين ألف - و آل .

- « هل كانت رحلتك سعيدة ، يا مسير مادلين ؟ اوه ! كم  
كنت كريماً في ذهابك لكي تأتيني بها ! ولكن قل لي كيف حالها ؟  
هل استطاعت ان تحمل الرحلة في سهولة ؟ وأسفاه ! لأنها لن تعرفني .  
لقد نسيتني الصغيرة المسكينة بعد هذه الغيبة كلها ! ان الاطفال لا ذاكرة  
لهم . انهم مثل العصافير . اليوم يرون شيئاً ، وغداً يرون شيئاً  
آخر ، ثم لا يذكرون شيئاً . ولكن قل لي هل كانت ثيابها الداخلية  
بيضاء ؟ هل كان قناردييه وزوجته يعينان بنظافتها ؟ كيف كانا  
يغذيانها ؟ اوه ! لو كنت تعرف كم قاسيت في طرح هذه الامثلة  
كلها على نفسي أيام شفاي ! اما الآن ، فقد انقضى ذلك . انا سعيدة .  
اوه ! ما اسدت شوقي الى رؤيتها ! سيدي العمدة ، هل وجدتها جميلة ؟

البيت ابنتي جميلة حقاً ؟ لا شك في انك احسنت بالبرد الشديد في تلك  
العربة العمومية ! اليس في إمكانهم ان يجيئوا بها الى هنا لحظة صغيرة  
فقط ؟ في استطاعتهم بعد ذلك ان يرجعوا ثانية في الحال . قل !  
أنت الذي تتمتع بالسلطة هنا ، هل ترغب في ذلك ؟  
وأمسك بيدها قائلاً :

« كوزيت جميلة . كوزيت في حال حسنة . سوف تزينها عما  
قريب ، ولكن الزمي الهدوء . أنت تتكلمين بسرعة اكثر مما ينبغي .  
والى هذا فأنت تخرجين ذراعيك من السرير ، وهذا ما يجعلك  
تسعين . »

والواقع ان نوبات سعال شديدة كانت تقاطع فانتين عند كل كلمة  
تقريباً .

ولم تذمر فانتين . لقد خشيت ان تكبرن قد اضعفت ، بتوسلاتها  
المللموفة اكثر مما ينبغي ، تلك الثقة التي رغبت في إيجائها ، وشرعت  
تحدث في موضوعات لبست ذات أهمية .

— « مونفيرماي جميلة ، اليس كذلك ؟ في الصيف يذهب الناس  
الى هناك التماساً للمتعة . هل يكسب تيناردييه وزوجته كسباً حسناً ؟  
ان قليلاً من الناس يمرّون بتلك المنطقة . ان فذقها ليس اكثر من  
مطعم حقير . »

وظل مسيو مادلين ممكأً بيدها ؛ ونظر إليها في قلق . كانت  
اضحاً انه اقبل ليخبرها أشياء كان عقله يتردّد الآن أمامها . وكانت  
الطبيب قد عادها وانسحب . ولم تبقى الى جانبيها غير الاخت سيمبليس .  
ولكن في غمرة الصمت ، صاحت فانتين :

— « انا اسمعها ؟ اوه ، يا السّهي ! انا اسمعها ! »

كان ثمة طفل يلعب في الفناء — ابنُ البوابة او عاملة ما . كانت  
احدى تلك المصادفات التي يلتقيها المرء ، والتي تبدو وكأنها تؤلف

جزءاً من الوضع المسرحي الحقيقي للاحداث الفاجعة . ولم يكن ذلك  
الطفل غير فتاة صغيرة تروح وتجيء وترقص ، لكي تنعم بالدفء ، ونغني  
وتضحك في صوت مرتفع . وأسفاه ! بأي شيء لا يمتزج لِعَبِّ الاطفال  
ومرحهم ! كانت هذه الطفلة هي التي سمعتها فانتين نغني .  
وقالت :

- « اوه ، هذه كوزيتي ! أنا اعرف صوتها ! »  
وانصرفت الطفلة كما اقبلت ، وتلاشى الصوت ، وأصفت فانتين فترة  
أخرى . ثم اكفهرت وجهها ، وسمعتها مسيو مادلين تهس :  
- « ينبغي ان يكون هذا الطبيب شريراً جداً حتى لا يسمح لي  
برؤية ابنتي ! ان لهذا الرجل وجهاً مشؤوماً ! »  
ومع ذلك فقد عاودها اتجاه أفكارها البهيج . واستمرت تتحدث  
الى نفسها ، ورأسها على الوسادة :

- « كم سنكون سعيدتين ! سوف يكون عندنا حديقة صغيرة  
قبل كل شيء . ان مسيو مادلين قد وعدني بذلك . ان طفلي سوف  
تلعب في الحديقة . يجب ان تعرف الاحرف الابدعية الآن . سوف  
أعلمها كيف تهجي الحروف . انها ستطارد الفراشات في الاعشاب .  
ولسوف اراقبها . وبعد ذلك نحتفل بنناولها القربان اول مرة . آه ، متى  
سيكون تناولها الاول ذاك ؟ »  
وبدأت تعدّ على اصابعها .

- « ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ... إنها في السابعة من  
عمرها . بعد خمس سنوات . سوف ترتدي فمّاً ابيض ، وجوارب  
ذات ثقوب ، وسوف تبدو مثل سيدة صغيرة . اوه ، ايها الاخت  
الطيبة ، انت لا تعرفين مبلغ حماقتي ! انا افكر الآن في تناول  
ابنتي الاول ! »  
واخذت في الضحك .

كان قد أفلت يد فانتين . واصفى الى هذه الكلمات كما يضفي المرء الى ربح نهب ، فعينه مطرقتان الى الارض ، وروح غائصة في تأملات لا يسبر لها غور . وفجأة كفت عن الكلام ورفعت رأسها على نحو آلي . كانت فانتين قد غدت مخيفة .

ولم تتكلم بعد ، ولم تتنفس بعد . كانت قد جلست في سريرها نصف جلة وقد خرجت كنفها المهزولة من قبصها . وغدا وجهها ، الذي كان مشرقاً قبل لحظة ، شديد الشحوب ؛ وبدت وكأنها تصوب عنها المنتسعة بالذعر الى شيء مروّع واقف أمامها في الطرف الآخر من الغرفة .

وصاح :

« يا الهي ! ماذا دهاك ، يا فانتين ؟ »

ولم تجب ؛ ولم ترفع عينها قط عن الشيء الذي بدت وكأنها تنظر اليه ، ولكنها مدت ذراعها بأحدى يديها ، وأشارت اليه بالآخرى ان ينظر خلفه .  
والنفث ، فرأى جافير .

### ٣

## جافير منشرح الصدر

فلننر ما الذي كان قد حدث .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادر مسيو مادلين قاعة محكمة الجنايات في آراس . وكان قد رجع الى فندقه في اللحظة التي حان فيها موعد انطلاق عربة البريد التي احتجز فيها ، كما نذكر ، مقعداً له . وقيل الساعة السادسة صباحاً كانت قد بلغ

مونتروي سور مير حيث كان أول ما عمله ان حمل البريد رسالته الى مسيو لافيت ، ليقتصد بعدد الى المستشفى ويرى فانتين .

وفي غضون ذلك كان النائب العام قد وجه الخطاب الى هيئة المحكمة - بعد أن زايه تأثير الصدمة الاولى بُعيد مغادرة مسيو مادلين القاعة - آسفاً للخبل الذي اصاب عمدة مونتروي سور مير المبجل معلناً ان يقينه لم يطرأ عليه تعديل ما نتيجة هذه الحادثة الغريبة التي سوف تنجلي في ما بعد ، طالباً - في انتظار ذلك - إدانة شائغتيو هذا الذي كان واضحاً انه جان فالجان الحقيقي . وكان جلياً ان إصرار النائب العام كان مناقضاً لعاطفة الجميع : النظارة ، هيئة المحكمة ، والمحلفين . ولم يجد محامي الدفاع كبير عسر في أن بدحض هذا الخطاب وان يقرر ان وجه القضية قد تغير ، بعد الذي اعله مسيو مادلين ، يعني جاث فالجان الحقيقي ، وان هذا التغير كان كلياً ، وانه لم يكن امام المحلفين الآن غير رجل بريء . وخلص المحامي من ذلك الى اطلاق بعض الحكم ، غير الجديدة كثيراً مع الأسف ، حول الاخطاء القضائية ، الخ . الخ . وفي تلخيصه للدعوى أيد رئيس المحكمة محامي الدفاع . وبعد بضع دقائق كان المحلفون قد برأوا ساحة شائغتيو .

ومع ذلك فقد كان النائب العام في حاجة الى جاث فالجان ما ، واذا خسر شائغتيو فقد استولى على مادلين .

وبعيد إطلاق سراح شائغتيو مباشرة خلا النائب العام الى رئيس المحكمة . وكان موضوع حديثها يدور على « ضرورة القاء القبض على شخص السيد عمدة مونتروي سور مير . » وكانت هذه العبارة الحافلة بالاضافات هي تلك التي كتبها النائب العام بخط يده في التقرير الذي رفعه الى كبير النواب العامين .

واذا انقضى أثر الانفعال الاول فلم يبد رئيس المحكمة غير اعتراضات قليلة . يجب ان تتخذ العدالة مجراها . والى هذا فيتعين علينا ان



نعترف ، لكي لا نكتم شيئاً ، ان الرئيس - على الرغم من كرم نفسه وذكاء قلبه - كان في الوقت نفسه ملكياً متحججاً ، بل ملكياً يكاد يكون متأججاً ، وكان قد اصيب بصدمة عندما كان عمدة مونتروي سور مير يتحدث عن غزو الارض الفرنسية عند « كات » فقال « الامبراطور » بدلاً من « بونابرت » *Bonaparte*

وهكذا صدر الامر بالاعتقال . وبعث النائب العام به الى مونتروي سور مير بواسطة رسول انطلق على جناح السرعة فدفعه الى مفتش الشرطة جافير .

ونحن نذكر ان جافير كان قد رجع الى مونتروي سور مير بعد ادلائه بشهادته مباشرة .

وكان جافير قد نهض ، وما كاد ، من فراشه حين حمل اليه الرسول الأمر بالاعتقال ومذكرة الجلب .

وكان الرسول هو نفسه شرطياً ، وكان رجلاً ذكياً استطاع ، بكلمتين ، أن يحيط جافيرَ عالماً بكل ما جرى في آراس .

وكان الأمر بالاعتقال ، الحامل توقيع النائب العام ، 'مفرغاً في هذه العبارات : -

« ان المفتش جافير سوف يلقي القبض على جسد السيد مادلين ، عمدة مونتروي سور مير الذي ثبت خلال جلسة اليوم انه هو المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان . »

ولو ان امراً لا يعرف جافير رآه حين دخل رواق المستشفى لما كان في ميسوره ان يحزر شيئاً مما كان يجري ، ولحسب ان سبباً طبيعياً الى ابعاد حد يمكن تخيله . كان غائباً ، هادئاً ، رزيناً ، وكان شعره الاشيب صقيلاً أملس ، على نحو كامل ، وكان قد ارتقى السلم في ببطئ المعتاد أما من قدر له ان يعرفه معرفة عميقة ، وان يتأمله في انتباه ، فقد كان خليفاً به أن يرتعد . كان ابريم طوق قميصه

الجلديّ تحت أذنه اليسرى بدلاً من ان يكون على رقبته . وكان ذلك  
بنمّ عن احتياجه لم يُسمع بمثله من قبل .

كان جافير شخصية كاملة لا تفضن في واجبه او في ستورته العسكرية .  
وكان مدققاً مع الآثمين ، قاسياً على ازارار ستورته .

ولكي ينعرف ابراهيم طوق قيمته عن موضعه لا بد ان يكون قد  
عصف به انفعال من الانفعالات التي نستطيع ان ندعوها زلازل النفس .  
كان قد اقبل في غير مبالاة ، وكان قد اصطحب من أحد مراكز  
الجند المجاورة عريقاً واربعة أنفار ، وترك الجنود في الفناء ، وسأل  
البوابة ان تدله على غرفة فانتين ، ففعلت من غير ان ترتاب في امره ،  
اذ كانت متعودّة ان ترى بعض الرجال المسلحين يسألون عن السيد  
العمدة .

حتى اذا بلغ جافير غرفة فانتين ، ادار المفتاح ، ودفع الباب في  
لطف بمرضة او جاسوس من جواسيس الشرطة ، ودخل .

ولو اردنا ان نصطع الدقة في التعبير لقلنا إنه لم يدخل . لقد ظل  
واقفاً لدى الباب نصف المفتوح ، وقبعته على رأسه ، ويده اليسرى في  
معطفه المزوّر حتى ذقنه . وفي انثناء مرفقه كان في ميسور المرء ان  
يرى رأس عصاه الضخمة الرصاصي ، وكانت قد اختفت وراءه .

وظلّ هكذا نحواً من دقيقة لم يحسّ بوجوده احد . وفجأة ، رفعت  
فانتين عينها ، ورأته ، ودعت مسير مادلين الى الالتفات .

وحالما التقت عيننا مادلين عيني جافير غدا جافير - من غير ان  
يتحرك ، ومن غير ان يبدل مكانه ، ومن غير ان يقترب - مروّعاً  
فظيحاً . ان اياً من العواطف الانسانية لا يمكن ان تكون مخيفة  
كالابتهاج .

كان وجهه شيطانٍ عثر على ضحيته من جديد .  
وكان يقينه بأنه قد ألقى القبض ، آخر الامر ، على جان فالجان قد اظهر

على بحياه كل ما كان في ذات نفسه . لقد ارتفعت أعماقه المضطربة الى السطح . وكان الحزى الذي استشره بسبب من انه خل الاثر وخُذع عن ذات نفسه ، بضع دقائق ، في مسألة ثمانينيو - كان هذا الحزى قد ضاع في الغرور الذي استشره بسبب من انه وفّق الى أن يجرز ، منذ البدء ، على هذا النحو البارع ؛ ومن انه احتفظ منذ دهر طويل بغريزة لا تُكذِبُ صاحبها . وتجلّى ارتياح جافير في سلسلة المفعم بالسلطان والجبروت . لقد انتشرت بشاعة الانتصار فوق جبينه الضيق . كان ذلك أكمل صورة من صور الهول يمكن لوجه جدران ان يتكشف عنها .

كان جافير ، في تلك اللحظة ، في السماء . ومن غير أن يجدد احساسه على نحو واضح ، ولكن في حدس مشوش أشعره بضرورته وبنجاحه ، مثل ، هو جافير ، العدالة والنور والحقيقة في مهمتها السماوية كدمرة للشر . كانت من ورائه ومن حوله أعماق لا نهاية لها من السلطة ، والعقل ، والسابقة ، والضمير القضائي ، وانتقام القانون ، وجميع النجوم التي في القبة الزرقاء . لقد صانَ النظام ؛ لقد أطلق وعود القانون ؛ لقد انتقم للمجتمع ؛ لقد مدّ يد العون الى المطلق . لقد وقف منتصب القامة وسط هالة من المجد . لقد كان في انتصاره بقية من نخدٍ ومن صراع . كان في وقفته المتفطرة ، المتألّفة ، يعرض في جلال كامل البهيمية فوق البشرية الجديرة برئيس ملائكة خاضٍ . وكان الظل الرهيب للعمل الذي يقوم به يُبدي ، في تجمع كفه المتشجج ، بوارق السيف الاجتماعي الغامضة . كان يدوس بعقب قدمه ، في سعادة وفي حق ، على الجريمة ، على الرذيلة ، على الترد ، على الهلاك الابدي ، على الجميع . كان يتأق ، وكان يُبيد ، وكان يتسم . كان ثمة عظمة لا يمكن إنكارها في هذه الصورة الفظيعة من صور القديس ميشيل . \*

\* كبير الملائكة ، وقائد جند السماء .

لم يكن جافير ، رغم انه خفيف ، خصباً قط .  
 إن النزاهة ، والاخلاص ، وسلامة النية ، واليقين ، وفكرة الواجب  
 هي اشياء قد تصبح بشعة ، حين تخطيء ، ولكنها تظل برغم بشاعتها  
 عظيمة . إن جلالها الخاص بالضمير الانساني ، ليستمر في هولها . إنها  
 فضائل ذات رذيلة واحدة : الخطأ . فالابتهاج الصادق الذي لا يعرف  
 الرحمة والذي يتكشف عنه المتعصب في عمل من أعمال القسوة يحتفظ  
 باشعاع فاجع لا تقدر على وصفه ، إشعاع يوقع في نفوسنا الأجلال .  
 ومن غير ان يشعر بذلك ، كان جافير في سعادته التي توحى بالذعر  
 ينسحق الرثاء ، مثل كل رجل جاهل يكسب معركة . إن شيئاً لا  
 يمكن ان يكون أوجع او افظع من هذا الوجه الذي تكشف عما  
 يمكن ان ندعوه شر الحير .

## ٤

### السلطة تسترد حقوقها

لم تكن فانتين قد رأت جافير من يوم ان اختطفها العمدة من هذا  
 الرجل . ولم يأخذ دماغها المريض بأيّ تعليل ؛ إلا انها لم تشك في أنه  
 اقبل لالقاء القبض عليها . وما كان في ميورها ان تتحمل هذا الوجه  
 الرهيب ؛ لقد استشعرت وكأنها 'تحتضر' وأخفت وجهها بيديها الاثنتين ،  
 وصاحت في ألم نفسي مبرح :

« ميسو مادلين ، أنقذني ! »

وكان جان فالجان - ونحن لن ندعوه منذ اللحظة بغير هذا الاسم -  
 قد نهض . وقال لفانتين في جرس ليس ألطف منه ولا اكثر هدوءاً :  
 - « إلزمي السكينة . إنه لم يأت من اجلك . »

ثم التفت الى جافير وقال :

- « انا اعرف ماذا تريد . »

فاجاب جافير :

- « هيا ، أسرع ! »

كان في الطريقة التي 'نطقت بها هاتان الكلمتان شيء لا يمكن التعبير عنه ، شيء يذكر كرك بوحش صار وبرجل مجنون . إن جافير لم يقل : « هيا ، أسرع ! » ولكنه قال : « هيا ... أسرع ! » ، وليس في إمكان علم الاملاء ان يعبر عن التبرة التي أطلق فيها هذا الكلام . إنه لم يكن كلاماً بشرياً قط ؛ كان زنبوراً .

ولم يجر على مألوف عاداته ، ولم يدخل قط في الموضوع ، ولم يبرز أيما مذكرة جلب . كان جان فالجان ، في نظره ، ضرباً من المقاتل الحقي الذي لا سبيل الى فهمه ؛ كان مصارعاً غامضاً سلخ خمسة اعوام وهو يغالبه من غير أن يظهر عليه . إن هذا الاعتقال لم يكن بداعة ، لقد كان خاتمة . واكتفى بالقول :

- « هيا ، أسرع ! »

وفيا هو يقول ذلك لم يخط خطوة واحدة ، ولكنه ألقى على جان فالجان نظرة اشبه بالكلاب المعدية كان من عاداته أن يجذب بها البؤساء نحوه ، بالقوة .

كانت هي النظرة نفسها التي استشعرت فانتين أنها نفذت الى نخاع عظامها قبل شهرين اثنين .

وكانت فانتين قد فتحت عينها عندما أطلق جافير صيحته . ولكن العمدة كان هناك ، فمن أي شيء يمكن أن نخاف ؟

وتقدم جافير الى منتصف الغرفة ، صائحاً :

- « هاي ، هناك ! ألن تأتي ؟ »

ونظرت المرأة المسكينة الى ما حولها . لم يكن ثمة احد غير الراهبة

والعمدة . الى من يمكن ان يكون هذا الكلام الاستخفاي المحض  
موجهاً ؟ اليها وحدها ليس غير . وارتعدت اوصالها .

ثم انها رأت شيئاً عجباً ، شيئاً عجباً لم يتمثل لها نظيره ، حتى في  
احلك لحظات الحمى وهذيانها .

لقد رأت جاسوس الشرطة جافير يمك بخناق السيد العمدة ؛ لقد  
رأت السيد العمدة يحن رأسه . وبدا لها وكأن العالم يتلاشى امام ناظرها .  
كان جافير قد أخذ بخناق جان فالجان فعلاً .

وصاحت فانتين :

- « سيدي العمدة ! »

وانفجر جافير بالضحك . وكشف ضحكه الرهيب هذا عن اسنانه كلها .  
وقال :

- « لم يُعد هنا شيء اسمه سيدي العمدة ! »

ولم يحاول جان فالجان ان يزجج اليه القابضة على طوق ستونه الطويلة  
المشقوقه الذيل .

وقال :

- « جافير .... »

وقاطعه جافير :

- « نادني ايها السيد المفتش ! »

فتابع جان فالجان كلامه :

- « ايها السيد ، اريد ان اقول لك كلمة على انفراد . »

فقال 'جافير :

- « تكلم بصوت عال ! تكلم بصوت عال ! ان الناس يتكلمون

معي بصوت عال ! »

وتابع جان فالجان كلامه ، خافضاً صوته :

-- « انما اريد ان اتقدم اليك برجاء .... »

- « اقول لك نكلم بصوت عالٍ . »

- « ولكن هذا شيء . ينبغي ان لا يسمعه احد غيرك . »

- « وما يعني ذلك ؟ لن اصفي لكلامك ! »

واستدار جان فالجان نحوه ، وقال في مرة وفي صوت منخفض جداً :

- « أمهلني ثلاثة ايام ! ثلاثة ايام لكي اذهب وأجيء بطفلة هذه

المرأة المسكينة ! سوف ادفع كل ما هو ضروري في سبيل ذلك . وفي

استطاعتك أن ترافقني اذا شئت . »

فصاح جافير :

- « اتضحك عليّ ؟ هاي ؟ ما كنت اعتقد انك ابله الى هذا الحد !

انت تطلب مهلة ثلاثة ايام لكي تقرر ثم تزعم انك تريد ان تذهب

لكي تأتي بطفلة هذه الفتاة ! ها ! ها ! هذا جميل ! هذا جميل ! »

وارتعدت فانتين .

وصاحت :

- « ابنتي ! تذهب لكي تجيئني بابنتي ! واذن ، فهي ليست هنا !

أيتها الاخت اجيبي ، اين كوزيت ؟ انا اريد ابنتي ! مسيو مادلين !

سيدي العمدة ! »

وخبط جافير الارض بقدمه .

- « ها هي الاخرى ، الآن ! اخري ، ايها الفتاة الخالعة العذار !

مسكينة هذه البلاد التي يكون فيها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ولادة ،

والتي يمرض فيها بنات الهوى مثل الكونتيسات ! ها ! ولكن هذا كله

سيغير . لقد آن الاوان ! »

وحدّق الى فانتين تحديقاً موصولاً ، ثم اضاف بمسكاً ككرة اخرى

بعقدة وقبة جان فالجان ، وقبضه ، وطوق سترته :

- « اقول لك انه لم يبق هنا شيء . اسمه مسيو مادلين ، ولم يبق شيء .

اسمه سيدي العمدة . ان هناك لهما ؛ ان هناك قاطع طريق ؛ ان هناك

رجلاً محكوماً عليه بالاشتغال الشاقة يدعى جان فالجان ! انه هذا الذي امسك به ! ذلك ما يوجد هنا !

وانتصبت فانتبن في جلستها ، معتمدة على ذراعيها المتوترتين وعلى يديها . ونظرت الى جان فالجان ، ونظرت الى جافير ، ونظرت الى الراهبة . وفتحت فيها وكأنها تريد ان تتكلم ، وانطلقت من جنبعتها حشرجة ، واصطكت اسنانها ، ومدت ذراعيها في ألم نفسي مبرح ، وفتحت يديها في تشنج ، منحسرة ما حولها مثل مشرف على الفرق . ثم انقلبت فجأة على ظهرها ، فوق الوسادة .

واصطدم رأسها بمقدم السرير ، فارتدت منقلبة على صدرها . كان فيها فاغراً وكانت عيناها مفتوحتين خامدتين .

لقد ماتت .

ووضع جان فالجان يديه على يد جافير المسكة به ، وفتحها وكأنه يفتح يد طفل . ثم قال لجافير :

— « لقد قنلت هذه المرأة . »

فصاح جافير في حلق :

— « كفى هراء ! انا لم اجد الى هنا لأسمع الى مواظ . وفتر هذا

كله . الحرس تحت . امش في الحال ، وإلا وضعت يديك في الحديد ! »

وكان في زاوية الغرفة سرير حديدي عتيق منهدم كانت كل من الراهبتين تتخذ منه سريراً نقالاً حين تسهر على خدمة المرضى . فما كان من جان فالجان إلا ان مضى الى ذلك السرير ، وانتزع في طرفة عين مقدمه الراهن — وما كان ذلك بعير على عضلات كمضلاته — ونظر الى جافير ، والقضيب الحديدي في قبضة يده .

وارتدت جافير نحو الباب .

وفي بطنه ، تقدم جان فالجان ، متشبثاً بالقضيب الحديدي ، نحو سرير فانتين . حتى اذا انتهى اليه ، استدار وقال لجافير في صوت لا يكاد يُسمع :



- و أنصحك بأن لا تزعجني الآن .

وارتعد جافير ؛ ذلك شيء لا ينطرق إليه الشك .  
وخطر له ان يضي لستدعي الحرس ، ولكن جان فالجان قد يغتم  
هذه الفرصة فيفتر . وهكذا ظلّ معتصماً بعقب عصاه ، وأسند ظهره  
الى إطار الباب ، من غير ان يرفع عينيه عن جان فالجان .  
واراح جان فالجان مرفقه على القضيّب الحديدي ، وأراح رأسه على  
يده ، وحدّق الى فانتين وقد تمدّدت امامه وليس بها حراك . وظلّ  
هكذا ذاهلاً ، أبكم ، غير مفكّر من غير شكّ بأيّ شيء في هذه الحياة .  
ولم يبق على محياه ، وفي هيئته ، غير شفقة تمنع على التعبير .  
وبعد بضعة لحظات من الاستغراق في التفكير انحنى فوق فانتين ،  
وخطبها في صوت خفيض .

ماذا قال ؟ ما الذي يستطيع ان يقوله هذا الرجل الهالك لهذه المرأة  
الميتة ؟ ما كانت تلك الكلمات التي نطق بها ؟ إن أحداً على ظهر هذه  
الأرض لم يسمعها . هل سمعتها المرأة الميتة ؟ إن ثمة أوهاماً مؤثّرة ربما  
كانت حقائق سامية . والشيء الذي لا سبيل الى الشك فيه هو أن  
الاخت سيبيليس - الشاهدة الوحيدة لما قد جرى - كثيراً ما روت  
أنها لحظةً همس جان فالجان في أذن فانتين رأت في وضوح ، ابتسامة  
بعجز البيان عن وصفها ، تشرق على هاتين الشفتين الشاحبتين وفي هاتين  
العينين القاتنتين ، المغمضتين بدهشة القبر .

وأمسك جان فالجان رأس فانتين بيديه ، وقوّاه على الوسادة ،  
فعلّ الأم برأس طفلها ، ثم عقد وثاق منامتها ، وأدخل شعرها تحت  
قلنسوتها . حتى اذا تمّ له ذلك أغض عينها .  
وفي تلك اللحظة بدا وجه فانتين مشرقاً على نحو عجيب .  
إن الموت هو المدخل الى النور العظيم .

وتدلّت يد فانتين على جانب السرير . وركع جان فالجان أمام

هذه اليد ، ورفعها في رفق ، وقبلها .  
ثم انه نهض ، والتفت الى جافير قائلاً :  
- « والآن ، انا تحت تصرفك . »

## ٥

### قبر ملائم

ووضع جافير جان فالجان في سجن المدينة .  
وأثار اعتقال مسيو مادلين خواطر الناس في مونتروي سور مير ،  
بل الاصح ، ان نقول إنه أحدث هزة فوق العادة . ويؤسفنا ان لا  
نستطيع كتمان هذه الحقيقة : وهي أنه ما كادت تذيع تلك الجملة  
المفردة : « كان عبداً رقيقاً من عبيد سجن الاشغال الشاقة حتى انفضَّ  
من حوله الناس كلهم تقريباً . وفي اقلّ من ساعتين 'نسي جميع الخير  
الذي اسداه الى البلد والناس ، ولم يعد هو ' غير محكوم عليه بالاشغال  
الشاقة . » ومن الانصاف ان نقول ان تفاصيل الحادث كما وقع في  
آراس لم تكن قد عرفت بعد . وطوال النهار كانت احاديث مثل  
هذه تُسمع في كل جزء من اجزاء المدينة :

- « الا تعرف ؟ لقد كان محكوماً بالاشغال الشاقة أطلق سراحه ! »

- « من هذا ؟ »

- « العمدة . »

- « عجباً ، مسيو مادلين ؟ »

- « نعم . »

- « حقاً ؟ »

- « ان اسمه ليس مادلين . إن له اسماً مخفياً : باجان ، بوجان ، ييجان ! »

- « آه ، يا السَّهي ! »  
 - لقد أُلقي القبض عليه .  
 - « التمي القبض عليه ! »  
 - « ووضع في سجن المدينة ريثما يُنقل . »  
 - « ريثما يُنقل ؟ الى ابن سوف ينقل ؟ »  
 - « سوف يساق الى محكمة الجنايات لسرقة في الطريق العام كان قد ارتكبها في ما مضى . »  
 - « حسناً ! لقد ارتببت فيه دائماً . لقد كان هذا الرجل طيباً أكثر مما ينبغي ، كاملاً أكثر مما ينبغي ، لطيفاً أكثر مما ينبغي . لقد رفض ان يتقاضى اجراً ، وكان يمنح الدرام لكل من يلتقيه من هؤلاء الاوباش الصفار . لقد فكرت دائماً بأنه لا بد ان يكون ثمة قصة رديئة خلف هذا كله . »

واخذت « الصالونات » كلها - على الخصوص - بهذا الرأي .  
 واطلقت سيدة عجوز ، مشوّكةٌ بصحيفة « الراية البيضاء » ، هذه الملاحظة التي يكاد يتعذر على المرء ان يسبر غورها :  
 - « انا لست آسفة . ان ذلك سوف يلقي درساً على البونابرتين ! »  
 وهكذا تبدّد في مونتروي سور مير ذلك الطيف الذي كان يُدعى فيها ميرو مادلين . إن ثلاثة اشخاص او اربعة اشخاص من اهل المدينة كلها ، لبس غير ، ظلوا اوفياء لذكراه . وكانت البوابة العجوز التي عملت في خدمته واحدةً من هؤلاء .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه كانت هذه العجوز الفاضلة جالسةً في كوخها ، وهي ما تزال مشدوّهة ، وقد غرقت في تفكير حزين . كان المصنع قد أغلق طوال النهار ، وكان الباب الكبير الذي تدخل منه العربات قد أوصد بالحديد ، وكان الشارع مقفراً . ولم يكن في المنزل احد غير الراهبتين ، الاخت بيوريتو والاخت سيبليس ، وكاتنا ماهرتين

امام جئان فانتين .

وحوالى الموعد الذي تعود مسيو مادلين العودة فيه الى منزله نهضت البوابة الأمانة على نحو آليّ ، واخذت مفتاح غرفة مسيو مادلين من احد الادراج ، والشعدان الذي اعتاد ان ينير به سبيله ليلاً وهو يرتقي السلم ، ثم علقت المفتاح بمسار كان من دأبه أن يتناوله منه ، ووضعت الشعدان الى جانبه ، وسكناً كانت تتوقع عودته . ثم انها عاودت الجلوس في الكرسي ، واستأنفت تأملاتها . لقد عملت المعجوز المسكينة ذلك كله من غير ان نعي .

وانقضى على ذلك اكثر من ساعتين . وفجأة أجفلت صائحة :  
- « ولكن ، يا الهي ! لاني انا التي وضعت مفتاحه في المسار ! »  
وفي تلك اللحظة ، فُتحت نافذة كوخها . وامتدت يد من خلال تلك الفرجة ، واخذت المفتاح والشعدان ، وأضاءته بالشعلة المشتعلة .  
ورفعت البوابة عينها فاغرة الفم . ووثبت الى شفتيها صيحة ، ولكنها خففتها .  
لقد عرفت اليد ، والذراع ، وُردن الريدينغوت .  
كان مسيو مادلين .

وظلت صامتة بضع دقائق ، قبل ان توفق الى الكلام ، مصعوقة كما عبّرت هي نفسها في ما بعد حين روت الحادثة .  
واخيراً صاحت :

- « يا الهي ! السيد العبد ! لقد حسبت انك ... »  
وصمتت . كان من الجائز ان تأتي خائفة جملتها وقد أعوزها الاحترام لطلعها . فقد كان جان فالجان هو دائماً - في نظرها - السيد العبد . وأنتم فكرها ، قائلاً :

- « في السجن . لقد كنت هناك . لقد كسرت قضيباً حديدياً من احدى النوافذ ، وقهرت من أعلى سطح ما ، وها أنا ذا . لاني ذاهب الى غرفتي . فولي للاخت سيبيليس لاني اود ان اراها . انها من

غير شك الى جانب تلك المرأة المسكينة . ،  
وامتثلت العجوز الأمر في سرعة بالغه .

ولم يوصها بشيء . كان واثقاً من انها خليفة بان تحرسه أحسن مما يحرس نفسه .  
وما عرف احد قط كيف وُفِّق الى ان يدخل الى فناء الدار من  
غير ان يفتح الباب الكبير الخاص بالعربات . كان لديه مفتاح يحمله  
ابداً في جيبه ، مفتاح عمومي يفتح باباً جانبياً صغيراً . ولكنهم قد  
فقدوه من غير ريب ، وانتزعوا منه ذلك المفتاح الذي تعنوله الأبواب  
كلها . إن هذه النقطة لما 'تجمل' حتى الآن .

وارتقى السلم التي تقود الى غرفته . حتى اذا بلغ الدور الأعلى ترك  
شمعدانه على درجات السلم الاخيرة ، وفتح باب غرفته في رفق ، وتلصق  
سبيله نحو النافذة فأغلقها وأغلق مصراعها ، ثم ارتدت على آثاره ، فعمل  
الشمعدان ، ومضى الى غرفته ككرة اخرى .

ولم يكن الحذر غير ذي غناء . فنحن نذكر ان نافذة غرفته يمكن  
ان تروى من الشارع .

وألقى نظرة على ما حوله ، على طاولته ، على كرسيه ، على سريره  
الذي لم يسطيع فيه منذ أيام ثلاثة . لم يكن ثمة اجماع من فوضى  
اللبه التي قبل البارحة . ذلك بأن الخادمة كانت قد رتبت الغرفة ؛ بيد  
أنها كانت قد التفتت من الرماد عقي العصا الحديديتين وقطعة الاربعين سر  
التي سوتها النار . ووضعها جميعاً ، بعد تنظيفها ، على الطاولة .

وتناول ورقة وكتب : ها هما عقبا عصاي الحديديتان وقطعة الاربعين  
سوا المسروقة من جيبه الصغير ، والتي تحدث عنها في محكمة الجنايات .  
ثم وضع القطعتين الحديديتين والقطعة الفضية على الورقة بحيث تكون أول  
شيء يراه الداخل الى الغرفة . وأخرج من احدى الخزائن قيصاً له عتيقاً  
ومزقه . وهكذا حصل على بضع قطع من القماش افـ بها الشمعدانين  
الفضيين . وفي ذلك كله لم يكن ثمة تعجل أو احتياج . وحتى فيما هو

يلفّ شمعاني الاسقف انثاً يقضم قطعة من الحبز الاسود . ولعلّ ذلك كان من خبز السجن الذي حمله معه حين فرّ .  
وإنما نهض الفئات الذي وُجد على ارض الغرفة ، حين أجرت العدالة في ما بعد تفتيشاً دقيقاً ، دليلاً على ذلك .  
وخفق شخصٌ ما الباب خفقتين رفيفتين .  
وقال : « ادخل . »

كانت هي الاخت سيبليلس .  
كانت شاحبة الوجه ، ممرّرة العينين ؛ وكانت الشمعة التي تحملها ترتجف في يدها . إن لصدّات القدر هذه الحاصة ، وهي اننا مهما تكن أحاسيسنا مكبوحة أو حسنة الانضباط فإن تلك الصدّات تنزع الطبيعة البشرية من أعماق نفوسنا ، وتكرهنا على ان نبديها للناس . ففي غمرة من انفعالات ذلك اليوم كانت الراهبة قد عادت امرأة ككرة اخرى .  
كانت قد ذرفت الدمع ، وكانت ترتجف .  
وكان جان فالجان قد كتب بضعة اسطر على فصاعة من ورق ، فقدّمها الى الراهبة قائلاً :

« ايها الأخت ، سوف تقدمين هذه الى الكاهن .  
ولم تكن الورقة مطوية . فألقت نظرة عليها .  
وقال جان فالجان : « في استطاعتك ان تقرأها . »  
وقرأت : « إني أرجو سيدي الكاهن ان يتولى أمر العناية بكل ما أتوّه هنا . وأرجو أن يدفع من ثمن ذلك نفقات محاكمتي ونفقات دفن هذه المرأة التي توفيت اليوم . أما الباقي فيوزع على الفقراء . »  
وحاولت الراهبة ان تتكلم ، ولكنها تلعجبت فلم تتطلق من فمها سوى اصوات غير مبيّنة . بيد أنها ما لبثت ان وفقت الى القول :  
« ألا يريد السيد العمدة ان يرى هذه البائسة المسكينة للمرة الاخيرة ؟ »  
فقال :

« لا . إنهم يطاردوني . ولست أحب ان يلقوا القبض عليّ في غرفتها . ذلك خليق به ان يزعمها . »

ولم يكذب كلامه حتى أقبلت من جانب السلم ضجة شديدة . لقد سمعا جلّبة أقدام ترتقي السلم ، والبوابة العجوز تقول في نبرات مرتفعة الى أبعد الحدود ، ثاقبة الى أبعد الحدود :

« يا سيدي الطبيب ، أقسم لك بالله ان أحداً لم يدخل الى هنا طوال النهار وطوال الليل ، وأنا لم أغادر باب كوخه ولو مرة واحدة ! ، فأجابه رجل :

« ومع ذلك فهناك نور في هذه الغرفة . »  
وتبيّنا في ذلك الكلام صوت جافير .

كانت الغرفة منظمة على نحو يجعل الباب محجب ، حين يُفتح ، زاوية الجدار القائم الى اليمين . وأطفاً جان فالجان الشعدان ، وحشر نفسه في تلك الزاوية .

وخرت الاخت سيمبلبس على ركبتيها قرب الطاولة .

وُفتح الباب .

ودخل جافير .

وسمع خمس عدة رجال واحتجاجات البوابة في الرواق .

ولم ترفع الراهبة عينها . كانت نصلي .

كانت الشعلة فوق الموقد ، وكانت لا ترسل غير ضوء باهت .

ولمح جافير الراهبة ، ووقف مرتبكاً .

وبذكر القراء ان جوهر جافير ، وعصره ، والوسط الذي يتنفس

فيه كان اجلال السلطة كلها . كان متجانساً اكمل التجانس ، وكان لا يرفض اعتراضاً او تقييداً . وينبغي ان نعلم ان السلطة الاكبر كانت عنده اسمى السلطات . كان تقياً ، سطحياً ، دقيقاً في هذه النقطة شأنه في النقاط جميعاً . ففي نظره كان الكاهن روحاً ليس تحطيه ابداء ، وكانت

الراهبة مخلوقة لا تأثم ابدآ . كانا روحين يعزلهما عن هذا العالم باب مفرد لا ينفتح ابدآ إلا لكي يسمح للحقيقة بالانطلاق .  
وهكذا لم يكذب بلح الراهبة حتى كان حافزه الاول يدعوه الى الانسحاب .  
ولكن كان ثمة واجب آخر يمسك به ، ويدفعه بصاف في طريق معاكس . كان حافزه الثاني يقتضيه ان يبقى وان يغامر فيطرح سؤالاً واحداً على الاقل .

كانت هذه هي الاخت سيبلبس التي لم تكذب في حياتها قط . كان جافير يعرف ذلك ، وكان يحلها على نحو خاص بسبب من ذلك .  
وقال : « ايتها الاخت ، هل انت وحدك في هذه الغرفة ؟ »  
وانقضت لحظة رهيبه استشعرت البوابة المسكنة خلالها وكأنها على وشك ان تصاب بالاغواء . ورفعت الراهبة عينها ، واجابت :  
« نعم . »

وتابع جافير :  
« اعذريني اذا اصررت ، فهذا واجبي : ألم تري هذا المساء شخصاً ، رجلاً ، كان قد فرّ ، ونحن نلاحقه - هذا الرجل ، جان فالجان ، ألم تَـرَـيْهِ ؟ »  
فأجابت الراهبة : « لا . »

لقد كذبت . كذبت كذبتين متعاقبتين ، احداها اثر الاخرى ، ومن غير ما تردد ، وفي سرعة ، وكأنها متضلعة من ذلك .  
« ألتس عفوك . »

قال جافير ذلك ، وانحجب منحيباً في احترام .  
ابه ايتها الفتاة المقدسة ! انت لم تعودى من اهل هذا العالم منذ سنوات عديدة . لقد التحقت باخواتك - العذارى - وباخوتك - الملائكة - في الضياء . فلنذكرك لك هذه الكذبة في الجنة !  
كان توكيد الراهبة لجافير شيئاً حاسماً عنده الى درجة جعلته لا يلحظ



حتى غرابة هذا الشعبان ، المطفأ منذ لحظة ، المرسل دبحانه على الطاولة . وبعد ساعة ، كان رجل يمشي عبر الاشجار والظلمات مبتعداً في سرعة عن مونتروي سور مير موجهاً وجهه شطر باريس . كاث هذا الرجل هو جان فالجان . ولقد ثبت ، بشهادة اثنين أو ثلاثة من سائقي العربات الذين التقوا به ، أنه كان يحمل صرة ، ويرتدي درّاعة . من اين جاء بهذه الدراعة ؟ إن احداً لم يدّر . ومع ذلك ، فإن عاملاً عجوزاً كان قد توفي في مستشفى المصنع قبل ايام قليلة ، غير مخلّف شيئاً خلا هذه الدراعة . فلعلّ هذه ان تكون تلك التي ارتداها جان فالجان . بقيت كلمة اخيرة عن فانتين .

إن لنا جميعاً أمماً واحدة : الارض . لقد أُعيدت فانتين الى هذه الأم . وارتأى الكاهن ، ولعله أحسن في ذلك صنعاً ، ان يحتفظ بأكبر قدر ممكن من ثمن ما خلفه جان فالجان ليوزعه على الفقراء . وعلى أية حال ، فبمن كان يتصل ذلك ؟ برجل محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، وبيئت من بنات الهوى . وهذا هو السبب الذي من اجله بسّط الاحتفال بدفن فانتين ، وقصره على الكفاف الذي يدعى حفل الفخاري \* وهكذا دُفنت فانتين في هذه الزاوية المجانية من المقبرة ، الزاوية التي هي لكل فرد وللناس جميعاً ، والتي يضيع فيها الفقراء . ولكن الله يعرف لحسن الحظ أين يجد النفس . لقد أضجعت فانتين في الظلام ، بين الرمم التي ليس لها اسم . لقد تحملت فوضى رفات الموتى واختلاطه . لقد طرحت في الجلدث العمومي . إن قبرها كان مثل سريرها .

---

\* اي مقبرة الفقراء والغرباء . جاء في انجيل متى ( ٢٧ : ٧ ) : « قشاوروا واشتروا بها حفل الفخاري مقبرة » لثرباء . »

## فهرست القسم الاول : « فائتين »

ص	
•	مقدمة
١٧	كلمة اولى
	الكتاب الاول : رجل مستقيم
٢١	١ . مسيو ميريل
٢٥	٢ . مسيو ميريل يصبح مونسينيور بينفينو
٣٢	٣ . اسقف صالح - اسقفية جافية
٣٦	٤ . الاعمال تكافأ مع الافعال
	٥ . كيف جعل مونسينيور بينفينو ثوبه
٤٤	الكنهوتي يمر طويلاً
٤٧	٦ . كيف كان يحمي بيته
٥٤	٧ . كرامات
٥٩	٨ . فلسفة ما بعد النداء
٦٤	٩ . الاخ كما تصوره الاخت
٦٩	١٠ . الاسقف في حفرة ضياء مجهول
٨٦	١١ . تحفظ
٩٢	١٢ . عزلة مونسينيور بينفينو
٩٧	١٣ . معتقداته
١٠٢	١٤ . افكاره

## الكتاب الثاني : السقوط

١٠٧	١ . بعد مسيرة يوم بكامه
١٢٣	٢ . الغلظة تسلم الحكمة
١٢٨	٣ . بطولة الطاعة العمياء
١٣٥	٤ . تفاصيل حول مجازن بوتارليه
١٤٠	٥ . سكون
١٤٧	٦ . جان فالجان

١٥٤ . . . . .	٧ . أعماق القنوط
١٦٤ . . . . .	٨ . الموج والظل
١٦٧ . . . . .	٩ . مظالم جديدة
١٦٩ . . . . .	١٠ . الرجل يستيقظ
١٧٢ . . . . .	١١ . ما الذي ينط
١٧٧ . . . . .	١٢ . الاسقف بمل
١٨٢ . . . . .	١٣ . جبريه للصير

### الكتاب الثالث : في عام ١٨١٧

١٩٤ . . . . .	١ . سنة ١٨١٧
٢٠٦ . . . . .	٢ . رباعية مزدوجة
٢١٢ . . . . .	٣ . اربعة ازاء اربع
٢١٩ . . . . .	٤ . تولوميس مبتج الى درجة غمطه على انشاد اغنية اسبانية
٢٢٣ . . . . .	٥ . في حانة بومباردا
٢٢٧ . . . . .	٦ . فصل من محبة الذات
٢٢٩ . . . . .	٧ . حكمة تولوميس
٢٣٨ . . . . .	٨ . موت فرس
٢٤٣ . . . . .	٩ . نهاية الابتهاج البهجة

### الكتاب الرابع : الابداع يعتي التخلي احياناً

٢٤٨ . . . . .	١ . امّ تلتقي أمأ
٢٦١ . . . . .	٢ . رسم اعدادي اول لوجيون مبهمين
٢٦٤ . . . . .	٣ . القبرة

### الكتاب الخامس : الانحدار

٢٦٩ . . . . .	١ . قصة تحمين في صناعة الزجاج الاسود
٢٧١ . . . . .	٢ . مسيو مادلين
٢٧٦ . . . . .	٣ . اموال مودعة عند لافيت
٢٨٣ . . . . .	٤ . مسيو مادلين في ثياب الحداد
٢٨٦ . . . . .	٥ . بوارق غامضة في الاق
٢٩٣ . . . . .	٦ . الاب فوشلوفان
٢٩٨ . . . . .	٧ . فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس
٣٠٠ . . . . .	٨ . مدام فيكورتين تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق

- ٩ . نجاح مدام فيكتورين . . . . . ٣٠٤
- ١٠ . عاقبة النجاح . . . . . ٣٠٨
- ١١ . المسح هو غلصنا . . . . . ٣١٦
- ١٢ . بطالة مسيو باماتيوا . . . . . ٣١٧
- ١٣ . حل لبض مشكلات الشرطة البلدية . . . . . ٣٢١

### الكتاب السادس : جافير

- ١ . بداية الراحة . . . . . ٣٣٥
- ٢ . كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح « شان » . . . . . ٣٤١

### الكتاب السابع : قضية شامغاتيوا

- ١ . الاخت سيمبليس . . . . . ٣٥٤
- ٢ . ذكاه الملم سكوفلير . . . . . ٣٥٨
- ٣ . عاصفة في دماغ . . . . . ٣٦٥
- ٤ . اشكال يتخذها الذئاب خلال النوم . . . . . ٣٩١
- ٥ . عصي في الدواليب . . . . . ٣٩٦
- ٦ . الاخت سيمبليس تجرّب . . . . . ٤١٩
- ٧ . المسافر يصل وبعد البدة للرجوع . . . . . ٤٢٩
- ٨ . دخول بامتياز . . . . . ٤٣٦
- ٩ . موطن تكون فيه البيئات . . . . . ٤٤٠
- ١٠ . طراز الانكار . . . . . ٤٤٩
- ١١ . شامغاتيوا يزداد دعماً على دهش . . . . . ٤٥٩

### الكتاب الثامن : ضربة معاكسة

- ١ . بأية مرآة ينظر مسيو مادلين الى شعره . . . . . ٤٦٦
- ٢ . فانتين سيدة . . . . . ٤٧٠
- ٣ . جافير منشرح الصدر . . . . . ٤٧٥
- ٤ . السلطة تترد حقوقاً . . . . . ٤٨٠
- ٥ . قبر ملائم . . . . . ٤٨٦

انتهى المجلد الاول

وبليه المجلد الثاني